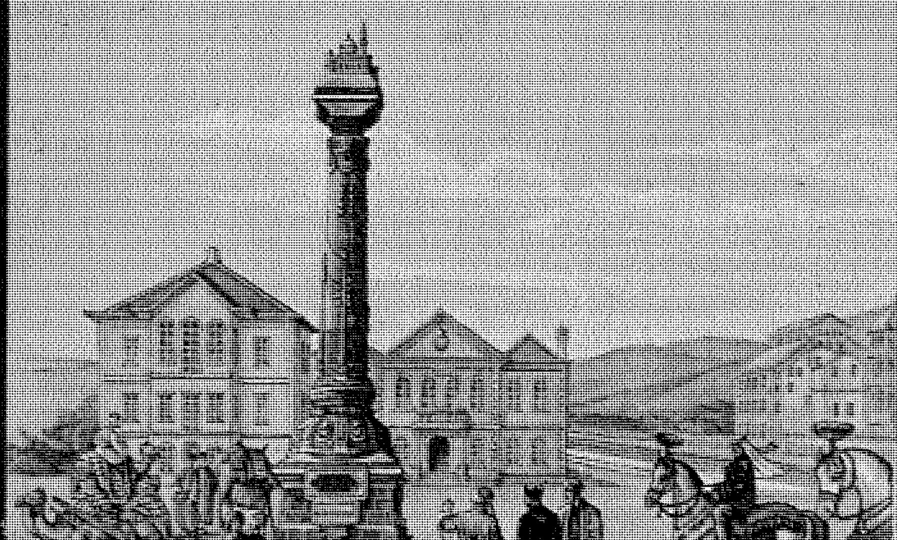
أحمد إسماعيل علي
ماجستير في التاريخ

تاريخ بلاد الشام

منذ ما قبل الميلاد حتى نهاية العصر الأموي

دراسة سياسية . اجتماعية . اقتصادية . فكرية . عسكرية



أحمد اسماعيل علي
ماجستير في التاريخ

تاريخ بلاد الشام

منذ ما قبل الميلاد حتى نهاية العصر الأموي

دراسة سياسية - اجتماعية اقتصادية - فكرية وعسكرية

الطبعة الثالثة

١٩٩٤

الكتاب : تاريخ بلاد الشام

المؤلف : أحمد اسماعيل علي

مطبعة : جوهرة الشام

الناشر : دار دمشق - دمشق - شارع بورسعيد - سوريا

فاكس : ٢٢١١٠٢٢

هاتف : ٢٢١١٤٨

ص . ب : ٥٣٧٢

- مقدمة -

التاريخ في اللغة يعني الإعلام بالوقت، وموضوعه الإنسان والزمان، أما مسائله[1] فهي أحوالها المفصلة للجزئيات، تحت دائرة الأحوال الموجودة للإنسان، أما فائدته فمعرفة الأمور على وجهها، ومن أجل فوائده إنه أحد الطرق التي يعلم بها النسخ في أحد الخبرين المتضادين المتعذر الجمع بينهما.

والمتطلع إلى صورة المدقق فيها يدرك بسهولة أن بلاد الشام هي روح العالم، وإليه تتجه أفئدة البشر بكل معتقداتهم الدينية.

إذن بلاد الشام قبلة العالم، ومحط أنظارهم، وهي أيضاً قلبه النابض منذ القديم (بحكم موقعه الممتاز المتوسط)، وهي ملتقى قارات العالم القديم، ومركزاً حيوياً من مراكزه المشعة بالحضارة والمعرفة.

إن بلاد الشام عبر التاريخ تحمل رسالة أخلاقية. فشعبها كما يذكر فليب حتي كان أول من نشر المبدأ القائل بأن خلق الإنسان كان على صورة الله، ونادى أيضاً بمبادىء الأخوة الإنسانية. وقد كان شعب بلاد الشام أول من وضع القيم الروحية في مقدمة العلاقات الإنسانية.

وإلى بلاد الشام يعود الفضل الأول بوجود الأبجدية وابتكارها، والتي بواسطتها دونت أعظم الآداب العالمية، هذا قبل الإسلام، وفيما بعد أصبح مثلا بعاصمتها دمشق قاعدة للأمبراطورية العربية الشهيرة التي إمتدت بفتوحاتها إلى اسبانيا وفرنسا غرباً، وإلى حدود

---

(١) السخاوي - الإعلام بالتوبيخ لمن ذم التاريخ - طبعة بيروت ١٩٧٩ ص: ٧.

الصين والهند شرقاً حيث كانت أمبراطوريتهم من حيث الاتساع والعطاء أفضل مما سبقها من الأمبراطوريات.

وبعد ذلك لا بد من القول: إن الذين تحدثوا عن تلك المنطقة من العالم، لم ينظروا إليها على أنها منطقة متميزة وهامة وقائمة بذاتها، لذلك يجب القول إن تاريخ بلاد الشام يعتبر مجالا واسعاً لقيام دراسات توضح الدور البارز الذي لعبته هذه البلاد عبر القرون.

وإن الشعب في هذه البلاد يجب أن يعيد اعتباره إلى نفوس أبنائه كما يجب أن يعيد مجده الغابر الذي كان مركز إشعاع حضاري قوامه العلم والعمل. ومركز انطلاقة للبشرية نحو مجتمع إنساني فاضل يملك القدرة والقوة لاسترداد حقوقه واسترجاعها من المعتدين عبر التاريخ، من المتطلعين للسيطرة على هذه البلاد واستيطانها. وبذلك يصبح من واجب أبناء البلاد، استرداد حقوق هذا الشعب، من قبل الشعب نفسه، وبمقدراته العسكرية والسياسية، دون الاعتماد على غيره.

كانت بلاد الشام وما زالت الجسر الوحيد لنقل التأثيرات الثقافية والحضارية، وهو الذي يربط الغرب بالشرق براً وبحراً وجواً. كما كان أيضاً مركز الصراع في العالم عبر التاريخ (ابتداء منذ ما قبل التاريخ إلى يومنا هذا).

وكانت بلاد الشام أيضاً ساحة حرب في زمن الحرب، وطريقاً إلى السلام والأمن والإستقرار الإقتصادي في زمن السلم. فبلاد الشام إذا ما قورنت بغيرها من بلدان العالم. لن تكون المقارنة مجدية إلى حد ما لأن بلاد الشام شاهدت مجموعة من المحاربين والفاتحين العالميين الذين كان لهم دور بارز في تاريخ البشرية، مثال، تحوتمس، نبوخذنصر، خالد بن الوليد، وصلاح الدين الأيوبي، وبيبرس - والإسكندر المقدوني، ونابليون وغيرهم. أما في مجال الأدب والفكر أمثال المتنبي، وأبو العلاء المعري، وأبو فراس الحمداني، والبحتري، وأبو تمام، وغيرهم كثير، لا يسمح المجال لذكرهم هنا.

إذن إن مركز بلاد الشام كان وما زال مبعثاً للنور وعليه تتكالب القوى المتصارعة في العالم جاهدة أن تطفىء هذا النور وتحيله إلى نار تحرق كل مخلوق وموجود على تراب هذا الوطن العظيم الكريم المعطاء.

إن حبي لبلاد الشام كان الدافع الرئيسي للبحث في تاريخه إنساناً، وزماناً، وتبرز رغبتي في تاريخ هذا البلد، وحبي له لكوني أحد أبنائه من جهة، وما يعانيه هذا الوطن في الوقت الحاضر، من الهجمات القاسية والضربات المؤلمة التي تحاول أن تقضي على شعبه.

يدفعني إلى ذلك تلك الحركة الإستيطانية القذرة التي أوجدها الاستعمار الحديث على جزء من أرضه.. فأصبحت المشكلة العالمية والقضية الرئيسة للعروبة وأبنائها.

إن قسماً كبيراً من بلاد الشام يلقى اليوم الغضب والاضطهاد والذل والمهانة، ويقع تحت ضغوط لا توصف من التعصب والحقد على أيدي النازية الجديدة المدعمة بالأمبريالية الأمريكية. وتشد على يدها الرجعية العربية مباركة لها أعمالها غير الإنسانية ضد بلاد الشام وشعب بلاد الشام.

لذلك فالعرب في بلاد الشام وخارجه أمة وقومية مطالبون بالعمل لإنقاذ أنفسهم من المحنة الظالمة وببعث هذه الأمة عربية واحدة ذات أمن واستقرار ذات رسالة إنسانية أخلاقية مبدعة خالدة مدى الحياة.

ودراسة بلاد الشام موضوع واسع متعدد الجوانب، لذلك عملت على دراسته في عدة أجزاء ويشتمل الجزء الأول منه على دراسة موجزة لتاريخ بلاد الشام قبل الإسلام، وحتى نهاية عصر الأمويين. ففي الباب الأول تمت دراسة حقبة ما قبل الإسلام، وفي باب آخر درست فيه تحرير هذه البلاد من السيطرة الرومانية بواسطة الجحافل العربية الأربعة التي وجهها الخليفة الراشدي الأول إلى بلاد الشام والتي كان يقودها أمين الأمة أبو عبيدة ابن الجراح.

ثم قمت بدراسة الأمويين السفيانيين منهم والمروانيين بالإضافة لدراسة الثورات التي خرجت على هذه الدولة وكان لها أثر تاريخي بارز في تلك الحقبة.

ثم تابعت دراسة الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية كل حالة على حدة وكانت نهاية المطاف ذكر أسباب انهيار الدولة الأموية.

ومن خلال دراستي لهذا الموضوع اعتمدت مجموعة من المصادر الرئيسة منها والثانوية بالإضافة لبعض المراجع إذ كان لبعضها قيمة هامة ودور رئيسي في الإعتماد عليه من حيث تخصصه، وكان لبعضها الآخر دور أقل أهمية من حيث التخصص. وهكذا تابعت هذه الدراسة وكلي أمل في أن تلقى الرغبة والفائدة أثراً في نفس القراء.

ذكرت أنني اعتمدت مجموعة من المصادر والمراجع الإسلامية ذات الثقة التي ما زالت تحمل في مضمونها صفحات مشرقة تقي للباحث طريق البحث الحر الموضوعي الهادف الأمين، كما أن الغاية من هذه الدراسة التأكيد على أن العرب أسسوا دولة حضارية قوية امتدت جذورها من حدود فرنسا غرباً الى الصين شرقاً.

وللتأكد على هذا الامتداد كانت جدارة العرب المسلمين نتيجة طبيعية لتعبئتهم العسكرية ، وتطبيقا لمفاهيمهم التكتيكية الهادفة لخدمة وتحقيق الاستراتيجية .

ان وجود تلك الدولة لم يكن مجرد صدفه كما يتصور بعض المؤرخين الذين أرخوا لتلك المرحلة من الزمان والتي ساد فيها العرب .

ورد على اولئك المؤرخين ما يمنع العرب المسلمين بدستورهم الجديد وبنظامهم الاجتماعي ايضا ، ان يصلوا الى ما وصلوا اليه ، اليست الانسانية صفاتهم الأساسية ، وقد تجلت للعالم من خلال العلاقات والمداخلات التي حدثت نتيجة الفتوحات الاسلامية .

هذا من ناحية ومن ناحية ثانية الرد على سرعة الفتوحات الاسلامية أفليست السرعة والمعنويات والانتصار من نتائج الاشتباكات سواء منها الاسلامية ام المعاصرة للدولة الاسلامية ، أو لا أنها اشتباكات عربية لدولة ناشئة حديثة العهد لا يمكن أن تحقق نتائج الاشتباكات .

ان قضاء الدولة الناشئة على الامبراطورية الفارسية وعظمتها لم يكن نتيجة انهيار الاخيرة وضعفها كما يحدثنا بعض المؤرخين ، كما ان مواجهة الدولة العربية الاسلامية للإمبراطورية البيزنطية ذات الامكانيات الحضارية الواسعة وصاحبة القدرة العسكرية المتفوقة ، لم يكن نتيجة ضعفها ايضا .

الم يدرك هؤلاء المؤرخون أن الدولة العربية الاسلامية بتعبئتها السليمة والصحيحة وبدستورها القويم وباستراتيجيتها العادلة كانت قد عبأت نفسها سياسيا وعسكريا واقتصاديا واجتماعيا لكي تقف امام اقوى قوتين في تلك المرحلة وفي وقت واحد ، كما رأينا فهناك جبهة في الشرق (العراق ضد الفرس) ، وجبهة اخرى في بلاد الشام ضد بيزنطة ، كان ذلك نتيجة طبيعية لقوله تعالى (واعدوا لهم ما استطعتم من قوة) .

فاذا لم تعتمد الجيوش الاسلامية في كلا الجبهتين على السرعة والاندفاع المدروس والمخطط لكي تصل الى هدف الاشتباكات ، فماذا تعتمد ومن ناحية أخرى ان ضعف الامبراطورية البيزنطية لم يكن قد وصل لمرحلة الانهيار حتى لا تعطي سرعة الجيوش العربية الاسلامية أهمية تكتيكية ، فالامبراطورية البيزنطية بقيت تقاوم وتقاوم العرب المسلمين في صراع مستمر بين مد وجزر حتى قضى عليها العثمانيون .

والبحث في هذا الموضوع يبدو لي مفيدا جدا ، مما دفعني كي ابذل اقصى جهدي وطاقتي للوصول بتلك الدراسة الى حيث الوجود شكلا ومضمونا ، لقد تقصيت الحقائق من الكتب ، معتمدا فيها على النصوص

التي ادخلتها في صلب الرسالة كي تكون شاهداً وعوناً لي على توضيح الفكرة وادائها وموضوعيتها آملا من هذا الجهد أن يحقق الهدف ، وهي كما ذكرت قد فتحت الباب لي ولغيري من الباحثين كي يطرقوها ، علنا جميعا نصل بجهدنا الى ما غمض منها ، وايضاحه ، وايصاله الى القارىء.

واخيرا كل مخلوف له نهاية :

فيونس لم يبق في جوف الحوت ابدا انما عاد الى الساحل كما كان ، لكنه صبر فظفر .

كما أن أهل الكهف رغم سباتهم العميق والطويل استيقظوا ودخلوا المدينة ، وهم ايضا صبروا فظفروا .

(وما وراء الظلمة إلا النور ، فظلمة الجاهلية أعقبها نور الاسلام وضياؤه ، وظلمة العصور الوسطى من تاريخ الأمة العربية ومن التاريخ المعاصر سيعقبها تجديد في حياة هذه الأمة ومكانتها بين دول العالم .

(وعندما نبحث عن ذلك يجب أن لا نتطلع الى الماضي ونطالب بعودته ، دون التطلع الى الحاضر وبما يتناسب مع المستقبل ، لأن ما كان يتناسب مع أجدادنا في مجدهم ، لا يتناسب نفسه مع زماننا ، ومكانتنا ، فالقول المأثور (علموا اولادكم السباحة والرماية وركوب الخيل) يجب أن ندركه على النحو التالي :

ان هذا القول يجب أن يجلب انتباها ونتطلع اليه على الشكل التالي حيث على امتنا ان تعلم ابناءها ركوب البحر بأفضل ما توصل اليه العلم ، اذ يجب ان نعبىء الغواصة ، ونركب السفينة ، كما يجب على هذه الأمة أن تعلم ابناءها الرماية باستخدام مختلف الأسلحة الحديثة ، والمتناسبة مع هذا الزمان والمكان ، ويجب أن تعلّم الأمة ابناءها ركوب الجو بآخر ما توصل اليه العلم ، واستخدام الأسلحة الجوية ، وتعبئتها استعداد للدفاع عن النفس والوطن .

واخيرا لعل هـذا التعقيب سيساهم في الدعوة لكل عربي وذلك بجعل التفكير العلمي والأخلاقي قوام ممارسته اليومية ، كائناً من كان ، منطلقا من مبـدأ الدين لله والوطن للجميع ، وما نحن الا مـن عبيد الله وخلقه ، هو يهدي وهو يحاسب ، ولا فضل لأي كان على الآخر ، الا بممارسته الصحيحة والأخلاقية .

١٩٨٢/١١/٢٨

احمد علي اسماعيل علي

المدخل

المدلول التاريخي لكلمة العرب

أولا: قبل الإسلام

نطلق لفظ العرب اليوم على سكان الوطن العربي، الذين يكتبون ويؤلفون، وينشرون ويخاطبون بوسائل الإعلام بلغة واحدة هي لغة العرب، أو لغة الضاد، لأنها اللغة الوحيدة بين اللغات التي تستخدم هذا الحرف دون سواها، وهي اللغة التي نزل بها القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿إنا أنزلناه قرآناً عربياً﴾[1] ﴿وهذا لسان عربي مبين﴾[2] لذلك فهي كمصطلح، تطلق لمعنى جنسية، قومية تتصف بسمات وعلامات، وبتفكير يربط الحاضر بالماضي وبالعكس مع تطلع إلى المستقبل المشرق لذلك المصطلح.

ويذهب بعض علماء العربية في تحديد أول من نطق بالعربية، فيقولون أن يعرب هو أول من نطق بها لذلك نسبت إليه، والقحطانيون هم أصحاب هذا الرأي، ثم يذهب فريق آخر إلى أن إسماعيل بن إبراهيم الخليل هو أول من نطق بها، والعدنانيون هم أصحاب هذا الرأي، ومهما يكن فالعربية أصل لهجة قريش، وبها نزل القرآن الكريم، ثم امتدت إلى كل المناطق التي سيطر عليها العرب، بأصولها وما قحطان وعدنان إلا نسب واحد كلاهما عربيان من أصل عربي.

وقد تتبع المستشرقون معناها في كل المراحل التي سبقت الإسلام، فوجدوا أن هذه اللفظة أول ما وردت بنص آشوري في عهد شالمنصر الثالث سنة ٨٥٣ ق.م، حيث أشير في إحدى الوثائق الآشورية إلى أحد زعماء العرب، واسمه الملك - جنديبوا العربي، الذي

---

(١) سورة يوسف رقم الآية ١٢:
(٢) سورة النحل رقم الآية ١٠٣.

ناصر – بيرايدري الدمشقي ضد شالمنصر في موقعة كركر، ووردت أيضاً في الكتابات البابلية لفظة ماتواربي، وهذه الكلمة مركبة من – ماتوا – وتعني أرض – أربي وتعني عرب، أي أنها تعني أرض العرب أو بلاد العرب.

كما وردت في النصوص الفارسية المكتوبة باللغة الإخينية في كتاب موجه لدار الكبير (داريوس) لفظة أربايه – عرباية – وردت أيضاً في نصوص اللغة العيلامية لهجة أهل السوس بنفس المعنى. لقد كانت الكلمة التي وردت عند الآشوريين – البابليين الفرس تشمل المنطقة التي تمتد غربي الفرات إلى تخوم بلاد الشام، لكن هناك نصوص فارسية تضيف سيناء الى هذا الامتداد، لأن قبائل عربية عاشت فيها قبل الميلاد، أما في التوراة فوردت كلمة العرب بكثرة، ففي الإصحاح الخامس والعشرين من سفر آرميا (وكل ملوك العرب)[1] فكلمة العرب هنا تدل على أمة دولة قومية تتكلم لغة واحدة، لا كما يذكر بعض الكتاب حول تفسير هذه الكلمة من أنها تعني البداوة، لماذا التصق في ذهن بعض المفكرين أن كلمة العرب تعني البداوة أينما كانت خلافاً لما تعنيه عند أي أمة قديمة، ففي الإصحاح السابق عندما ذكرت، (وكل ملوك العرب) لماذا لا تعني لو قيل ملوك الروم هنا البداوة؟، لماذا يدافع عنها على أنها لقومية، أو لأمة، ولا تكون عندهم تفسهم ملوك العرب كلمة العرب نفس المعنى.

وهناك فرق ما بين هذه اللفظة (العرب) في الإصحاح الماضي – كل ملوك العرب، واللفظة إعرابي في الإصحاح الثالث من سفر أرميا نفسه (في الطرقات جلست لهم كأعرابي في البرية)[2] بحيث تدل اللفظة الأولى على معنى جنس أمة قومية، لأن كلمة ملوك العرب كانت تشمل العرب الحضر المستقرين إلى جانب العرب البدو، في الوقت الذي تشير إليه اللفظة الثانية (إعرابي) على البداوة بكل ما تعنيه من معاني بدوية أيضاً. كما أن كلمة الوعر الواردة الذكر في الإصحاح الحادي والعشرين من سفر أشعيا. (في حي من جهة بلاد العرب في الوعر في بلاد العرب تبيتن يا قوافل الددانيين)[3].

فكيف لبعض المفكرين أن يعطوها معنى البادية؟، وكيف اقترنت الوعر ببلاد العرب، كيف لا تكون كلمة العرب بعد كلمة بلاد تعني جنسية؟، وكلمة وعر تعني في

---

(١) التوراة – الإصحاح الخامس والعشرون الآية ٢٤.
(٢) التوراة – الإصحاح الثالث الآية الثانية.
(٣) المرجع نفسه – الإصحاح الحادي والعشرين الآية ١٣.

اللغة المكان ذو الوعورة؟ - إذن كلمة وعر هنا في هذه الآية تعني مكان، وقد تعني طريق أو جبل أو أي شيء مضاد للسهل

إذن لماذا أعطيت في هذا المكان معنى البادية، علماً أن المكان الجدود لبلاد العرب هو منطقة سهلية أكثر منها جبلية؟، وهذه المنطقة قليلة الوعورة إذا ما قيست ببلدان بعضهم فهي أقل وعورة من جبال الألب - وهمالايا - والأورال وغيرها من مناطق متعددة في العالم تحمل إسم جنس وقومية، يضاف لذلك، أن هذا المنطقة أشيد عليها حضارات ما زالت آثارها ماثلة إلى الآن - من ما ورد - لماذا لا تعني كلمة بلاد العرب في الآية السابقة بعد كلمة الوعر معنى الأمة أو القومية، في حين أنها مكررة في المرة الأولى في بلاد العرب؟، ثم قال في الوعر في بلاد العرب. لماذا عطفت الثانية على الأولى بعد أن وصفت بالوعورة؟. ان هذا العطف ما هو إلا تأكيد على أنها تعني معنى الأمة أكثر ما تعنيه بالبادية.

إذن كلمة العرب - أرض العرب ملوك العرب لا تعني أحياناً إلا دولة أو جنساً بمعانيها السياسية والحقوقية، وأحياناً أخرى تعني وطن العرب، كما تعني في أماكن أخرى حكام العرب.

أما لفظ العرب عند اليونان والرومان فتعني آمة، كما تعني عند بلاد الفرنسيين وما شابهها. فها هو هيرودوتس يذكر أن أرض العرب تمتد من جزيرة العرب، وامتدادها الى الفرات، ثم بلاد الشام وسيناء، ويذكر المؤرخون أن هناك كتابات شمالية سبقت العصر الجاهلي، مثل النص الذي يتحدث عن امرىء القيس بن عمرو ملك العرب يذكر النص.

(امرؤ القيس بن عمرو، ملك العرب كله ذو أسر التسج وملك الأسدين ونزروا وملوكهم وهرب مذحجو)(١)

إن عبارة ملك العرب تعني العرب بدو وحضر، دليل ذلك تعميمه، ثم إن القبائل المذكورة لم تكن كلها قبائل بدوية كما يتصورها بعضهم، وإنما كان بعضها الآخر مستقر يعيش على التجارة والزراعة وبعض الصناعات اليدوية مثل صناعة السيوف. دليل ذلك أنهم كانوا يشكلون دولة بمعنى أمة وبمعنى القومية أي أنهم من جنس واحد.

أما في الجنوب فلا داعي لذكر نصوص لتأكيد ما ورد، وإنما يكفي ذكر بعض المماليك

---

(١) جواد علي - المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام - طبعة بيروت ١٩٧٦ - ج ١ ص: ٢٣.

العربية القديمة التي لم تكن بدوية، وإنما كانت مستقرة متحضرة مثل مملكة سبأ - همدان - وهنا أخالف كل المفكرين الذين يدعون أن اللفظة تدل على بدو متنقلين أصحاب خيم، إنما تدل على أنها كما ذكرت أمة ذات حضارة مستقرة قدمت للبشرية بعض التطور مثل سد مأرب في اليمن دليل اعتمادهم على الزراعة واستقرارهم.

ثم ألا تؤكد معركة ذي قار[1] سنة ٦١١م المعركة العربية الظافرة التي جمعت شمل العرب ووحدت صفوفهم ضد الفرس معنى ذلك مهما فسرت كتأكيد آخر للفظة العرب قبل الإسلام، وهذا رد كما أتصور على بعض المؤرخين أمثال (د-هـ-ملر) الذين يدعون أن القرآن الكريم هو الذي خصص الكلمة، وهو الذي حددها لقومية تشمل كل العرب كرد أخير على هؤلاء كيف للقرآن الكريم أن يخاطب قوماً بهذا المعنى إذا لم يكن لهم مفهوم هذه الكلمة الذي للقومية دليل ذلك كما ذكرت سابقاً.

وهذا دليل على أن اللغة العربية أحد المقومات الرئيسة لهذه الأمة التي انتصرت في معركة ذي قار فالعرب أمة واحدة قبل الإسلام، وما انتشار لهجات عربية، وخاصة في الجنوب، إلا أن هذه اللهجات كانت عربية المنشأ والأصل، لكن لهجة قريش هي الأصفى، لذلك وحدت اللهجة بواسطة القرآن بقية هذه اللهجات، ويكفي أن نعود الى الشعراء العرب ونسبهم وأماكن إقامتهم في العصر الجاهلي وأدبهم ولغتهم لكي يؤكد ذلك.

ثم يجب أن نؤكد بعض المظاهر الأخرى للأمة العربية قبل الإسلام، كالحس القبلي الذي كان قوياً، ذلك الحس الذي يعتبر أساساً لحماية الفرد في مجتمع القبيلة الذي يدفع الأذى والعدوان عن أفراد هذا المجتمع الذي يرتبطون به برابط الإخلاص والولاء.

وهذا الإخلاص والولاء يعتبر من أشكال الوعي القومي الذي يؤكد كيانهم وشعورهم كمثل حملة أبرهة الحبشي ضد مكة قبل الإسلام، تلك الحملة التي أثارت المشاعر عند العرب على أرضهم ووحدتهم ضد ذلك الخطر المحدق، وسبب ذلك في انهيار الأحباش وخسارتهم، يضاف للحس القبلي ذلك الأثر الفعال في وحدة العرب، وأحد مظاهر وعيهم الذي ترك أثراً لا يمحى في النفوس كالأسواق الأدبية والإقتصادية كسوق عكاظ - وسوق المجنة - وذي المجاز.

---

(١) محمد أحمد جاد المولى - علي محمد البجاري - محمد أبو الفضل إبراهيم - أيام العرب في الجاهلية - طبعة بيروت ١٩٦١ ص: ٦.

حيث لم يكن عمل هذه الأسواق مقصوراً على التجارة، بل كانت بمثابة مؤتمرات ثقافية للعرب، أي أنها كانت تشبه الأعياد الأولمبية لدى اليونان القدماء، ففي هذه الأسواق كانت تنشد القصائد ويخطب الخطباء والوفود، تستمع لهذا النتاج الأدبي الرائع، لقد كانت هذه الأسواق أشبه بمباراة ومنافسة بين العرب، فكل ما كان يجري في هذه الأسواق كان على أساس اللغة العربية تلك اللغة الموحدة للعرب لغة يفهمها العامة والخاصة، وعندما كانت الوفود تعود الى مناطقها، كانت تنشر ما سمعته، أي أنها كانت بمثابة وسائل الإعلام في الوقت الحاضر. أن هذه اللغة وحدت شعورهم بكيانهم، وميزتهم عن غيرهم من الأمم.

يضاف إلى هذه الأسواق تلك الرحلات التجارية الموجهة الى الشام واليمن دليل على وحدة العرب سلوكياً وروحياً على أنهم أمة واحدة قبل الإسلام، وأنهم كانوا يؤلفون مجتمعاً واحداً لأن فعاليته كانت تتلاقى في المهرجانات الأدبية والطقوس الدينية التي كانت تجعل العرب يجتمعون إلى أماكنهم المقدسة مثل الكعبة، وعدم الإعتداء والقتال في الأشهر الحرم، ثم بعض القيم المشتركة كالمروءة، والشجاعة، والكرم، والوفاء - كل ذلك يؤكد وحدة العرب في مظاهر تقدمية مشتركة.

ثانياً: بعد الإسلام

ذكرنا أن القرآن قد نزل بلغة عربية واضحة، ووحد اللهجات المنتشرة في المنطقة العربية ووحدة اللغة هذه ساعدت على تكوين الدولة العربية بزعامة النبي العربي القائد العظيم محمد بن عبد الله ﷺ الذي استطاع بقدرة فائقة صياغة الأمة العربية في شخصية ذات لغة واحدة، وثقافة واحدة ونمط من الحياة واحد.

لقد استطاع هذا القائد الإنسان أن يحدد استراتيجية الدولة التي ينشدها عرفها وعرف مضمونها، حدد هدفه، عرف ماذا يريد، وماذا يطرح، لقد طرح عقيدة إسلامية واضحة، لكن ما أصل الذي طرح هذه العقيدة؟ إنه النبي العربي الأمي ﷺ إذن قائد هذه الدولة، وواضع استراتيجيتها، وعقيدتها عربي، ثم كيف امتدت هذه الدولة وانتشرت؟ ألم تكن كل الغزوات في عصر الرسول وعناصرها عرب؟ ألم يكن جيش أسامة ابن زيد عربي؟، ألم تكن الجيوش التي وجهها الخليفة الراشدي الأول إلى بلاد الشام ثم إلى العراق كلها عربية؟ ألم تكن كلها أمة واحدة هي أمة العرب؟.

ألم يحارب أبناء هذه الأمة بعضهم مع بعض ضد الدولة البيزنطية والفارسية؟ ثم ألم يكن كل الخلفاء بعد الرسول عرب اقحاح هل يشك في نسب أحدهم، ثم ألم يكن كل الولاة وكل القضاة من العرب حتى سقوط الدولة الأموية، ألم تكن كما ذكرنا اللغة واحدة هي لغة العرب، ألم تكن لتلك الأمة المذكورة قبل الإسلام وبعده عادات وتقاليد مشتركة، ثم ألم تتكون ثقافة مشتركة لتلك الأمة، كل ذلك يدعو للتساؤل، لماذا ينكر المؤرخون على تلك الدولة عروبتها، علماً أن هذه العروبة هي الأصل هي الأساس أن أكثر المؤرخين وخاصة المستشرقون وهؤلاء المعتمدين على بعض كتب التراث لتلك المرحلة على أنها تاريخ لمرحلة إسلامية حيناً وعلى اللفظ التاريخي حيناً آخر.

لماذا لم يكن تدوين التاريخ لتلك المرحلة للعرب كجنس وقومية دون سواهم، علماً أن تلك الدولة قامت ومن ضمنها مسلمين وغير مسلمين دليل ذلك التسامح في الفتوحات العربية التي طرحت قبل كل قتال إما الدخول في الإسلام أو الجزية، فالجزية هذه كانت تبقي شعوب ومناطق بكاملها على عاداتها وعلى تقاليدها وعلى دينها، ثم ألم يحارب عرب الحيرة المسلمون إلى جانب عرب الحيرة النصارى ضد الفرس، كما حارب عرب الغساسنة إلى جانب عرب الجزيرة ضد بيزنطة، كانوا يحاربون معاً بدافع الإنتماء العربي يحاربون معاً نتيجة شعورهم بوحدة الأمة وشخصيتها. لماذا لم يؤرخ للدولة الرومانية على أنها الأمة المسيحية بعد المسيح، ولماذا أؤرخ للدولة العربية على أنها إسلامية وسقطت عنها صفة العروبة عند بعض المؤرخين، ومنهم مؤرخين لتراثنا ماذا ينقص تاريخ هذه الدولة لو أعطوها صفة العروبة.

إن أكثر تراثنا الموجود بين أيدينا لا يحتوي على ذكر الدولة العربية تلك الدولة التي قدمت للعالم حضارة ما زالت شعلة تهدي لمستقبل عالمي مشرق.

إذن نحن عرب أولاً وأخيراً وقبل أي شيء آخر يجب أن نبعث أمجادنا العربية، يجب أن نعيد تراثنا عربياً أصيلاً أولاً وأخيراً، لأن التراث كان وما زال في بعضه يدعو إلى حالات خطرة على الدولة وبشكل دائم هذه الحالات تكمن:

أولاً: في إنكار صفة العروبة عن هذه الدولة ذات الحضارة المتطورة خلال عصورها المتعاقبة، إنما أرخ بعضهم لها على أنها إسلامية متجاوزين عروبتها.

ثانياً: ثم إن التأريخ لتلك المرحلة على أنه إسلامي دليل واضح وتخطيط لتمزيق الأمة في مختلف المجالات السياسية والطائفية والإقتصادية والإجتماعية، حيث يؤكد ذلك استغلال

أعداء القومية العربية لذلك قديماً، وحتى حديثاً ومحاولة الإستعمار أيضاً القديم والحديث تكريس ذلك.

ثالثاً: محاولة بعض المستشرقين الإستمرار في تدوين التاريخ على تلك الطريقة معتمدين على ذلك التراث وتلك الطريقة التي تبقي على خلفياته وسلبياته غايتهم بقاء الأمة في تناحر وصراع دائم في تخلف وجهل وفقر مستمر تمكّن الاستعمار من السيطرة على هذه الأرض الغنية. وكوننا عرب أولاً، يؤكده الله تعالى عندما أنزل القرآن بلغة العرب ويؤكده النبي محمد ﷺ ونسبة العربي الأصيل كما يؤكده نسب الخلفاء النسب القرشي.

إن الصدام بين العرب والروم من جهة، وما بين العرب والفرس من جهة أخرى، حدد أبعاد الوطن العربي وزاد في تماسك أبنائه وتحول فيه ولاء الفرد في المجتمع القبلي المنظم الى الدولة الواحدة المنظمة وأدى تطور هذه الدولة وبشكل واضح إلى ظهور الإنتماء الى الجنس العربي وكان ذلك واضحاً في الدولة العربية الأموية التي وصلت إلى مرحلة متطورة، فارتفع الشعور العربي بالسيادة الى درجة متقدمة وقد كانت سياسة العرب الأمويين عربية تجلت في تعيين مناصب الولاة والقضاة من أصل عربي كما تم في العهد الأموي وعلى الأخص عهد عبد الملك ابن مروان تعريب الدواوين[1] في الشام من الرومية الى العربية كما تم تعريبها في العراق وخراسان من الفارسية الى العربية، وفي مصر من القبطية إلى العربية، بذلك تخلت الدولة العربية عن الكتاب الأعاجم وأصبحت سيادتها إدارتها عربية صرفة كما تم ولأول مرة في تاريخ هذه الدولة وفي عهد عبد الملك بن مروان ضرب دراهم ودنانير عربية، واستقل بذلك اقتصاد الدولة، وألغيت تبعيتها للنقد واللغة الأجنبية.

انتهت الدولة الأموية العربية ووجدت الدولة العربية العباسية ورغم السيطرة عليها منذ البداية تمثلت هذه السيطرة بالعنصر الخرساني الذي كان يقوده أبو مسلم لكن هذه السيطرة كانت تتعرض بين فترة وأخرى، لعواصف تكاد تقضي عليها، وتظهر هذه العواصف عند بعض الخلفاء - أمثال المنصور الذي لم يكن يرى أن من مصلحته ومصلحة أهل بيته أن تظل كفة أهل خراسان راجحة لذلك وأمام هذا الواقع اصطنع من رجالات

---

(١) ابن الأثير - عز الدين أبي الحسن على بن أبي الكرم محمد بن محمد عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني. الكامل في التاريخ - طبعة بيروت ١٩٦٥ ج ٤ ص: ٥٢٢.

العرب ووكل إليهم قيادة الدولة وخاصة الجيوش العربية أمثال عيسى بن زائدة الشيباني - عمرو بن العلا.

كما تم التخلص من أبو مسلم الخراساني. ثم المتوكل الذي أحس بتوغل الأتراك في الدولة واستبدادهم بالخلافة وإدارتها وجيشها لذلك عمل على أضعاف شوكتهم والتقليل من نفوذهم فعمل على قتل أحد القواد منهم وهو إيتاخ، لكن سيادة سيطرتهم ونهايته ساعدت على تماديهم وزيادة فسادهم. أن وجود الدولة العباسية على أنقاض الدولة الأموية جاء نتيجة التعصب الجاهلي الأموي للعرب ونسبهم ضد كل أعجمي ثم جاء نتيجة تسلطهم وقسوتهم وعدم إقامة العدل في حكمهم.

لكن رغم عوامل انتصار الدعوة العباسية واستغلال الأعاجم لها في كافة الاتجاهات والسيطرة عليها فيا بعد فقد بقي رأس الدولة عربياً كما بقيت إدارتها عربية رغم أن أكثر الولاة والقضاة إذا لم نقل بجملهم كانو من الفرس أو الأتراك الذين تمكنوا في النهاية من التنكيل بالعرب وبحضارة العرب ثم بعد ذلك خيمت عليهم انتكاسة أغرقت العروبة في سبات عميق دام عدة قرون انقطعت بها حياة العرب القومية عن استمرارها حتى مرحلة اليقظة العربية القومية الحديثة.

أصل اللغة السامية

يلاحظ المتفحص للشعوب السامية[1] أوجه شبه واضحة تبرز في أمور أصلية وأساسية في اللغة كجذور الأفعال - تصريف الأفعال - التام والناقص. في أصول المفردات والضمائر والأسماء الدالة على القرابة الدموية. بعض أسماء أعضاء الجسم الرئيسة وفي الأعداد. في تغيير الحركات وسط الكلمات، بحيث يحدث فيها تغيير في المعنى، وفي التعابير التي تدل على منظمات الدولة والمجتمع والدين، والسامية كتسمية مأخوذة من التوراة[2]، ومن اسم سام بن نوح وأول من أطلق هذه التسمية على هذه الشعوب العالم (أوغست لودويك شلوستر) عام ١٧٨١ م. وعمت في العالم بهذا المصطلح منذ ذلك الحين!

---

(١) البابلية - الكنعانية - الفينيقية - الأرامية - العربية - الحبشية - المعينية - واللهجات - العربية الجنوبية.

(٢) سفر التكوين الإصحاح العاشر.

وفي عام ١٨٦٩ قسم العلماء اللغة السامية الى مجموعتين. المجموعة السامية الشمالية، وتتألف من العبرانية والفينيقية والأرامية والآشورية والبابلية والكنعانية. المجموعة السامية الجنوبية، وتتألف من الحبشية والعربية بلهجاتها، ولا يستند التقسيم، والقرابة الواردة في التوراة إلى أسس علمية صحيحة إنما وضعت وفق اعتبارات سياسية وعاطفية.

وقد قسم العلماء المحدثون اللغات السامية الى أربع مجموعات.

- المجموعة السامية الشرقية ومنها البابلية والآشورية. المجموعة السامية الشمالية ومنها الأمورية والآرامية. المجموعة السامية الغربية ومنها الكنعانية والعبرية والمؤابية والفينيقية. المجموعة السامية الجنوبية ومنها المعينية والسبئية والأثيوبية، والعربية والأمهرية.

ويلاحظ المتطلع لهذا التقسيم أن أصحابه لم يراعوا في وضعه التطورات التاريخية لهذه اللغات، بل جاء تقسيمهم هذا على المواقع الجغرافية لتلك الشعوب. ويجب أن نذكر هنا أن السامية لا تعتبر جنساً له خصائص جسمية، وملامح خاصة تميزه عن الأجناس الأخرى، فالتمايز والتباين في الملامح، وفي العلامات الفارقة بين الساميين واضح، ويمكن أن يوجد ذلك التباين في الشعب الواحد سواء في الملامح والمظاهر الجسمية. وما ذلك إلا نتيجة الاختلاط وامتزاج الدماء.

إن الاختلاط وامتزاج الدماء خبرة عاشتها البشرية منذ بدء الخلق فكيف للباحثين أن يجردوا الساميين من أصلهم؟ فالدراسات والبحوث التي وصلت إلى هذه النتائج العلمية ما هي إلا وليدة الحاضر وقد وجدت عملية الاختلاط بين الشعوب منذ وجود الإنسان على الأرض وقد أدت عملية الاختلاط وتطورها مع الزمن إلى امتزاج الدماء بين هذه الشعوب فمثلا اختلط الرومان واليونان والفرس والعرب بعضهم ببعض وبالعالم كله خلال عصور متتابعة وهذه حقيقة تاريخية لا جدال فيها فقد نتج عن هذا الاختلاط مزج للدماء وهذا أيضاً حقيقة تاريخية وعلمية.

ذكرنا أن اللغات السامية تشترك في أمور أصلية وأساسية: في جوهر اللغة كجذور الأفعال .وأصول التصريف، (تصريف الأفعال)، كما تشترك في زمني الفعل الرئيسيين، التام - والناقص أو الماضي والمستقبل وفي أصول المفردات والضمائر والأعداد، وأسس النحو والصرف وما شابه ذلك، وكل ذلك يدفعنا للتفكير بأن هذه اللغات تفرعت من أصل واحد هي اللغة الأم للساميين. وللوصول الى حقيقة ما ورد يندفع الباحث متعمقاً في بحثه

للعثور على أقدم النصوص المدونة باللغات السامية، والوقوف على الخصائص الأساسية المشتركة بين كل هذه اللغات.

وللأسف نقول: بأن المستشرقين وحدهم هم الباحثون في هذا المجال ولا يزالون يتابعون البحث، لذلك جاءت بحوثهم مختلفة على الشكل التالي: فريق منهم يرى أن العبرية هي أقدم اللغات السامية، وأقربها عهداً، ويرى فريق آخر أن القدم للآشورية أو البابلية، أما الفريق الثالث فيقول: بأن العربية تحمل أصل السامية ومع ذلك فهم يعتبرونها حديثة العهد، إلا أنها تحمل جرثومة السامية من حيث اللغة، ويرى المستشرقون أن اللغة السامية القديمة، لم تكن إلا لغة محكية زال وجودها دون أن تترك أثراً، ويرون أيضاً أنه من الممكن للعلماء أن يهتدوا إلى لغات أخرى كانت صلة الوصل بين اللغات السامية القديمة والسامية المعروفة اليوم.

ويرى فريق من المستشرقين بأن اللغة العربية هي أنسب اللغات الباقية للدراسة بالرغم من حداثة عهدها، وبالقياس الى اللغات السامية الأخرى، كما أنها أكثر ملاءمة للبحث لعوامل أهمها:

- لم تتصل اللغة العربية باللغات الأعجمية قبل الإسلام، لذلك فقد بقيت في موطنها معزولة صافية إذا ما قيست بغيرها من اللغات.
- حافظت هذه اللغة على خواص السامية القديمة مثل المحافظة على حياة البداوة.

أما العلماء العرب، فقد بحثوا في موضوع اللغة السامية أي لغة سام بن نوح بل ذهبوا لأبعد من ذلك فقالوا: بأن العربية هي لغة آدم أبي البشر، كما أنها لغة أهل الجنة بالإضافة إلى أنها اللسان الأول،غير أنها حرفت ومسخت مع الزمن فظهرت منها لغات أخرى، وهذه النظرية استمدها العرب من أهل الكتاب.

ويمكن الاعتماد على ذلك إذا أخذنا بعين الإعتبار أن الوحي منزل من عند الله على النبي العربي العظيم محمد ﷺ، وذلك باللغة العربية الفصيحة التي تتكلمها، وهذه لغة أهل الجنة الذين يتكلمون العربية الفصحى بأفضل أشكالها وصورها. وهذا تأكيد على نظرية قدم اللغة العربية أصل اللغات السامية. علماً أن القرآن الكريم ببلاغته ومفرداته أعجز المفكرين، وعلماء اللغة عن الوصول إلى جوهره من حيث اللغة، ومن حيث إحداث أحكام ثابتة عند كل شعوب العالم حتى الآن.

اللغة يعرفها بعض المفكرين بأنها نظام عرفي لرموز صوتية يستغلها الناس في الاتصال

بعضهم ببعض. فالعربية لغة مشتركة قبل الإسلام بواسطتها نظم الشعراء الشعر، وبها خطب الخطباء وكتبت الرسائل والوصايا. ساعد على تبلور هذه اللغة واستقرارها العامل الإقتصادي من جهة، والفكري من جهة أخرى، وعندما نزل القرآن بهذه اللغة عظم شأنها، وأكد لها الخلود الذي وعد به الله تعالى بقوله: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾.

إلا أن استقرار الفتوحات واتصال العرب بغيرهم من أقوام شتى لهم لسان غير لسانهم صعب عليهم التفاهم معهم، لذلك عاد العرب إلى إحساسهم بلغتهم التي تميزهم عن غيرهم، فقوى اعتزازهم بها، واشتد تمسكهم بكل خصائصها، وقوى شعورهم بعروبتهم وأكد ذلك تعريبهم الدواوين، حتى أضحت الدولة الأموية عربية أولا وإسلامية ثانياً، وأوضح الأدلة على ذلك أن شاعر الدولة الرسمي كان الأخطل، وهو عربي غير مسلم، وذلك لسيطرته على اللغة العربية وقواعد ضبطها، وبدأت النظرة فيها للمسلمين من غير العرب على أنهم موالي، حيث لم يكن هذا اللقب عندهم يدل على أنهم أدنى منهم منزلة وكانوا ينظروا لهم على أنهم أخوة في الدين وأنصاره في الإسلام يؤكد ذلك تولية طارق بن زياد قيادة جيش عربي في فتح الأندلس.

لكن انتشار الإسلام وامتداده وإقبال الناس عليه بعد تعريب الدواوين، وخاصة من الفارسية أدى إلى ظهور صراع قومي، فالعرب ازداد شعورهم بقوميتهم بلغتهم على عكس الموالي الذين كانوا يشعرون بنقص، لعدم تمكنهم من تعلم اللغة العربية لغة القرآن بشكل متقن ودقيق.

أمام هذا الواقع حاولوا مسخ اللغة العربية، بتحريف العناصر الصوتية التي اختصت بها لغة العرب من جهة ووضع بعض الإنحرافات في الصيغ، وفي تراكيب الجمل، ثم التخلص تدريجياً من ظاهرة الإعراب، ومن الألفاظ والعبارات من جهة أخرى.

ثم إن الموالي كانوا يحاولون نظم الشعر العربي لكنهم كانوا يحرفونه ويبدلون بعض حروف بأخرى مثل الشاعر زياد الأعجم الذي جعل السين شين والطاء تاء فيقول في السلّطان الشلتان. وهذا الشاعر هو مولى - للمهلب بن أبي صفرة - حاكم خراسان، لكن كل ذلك لم يؤثر على العرب في لغتهم، ولا في صراعهم مع القوميات الأخرى.

إذن قبل نهاية العصر الأموي وبداية العصر العباسي شهدت الدولة العربية حركة شعوبية من وجهة النظر العربية، وقد تكون على الأرجح قومية بالنسبة للموالي فيما بعد،

واقتصرت هذه الحركة الشعوبية على المشرق لأن العرب هناك كانوا أشد اعتزازاً بلغتهم وأقوى تمسكاً بقواعدها من العرب في المغرب العربي.

وهكذا نجد أن الموالي وغيرهم عجزوا عن استخدام اللغة العربية أصولها ونظامها، لذلك شعروا بالعجز أمامها، فذهب بعضهم يكتب في مختلف المجالات، وعلى الأخص التاريخ فجاء بعضه كتراث إلينا يحتاج إلى إعادة، كما يحتاج إلى تدقيق ونقد، وإرجاعه إلى أصوله العربية. واتصال اللغة العربية مع بقية لغات الأمم الإسلامية ولد احتكاكاً بين هذه الأمم، كل ذلك أدى إلى انعزال كل جنس عن الآخر رغم اشتراكهم في الدين الإسلامي.

كما اتجه كل منها نحو الآخر يطعن فيه، معتمداً في ذلك اللغة للنيل منها وكانت حملة موجهة ضد اللغة العربية للنيل من مزاياها وخصائصها ولم يراعوا بذلك أنها لغة دينهم ولغة القرآن حتى أن بعض شعراء الموالي كانوا ينتحلون الشعر العربي، لإفساد آداب العرب، والانتقاص من لغتهم، لكن هذا الصراع انتهى لفترة، بانفصال الفرس وتأسيس الدولة الصفوية، كبداية ثم الساسانية في تلك المرحلة سميت اللغة العربية لغة الضاد لتميز العرب عن غيرهم.

إن نتيجة احتكاك العرب بغيرهم وشعورهم أن لهم لغة تباين لغة غيرهم أدى ذلك إلى اشتداد اعتزازهم وتمسكهم بها.

كان تأسيس البصرة والكوفة بعد اتساع رقعة الإسلام عاملاً جديداً، ومبدأ واسعاً لعقد ندوات أدبية جرياً منهم على عاداتهم السابقة. رغم أنها كانا معسكرين دائمين لجيوش العرب. في ذلك نلاحظ أن تيار الحركة الأدبية العربية أيام الدولة الأموية انتقل من الحجاز إلى العراق، ولم تكن بدمشق، ويعود ذلك إلى العوامل التالية:

١ - إما لأن الشام شغلت بالسياسة والملك وأهملت بذلك حركة الأدب.

٢ - أو أن بيئة الشام لم تكن صالحة لمثل تلك الحركة كالحجاز أو العراق لأن:

أ - بيئة العراق والحجاز أصفى وأصلح.

ب - أو قد تكون اللغة لم تستقر بعد في ربوع الشام.

جـ - أو أن صراع العربية في بيئة الشام مع اللغات الأخرى سبباً في ذلك.

وانتهى الصراع القومي وعلى رأسه الصراع اللغوي بين العربية واللغات الأخرى إلى

أن حددت بيئة اللغة العربية بحدود الوطن العربي الحالية واستقرارها في هذا الوطن أدى إلى استقرار العروبة التي توحد الشعور وتلم الشمل.

شهد القرن الثالث الهجري سيادة العربية ضمن حدودها الحالية من المحيط الى الخليج، زعامة أدبية، ومعها حركة علمية رائعة تمثلت في أدب الجاحظ، وابن قتيبة، يضاف إلى ذلك ما دونه المؤرخون أمثال البلاذري وابن جرير الطبري، ثم أثار الأئمة أصحاب الحديث ثم في علوم الفلسفة والرياضيات والطب والفلك، وغير ذلك تثبت أقدام العروبة، وعمق جذورها في أرض العروبة.

اللغة العربية لغة قومية، تربط الفرد العربي مع غيره، في أي مكان على أرض العرب فاللغة هي واسطة التفاهم والتفكير، وهي المحرك الرئيسي لشعور الجماهير بانتمائهم لبعضهم البعض، وبانتسابهم إلى تاريخ مشترك فقلب الشعب ونبضه، وروحه تكمن في لغته. إذاً اللغة أداة تفاهم ترجمة، وتجسيد لكل النشاطات التي يمارسها أفراد الأمة، واللغة صلة وصل، بين الماضي والحاضر والمستقبل بين الأجداد والأبناء والأحفاد، كما أنها سجل تحتوي كل المنجزات الحضارية للأمة.

لقد نظر أبناء الأمة العربية وهم على وضعهم الراهن من التفرقة والضعف والتشتت، فلم يجدوا ما يمكن أن يجمع بينهم سوى تلك اللغة، ذات التراث، والفكر الضخم، لذلك كانت النهضة العربية في صورة اللغة وإيقاظها من سباتها، ولا غرابة في التطلع أولا، وبالذات إلى اللغة التي تجمع أبناء الأمة العربية وتوحد تفكيرهم. لقد اتسمت النهضة الفكرية العربية بالسمات التالية:

ترجمة العلوم الحديثة لأثر اللغة وتوسيع آفاقها، إنشاء المطابع العربية، وتأسيس دور الصحافة والنشر، وذلك للنهوض باللغة العربية، وتطورها لمسايرة ركب الحضارة، انتشار المدارس والمكتبات والجامعات في الوطن العربي ساعد على انتشار اللغة وقواعدها أيضاً، ومحاولة إحياء التراث العربي ونشره.، والإستفادة من البعثات الدراسية خارج الوطن.

بعد ذلك نلاحظ نهضة كبيرة في معظم البلدان العربية، نتيجة اللغة وآدابها في الشعر في المقال في القصة والمسرحية.

كما حاولت هذه النهضة حل مشكلة النطق فساعدت على وحدته لأنه مختلف من بلد لآخر. رغم أن اللغة نموذجية مشتركة، وذات تراث فكري لكن هذا التراث مكتوب وغير منطوق ونحن نتعلم اللغة بحاجة إلى نطقها، أي نحن بحاجة إليها لغة كتابية أداء ونطقاً،

حيث أصبح لها مع الزمن كيان مستقل ولغة قومية مشتركة رغم كل العوائق، فقد حققت اللغة انتصاراً.

إن ما نشر من الكتب العربية التي ألفها السلف وبما ترجم بتأسيس مجامع اللغة العربية في سورية - مصر - العراق. والتبادل الثقافي بين البلدان العربية على نطاق واسع. كان عاملا في مواجهة التحديات الإستعمارية ومحاولة القضاء على كل المتناقضات الثقافية بين البلدان العربية، وبذل الجهود لصيانة اللغة والحفاظ عليها.

بذلك تعتبر اللغة العربية لغة ثابتة الأركان مستقرة الدعائم واسعة الانتشار. كل ذلك جعلها تحافظ على ذاتها منذ القديم، فقد صمدت أمام الأخطار المحدقة، وكانت عامل أنقاذ للأمة العربية أبان محنتها في العهد التركي، كما أنها كانت عامل تمرد وثورة ضد الإستعمار الأوربي في كل قطر عربي وعلى الأخص في الجزائر، فاللغة العربية رغم كل المعوقات والأزمات، رغم كل المحن، لا زالت مستقرة راسخة متينة تحرك أبناء هذه الأمة، لما فيه خيرهم، ومصلحتهم. كما أكدت رغم كل الصعوبات وجودها وفرضت نفسها.

لقد حاولت بعض القوميات غير العربية نتيجة احتكاك العربية بلغتها النيل منها، وذلك بحرفها وإدخال التشويه عليها، لكن كل ذلك لم يضعف من أهميتها وقوتها وشدة تماسكها نتيجة قوتها وتماسك العرب في كل مكان وزمان بها، وما أولئك الذين يتحدثون عن العربية الفصحى والعامية بعيدون عن أصول اللغة وضوابطها، لكنها لغة واحدة ولسان عربي أصيل يفهمه وينطق به كل العرب.

الباب الأول

بلاد الشام قبل الميلاد

الفصل الأول - بلاد الشام ق. م

الفصل الثاني - الشعوب التي سكنت بلاد الشام ق. م

الفصل الثالث - بلاد الشام بعد الميلاد حتى بداية الإسلام.

الفصل الأول

بلاد الشام قبل الميلاد

فصل تمهيدي

بلاد الشام قبل الميلاد

اسم سورية:

كانت سورية إلى ما قبل طوفان نوح مأهولة بالسكان، نظراً لموقعها الطبيعي. ويذكر بعض المؤرخين أن هابيل بن آدم، قتل بالقرب من دمشق، وأن مدفنه هناك معروف لدى الدمشقيين، كما أن قبر نوح موجود في سهل البقاع. كما ويروي أن مدينة بعلبك من بناء قابيل بن آدم.

ويذكر المؤرخون أن منطقة بلاد ما بين النهرين وأرمينية، كانت مأهولة بالسكان باعتبارها منطقة متاخمة لبلاد الشام (سورية) ولا يفصل بينهما ما يمنع التنقل كما أنه لا يوجد بين أرمينية وبين سورية بحور أو جبال يصعب مسلكها على المتنقلين بل هي سهول خصبة طيبة الهواء، جيدة المرعى، تغري القادمين إليها بالانتجاع والتوغل، ولهذا كان الإنتقال المبكر للإنسان إلى بلاد الشام.

أما عن إسم سورية (بلاد الشام) فقد اختلف الباحثون حول أصل تسميتها، فالبعض يذكر أن الكتاب المقدس أورد إسم سورية بـ (آرام) نسبة إلى رام أحد أبناء سام بن نوح، لأن أكثر سكانها القدماء كانوا من صلبه[1].

---

(١) اسم آرم يطلق على أمكنة عديدة منها آرم النهرين (ما بين النهرين) دجلة والفرات وآرام صوبا، ويراد بها سورية المجوفة (أي ما بين لبنان الغربي والشرقي). =

وقد أعطى العرب لهذه البلاد إسم (الشام) لوقوعها إلى اليسار من الحجاز أما إسم سورية فهي عربية، استعمله البابليون وأطلقوه على إقليم في الفرات الأعلى باسم (سوري). ويظهر هذا الإسم في الكتابات الأدبية المكتشفة بمدينة أوغاريت.

أما بعض المؤرخين، فيذكرون أن من سمى سورية بهذا الإسم هم اليونان فشاعرهم هوميروس أطلق على سكانها إسم آراميين، والمؤرخ اليوناني هيرودوت (٤٨٤)ق.م. هو الذي أطلق هذه التسمية وصرح بها، وتتابع استخدامها إلى أيامنا هذه.

وقد سمى اليونان سورية بهذا الإسم نسبة إلى صور المدينة البحرية الشهيرة حيث كانت علاقة اليونان بالصوريين حسنة، لكثرة ترددهم إلى بلاد الشام للتجارة، لذلك سموهم صوريين نسبة إلى بلدهم ومع الزمن أبدلت الصاد سيناً، لعدم وجود حرف الصاد في اللغة اليونانية[1].

هذا من ناحية، بينما يرى آخرون أن اليونان سموا هذه البلاد سورية نسبة إلى أسور أو أسيريا وهي بلاد الآشوريين، وذلك لأن الآشوريين كانوا يتولون أعمال سورية، فنسبت سورية إليهم بتبديل بعض الحروف، وحذف بعضها الآخر، كحذف أولها، وتبديل الشين سيناً، أي أن إسم سوريا كان مرادفاً لمملكة الآشوريين.

غير أن الباحثين المعاصرين خالفوا ما رآه القدماء في هذه التسمية، وذلك بقولهم أن سورية أقدم بكثير من اليونان المعروفين. لأن المصريين القدماء كانوا يسمونها في عهد توتمس بن امنهوتات (كساروا) فخففت اللفظة وصارت (سارونهم) سورية، جاء ذلك نتيجة التفاعل الحضاري بين الشعبين فيما بعد. بينما يرى باحثون آخرون أمثال بروغس أن إسم سورية، مخفف من إسم أيسرية، وسميت بذلك بعد أن دانت سورية لتغلت فلاصر، ثم لسرغون، بينما يرى البعض الآخر أن إسم سورية جاء من أسور أو من أسوريم بن ودان بن يقشان بن إبراهيم الخليل من زوجته قطورة.

= ويقال هي مملكة كانت بين دمشق جنوباً وحماة شمالا - آرام رحوب في الجولان حالياً. - آرام معكة أي المملكة التي كانت في موقع حاصبيا - مرجعيون، وبانياس.

(١) . مما يجب التنويه إليه أن كلمة صر كانت تعني بالفينيقية الصخر أو السور وكثيراً ما وردت هذه التسمية على حكومات كانت في مدينة صور.

أهم مدن بلاد الشام قبل الميلاد؟:

حلب:

وهي أشهر مدن بلاد الشام التي يعود تاريخ وجودها إلى ما قبل الميلاد، وتقع في شمال سورية، ويذكر البعض أنها من بنايات الحثيين. وأول ذكر لها كان في الألف الثانية قبل الميلاد، وقد ذكرت في النصوص البابلية، في معاهدة بين آشور تراري، وماتو ايلو، وذلك حوالي ٧٥٠ ق. م.

ويذكر أن اسمها قد أتى من لقب لتل خلفها، لأن إبراهيم الخليل كان يتردد إليها وفيها كان مسكنه، ومنها كان إبراهيم يأمر أصحابه أن ينادوا: (الا أن إبراهيم قد حلب. فهموا[1]فأصبح قولهم حلب لقباً لذلك التل. ويذكر ابن العديم أن المدينة عندما عمرت سميت بإسمه.

بينما يذكر آخرون إنما سميت حلب باسم بانيها وهو حلب ابن المهر بن حيص بن عمليق. وقد أطلق اليونانيون على حلب اسم باروا أو بيرىء، وأن الذي بناها هو ملك من ملوك الموصل إسمه بلوكس الموصلي[2]. بينما يرى آخرون أن الذي بناها هو بلقورس أحد ملوك نينوى. ويذكر البعض أنها خربت وجدد بناءها سلوقس[3] وذلك بعد موت الإسكندر بإثنتي عشرة سنة، وذلك بالإضافة لمدن سلوقية واللاذقية وأفاميا والرها. وأتم أيضاً بناء انطاكية. ثم ملك حلب البطالمة والقياصرة، حتى كان عهد هرقل، حيث كانت هجرة النبي العربي محمد ﷺ.

أخيراً لقد عرفت حلب في منتصف الألف الثالثة قبل الميلاد باسم أرمان وحلبابا وحلب لدى الأكاديين، كما عرفت لدى السومريين بأسماء متشابهة. وكان الحثيون والميتانيون يسمونها حلباً، وحلباس، بينما كان المصريون يسمونها حلبا، والآشوريون حلوان.

---

(١) ابن العديم – كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله – زبدة الحلب من تاريخ حلب – طبعة دمشق – ١٩٥١ – ج ١ – ص: ٩.

(٢) ابن شداد – عز الدين أبو عبد الله محمد بن علي بن إبراهيم – الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة طبعة ٣ دمشق ١٩٥٣ – ج ١ ص: ١٢.

(٣) يذكر بعض المؤرخين أن بطليموس الأريب هو الذي ملك بعد الإسكندر وهو الذي بنى مدينة حلب وسماها أشمونيت.

ومهما يكن فمن المتعذر الوصول إلى حقيقة ثابتة حول نشأتها الأولى[1] إنما يمكننا القول أنها سكنت منذ العصر الحجري[2] وأقدم ذكر تاريخي لها هو في العهد الأكادي في زمن ريموش الذي خلف سارغون من (٢٥٣٠-٢٥١٥)ق.م. وبهذا نؤكد أن بعض الأقوال حول بنائها، غير صحيحة، كنسبة بنائها إلى إبراهيم الخليل عليه السلام.

حمص:

يذكر أن رجلا يقال له حمص بن المهر بن جان بن مكنف العمليقي، هو الذي بناها وقد سميت باسمه، بينما يذكر آخرون أن اليونان هم الذين بنوها، وأن زيتون فلسطين من غرسهم[3]. بينما يذكر البعض الآخر أن حمص ليست من المدن التي أنشأها السلوقيون[4] ويذكر أيضاً أن وبليناس هو أول من ذكرها، علماً أن الرستن كانت مقراً لدولة عربية هناك، وهي أيضاً مسقط رأس الأمبراطور الأكابالوس.

حماه:

مدينة قديمة أقدم من حمص، كان إسمها (قادس) وتقع جنوب مدينة حمص بجانب بحيرتها. أما حماة البلدة الحاضرة فتقع شمال حمص، وليست هي المعنية. ويذكر أن الحثيين هم أول من بناها ونزلوا بها. ويذكر أيضاً أن ملك حماة أرخلني وملك دمشق حزائيل، كانا معاً في الحروب التي شنت على شلمنصر الثاني في عامي ٨٥٠ و٨٤٩ق.م. ومن الجدير بالذكر أيضاً أن الملك الويبدو قام بفتنة عام ٧٢٠ق.م. فأخمدها سرجون، وضم حماة الى الأمبراطورية الآشورية. هذا وقد ورد ذكر إسم حماة في التوراة كثيراً، ونعتت بالعظمى لدورها البارز، وقد سميت حماة في العصر اليوناني (ايبفانيا)[5].

بعلبك:

مدينة قديمة فيها أبنية عجيبة وجميلة، وآثار عظيمة وقصور على أساطين الرخام

---

(١) صبحي صواف – أقدم ما عرف عن تاريخ حلب من الألف الثالثة حتى عهد السلاجقة طبعة دمشق ١٩٥٢ – ص: ٧.
(٢) المرجع نفسه – ص: ١١.
(٣) ياقوت الحموي – معجم البلدان – طبعة بيروت ١٩٧٧ – ج ٢ – ص: ٣٠٢.
(٤) دائرة المعارف الإسلامية – ج ٨ – ص: ١٠٥.
(٥) ياقوت الحموي – ج ٢ – ص: ٣٠٢.

لا نظير لها في الدنيا. واسمها مركب من (بعل) وهو إسم صنم، و (بك) أصله من بك عنقه أي دقها، وتباك القوم أي ازدحموا.

دمشق:

سميت بهذا الإسم لأنهم دمشقوا في بنائها أي أسرعوا. ويذكر بعضهم أنها سميت بذلك نسبة إلى دماشق بن قاني بن مالك بن أرفخشد بن سام بن نوح، ويذكر أن الذي بناها بيوراسف[1] ويذكر آخرون أن بناءها تم سنة ٣١٤٥ق.م. ويذكر بعضهم أن الذي بنى مدينة دمشق هو جيرون بن سعد بن عماد ابن آرم بن سام بن نوح، وقد سماها آرم ذات العماد، وذكر أن غلام إبراهيم العازر هو الذي بنى دمشق، ويذكر أن إسم هذا الغلام دمشق.

ويذكر آخرون أن اسمها باسم دماشق بن نمرود بن كنعان، ويذكر أيضاً أنها سميت باسم آرم بن سام، وهو أخو فلسطين وإيليا وحمص والأردن حيث بنى كل واحد منهم موضعاً، فسمي باسمه.

تدمر:

سميت بتدمر بنت حسّان بن أذينة بن السميدع بن مزيد بن عمليق بن لاوز بن سام وزعم آخرون أنها مما بنته الجن لسليمان، لكن أهل تدمر يذكرون أن بناءها تم قبل سليمان بكثير، وتقع هذه المدينة شرق حمص. هذه أهم المدن الداخلية.

أما المدن الساحلية فهي:

صيدا:

سميت باسم صيدون بن صدقاء بن كنعان بن سام بن نوح[2] وتقع شرق صور مدينة فينيقية قديمة، وجد اسمها مبكراً في التاريخ، ويوجد بالقرب منها تل العمارنة[3] باسم صدونو، هذا ولم يكن لصيدا شأن يذكر في العصر الإسلامي ومهما يكن فإن صيدا من أهم المدن الفينيقية على الساحل الشرقي للمتوسط.

---

(١) نفس المرجع ج ٢ - ص: ٤٣٣.

(٢) ياقوت الحموي - ج ٢ - ص: ٤٣٧.

(٣) دائرة المعارف الإسلامية - ج ١٤ - ص: ٤٥٧.

وقد اختلف المؤرخون في مدلول إسم صيدا، فبعضهم يذكر أن إسمها ورد في التوراة وينسبونها إلى صيدون بن كنعان بن سام بن نوح، كما ذكرنا آنفاً. وقد بناها[1] عام ١٩٠٠ ق.م. بينما يذكر البعض أنها مشتقة من كلمة صيد الأسماك[2] لأن هذه الحرفة كانت الصفة الرئيسية لسكانها منذ نشأتها الأولى، بالإضافة لمكانتها الممتازة المبكرة في التجارة.

صور:

وكانت معدودة من أعمال الأردن، تقع شرقي عكا على المتوسط. ومن الجديد ذكره أن صور كانت في عهد العمارنة من أغنى المراكز التجارية[3] على الساحل السوري وقد غزاها الإسكندر ودمرها[4] وكانت في العهد الروماني المركز الديني والدنيوي لما حولها.

(السامرة) أرضها منبسطة من أعمال نابلس في نواحي فلسطين.

(يابوس): أورشليم القدس. (جيرون): قرية أربع الخليل

(غزة): مدينة في أقصى بلاد الشام من ناحية مصر، من نواحي فلسطين. ويذكر أن غزة كانت امرأة صور الذي بنى مدينة صور الساحلية.

(عسقلان): مدينة بالشام من أعمال فلسطين، على ساحل البحر، أول من فتحها معاوية بن أبي سفيان، في خلافة عمر بن الخطاب.

(راموت جلعاد) الصلت في الأردن. (ربة عمون) عمان في الأردن.

طرابلس:

اسمها يوناني ويعني ثلاث مدن أو أحياء مسورة[5] (حي الصوريين - حي الصيدانيين - حي الروادين)، إلا أن حقيقة تاريخها غير معروف بدقة، حيث يغلب على الظن أنها تأسست في حوالي القرن التاسع أو الثامن والعشرين قبل الميلاد، وقد أسسها الفينيقيون.

---

(١) أسامة زند الحديد - صيدا ودورها في الصراع الصليبي - طبعة مصر ١٩٨٠ - ص: ١٣.
(٢) عبد العزيز سالم - دراسة تاريخ صيدا في العصر الإسلامي - ص: ١٨ - ١٩.
(٣) هارولديك - هربرت جون فلير - الأزمنة والأمكنة - طبعة مصر ١٩٦٢ - ص: ١٥٣.
(٤) دائرة المعارف الإسلامية ج ١٤ - ص: ٣٦٤.
(٥) سميح وجيه الزين - تاريخ طرابلس قديماً وحديثاً - طبعة بيروت ١٩٦٩ - ص: ١٨.

بينا يرجح أن يكون إسمها مشتقاً من تربيل[1]، بينما يذكر البعض أن تأسيس طرابلس يعود إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد[2].

مظاهر الحضارة في بلاد الشام قبل الميلاد:

إن لبلاد الشام مكانة فريدة في تاريخ العالم فأنظار العالم بمختلف عقائده تتجه إلى أحد البقاع المقدسة فيه. من ذلك نلاحظ انتساب العالم إليه بعد بلدهم. وتأتي أهميته بموقعه الاستراتيجي بين القارات الثلاث أي أنه كان يتوسط العالم القديم كما كان ذو دور تاريخي وحضاري حتى في عصور ما قبل التاريخ، نظراً لوقوعه بين حضارتين عربيتين حضارة وادي النيل ووادي الرافدين.

فبلاد الشام كانت مكاناً لتدجين القمح وكانت أيضاً مكاناً لاكتشاف النحاس واختراع الخزف الحلي مما أدى إلى تحول في حياة السكان قبل التاريخ من حياة الصيد والتنقل إلى حياة الزراعة والإستقرار في المدن والقرى.

ونعتمد في معلوماتنا عن عصر ما قبل التاريخ بالبقايا الأثرية بدلا من الوثائق المكتوبة علماً أن الحفريات الأثرية التي عثر عليها في شمال سورية وشرقها وفي كهوف لبنان وتلال فلسطين ومدن شرقي الأردن التي كانت مدفونة تعطينا بعض الأسرار عن الحضارات القديمة ويرجع بعضها إلى نهاية الدور الأول من العصر الحجري القديم أي إلى نحو (١٥٠,٠٠٠) ألف سنة ومن أهم الكهوف التي وجدت فيها أدوات من العصر الحجري القديم ودرسها العلماء في بلاد الشام كهوف عدلون - بالإضافة لكهوف أخرى في منطقة نهر إبراهيم نهر الكلب، وكهوف في جبل الكرمل، وأوغاريت القديمة ومناطق أخرى متفرقة من البلاد.

أما النظم الإجتماعية لسكان بلاد الشام قبل التاريخ فكانت بدائية تعيش بشكل وحدات تعيش على ما تقدمه الطبيعة من حيوان أو نبات بالإضافة لوجود عادات كان سكان البلاد يعملون بها منها أكل لحوم البشر، والضحايا التي تؤكل لحومها كانت إما من الأعداء الذين يقعون في الأسر أو من الأقارب الذي أصبح وجودهم غير مرغوب فيه أو

---

(١) لفظة تربل هو الجبل الواقع في سفح طرابلس ومعناه جبل الآلهة.

(٢) عمر عبد السلام تدمري: تاريخ طرابلس - طبعة بيروت ١٩٧٨ ج ١ ص: ٢٨.

الأشخاص الذين ماتوا ميتة طبيعية. أما البقايا الحيوانية فتنبىء بوجود الغزال، الدب، الضبع الملون، الجمل، الخنزير النهري، الوعل، الكركدن، فرس النهر، الثعلب، الماعز.

كما تشير البقايا الأثرية إلى تناوب الإقليم الحار والبارد أي إقليم المتوسط علماً أن استخدام أدوات عصر ما قبل التاريخ تطورت بالتدريج حيث حصل تقدم محسوس في الزراعة وتربية المواشي نتيجة استخدام الثور والغنم والماعز لأن تدجينها قد تم استخدامه وعلى الأخص في العصر الحجري الحديث.

أما الأشجار المثمرة فكانت الأنواع الثلاثة التي تقاوم الجفاف كالتين والكرمة والزيتون التي كانت تزرع على مقياس واسع ولزيت الزيتون استخدامات كثيرة أهمها: استخدامه للغذاء. استخدامه في مصابيح لأجل الإنارة، استخدامه كمراهم، استخدامه في صنع الروائح الزكية، استخدامه لأغراض طبية، استخدامه في أمور كانت ولا زالت في بعض المناطق مقدسة كمسح جبهة المقبل على الموت به ومن استخداماته الأخرى. استخدامه طعاماً للحيوانات بعد عصره، استخدام نواته وقوداً بعد جرشها، ومنذ أن عادت الحمامة إلى نوح بغصن الزيتون أصبح عنوان السلام.

لم تكن بلاد الشام دولة مستقلة تحت قيادة وطنية موحدة وإنما كنت تراها إما جزء من دولة كبرى أو مجزأ بين دول وطنية قائمة على قسم منه بينما يحتل القسم الآخر قوى أجنبية، كما لم تكن بلاد الشام مركزاً سياسياً ذا وحدة إلا في العهد السلوقي عام ٣٠١ ق.م. وبعده. أثناءها كانت إنطاكية العاصمة المركزية للدولة.

ثم في عهد الخلافة الأموية وجدت عوامل فعالة كانت سبباً في حضارة توجهت إليها أنظار العالم أهمها الوضع الجغرافي المتنوع والموقع الإستراتيجي الذي جعل هذه البلاد حلقة اتصال بين العالم القديم مما جعلها معرضة للأخطار من جميع الجهات كما أن مجاورتها لأقدم مركزين أحدهما في الشرق وتمثله الحضارة السومرية والثانية في الغرب والجنوب وتمثله الحضارة المصرية. كما كان لأشرافه على المتوسط والأحمر تأثيرات حضارية أخرى كانت من العوامل المساعدة على تفتته وتمزيقه.

الفصل الثاني

أهم الشعوب التي سكنت
بلاد الشام

الأموريون

يعتبر الآموريون[1] من أوائل الشعوب السامية التي قدمت إلى بلاد الشام، حيث انتشر الآموريون في الأراضي الكائنة بين أقليم الاسكندرون، وبين الفرات على مسافة مئة ميل، حيث يحدث البحر فجوة في البر، ويشكل ممراً طنبيعياً بين الساحل، ومنطقة الرافدين أي أواسط سورية وشماليها وشرقيها. ضمن هذه المنطقة كان يوجد الممر السوري ذو الأهمية الجغرافية والتجارية، وله أثر مهم في عملية التمازج الحضاري في منطقة سكن الآموريين فيما بعد، حيث يتحول الحاجز الجبلي في الشمال والغرب والحاجز الصحراوي إلى ممر واحد منخفض يؤدي إلى وادي من جهة، وإلى البحر من جهة أخرى، فسمي ذلك الممر بالممر السوري، حيث يقع على سفح جبل طوروس، ويصل ما بين تل حلف، وحران، وحلب، وماري، وغيرها من مدن بلاد الشام القديمة. لقد عمل الآموريين على تأسيس ممالك واسعة الأطراف أشهرها.

مملكة يمحاض: عاصمتها حلب إلا أنها كانت دائماً تحت تأثير الحثيين تارة، والآشوريين تارة أخرى، وعندما تجد القوة في نفسها، والضعف من جيرانها ومستعمريها كانت تثور في وجوههم وتنتفض وتحاول الاستقلال.

مملكة ماري الآمورية: تبين الآثار المكتشفة في عام ١٩٣٣ أن مدينة ماري سكنت من قبل أقوام سومرية أي قبل عام ٢٥٠٠ق.م. لكن الآموريون نتيجة تسربهم إليها فيما بعد تمكنوا من السيطرة السياسية. ونتيجة الحفريات والتنقيبات عثر على تمثال بعض ملوكهم في تل الحرير في مكان مدينة ماري شمال مدينة البوكمال. لقد كانت الزراعة مزدهرة عند الآموريين بما يناسب وذلك العصر نتيجة اعتمادهم على الري من جهة، وعلى العلاقات التجارية مع جيرانهم من جهة أخرى.

---

(١) الآموريون من الشعوب السامية القديمة التي سكنت فلسطين والشام وأقليم بابل.

الفينيقيون

كان مركز الفينيقيين على الساحل، لذلك تعرضوا لتأثيرات حضارية مصرية على العكس من الآموريين الذين كانوا يتعرضون، لتأثيرات حضارية سومرية بابلية نظراً لمركزهم في شمال سورية. كان الفينيقيون من أهم الشعوب السامية التي لعبت دوراً مهماً، وبارزاً في تاريخ بلاد الشام، علما أنهم والآشوريون ينتسبون إلى موجة الهجرة نفسها.

إن إسم فينيقية مشتق من اليونانية Phoinix أي أحمر أرجواني نسبة إلى صناعة الأرجوان الغالبة على الصناعة في البلاد، علماً أن كلمة فينيقي أصبحت حوالي (١٢٠٠)ق.م. مرادفة لكنعاني الذين تاجر معهم اليونان لفترة طويلة. ولم ينجح الفينيقيون في تأسيس دولة قوية موحدة نتيجة انقسام البلاد إلى مدن بقيت كل منها في حالة حرب مع الأخرى، كما كان الاستقرار السياسي ينقصها بسبب مطامح النبلاء على السلطة.

لقد انتشرت المدن الفينيقية على طول الساحل من جبل كاتسيوس إلى الكرمل، إلا أن تعرجات الشاطىء القليلة جعلت عدد الموائىء الطبيعية محدودة. علماً أن المدن كانت صغيرة في مساحتها فأريحا لم تتجاوز مساحتها ستة أفدنة، إلاّ أن تحصيناتها كانت قوية، فأسوارها ارتفعت واحد وعشرين قدماً، كما كان للمركبات التي أدخلها الفينيقيون إلى البلاد وسيلتهم الرئيسية في الدفاع عن موطنهم (مدنهم)، فهاهم ملوك دمشق يسيطرون على ما حولهم، كما أفلحوا في مقاومة الآشوريين[١].

لقد أدخل الفينيقيون الحصان أيام الهكسوس بحدود (١٧٥٠)ق.م. وأسلحتهم الهجومية كانت تضم القوس والسهام وخنجراً قصيراً وسكيناً معقوفاً. أما سكان الريف

---

(١) ويل ديورانت - قصة الحضارة - طبعة مصر - ١٩٧٣ - جـ٢ - ص: ٣١٧.

الفينيقي فكانوا متفرقين قليلي العدد، ومنازلهم هزيلة في بنائها غير منتظمة في تخطيطها بوجه عام. أما منازل فقرائهم، فكانت صغيرة مزدوجة بعضها بقرب بعض على عكس منازل الأغنياء منهم التي كانت تحتوي باحة واسعة. في وسطها وحولها بقية الغرف، وبعضها كان مزود بعنبر للقمح وصهريج خاص، وهذا يرتبط بالوضع الاجتماعي والاقتصادي لمالك هذه البيوت.

الزراعة:

رغم اعتماد الفينيقيين على التجارة بالدرجة الأولى، والصناعة من بعدها، إلا أنهم لم يهملوا الزراعة رغم ضيق منطقتهم الجغرافية حيث اشتهروا بوجود آلات للحراثة متينة ودقيقة، كما عملوا على نمو الاقتصاد الزراعي بالشكل الذي تسمح به أرضهم ومواردهم الطبيعية. كما أن أقدم أعمالهم الرئيسة انحصرت في ميادين الزراعة، وصيد الأسماك وتجفيفها والتجارة فيها. وأهم المحاصيل الزراعية عندهم كانت الحبوب (القمح والشعير والشوفان) – فاصولياء – جلبانة – عنب – زيتون – تين – رمان – جوز، علماً أن الفلاحين منهم عمدوا على تكييف زراعتهم، بمقتضى كفاية الأمطار، إلى أساليب الزراعة الجافة المتضمنة التناوب السنوي في زراعة الأراضي، وتركها موسم بدون زراعة[1]، أما أهم الحيوانات المدجنة عندهم والتي تم استخدامها، الأبقار، الأغنام، الحمير، الماعز، الخنازير.

الصناعة:

صناعة الأرجوان: إن الفينيقيين لم يكونوا تجاراً فقط، وإنما اشتهروا أيضاً بالصناعة، وأهم صناعتهم وأفخرها صنع البرفير[2] (الأرجوان)، حيث كان لباس الملوك الخاص.

وكانوا يأخذون مادة صبغة من حيوانات بحرية (ذات صدف) كما كانوا يصبغون بها أنسجة من صوف وقطن وحرير وخاصة أنسجة الصوف الناعم الرقيق، علماً أن مادة الصباغة هذه كانت غالية الثمن، لذلك كان استعمالها محدوداً ولأجود الأنسجة.

---

(١) فيليب حتي – تاريخ لبنان منذ أقدم العصور التاريخية في الوقت الحاضر – طبعة بيروت ١٩٧٨ – ص: ١٢٢.

(٢) يوسف الدبس – من تاريخ سورية الدنيوي والديني – طبعة بيروت تصوير ١٨٩٣ ج ١ ص:٣٤٢.

صناعة الزجاج: تعتبر صناعة الزجاج[1] عند الفينيقيين من أشهر مصنوعاتهم، ومن المعروف أنهم أول من صنع الزجاج الصافي الذي يصنعون منه آنية صغيرة أو يحلون فيه الأواني الخزفية كما كانوا يصنعون منه حلياً كالعقود.

كانت مدينة صيدا مركزاً لصناعة الزجاج عند الفينيقيين وحول مدينة صور كان مركز معامل الصباغة، وكان الفينيقيون أول من عني بتبليط الأزقة والشوارع في المدن، وهم أول من صنع السفن، وعلم الآخرين صناعتها كما برع الفينيقيون بصناعة الآواني الخزفية ومن خصائص الصناعة الفينيقية: الفخامة والمتانة، حتى لا يسهل كسرها أثناء استعمالها اليومي، غير أنها لم تكن دقيقة، ولا توجد بها ابداع لأن الغرض منها تجاري، كما اشتهر الفينيقيون بالصناعات المعدنية وبهندسة الأبنية وتحصين الحصون، حيث كانوا يعتبرون أساتذة لغيرهم في هذا المجال.

لقد كان أبناء الفينيقيين يتخذون مهنة آبائهم[2]، وأهم الصناعات كانت عندهم صناعة الخزف، وتعتبر أقدم الصناعات السورية وأكثرها انتشاراً ونجاحاً، ثم فن النحت، حيث بلغ ذروته، كما نجحوا في صنع النحاس والبرونز، وأفلحوا بدمج المعادن لجعل الناتج معدناً قاسياً كما اهتموا بمزج القصدير مع النحاس لصنع البرونز، واكتشفوا صناعة الفضة والذهب، وعند اكتشاف رأس شمرا وجد فيها وزنات من الفضة غير المسكوكة. كما اكتشف فيها ميزان أحد الصاغة وأوزانه، بالاضافة لأساور وخلاخل وأقراط. كما أظهرت الآثار المكتشفة آلات موسيقية كالصفارة والناي والمزمار والعود والدف وغيرها.

لقد تفوق الفينيقيون بصنع الأقمشة، حيث تم اكتشاف الأبر والدبابيس في فلسطين، ووجدت أزراراً مستديرة بثقبين، بالإضافة لصناعة الأرجوان المزدهرة، وصيد الأسماك الذي برعت بصناعته مدينة صيدا.

التجارة:

إن المنطقة الجغرافية التي سكنها الفينيقيون على الساحل الشرقي للمتوسط، فرضت عليهم مهنة التجارة، لأن منطقتهم كانت محطة للتجارة[3] بين قارات العالم القديم، وتوسطها

---

(١) إشراف موريس كروزية – تاريخ الحضارات العام ج ١ – ص: ٢٥٨.

(٢) فيليب حتي – تاريخ سورية ولبنان وفلسطين – طبعة بيروت ١٩٥٨ ج ١ ص: ٩٤.

(٣) يوسف الدبس – ج ١ – ص: ٣٣٣.

ما بين مصر وما يليها غرباً وجنوباً، وبين بلاد الشام وما يليها جنوباً وشرقاً، وبين آسيا الصغرى وما يليها شرقاً وشمالاً. وهكذا انبسطت تجارتهم في كل أفق[1] وضربت تجارتهم كل صوب وعظمت ثروتهم، وتوفر غناهم نتيجة تجارتهم مع آسيا وأفريقيا وأوربا.

في آسية: سلك الفينيقيون في تجارتهم داخل آسيا ثلاثة محاور تجارية هامة. أولها في الجنوب، حيث كانت قوافلهم تسير جنوباً، حتى اليمن وحضرموت وعمان، فتنقل إليها الصناعات المحلية والمستوردة، ثم تنقل منها صناعاتها، أي أنها كانت تتلقى من موانيء عدن بضائع الهنود، وتتلقى من أطراف اليمن بضائع الحبشة وحاصلاتها، علماً أن قوافل اليمن كانت تسير إلى الشمال، فتتجاوز مكة ويثرب. فأما قوافل حضرموت وعمان. فكانت تمر على ميناء جرة على الخليج العربي، حيث ترسو هناك السفن الآتية من الهند، فتنقل تجارتها إلى السواحل الشرقية للمتوسط.

المحور الثاني مع الشرق أي مع بابل[2] ونينوى، والقوافل السورية كانت تعمل على النقل أو العمل على هذا المحور، حيث تخرج من لبنان وبعلبك إلى حمص وحماة وحلب ونصيبين، ثم إلى بلاد الأشوريين وهناك كان تجار فينيقيون يتلقون بضائع بلادهم، فيبيعونها هناك، ثم يرسل إلى زملائهم بضائع آشور وحاصلاتها، أما القوافل التي تسير في البر فكانت تمر بتدمر، ومنها إلى تبسك على الفرات كونها محطة للتجارة، حيث تأتيها بضائع بابل عن طريق الفرات وبضائع سورية وساحل المتوسط على القوافل.

المحور الثالث كان مع الشمال[3]: أي البلاد المجاورة للبحر الأسود، وبحر قزوين أي إلى أرمينيا.

في أفريقيا: كان للفينيقيين تجارة واسعة مع المصريين، وكان للفينيقيين أحياء في مدن مصر السفلى والعليا.

كان الفينيقيون ينقلون للمصريين كل ما يحتاجونه، ويحضرونه لهم من وراء البحار، لأن التجارة كانت عندهم بخسة، أي أن الفينيقيين وحدهم وعلى عاتقهم كان يقع نقل بضائع مصر وحاصلاتها إلى جميع الأمم المتعامل معها تجارياً. ولم يقف التجار الفينيقيون

---

(١) البعثة الفرنسية المنقبة - رأس الشمرة - آثار أورغاريت - طبعة دمشق ١٩٥٤ - ص: ٩٢.
(٢) يوسف الدبس - تاريخ سورية ص: ٣٣٦.
(٣) المرجع نفسه ج ١ - ص: ٣٣٨.

على حدود مصر بتجارتهم، وإنما امتدت مستعمراتهم التجارية حيث تجاوزوا جبل طارق بعد أن عمروا قرطاجة ويذكر في هذا المجال أنهم عمروا أكثر من ثلاثمائة مدينة على ساحل الاتلانتيك في أعمال مراكش.

في أوروبا:[١] تطرق الفينيقيون إلى أوروبا بطريقين. أحدهما جزر البحر المتوسط التي كانت عبارة عن محطات تجارية، ومنها توصلوا إلى اليونان، فمن صقلية وسردينيا وكورسيكا توصلوا إلى شواطىء إيطاليا وفرنسا.

والثاني من جهة أفريقيا عن طريق مضيق جبل طارق توصلوا إلى إسبانيا والبرتغال، علماً أن الفينيقيين لم يقفوا بتجارتهم عند المدن الساحلية الأوروبية، بل أعدوا قوافل تتوغل في البلاد منها من كان يجوب فرنسا والمانيا.

ويمكننا القول إن الحضارة ولدت في مصر وآشور، ولكن يمكننا القول أيضاً إن الفينيقيين هم دعاتها ورسلها، لكن هناك عوامل ساعدت على سقوط الفينيقيين أهمها الحالة الاقتصادية المتطورة لديهم، وحالتهم المادية الحسنة مما أثار جشع، ومطامع الملوك الآشوريين والكلدانين والفرس وغيرهم، لذلك عملوا على احتلالها.

ثم إن تطور حالتهم المادية ودخل الفرد الكبير فيهم كان له أثر سلبي من حيث البذخ، فأفسدت آدابهم مما أدى بهم إلى الترف النفسي الذي أبعدهم عن بقية الاهتمامات الأخرى، فكان ذلك سبباً في تدهورهم وسقوطهم، ثم إن حالتهم المادية واقتصادهم الغني المتطور كان بحاجة لقوة منظمة، إلا أن مثل هذه القوة لم توجد فكانت نهايتهم على أيدي القوى القوية المحيطة.

يعتبر الفينيقيون أول أمة بحرية في التاريخ ودون منازع، حيث كانوا يجوبون أنحاء البحار ويؤسسون الطرق البحرية بين الشرق والغرب، وتحول الباعة المتجولون منهم إلى أمراء بحار أي أن دأبهم وعملهم الجاد جعلهم أعظم الملاحين والتجار، وإليهم يعود الفضل في تقديم أربع مواد كانت شبه مفقودة في كثير من دول البحر المتوسط والعالم الآخر الذي كانوا يتعاملون معه: هي الأخشاب، القمح، الزيت، الخمر، ونتيجة نشاطهم التجاري سيطروا على المتوسط، بالاضافة إلى كونهم أول دولة بحرية فهم أول دولة تاجرت

---

(١) يوسف الدبس - تاريخ سورية ج ١ - ص: ٣٣٩.

بالبر والبحر، وأعظم أعمالهم البحرية كان الاكتشاف العظيم اكتشاف رأس الرجاء الصالح قبل غيرهم (البرتغاليون) بأكثر من ألف سنة، ثم تمكنوا من الدوران حول أفريقية.

كان الفينيقيون أثناء سيطرتهم التجارية على شواطىء البحار يبنون ويؤسسون حيثما حلوا، وأينما ذهبوا، مثل تأسيسهم مدينة قادش بالقرب من مضيق جبل طارق، أي أنهم اكتشفوا الأطلسي وسيطروا عليه أيضاً.

اللغة الفينيقية

إن أول نعمة قدمها الفينيقيون للبشرية كانت الأبجدية فهم أول من وضع الكتابة[١] بالحروف، مع العلم أنهم أخذوا هذه الحروف عن الهيروغليفية لذلك تلاحظ أنه كان بين اللغتين بعض التشابه، والحروف الفينيقية اثنتان وعشرون حرفاً كان منها خمسة عشر حرفاً تشبه خمسة عشر علامة هيروغليفية.

لقد كان الفينيقيون يعملون على نشر لغتهم السامية، وحروف كتابتهم مع بضائع تجارتهم إلى العالم. لذلك ذهب البعض للقول أن الحروف الفينيقية، واللغة الفينيقية السامية ذات الأصل العربي أم الحروف واللغات العالمية.

كما قدم الفينيقيون للعالم ديانة التوحيد، واكتشاف الأطلسي، فالمدونات الفينيقية المتعلقة بالعمليات التجارية كان معظمها على مواد قابلة للتلف، كورق البردي، ويجدر بنا الإشارة إلى أن أفضل ما تركه التراث الأدبي الفينيقي يوضح لنا أن العبرانيين كانوا تلامذة الفينيقيين فهم اقتبسوا الأدب وادخلوه في كتاباتهم المقدسة فالمزامير، ونشيد الانشاد، بالاضافة للأخبار الخرافية التي دخلت سفر التكوين، وقصص الأنبياء حيث بقي هذا الأمر غامضاً وغير معروف إلى أن تم اكتشاف مدينة أوغاريت من قبل بعثة فرنسية[٢].

---

(١) كان الذي اكتشفها كبداية أحد الفلاحين السوريين العرب عن طريق الصدفة حيث كانت في عالم النسيان.

(٢) البعثة الفرنسية للتنقيب - رأس الشمرة - ص: ٩٨ - يوسف الدبس - تاريخ سورية ج ١ - ص: ٣٤٨.

المعتقدات الفينيقية:

تظهر لنا المصادر والمكتشفات الأثرية في أوغاريت عن عبادتهم لقوى النمو والتوالد، أي أن عبادتهم كانت تقوم على عبادة الطبيعة، حيث عزوا كل ما في الطبيعة إلى الكواكب لا سيا ملكتها الشمس فعبدوها، لذلك صار بعل عندهم كناية عن الشمس كما أن الالهة لم تكن عندهم ذكوراً فقط بل كان لهم آلهة من الإناث، فكانت عشتروت زوجة بعل أي أنه كلما كان لبعل خاصة شمسية كان للزوجة خاصة قمرية، كما كان عندهم ثالوث في معتقداتهم في كل مدينة كنت تراهم يعبدون ثلاثة من الألهة فمثلاً كان لهم في مدينة صور ثلاثة آلهة (ملكارت - بعل - عشتاروت) أما الهياكل، فكانت تقوم عندهم على أساس تزويد الآلهة بمسكن لها، وأقدمها يرجع إلى مطلع الألف الثانية قبل الميلاد، ففي أريحا ومجدو كانت الدعارة الدينية منتشرة في بلاد الشام، وفي مدينة دمشق[1] بالذات. بالاضافة لذلك كان للفينيقيين أماكن مقدسة محلية معظمها مزارات في الهواء الطلق، وعلى رؤوس التلال، والمكان المقدس هذا كان عبارة عن مذبح مع ما يلازمه.

وكانت العادة عند الفينيقيين أن يدفن الموتى في جرار، بحيث تدخل رؤوسهم أولاً، وفي أريحا وغيرها كثيراً ما كانت توضع الجرار تحت أرض المنزل، كما كان الفينيقيون يدفنون مع الموتى[2] مصباحاً وجرار بها ماء وصحن كبير وأواني الطعام والشراب، كما كانوا يدفنون مع النساء حبات الخرز وسائر أنواع الزينة علماً أن الرجال كانوا يدفنون مع سلاحهم.

كانت أزياء سكان مدينة دمشق وعاداتهم وأخلاقهم شديدة الشبه بما هو الحال في بابل، فقد جرت العادة في دمشق على أن يوحدوا بين آلهة المدينة، وبين الشمس كما كانوا يوحدون بين عشتروت والقمر وفي عاداتهم إذا أصابهم أمر عظيم وخطير كانوا يضحون بأطفالهم قربانا. لإله المدينة والشمس.

أخيراً إن أهم الأعمال الحربية الجديرة بالذكر في عهد الفينيقيين. كان معركة مجدو تلك المعركة التي كانت بينهم وبين المصريين، الذين يقودهم الفرعون تحوتمس الثالث (١٤٩٠-١٤٣٦)ق.م. الذي قاد ست عشرة حملة ضد بلاد الشام، وتعتبر الحملة الأولى

---

(١) ويل ديورانت - ج ٢ - ص: ٣١٧.

(٢) المرجع نفسه - والصفحة نفسها.

أهم هذه الحملات، لأنها انتهت بسقوط مجدو في عام ١٢٦٨ ق.م. حيث اصطدم المصريون بحلف مؤلف من ٣٥٠ أميراً، ضم هذا الحلف الهكسوس الذين طردوا حديثاً من مصر، ويكونون العمود الفقري لهذا الحلف علماً أن أمير قادس على العكس كان رئيسه. وفي حملته الخامسة استولى على أرواد وغيرها من بلاد الشام.

بدأ تحوتمس علاقته مع سورية سياسياً، حيث أخذ أبناء الأمراء المحليين في بلاد الشام آنذاك لينشأوا على روح الصداقة مع مصر وعاداتهم بالتدريج، ليحلوا محل الجو المعادي لمصر، كما تمكن في حملته الثانية من احتلال قادس.

ومن الأعمال الأخرى معاهدة بين المصريين والحثيين على أن يكون سلام وإخاء بين الطرفين إلى الأبد، واعترفت المعاهدة بأن سورية الشمالية ومن ضمنها أمور أصبحت حثية بينما بقية سورية الجنوبية بما فيها فلسطين وبعض الساحل الآخر تحت الحكم العربي المصري.

٣ - الآراميون

تبين أن هجرة الآراميين كانت بعد هجرة الآموريين والفينيقيين أي أنها إحدى الهجرات السامية الكبرى التي أتت من الجزيرة العربية وقد أدى ضغط الآراميين المتواصل إلى طغيانهم التدريجي على الآموريين والحوريين، والحثيين في وادي العاصي، والمنطقة التي تليها في الشمال وإلى امتصاصهم أو طردهم.

وكان جبل لبنان عائقاً في طريق هذا التوسع نحو الغرب، وأصبحت دمشق مركز الدولة الآرامية، مما مكن الآراميين من احتلال مدينة حران، قبل احتلالهم مدينة دمشق.

لقد اقتبس الآراميون حضارة الشعوب التي سبقتهم في المنطقة، علماً أن الآراميين شكلوا مجموعة دول، أهمها كانت الدولة التي مركزها صور وموقعها كما يظن كان عنجر الحديثة جنوبي زحلة في البقاع، ومن أقدم ملوكهم حدد عزر (جالوت). ثم المملكة الآرامية التي كان مركزها دمشق وكانت منتشرة من الفرات إلى جهة اليرموك. كما كانت سورية الداخلية شرقي جبل لبنان سورية الشمالية وباشان تحت سيطرتها، علماً أن الآراميين في هذه المنطقة كانوا أشد عداء للعبرانيين ودعارتهم آنذاك.

لقد كان تفوق الآراميين التجاري والحضاري يفوق تفوقهم السياسي والعسكري فالتجار الآراميون كانوا يبعثون قوافلهم إلى جميع مناطق بلاد الشام، وحتى إلى منابع دجلة في الشمال، كما كانوا يحتكرون التجارة من البر والبحر. وكانت دمشق عاصمتهم ومن موانئهم على البحر: جبيل وصور.

لقد تاجر الآراميون بالأرجوان، وبالكتان والمطرزات والنحاس والعاج، كما تاجروا بمكنونات البحار، وإلى التجار يعود الفضل في نشر لغتهم، وفي مختلف آلبلدان التي كانوا

على علاقة تجارية معها. علماً أن لغتهم فرع من مجموع اللغات السامية الشمالية الغربية، كما أن انتشار الآرامية بين المناطق المتعامل معها تجارياً كان مستمراً ومن ضمنها الامبراطورية الحبشية، حيث استمرت حتى فتوحات الاسكندر المقدوني في إمبراطورية تمتد من الهند شرقاً إلى الحبشة غرباً، ومع انتشار اللغة الآرامية انتشرت الأبجدية الفينيقية التي كان الآراميون أول من كتبها، كما حصل العبرانيون على أبجديتهم ما بين القرنين السادس والرابع قبل الميلاد.

كانت الآلهة الآرامية تضم عدا الزوج الآلهة. عدداً من الآلهة الأخرى ذات المكانة الثانوية، بعضها محلي وبعضها الآخر مستعار من الشعوب المجاورة.

٤ - الصفويون

لم يكن الصفويون[١] أول القادمين إلى بلاد الشام، ولا آخرهم كهجرات عربية قدمت من الجزيرة العربية. ويجب أن لا يفهم أن كلمة عرب هم سكان الجزيرة فحسب، وإنما شملت سكان الوطن العربي بحدوده الجغرافية قبل الإسلام.

. تمتاز بلاد الشام بأن قسماً منها صحراوي، يمكننا القول أن هذه الصحراء كانت تمد بلاد الشام بالغذاء، وباللحوم ومنها وإليها، كانت تستأجر القوافل، وبعض جوانبها كانت تستخدم للزراعة، وبعضها الآخر للحروب وغير ذلك.

ودراسة السكان الصفويين من النصوص التي تركوها، تتيح لنا أن نفاجأ بحركة هجرات عربية إلى بلاد الشام.

لقد كان التطور لدى الصفويين لا يزال في بدئه، حين نقشوا نصوصهم فوق صخور الصحراء. إلا أنهم كانوا مع ذلك قد بدءوا باتخاذ آلهة لهم حضرية مثل: بعل دوزاريس ذو الشرك[٢].

أي أنهم رغم ذلك كان من الممكن أن يطلق عليهم أنصاف بدو لقلة ارتحالهم واستقرارهم، ويذكر ديسو أنه من القرن الرابع قبل الميلاد، يمكن أن نتبع أثرهم في أسماء الأعلام التي وردت في النصوص الإغريقية بجبل حوران.

والنصوص الصفوية تقدم لنا آلهة كثيرة، ومع مقارنتها مع آلهة تدمر يظهر واضحاً لدينا

---

(١) رينيه ديسو: إن مصطلح الصفويين استعمله الاستاذ دي فوجيه الذي نشر أول فاتحة من نصوصهم وتمد على جانب كبير من الأهمية وكان يطلق عليهم كمنطقة إسم صفائن.

(٢) جواد علي: ج ٣ ص: ٢١.

أن آلهة الصفويين أقدم من آلهة تدمر، كما أنها أقل تأثراً بالطابع الأغريقي الآرامي.

وترينا أيضاً من ناحية أخرى، كيف انتشرت الآلهة بواسطة الجنود والتجار، وتمدنا هذه النصوص بأسماء الأعلام ونسبهم وهذه صفة عربية، حيث يعتبر العربي شديد التمسك بنسبه.

لقد كان الصفويون في نصوصهم المختلفة يظهرون في شكل صور، إلا أن الصفوي يظهر من هذه الصور كأنه مليء بالحركة، فمنهم الفرسان المسلحة بالرماح الطويلة تراهم أيضاً راكبين دوابهم يترصدون الفريسة. وفي منظر آخر نراهم يطاردون ظبياً ووعلاً، كما نراهم رجالاً يركبون الخيل يهاجون الحيوانات المفترسة، والرماح في أيديهم، وفي البعض الآخر نرى رجالاً منهم يسيرون على الأقدام وهم مسلحين بالأقواس والتروس إن الموطن الحقيقي للصفويين هو حرة وادي رحبيل ففيها تجد النقوش الصفوية وقد حفرت على كتل من الصخور البركانية. ومواضع المياه ليست نادرة في حرة وادي رحبيل وبعض الآبار لا تفيض مياهها إطلاقاً، ففيها توجد ثلاثة مجار للمياه أساسية تنبع من السفح الشرقي لجبل حوران، إلاّ أن مياهها تجف طوال الصيف، فوادي رحبيل يختفي نحو الجنوب في مستنقعات ماؤها ملح أجاج على مقربة من قلعة الأزرق، ووادي الشام ووادي الغرز يتجهان نحو الشرق ويصبان في منخفض يكوِّن واحة الرقبة[1] على الحافة الجنوبية للصفا.

وأهم الحصون[2] الصغيرة الموجودة في منطقة الصفويين هي من الشمال إلى الجنوب، نقطة جبل سيس، قصر الأبيض، النمارة، دير الكهف، وقلعة الأزرق.

ويذكر أيضاً ديسو (ص٣٧) إنه في أوائل القرن الخامس الميلادي كان للمقاطعة العربية جيشان، أحدهما جيش برقة الثالث وكان يعسكر في بصرى التي كانت عاصمة الإقليم وكانت حصون القصر الأبيض والنمارة ودير الكهف وقلعة الأزرق تتبع القيادة الحربية في بصرى، وأن الجيش الآخر جيش مارتيا الرابع يعسكر في اللجون في شرقي الأردن وتتبعه الحصون الممتدة من عمان حتى الحجاز.

---

(١) الرقبة: سهل منخفض طوله ٢٠ كم تقريباً وعرضه بين ٥ر٦ كم، في الشتاء يصير بحيرة كثيرة المستنقعات، أما في الربيع فيصبح حقلاً زراعياً بديعاً.

(٢) احصن يشكل مساحة مربعة جانبية تقدر بـ(٣٥)م٢ به أبراج مستديرة والجدران ابسمك مترين تقريباً يحميه خندق صغير.

أما البناء ، فكانت الحجارة أكثر مواد البناء استعمالاً ، وهذه خاصة سورية أعطت فن العمارة فيها طابعاً متميزاً ، وجدران البناء كانت تقام بوجهين من الأحجار ، وكان بعضها يمتد من جهة إلى أخرى ، لتكون بمثابة الرباط للمباني ، والفراغ الحاصل بين الوجهين كان يملأ بالحجارة الصغيرة .

وفي حرة وادي رحبيل لا يوجد ماء جارٍ ، إلا في الشتاء وحتى في شهر نيسان من كل عام لا يوجد ماء لسقي الماشية إلا في بعض الأماكن المنخفضة. إلا أنك تجد بعض الآبار لا ينضب ماؤها وخاصة آبار النمارة ، إلاّ أن الحياة في الحرة عسيرة بالنسبة لقطعان الماشية ، وقد رحل عرب الصفاء إلى المنحدر الشرقي لجبل حوران ، والنصوص الصفوية التي ترجع إلى تلك البقاع تدل على أنهم كانوا يقومون بهذه الرحلة الصيفية كل عام طلباً للماء . علماً أن النقوش كانت توجد على مقربة من أماكن وجود الماء ، أي أماكن الانتجاع .

لقد استعمل الصفويون عدة طرق للتغلب على الصلابة الشديدة لتلك الصخور البركانية ، فبعضها كان يستخدم في حفرها منقاشاً حاداً ، لذلك كانت الحروف صغيرة ، والشق ضيق عميق نسبياً ، وبعضها الآخر كان يستخدم في حفرها آلة حادة مدببة ، لذلك كانت الحروف كبيرة ، وبعضها الآخر حفر بطريقة الدق. كما أن بعض الصخور استخدم في حفرها أكثر من آلة ، فقد يبدأ بالمنقاش وينتهي بالمدق.

يذكر ديسو[١] أن مانشر من النصوص الصفوية حتى الآن يبلغ عدده (١٧٥٠) نصاً تقريباً. ويذكر أيضاً عن الأستاذ جوزيف هيلفي أن هناك رابطة متشابهة بين الأبجدية الصفوية ، والكتابات العربية ، والذي أعطى الأبجدية الصفوية شكلها النهائي والأخير عام ١٩٠١ م هو الأستاذ انوليتمان وكان عددها ثمانية وعشرون حرفاً ، تمثل الأبجدية العربية[٢].

واللغة الصفوية لهجة عربية قريبة من القرآن ، أو هي عربية الكتابة كما يدل على ذلك أقدم نص يرجع إلى القرن الرابع الميلادي. ففي الصفوية تم الادغام ، وخاصة أخرى في الدلالة على تشديد الحرف المائع بكتابته مرتين. كما تحدثنا النصوص الصفوية بقائمة من أسماء الأعلام العربية البسيطة والمركبة ، وإذا كان ثمة خصائص صوتية تميز الصفوية عن

---

(١) رينيه ديسو - العرب في سورية قبل الإسلام - طبعة مصر ١٩٥٩ ص:٥٩ .

(٢) أفرد ديسو صفحات من كتاب العرب في سورية قبل الإسلام (٦٥-٩٠) مقارنة الأبجديات ومن ضمنها الصفوية.

العربية القديمة فمردها إلى الحالة الاجتماعية للصفويين، كالعزلة التي كانوا يعيشون فيها، وبساطة أخلاقهم، ويسر ما يقومون به من أعمال. والوقت الذي قدم فيه الصفويون لغتهم كانوا يعيشون عيشة شبه مستقرة متحضرة فشتاؤهم في الحرة حول الصفا من قلعة الأزرق حتى جبل سيس، وفي الصيف كانوا يصعدون بقطعانهم إلى المنحدر الشرقي لجبل حوران.

أما من الناحية السياسية فتدل النقوش، على أن الصفويين أعانوا الرومان معاونة جدية حيث تقلصت المملكة النبطية.

أما عملهم فكان تربية الماشية كأهم عمل، والنصوص تشير إلى الجمل والابل (البكر)، والجمل الصغير، والدلول (الجمل السريع)، والحصان، والفرس، والمهر، والفهد، والضان، والشاة، والماعز، والحمار، والاتان، والبقر كما تدلنا النقوش على طريقة تسليحهم، فراكب الحصان يحمل رمحاً طويلاً، أما الذين يسيرون على أقدامهم، فيقاتلون بالقوس ويحتمون بتروس صغيرة ومستديرة، لقد كان الصيد لهواً محبباً للصفويين، ففي نقوشهم وصورهم كثيراً ما تراهم يطاردون غزالاً أو بقر الوحش ذا القرون الطويلة العمودية.

كما عثر على آلهة عارية في صخور الصفا تتحلى بعقد في جيدها، وأساور في ذراعها وخلاخل في رجليها وفي وسطها حزام، وتمسك بذراعيها المجدولتين أطراف شعرها أو وشاحاً، وفي ذلك توضيح للبس عند الصفويين ونوعيته.

إن الصفويين تسمية حديثة أطلقت على قبائل متنقلة شبه بدوية من مكان لآخر في بلاد الشام طلباً للكلأ والماء.

وأقدم الكتابات الصفوية التي تم اكتشافها، تعود إلى القرون الأولى قبل الميلاد. وخضع الصفويون بحكم وجودهم في بلاد الشام، لحكم الرومان وتم منهم الاعتراف بسيادتهم، إلا أنهم كثيراً ما كانوا يجابهون موظفي الأمن الرومي، وحراس الحدود، ورجال الجباية (الجمارك) حول أمور الأمن من جهة أو محاولة الحكومة الرومانية أخذ الحقوق منهم، أو القبض على من يقاوم منهم، أو يتهرب أو يقوم بأعمال مخالفة فيودعونه السجن أو يقتلونه.

لذلك وأمام هذا الواقع كان الصفويون يتحينون الفرص وينتهزونها، فمتى وجدوا ثغرة أو ضعف في سلطان الروم في أماكن، سكناهم، أو في حراسة حدودهم هاجموهم.

إن الطابع الشخصي للكتابات الصفوية التي تم العثور عليها، واكتشافها لم يمكّن

الاستفادة منها من الوجهة السياسية أو العسكرية هذا وقد وردت في الكتابات الصفوية أسماء قبائل تعود لبلاد الشام منها: الرحبة - بصرى - حجر - تيماء.

لقد كان الصفويين أصحاب ماشية لهم إبل تقوم حياتهم عليها، بالاضافة للمتاجرة بها، كما كانوا يملكون الخيل يركبون عليها، ولهم من الحيوانات أيضاً الماعز والغنم والبقر، وهذه حيوانات تحتاج إلى رعي ومراعي وبعضها الآخر يحتاج لاستقرار نظراً لاستخدامه في الزراعة. وقد أوضحت المكتشفات في الصور التي ترينا الصفوي، وقد ركب حصانه متقلداً رمحاً طويلاً، أي صورة المحارب الفارس عندهم أما المحارب الماشي، فكان يحارب بالقوس وبيده الترس، كما استعان ببعض الأسلحة الأخرى مثل السيوف، والفؤوس والحجارة، وبالاضافة لكل ما تقع يده عليه ويصلح لأن يكون صالحاً للقتال.

أخيراً إن كلمة الصفويين هي اصطلاح أطلق على الكتابات التي عثر عليها، في مواضع متعددة من اللجاة وحوران، ومواضيع أخرى اكتشفت في القرن التاسع عشر.

٥ - الحثيون

ينتمي الحثيون إلى حام بن نوح عن طريق ابنه كنعان الذي ولد له أحد عشر ولداً أحدهم حث وإليه تنتمي قبيلتان:

سكنت إحداهما وادي حمرا وحبرون (الخليل) في جنوب سورية قبل قدوم إبراهيم الخليل، يؤكد ذلك أن إبراهيم الخليل طلب من الحثيين أن يملكوه بعض الأرض، ليجعلها مدفن لزوجته سارة عندما ماتت، فأعطاه عفرون الحثي بعض الأرض (المغارة المكفيلة وما بجانبها من الحقل)[1]. كان الحثيون أثناء ذلك يفضلون أعمال التجارة، وامتلاك الحقول على الحرب والغزو، وقد شاركوا الأموريين وغيرهم في بناء مدينة القدس.

وسكنت القبيلة الأخرى شمال سورية في المنطقة الواقعة، بين الفرات، والعاصي، ومنازلهم في جبل امانوس (اللكام). ثم انتشروا فيما بعد، ما بين الفرات إلى حماه وحمص ودمشق وبرية تدمر.

إذا عدنا إلى أصل الحثيين نجد هناك آراء كثيرة بعضها يذكر أنهم من أصل واحد، وهو حث بن كنعان بن حام، وبعضها الآخر يذكر أن الحثيين الشماليين من ولد يافث، من ذلك لا توجد صلة قرابة بينهما، وأصحاب، هذا الرأي معتمدين اختلاف اللغة بين الشماليين والجنوبيين، بالاضافة للهيئة الطبيعية ورأي آخر يذكر أن الحثيين حاميين، وأن صناعة الحرب وأنواع الأسلحة واللباس، بالإضافة للهيئة كانت متشابهة بينهم. والرأي الأخير يذكر أن الحثيين ساميون، وأن اختلاف اللغة لا يدل على اختلاف الأصل ويؤكدون أن الحثيين ساميون ولغتهم حامية اكسبتها للساميين، والتجارة معهم ألفاظاً وجملاً وأصولاً نحوية سامية.

١ـ يوسف الدبس ج١ ص ١٥٤

هيئة الحثيين وملكهم:

كان الحثيون وعلى الأخص الشماليون يمتازون بهيئة وجوههم الطبيعية التي كانت أقرب إلى الروتانو الذي كانوا قبلهم في شمال سورية، ولون وجوههم أبيض ضارب إلى الحمرة، كما كان الحثيون يحلقون لحاهم وشواربهم وشعر رؤوسهم، ويتركون في أعلاها ناصية، ويوصف شعرهم بأنه أسود، ولباسهم قميص مستطيل يصل إلى العقب. لقد صورتهم الآثار المصرية: حفاة (كأن الصورة تؤكد حالتهم وهم أسرى) إلاّ أن آثارهم في مقر سكنهم تصور لنا أحذيتهم معكوفة، كما تصور أحدهم وفي أذنه حلقة أي أنهم كانوا يتحلون بها.

أما نظام الحكم عندهم فكان ملكي وراثي، والملك يلقب يسار أو سيرا، وكان لأحدهم سيطرة على ملوك أخرين، أهم أعمالهم الحرب والتجارة، وكانوا يكثرون من الخيول، حيث كانت معظم قوتهم الحربية في الخيل والمركبات، وجيوشهم ذات بسالة متمكنين في القتال[1] يتوفر فيهم الانقياد، وتنقسم قواتهم إلى فرسان ورجال يحاربون في المركبات الخفيفة الصغيرة التي تدور على دولابين فقط تجرها فرسان، وتحمل ثلاثة ركاب سائق وزوج من المقاتلين، وقد أكدت الآثار المصرية صوراً عديدة لمركباتهم، وأول مكان أقاموا به هو: أودية جبل أمانوس (اللكام) ثم انتشروا حتى وصلوا الفرات، واستولوا على كركميس ثم انحدروا إلى العاصي، فاستولوا على حماة قادس، كما تحكموا بدمشق فترة عندما غلبوا الآراميين وبسطوا سيطرتهم على آسيا الصغرى أيضاً.

كانت قادس أمنع حصونهم في الجنوب، ولهم شهرة في حروبهم مع المصريين، ففي الكشف عن الآثار والكنوز الهيروغليفية كانت قادس مجهولة، لكن اكتشاف الآثار المصرية تؤكد أنها كانت بالقرب من حمص على جانب بحيرتها، فالآثار المصرية صورتها حصن في جزيرة تحيطها أمواج العاصي، وبها حامية على أسوارها، علماً أنه قبل أخبار الآثار المصرية عن قادس كان يظن ويعتقد أنها موجودة في الأردن، بين بحيرة طبرية وبحيرة الحولة، لكن الآثار المصرية لم تدع مجالاً للشك حول وجود قادس بالقرب من حمص كما ذكرنا

أهم مصادر الحثيين ما يلي:

الكتاب المقدس: آثارهم فيه قليلة غير وافية، وهو متخصص بتاريخ مزور للصهيونية

---

(١) اشراف موريس كروزية - ج١ - ص:٢٠٥.

إلا ما كان له علاقة بهم، وعلى الأخص الجوانب التي ترفع من قيمتهم التاريخية.

الآثار المصرية: (الهيروغليفية) ويتضح فيها ما كان للحثيين من حرب وصلح مع المصريين، ويتضح فيها أيضاً أين كانت مساكنهم، وما كانت عليه قوتهم وسطوتهم ومعبوداتهم.

الآثار الكلدانية: (المسمارية) وتبين لنا ما كان بينهم، وبين ملوك آشور ونينوى من حروب، وأين كانت مدنهم وحصونهم.

آثار الحثيين أنفسهم: والاكتشافات المتتابعة وقد دلت على مستعمراتهم وجالياتهم وصناعتهم، ونوع أبنيتهم، وأسلحتهم وملابسهم، ومعتقداتهم، وحالة اقتصادهم.

الحثيون في الآثار المصرية:

تظهر الآثار المصرية ذكر مدينة قادس قبل الحثيين، أي أنها كانت تابعة للشعب الذي كان يسكن المنطقة قبلهم، وتسمية هذه الآثار بشعب روتانو، وقد يكون هذا الإسم ناتج عن خليط بين اللوذيين والآراميين سكان دمشق، وما يليها نحو الشرق والشمال، لذلك سمتهم الآثار المصرية روتانو علماً أن الآراميين عادوا فيما بعد انقراض الحثيين وتغلبوا على سورية.

إذن كانت سلطة الروتانو في سورية الشمالية، واستمرت سيادتهم إلى عصر الدولة الثامنة عشر المصرية. أي أن الحثيين كانوا ينتزعون أملاكهم مدينة أثر أخرى، حتى أدركوا ما كانوا يبتغونه، فأذلوا الروتانو، وملكوا بدلاً عنهم، وتأكيداً على ذلك نرى أن الآثار التي أرخت حملات رعمسيس الثاني على سورية تذكر الحثيين دون غيرهم إلا من حيث الجغرافية لأن الأرض كانت تسمى بلاد الروتانو.

بعد طرد الملوك الهكسوس من مصر، كان للملوك الدولة الثامنة عشر غزوات في سورية، وقد بدأها امون هوتبو أصل هذه الأسرة، حيث غزا الكنعانيين، وتم له إخضاعهم كما تمكن تحوتمس الأول الوصول إلى دمشق، وتوغل في شمال سورية إلى الفرات، ثم عاد إلى مصر، وقد كرر دخول سورية حفيده تحوتمس الثالث، وكان لدخوله أهمية كبيرة حيث نقشت آثارها وتواريخها على جدار هيكل الكرنك.

عندما وصل تحوتمس إلى الملك كان صغيراً عاجزاً عن تحمل مسؤولياته، وكانت له

أخت اسمها هاتشبو فكانت تدير له الملك ورداً من سكان سورية على ذلك عمت الثورات بها وخرجت على طاعة المصريين إلا سكان غزة وعندما شب تحوتمس واستتب الأمر له خرج (بعد ثلاث وعشرين سنة من ملكه) إلى غزة بنفسه لإخضاع سورية لحكمه. كان ملوك سوريـــة قد تحالفـــوا تحت قيـــادة ملك قادس واتجهـــوا بجحـــافلهم نحـــو مجدو حيث تقابلوا مع تحوتمس بحرب عنيفة قامت بينهما انتصر فيها تحوتمس وانهزم المتحالفون ثم اجتاز تحوتمس مرج ابن عامر وما يليه إلى لبنان وأعمال سورية حتى الفرات دون مقاومة تذكر حيث فتحت له الحصون وتسابق الأمراء في بلاد الشام بتقديم الطاعة له والانقياد لأمرته وقد استسلمت له مجموعة من المدن تذكر المصادر المصرية أن عددها بلغ مائة وتسع عشرة مدينة منها بيروت ودمشق ثم تابع زحفه نحو سورية الشمالية حتى وصل إلى ما بين النهرين وعاد إلى مصر مظفراً غانماً. وتذكر المصادر المصرية هذه النتائج بما يلي (٩٤٢) مركبة وعدداً من الصفائح الذهبية (٢٠٤١) فرساً.

بعد ذلك استقرت الأمور مدة أربع سنوات حاولت بلاد الشام بقيادة ملك الروتانو في قادس العمل على جمع شمل البلاد وإصلاح شؤونها وإعداد معدات الحرب كما عمل على استمالة سكان سورية الشمالية فلما علم تحوتمس بذلك جمع الجحافل (في السنة التاسعة والعشرين من ملكه) وتوجه إلى بلاد الشام عن طريق الساحل ففتح لبنان وأرواد وغيرها. ثم توجه نحو قادس وحاصرها حيث تمكن منها عنوة فدك حصونها وأذلها. أثناءها ثارت أرواد ثانية عليه فعاد إليها وأذلها ثانية وعاد إلى موقعه بعد أن أخذ معه أولاد الملوك في بلاد الشام وإخوانهم ليكونوا رهينة وأمانة حتى لا تقام ثورات ضده فيضمن ولاءهم بتربيته الخاصة لهم وكلما توفي ملك من ملوك بلاد الشام أبدله بأحدهم ممن يثق به.

عاد ملك قادس فحصن مدينته وشجع غيره من ملوك بلاد الشام على الخروج عن طاعة المصريين مما اضطر تحوتمس (سنة ٤٢ لملكه) أن يجمع الجيوش ويتوجه نحو بلاد الشام فتمكن من فتح قادس ودك شملهم وقطع دابر ثوراتهم لمدة اثنتي عشرة سنة.

جاء تحوتمس الرابع فحمل على الحثيين ولا تذكر المصادر المصرية عنه إلا أنه هاجم بلادهم وظلت بلاد الشام دون ثورات.

كان للشغب السياسي والديني الذي حصل في أواخر الدولة الثامنة عشرة أثر على قوة مصر فظهر ضعفها عن ضبط أملاكها حيث خرجت سورية بكاملها عن طاعة المصريين،

أثناء ذلك كان الحثيون[1] قد تغلبوا على الروتانو في شمال سورية وكونوا مملكة واسعة تمتد من شاطىء الفرات إلى جبال طوروس إلى المتوسط إلى قادس إلى دمشق واتحدوا تحت قيادة ملك الحثيين سابالت.

تسلمت الدولة التاسعة عشرة الحكم وأول ملوكها رعمسيس الأول[2] فكانت أولى أعماله إصلاحات داخلية ثم عمد إلى إخضاع سورية إلا أن خصومهم حالياً (الحثيين) غيرهم بالأمس فهم الآن ذو دولة قوية قديرة تعد للحرب عدتها، إلا أنهم كانوا يعادلون المصريين رغم ذلك توجه رعمسيس نحو سورية فدخل فلسطين ثم تابع هجومه وزحفه حتى وصل إلى سهل العاصي وهناك قابلته جيوش لم يكن يحسب لها حساب فدارت معركة انتهت حسب رواية المصادر المصرية إلى عقد معاهدة صلح بين الطرفين معاهدة دفاع مشترك ثم العمل مع بعضهما على من يعادي ويهاجم أحدهما.

خلف رعمسيس ابنه ساتي الأول فقضى على المقاومة والمعارضة في تخومه الشرقية ثم زحف في السنة التالية لحكمه بعساكر جرارة إلى سورية عن طريق فلسطين فاستسلموا له وأدوا الجزية له وقدموا الذخائر لجنده، ثم دان له الآراميون دون نزاع يذكر، كما استسلم له ملوك ما بين النهرين وقدموا له الجزية وتوجه غرب نهر العاصي وهناك عند قلعة قادس حدثت المعركة بينه وبين الحثيين لكن رعمسيس تمكن من فتحها، إلا أن المقاومة استمرت خارجها نظراً لمواقعهم الدفاعية الحصينة خارجها مما اضطر رعمسيس أمام هذه المقاومة العنيفة أن يطلب الصلح مع الحثيين وأن يوقع معاهدة صلح مع ملكهم موتنار ضمنت للحثيين سلامة أملاكهم حتى أن قادس أعيدت لهم مقابل عدم اعتداء الحثيين على الأعمال المصرية، كما تضمنت المعاهدة على أن يكون بين الطرفين معاهدة دفاع وهجوم وأن لا يثير المصريون أية ثورة ضدهم في سورية والأعمال المصرية القريبة منها.

لقد زاد الحثيون جسارة نجاحهم في الدفاع ضد المصريين حيث قطعوا عليهم طريق حلب الفرات التجارية وتقلصت أعمال مصر في سورية على فلسطين وما جاورها وعلى جزء

---

(١) يذكر أن الحثيين والملوك الهكسوس من قبيلة واحدة وأصل واحد لذلك عملوا على أخذ الثأر من المصريين الذين طردوهم من مصر.

(٢) كان رعمسيس الأول قائداً للجند عندما توفي آخر ملوك الأسرة الثامنة عشرة ولم ينجب أطفالاً فرقي إلى الملك غريب عن الأسرة.

من لبنان المجاورة لها. كما كان لهذه المعاهدة أثر على أعمال مصر في سورية حيث أحسن ساتي معاملتـه لهم خوفاً من قيامهم بثورات ضده والتخلص منه لذلك كان حريصاً على الحصول على الجزية وكسب أرباحهم والانتفاع بها لصرفها على البلاد ونفقات الحرب من جهة، والابقاء على هذه المنطقة منطقة أمان وسلام ضد الغزوات والهجمات لبلاده.. من جهة أخرى.

تسلم رعمسيس الثاني السلطة في أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن الخامس عشر قبل الميلاد فخلال حكمه بدت آثار ثورات في فلسطين وأغلب الظن أن الحثيين هم الذين أثاروها لذلك توجه رعمسيس الثاني إلى بلاد الشام فبلغ بيروت ثم عاد إلى مصر دون أن يقابل الحثيين الذين كانوا يتأهبون ويعملون على توحيد صفوفهم كما عملوا على إيجاد تحالف قوي مؤلف منهم ومن سكان حلب (كركميش) الجرجاسيون (إحدى فصائل الكنعانيين) الآراميون (سكانْ سورية الجوفة) الآرواديون - وقد دلت الآثار أن عدد المركبات البحرية لدى هذا التحالف (٢٥٠٠) مركب. علم رعمسيس بهذا التحالف وبغزاه لقد كان ذلك في السنة الخامسة لملكه حيث توجه بجيشه واجتاز فلسطين ثم اتجه غرب حمص حيث عسكر بجنده إلى أن يعلم عن عدوه مقرات قيادة قواته وكيف يديرها.

كان الحثيون بقيادة ملكهم موتتار المدرب على أمور الجندية والحرب يفضل الحيلة في القتال على استعمال القوة فأعلمه جواسيسه موقف رعمسيس لذلك أرسل إليه رجلان متنكران فلما وصلا قالا لرعمسيس الثاني إن رؤوس القبائل المتعددة مع ملك الحثيين الخسيس أرسلونا إليك ليعلموك أنهم يُريدون خدمتك ومتى أردت سيغادرون ملك الحثيين وهو الآن في شمال حلب وقد اتخذ هذا المكان خوفاً من الفرعون وبطشه. انطلت الحيلة على رعمسيس وركبه الغرور ثم أقبل على قادس بعدد قليل وهو على غير تعبئة لأنه كان مطمئناً.

كان ملك الحثيين وجنوده شمال غرب المدينة فدربوا جنودهم وعبؤوها لكي يفاجأ المصريين، أثناء ذلك كان رعمسيس قد قبض على الجاسوسين فعلم منهما الحيلة لكن بعد فوات الأوان. حيث اندفع نحوه ملك الحثيين بغتة فشتته وشطر جيشه شطرين إلا أن شجاعة رعمسيس كما تذكرها المصادر المصرية نجته من محنته وتمكن من جمع جيشه وإعادة تعبئته على ما كان عليه من الوحدة وقاتل حتى نهاية اليوم وتجدد القتال لكن قدرة (المصريين) كانت أفضل مما كانت عليه في البداية حيث تفرق جمع الحثيين وقتل حامل

سلاح الملك وقائد الرجالة ورئيس الخصيان، وكاتب الوقائع الرسمي وحاول بعض المنهزمين عبور النهر فغرق كثير منهم ولولا خروج حرس المدينة للذود عن المنهزمين لكانت نهايتهم وإبادتهم على يد المصريين قد تمت، لذلك قرر ملك الحثيين طلب الأمان وسير وفداً إلى رعمسيس الذي كان قد عقد مجلس حرب لتقرير ذلك فكانت الموافقة وعقد صلحاً وعاد إلى مصر.

لم يكن الصلح الوارد ذكره إلا هدنة مؤقتة حيث أخذ ملك الحثيين يعمل لتجديد الحرب فعمل على إثارة الثورة ضد أعدائه المصريين بتحريض القبائل الخاضعة لهم على الخروج على طاعتهم وفي السنة الثامنة لملك رعمسيس هيج الحثيون الكنعانيين ضده وفي منطقة الخليل حيث حارب الكنعانيون عساكره قرب بحيرة الحولة وفي جبل طابور.

وفي السنة الحادية عشرة لملك رعمسيس خرجت أكثر أعمال فلسطين عن طاعة المصريين إلا أن رعمسيس زحف نحوها وتمكن من استردادها وتوصل إلى قادس وفتحها وتوغل في وادي العاصي وسط بلاد الحثيين حيث دامت هذه الحرب أربع عشرة سنة أو خمس عشرة سنة ولم تخمد نارها إلا بعد أن قتل موتنار ملك الحثيين غيلة.

خلف موتنار أخوه كيتا سار في الوقت الذي ملت فيه الدولتان (المصرية والحثية) القتال وسئمت نفوسهم الحرب لذلك عولت نفوسهم على عقد صلح نهائي مستمر فكتب هذا الصلح أولاً باللغة الحثية ثم باللغة المصرية (الهيروغليفية). كانت معاهدة الصلح هذه في السنة الحادية والعشرين من شهر طيبي أي الشهر الخامس عندهم.

عقدت الهدنة (الصلح) في المدينة التي شيدها رعمسيس وسماها باسمه (بيت رعمسيس) حيث قدم عليه مفوضان سياسيان من قبل ملك الحثيين كيتاسار مصحوبان بصحيفتين من فضة كتب عليها شروط الصلح والأخاء المؤبدين بين الشعبين.

المعاهدة:

مادة ١ - اعتباراً من يوم توقيع المعاهدة يكون سلام وأخاء مؤبدين بين الشعبين فلاتنشأ عداوة بل يكون الملكان أخوين معاً في السلم والحرب متعاونين معاً بقلب واحد (علماً أن هذه المعاهدة نصت على دوامها مدى الحياة) كما يكون الشعب على وفاق وأخاء مؤبدين أيضاً.

مادة ٢ - أن لا يهاجم أحدهما الآخر مهما كانت الأسباب.

مادة ٣ - إذا هاجم عدو أحد البلدين وأرسل بطلب النجدة من الآخر فيجب تنفيذ ذلك وإذا لم يستطع الحضور عليه أن يرسل رجاله وسلاحه للإيقاع بالعدو.

مادة ٤ - يجب تسليم الفارين مهما كانت صفتهم في حال طلبهم.

مادة ٥ - تحدد المعاهدة أن للمصريين من جبيل نحو الغرب والجنوب وكل ما كان في بلاد الشام إلى الشمال والشرق هو للحثيين.

مادة ٦ - استدعاء الآلهة للشهادة على نص المعاهدة حتى تنتقم ممن يخالف نصوصها.

جعلت نصوص هذه المعاهدة دستوراً للتعامل بين الحثيين والمصريين مدة قرن كامل وزيادة في الحنكة السياسية والعسكرية والاقتصادية من رعمسيس فقد وثق الصداقة مع الحثيين بزواجه من ابنة ملكهم ثم بدعوته إياه لزيارة مصر وتذكر المصادر المصرية هذا الشيء.

إن هذه المعاهدة وما نصت عليه كانت وسيلة لدخول عبادة المعبودات السورية إلى مصر ومن أهمها انتشار عبادة بعل وعشتروت ويعتبر ما ذكرته الآثار المصرية المكتشفة آخر علاقتهم مع الحثيين في عهد رعمسيس الثالث أحد فراعنة الدولة العشرين وتذكر تلك الآثار أن هذا الفرعون تمكن من إذلال الحثيين وأسر ملكهم في الحرب.

في الآثار الآشورية:

تذكر الآثار الآشورية أخبار الحثيين حوالي سنة ١١٣٠ ق.م. وظهرت في عهد تجلت فلاصر أول ملك من ملوك نينوى فتذكر الآثار المكتشفة أنه كان للحثيين دولة قوية في شمال سورية وتمتد من لبنان إلى الفرات علماً أن بلاد الآراميين خضعت لسلطتهم وتمتد هذه الدولة إلى مدخل البحر الأسود وعاصمتهم آنذاك كانت كركميش[1] التي كانت كما ذكرنا محطة تجارية بين غرب آسية وشرقها.

وتذكر هذه الآثار أن تجلت فلاصر هاجم الحثيين فبلغ جبل اللكام بعد أن أحرق ودمر ونهب كل ما صادفه في طريقه.

في سنة (٨٥٨-٨٢٣) في مرحلة حكم شلمنصر الثالث حدثت حروب عديدة مع

(١) . تقع كركميش على الفرات شمال نهر السابور شرق مدينة حلب وتعرف الآن هيرابولس.

الحثيين الذين كانوا منقسمين إلى ممالك تضمها معاهدة واحدة ولهذه الدولة مراكز مهمة وحصون منيعة ومنها: كركميش حلب - حماه وتذكر هذه الآثار أن شلمنصر الثالث قضى حياته في حروبه مع الحثيين حيث بلغ جبل اللكام ووادي العاصي وتمكن من هزيمة المتحالفين بقيادة الحثيين وتمكنه أيضاً من قتل بعضهم وأسر بعضهم الآخر. وتذكر المصادر أن شلمنصر الثالث كرر هجومه على بلاد الشام فعبر الفرات وتوجه نحو العاصي وهناك اجتمع عليه إثنا عشر ملكاً متحالفين ضده فنشبت الحرب في كركر وانتصر عليهم إلا أن قوات التحالف أعادت تعبئتها مرة أخرى وقابلته إلا أنها فشلت وهزمت.

بعد وفاة شلمنصر الثالث وقع شغب في بلاد الآشوريين إلا أن حفيد شلمنصر الثالث جند الجند وزحف نحو الحثيين فدخل بلادهم ثم دخل دمشق وأسر ملكها إلا أن خضوع هذه البلاد للأشورين لم يكن إلا مؤقتاً فما إن عاد الغازي إلى عاصمته حتى عاد الحثيون في بلاد الشام إلى استقلالهم وهكذا بقيت سورية حتى وصل إلى سدة الحكم تجلت فلاصر الثاني سنة ٧٤٥ ق.م. فعبر سورية وأخضع الحثيين وأقام معسكراً في تل بالقرب من مدينة أرباد ويقع نحو الغرب والشمال لمدينة حلب ومن هناك أرسل يستدعي جميع ملوك بلاد الشام (سورية) لكي يقدموا له الولاء والطاعة والانقياد ووافوه على ما كان يأمل ثم كرر هجومه على بلاد الشام التي قاومت الغازي مقاومة شديدة إلا أنهم كانوا أضعف من التحدي فسيطر عليهم وفرض عليهم الجزية وترك ملوك بلاد الشام كما كانوا، وبدلاً من الاتحاد مع بعضهم والتعاضد ضد الآشوريين انقسموا على بعضهم ثم عاد تجلت فلاصر عام ٧٣٤ق.م. وانتصر على ملوك سورية وعددهم آنذاك ٢٥ ملكاً منهم ملك كركميش ثم هاجم ملك أشور سرغون بلاد الشام في الوقت الذي كان ملك الحثيين قد تحالف مع ملوك الشمال - ملوك كوبال - ملك أرمينيا - فانتصر ودخل كركميش وفرض على أهلها الهجرة منها إلى بلاد أشور وكانت النتيجة غنيمة خمسين مركبة وأسر (٢٠٠) فارس (٣٠٠٠) راجل ثم استقدم من أشور مجموعة منهم وأسكنهم كركميش بدلاً من سكانها وبذلك تكون نهاية الحثيين وكان بيزيرس آخر ملوكهم.

من آثار الحثيين المكتشفة:

ما ورد في تاريخ الحثيين في المصادر المصرية أو الآشورية لا يمكن اعتبارها صادقة منزهة بعيدة عن المبالغة إلا إذا كانت ظاهرة في الآثار ولا يمكن اكتشاف تاريخ الحثيين بدقة إلا من خلال اكتشاف آثارهم.

إن الخطوط الحثية تختلف عن الخطوط الهيروغليفية المصرية والخطوط الآشورية علماً أن المتتبع للآثار الحثية يظهر له التحسن مع الزمن بها. كان الحثيون يرسمون خطوطهم بارزة محفورة على صفائح معدنية حيث تطرق من الخلف.

أخيراً إن ما تم العثور عليه من مصادر الحثيين قليلة واكتشافها سيقدم تاريخ جديد عن المنطقة ودورها التاريخي.

بعض مظاهر الحضارة عند الحثيين:

الصناعة: لم يتم فك رموز اللغة الحثية بشكل يسمح بدراسة آثارهم بشكل أفضل ولا تحديد أصلها هل هي سامية أم غير سامية وطالما أننا لم نحصل على اكتشاف رموز اللغة الحثية فالبحث عن الصناعة في الآثار المصرية أو غيرها غير كافٍ إلا أن هذه الآثار توضح أنهم اشتهروا بالنحت وآثارهم الباقية تشهد لهم بذلك كما أتقنوا تحويل المعادن ووجدت لهم أختام من أحجار كريمة ومن الأشياء التي تم اختراعها النسر ذو الرأسين (شعار السلاجقة فيما بعد). أخيراً إن صناعة الحثيين خاصة بهم لم يأخذوها عن غيرهم بل على العكس لقد أخذ عنهم غيرهم علماً أن هناك دعاية ضدهم في هذا المجال تذكر أنهم أخذوا صناعتهم من المصريين والبابليين والآشوريين إلا أن تلك الدعاوي بقيت باطلة لعدم تقديم الدليل الثابت والحقيقي الذي يؤكد دعواهم لكن البعض يؤكد أن اليونان أخذوا أشياء كثيرة من صناعتهم عن الحثيين

الديانة: أما معتقداتهم فيعتقد أنهم أخذوا ديانتهم عن بابل ونشروها في بلاد الشام (سورية) وخارجها ضمن المناطق التي سيطروا عليها.

الملابس: استخدمَ الحثيون الحذا ثم الكفوف التي لا تشتمل الأصابع ولهم نوعان من القبعات أحدهما ينطبق على الرأس والنوع الآخر كبير بشكل تاج مستطيل أعلاه مخروطي. أما ملابس النساء فكانت طويلة تستر الجسم إلا الذراعين وبعض الصدر وفي وسطها نطاق. أما ملابس الكهنة فكانت منسقة الأكمام مستطيلة.

وملابس الرجال كانت قميصاً يصل إلى الركبة مشدوداً في الوسط بنطاق يعلق به خنجر ومادة هذا اللباس كانت من الصوف والكتان مصبوغة بالألوان ومن عاداتهم تزيين أثوابهم بنقوش وطراز على أطرافهم وسلاحهم الرمح والقوس يشد على الظهر، والفأس ذو الحدين ووجد لهم أيضاً أبنية وأسلحة من حجر.

٦ - العبرانيون

إحدى الشعوب السامية التي سكنت بلاد الشام ومركز أحداثهم التي ترويها المصادر وعلى الأخص الكتاب المقدس في جنوب بلاد الشام أي في فلسطين ويروي أن دخول العبرانيين إلى جنوب سورية كان نتيجة ثلاث هجرات بدأت الهجرة الأولى منها من بلاد الرافدين. وهنا أجد اختلافاً حول هذه الهجرة لأن أكثر ما نجدها في كتب التاريخ الصهيوني حيث يذكرون أن ابراهيم الخليل كان على رأس هذه الهجرة وابراهيم الخليل جد العرب عن طريق اسماعيل ابنه البكر ورفيقه في التحدث إلى الله وبناء الكعبة لذلك لا يمكن أن نلصق بهذه الهجرة أعمال العبرانيين الذين قدموا فيما بعد واتصفوا بعدة صفات همجية قضوا بها على حضارة الكنعانيين في البلاد والهجرة الثانية تتعلق بالآراميين وكانت في القرن الرابع عشر قبل الميلاد.

أما الهجرة الثالثة فهي الأساس والأصل وهي التي أتت من مصر بقيادة موسى في أواخر القرن الثالث عشر. كان الكنعانيون هم شعب البلاد ونتيجة الهجرات السابقة وتزاوج السكان مع بعضهم البعض فتعلموا من السكان الأصليين حراثة الأرض وبناء المنازل كما تعلموا عنهم أصول القراءة والكتابة.

كان الفلسطينيون هم المنافسين الوحيدين أثناء ذلك للعبرانيين وكانوا يسيطرون على الساحل من غزة إلى جنوب يافا بينما كان العبرانيون يسيطرون على المرتفعات الوسطى في الداخل.

لذلك كان تفوقهم على فلسطين واضحاً في سلاحهم وفي حضارتهم لما امتازوا به من استقرار وحضارة لأن سياستهم كانت قائمة على أن يظلوا قريبين من البحر حيث يمكنهم السيطرة على طرقه واستخدام التلال التي تغطيها الأشجار المثمرة فيما ورائه لتقوية اقتصادهم.

يحاول المؤرخون الصهاينة والمؤيدون لهم إبراز الشعور المقدس عند العبرانيين خلال مرحلة مبكرة من تاريخهم ممارسين حقدهم على شعوب المنطقة وتمردهم وغدرهم وتزمتهم في دياناتهم ومعتقداتهم الزائفة الخارجة على دين موسى وكتاب التوراة ويدعون هذا شعوراً قومياً لا غرابة فيه لأنهم أنفسهم في شكل آخر يحاولون إبراز تصرفات الصهيونية الحديثة وأعمالها القمعية ضد الإنسانية ضد الحق والخير بأنه شعور قومي وإنساني وغير ذلك لكن الحقيقة تتضح للبشرية يوماً بعد يوم حول زيفهم ولغطهم التاريخي حتى أن البعض يدعي ماورد قبل وجود العبرانيين كقوة قبلية شبه منظمة بقيادة داوود وأبنائه وانقسامهم من بعدهم. لقد تناسى المؤرخون كل ما حققته شعوب المنطقة في جنوب بلاد الشام وشعورها القومي ومخلفاتها الحضارية المنبثقة عن تعاون أبناء هذه المنطقة وتفاعلهم الحضاري في مختلف المجالات وهذا على عكس ما نراه من العبرانيين آنذاك.

٧ - بلاد الشام والسيطرة الفارسية

تمكن كورش بحكمه الجديد لبلاد فارس من إخضاع بلاد الشام لسيطرته ٥٣٨ق.م. وفي عهده تم إعادة اليهود من السبي عندما دخل بابل في عام (٥٣٩-٥٣٨ق.م) من ذلك نعتبر أن عصر الساميين العرب قد انتهى وبدأ عصر استعماري جديد هو العصر الهندي الأوروبي، حيث لم يعد حكم العرب على الوطن إلا بعد ألف عام أي في عهد القائد الإنسان العظيم النبي محمد ﷺ.

أصبحت بلاد الشام جزءاً من الامبراطورية الفارسية التي كانت تعتبر من أكبر الامبراطوريات التي عرفها التاريخ ويعود فضل تنظيم هذه الامبراطورية إلى داريوس الأول. وهو من أقدر ملوكها وإليه يعود الفضل في بناء شبكة طرق وإنشاء نظام للبريد كما وضع نظاماً أصلح فيه الضرائب وأعد أسطولاً لخلق طرق بحرية بين مصر وفارس، علماً أن العنصر الفينيقي والخبرة والفن عماد هذا الأسطول وهو الذي قسم هذه الامبراطورية إلى مقاطعات منظمة تسمى كل منها مرزبانة.

كانت بلاد الشام في المرزبانة الخامسة وكانت دمشق المدينة الرئيسية في العهد الفارسي بالإضافة لأربع مدن أخرى هي: صيدا - صور - أرواد - جبيل - إلا أن الأربعة الأخيرة سمح لكل منها حق الحكم على دولة صغيرة غير أنها اتحدت في القرن الرابع قبل الميلاد وجعلت طرابلس مقر المؤسسة الاتحادية، أخيراً تعتبر هذه المرحلة من أكثر العصور غموضاً في تاريخ بلاد الشام كله.

٨ - السيطرة اليونانية

كانت معركة إيسوس عام (٣٣٣)ق.م. بين الفرس والإسكندر المقدوني بداية نهاية الفرس في بلاد الشام وسيطرة اليونان على هذه المنطقة ولم يتعرض اليونانيون بقيادة الاسكندر لمقاومة إلا من صور واستسلمت عام (٣٣٢)ق.م.

تمزقت الامبراطورية بعد الاسكندر وقسمت لأربعة أقسام يتبع كل منها قائد:

بطليموس في مصر، سلوقس في مرزبانة بابل، انتيغونس في آسية الصغرى، إتينياتر في مكدونية.

إذن لم تكن بلاد الشام في حوزة سلوقس حين اقتسام الامبراطورية لأنها ألحقت آنذاك بآسيا الصغرى لكن بطليموس تغلب في عام (٣١٢)ق.م. بمساعدة سلوقس على انتيغونس في غزة وضم فلسطين إلى مقاطعته (مصر) كما استرجع سلوقس في العام نفسه بابل التي كان قد خسرها كما حصل على القسم الشرقي كله من آسية الصغرى بالاضافة لبلاد الشام من الفرات حتى المتوسط وأصبحت انطاكية التي بناها سلوقس على العاصي مقر حكومته أي أن عام (٣١٢)ق.م. يعتبر ميلاد الدولة السلوقية السورية وأصبحت مملكة سورية أكبر وأعظم الممالك التي قامت على أنقاض ممتلكات الاسكندر قوة واتساعاً.

ومن المدن التي بنيت في العهد السلوقي لاوديسا وتسمى اللاذقية أفاميا (قلعة المضيق) حيث احتلت مركزاً عظيماً ففيها الجيش والخزينة الحربية وإسطبل تابع للدولة يضم الخيول بمختلف أنواعها وكان هذا الاسطبل بمثابة مستودع تربى فيه الفيلة وتدرب للحرب. وهكذا بقيت بلاد الشام تحت حكم السلوقيين إلى أن أعلنت روما الحرب ضدهم عام (٦٩)ق.م. حيث تمكن بومبي فيما بعد، من الانتصار على السلوقيين في آسية الصغرى عام (٦٤)ق.م. واحتلت بلاد الشام بكاملها في السنة التالية، أصدر بعدها بومبي مرسوماً يتضمن أن تحكم بلاد الشام مباشرة من قبل نائب قنصل روماني.

كانت أفامية مقر قيادة الجيش السلوقي، لكن معسكراً أقيم في إنطاكية للحرس الملكي. والكتيبة كانت نواة الجيش وأسلحتها كانت السيوف والرماح، أما الأسطول الحربي فلم يقم بأي عمل حاسم في أية معركة ومهمته كانت التعاون مع الجيش وحماية النقليات العسكرية علماً أن السفينة ذات الصفوف الخمسة كانت وحدة الأسطول السلوقي.

كانت بلاد الشام مؤلفة من ثماني مرزبانات أربع في الشمال لكثافة السكان تجمعت حول المدن التالية (إنطاكية - سلوقية - أفامية - اللاذقية) وأربع أخرى في سورية المجوفة ويظهر أن دمشق ولبنان شكلت أول مرزبانة في سورية المجوفة كما شكلت السامرة والخليل مع الساحل المرزبانة الثانية أماالاثنتان الأخريان فكانتا في شرقي الأردن وايدومية.

كانت تجارة سورية داخلياً وخارجياً ذات أهمية كبرى للسلوقيين حيث كان بإمكان القوافل المنطلقة من مصر أو من البتراء أو غيرها أن تتبع الطريق الساحلية حتى تصل إلى اللاذقية، ومن هنا تتصل بسلوقية وانطاكية علما أنه كان بإمكانها أن تنعطف من مجدو أو صور إلى دمشق أما القوافل المنطلقة من أرواد فيمكنها أن تتبع الطريق الساحلية شمالاً وتستدير شرقاً باتجاه حمص وأفامية، علماً أن أفامية أو سلوقية كانت آنذاك محطة لالتقاء جميع هذه القوافل. أما المنتجات الزراعية فقد ازداد إنتاج الحبوب والعنب والخمور والخضراوات ويعود ذلك لتحسين الأساليب المتبعة ودافع التحسين كان الطلبات المتزايدة، أما الصناعة فأصبحت أكثر اتساعاً فهناك صناعة الحرير والزيتون بالإضافة لصناعة الصوف الواسعة الانتشار علماً أنه بقي الطلب في تزايد على الأقمشة الأرجوانية، كما حافظت بلاد الشام على شهرتها القديمة في صناعة الخزف والزجاج كما خطت في صناعة المعادن خطوات كبيرة إلى الأمام في هذا العصر.

٩ - الشعوب الأخرى التي سكنت بلاد الشام قبل الميلاد

الجرجاسيون[١]:

كانوا يقطنون دمشق، وقد امتدوا إلى عشتاروت وادرعة. وكان مركزهم في الأردن وامتدت بلادهم إلى الخليل وجبل الكرمل. ويمكن أن تكون بحيرة طبرية هي بحيرة الجرجاسيين وينسب هؤلاء إلى جرجاس بن كنعان بن حام.

السينيون:

منطقة سكناهم السين في الشمال من عرقا، ويذكر آخرون أن منطقة سكناهم أو أن بعضاً منهم سكن المنطقة الواقعة بين نهر السن وجبلة شمالاً والمرقب جنوباً.

الأرواديون:

هم سكان جزيرة أرواد. وكان يليها في اليابسة إلى منطقة طرطوس وعمريت.

العماديون:

منطقتهم الرئيسية تقع بين المنطقة الواقعة بين النهر الكبير في عكار جنوباً، واللاذقية شمالاً.

الحماتيون:

سكان حماة على العاصي. وباسمهم سميت مدينة حماة. وكان مكانهم بين الآراميين في الجنوب والحثيين في الشمال.

---

(١) اسكندر معلوف - وادي القطوف - طبعة بيروت - ١٩٠٨ - ص: ٤٨.

الرفائيون:

سكنوا باشان (بيسان) ونسبوا إلى جدهم رافا الجبار. ومعنى اسمهم المرتفعون وهم عشيرة سامية من أبناء الآراميين. كانت إقامتهم شرقي الأردن. ومن مدنهم القديمة: عشتاروت، قرنائيم[1]، ويظن أنها قرية الصنمين اليوم. ويذكر أن وادي الرفائيين قد بني من بيت لحم. ومن مشاهير رجالهم (عوج)[2]. الذي حشد جماعة من الآموريين وغزا مملكة باشان فانتصر على العمونيين، وضم مملكة اللجأ إلى مملكته، فأصبحت حدودها الشرقية جبال السلط، والغربية نهر الأردن والشمالية جبل حرمون، والجنوبية مدينة الزرقاء.

الأيطوريون:

وهم من سلالة أيطور بن إسماعيل بن إبراهيم الخليل. ومعنى أيطور الجبلي[3] لاتخاذهم جبل الجأ، وما جاوره مسكناً لهم. وقد كانت لهم سلطة على جنوب دمشق وشرقها كان الأيطوريون شعباً محنكاً بإدارة الحرب، يحسن الرمي بالنبال. وقد استولوا على عنجر وجعلوها عاصمتهم لفترة. ثم توغلوا وانحدروا إلى السواحل فكونوا دولة قوية، كانت عاصمتها طرابلس فيما بعد.

وفي العهد الروماني نجد الأيطوريين يقيمون في لبنان الداخلي. وفي الواقع إن بعض أسماء جنودهم التي احتفظت بها النقوش اللاتينية، تمثل أسماء آرامية عربية. ومن بين الأسماء العربية إسم (هانل) وقد عثر عليه في حوران وحدها دون غيرها.

وعندما امتد سلطانهم إلى لبنان الداخلي - كما ذكرنا جعلوا عاصمتهم شلكيس (عنجر) في البقاع ومن هناك امتد سلطانهم في لبنان من الشاطىء الفينيقي، حيث استولوا على الطريق المشهور تيوبروسوبن كما استولوا على بناء فطرس. وكانوا يقلقون جبيل وبيروت، إلى أن تدخل (بومبي) ليضع حداً لتعسفهم.

وهناك شعوب أخرى سكنت بلاد الشام قبل الميلاد، ومن هذه الشعوب

بنو عساف: كانت مساكنهم في قرية (جبرون) الخليل حالياً.

---

(١) عشتاروت ذات القرنين، يرجح أنها تل عشترة في الجولان.

(٢) معناه طويل العنق أو اعوجه. يذكر أن طول سريره الحديدي المحفوظ في عمان كان تسعة أذرع أو خمسة أمتار وعرضه أربعة أذرع.

(٣) عيسى اسكندر معلوف - ص: ٥٠.

الادوميون:مساكنهم جنوب سورية، وكان الحوريون قبلهم في هذه المنطقة فطردهم الأدميون منها.

العمونيون:سكنوا منطقة الأردن بعد الرفائيين.

المؤابيون:كان مسكنهم شرق البحر الميت.

اليابوسيون: سكنوا فلسطين.

العرقيون:وكانت منطقة سكنهم عرقا وما جاورها.

الفصل الثالث

بلاد الشام بعد الميلاد

أولاً السيطرة الرومانية

أدخل بومبي سنة ٦٤ ق.م. بلاد الشام تحت إسم واحد هو ولاية سورية، وحلت محل مملكة سورية وعاصمتها انطاكية، وبذلك احتفظ ملك الأنباط بدمشق مقابل جزية معينة. واعتبرت سورية ذات أهمية مركزية كبيرة، حتى أنها وقعت تحت الحكم المباشر، لنائب قنصل روماني يتمتع بسلطات تجنيد الجيوش، والاشتراك في الحرب، ثم أصبحت سورية في عام ٥٤ق.م. قاعدة لعمليات حربية للامبراطور الروماني كراسوس.

تمركز نائب القنصل في انطاكية على رأس فرقتين، وكان على استعداد دائم وبقدرة عالية. إذ كانت بلاد الشام تحتل مكانة مرموقة في الحكومة الرومانية، وكانت لهم في الشرق، كبلاد الغال في الغرب، أي مقر مركزي للسلطة العسكرية، وكانت توجد تحت إمرة النائب الحاكم قوة عسكرية كبرى تتألف من أربع فرق، لأن حاكم سورية (بلاد الشام) الروماني كان مسؤولاً عن الممتلكات الرومانية في آسيا الغربية كلها.

وزاد من أهمية سورية - كأول ولاية في الامبراطورية - نجاح الفرق الرومانية المرابطة فيها، بترفيع قائدها فسباسيان إلى السلطة الامبراطورية في عام ٦٩ق.م. والانتصار على منافسه الذي اختارته الفرق المتمركزة في ألمانيا.

القوة الاقتصادية:

كان سكان بلاد الشام في تزايد مستمر، حيث بلغ في القرن الثاني الميلادي سبعة ملايين، وكانت سورية المجوفة ذات خصب عظيم يعود جزئياً لعامل هام آخر هو تنظيم المياه التي يأتي بها العاصي تنظيماً فعالاً، بالاضافة لتنظيم مياه بقية الأنهار داخل بلاد الشام، فالحبوب كانت الغذاء الرئيسي للسكان بالاضافة للرز، كما كانت زراعة البساتين مظهراً جيلاً من مظاهر الحضارة الرومانية القديمة.

وتطورت الصناعة بشكل مطرد، ويأتي الاسفلت في المرتبة الأولى بين المواد المعدنية آنذاك. وكان الأرجوان السوري عظيم الشأن في كل مكان. كما كان النحاس يستثمر من جبل لبنان ومن أريحا ومن بيروت. وكانت التجارة بشكلها الخارجي والداخلي، المورد الرئيسي للثروة. وأغنى المدن في بلاد الشام كانت المدن التجارية كالبتراء، تدمر، جرش، ومدن الساحل.

لقد احتكر التجار في بلاد الشام أبان الحكم الروماني مقداراً كبيراً من تجارة الولايات اللاتينية مع الشرق أما في مجال الصيارفة فلم ينافسهم أحد، وأهم سلعهم كانت: الخمور - التوابل - الحبوب - الأواني الزجاجية - المنسوجات والمجوهرات، كما كان الصناعيون يقومون بدور هام في نفوذ التجارة، فقد بلغت المبادلات التجارية ذروتها الذهبية حيث كانت المدن التجارية في أوج ازدهارها.

وأهم مدن بلاد الشام خلال الحكم الروماني هي انطاكية، ففيها التمتع بالحياة هدف رئيسي بالنسبة للحكام، وقد استمر الحكم الذاتي لها على ما كان عليه في العهد اليوناني (السلوقي) وتعتبر أسبق المدن في بلاد الشام إلى حياة الترف والخلاعة كما كانت أول مركز للمسيحية في بلاد الشام أيضاً، حيث أضحت كنيستها أم الكنائس علماً أن الدعاة الأوائل للدين المسيحي كانوا ينطلقون من انطاكية لأعمالهم التبشيرية ويعودون إليها لرفع تقارير عن أعمالهم، كما عقد في المدينة أكثر من ثلاثين مجمعاً للأساقفة أولها كان سنة ٢٦٩ م.

أما مدينة اللاذقية فكانت منافسة لانطاكية، وهي أيضاً مركز مسرات بحيث يتردد عليها الوجهاء ثم حمص الواقعة على العاصي حيث احتفظت بحكامها الوطنيين خلال الحكم الروماني.

وكانت دمشق عاصمة لبلاد الشام، إلا أن انطاكية تفوقت عليها خلال الحكم السلوقي والروماني، أما بيروت فكانت من أقدم المستعمرات الرومانية وكانت مركز مفرزة من الفرقة الثالثة، ثم أصبحت مدينة ذات حامية، كما كانت مركز أشهر مدرسة للقانون الروماني، ومن ذلك أصبحت قبلة رجال القانون في الشرق كله طيلة الحكم الروماني.

لقد شملت الوحدات الرومانية الموزعة في مختلف الامبراطورية الجنود من كل بلاد الشام على أن الفرقة المرابطة في نوميديا كانت تضم نسبة كبيرة من المحاربين المنتمين إلى بلاد الشام.

كان ذلك النفوذ الذي بلغته بلاد الشام كبيراً، وعلى الأخص عندما تمكن سبتيموس وهو متزوج من سيدة حمصية، باحتلال سدة الحكم حوالي آخر القرن الثاني، كما توج سوري آخر اسمه فيليب العربي [1] أمبراطوراً على روما.

تبدأ المرحلة الثانية من حكم الرومان بانتقال العاصمة المركزية إلى بيزنطة[2] وسميت بإسم قسطنطين الذي أصبح أمبراطوراً بين ٣٢٤-٣٣٧م وقد تمتعت هذه المدينة بموقع جغرافي استراتيجي، فجنت منه فوائد عسكرية واقتصادية، وسرعان ما تفوقت بيزنطة الواقعة على البوسفور على روما القديمة.

كان قسطنطين قبل أن يؤسس هذه المدينة يعترف بالديانة المسيحية الجديدة وقبل نهاية القرن الرابع الميلادي كانت بلاد الشام تقسم إلى عدة مقاطعات هي:

سورية:وقسمت إلى: سوريا الأولى مركزها انطاكية، وأهم مدنها: سلوقية - اللاذقية - جبلة - حلب - وغيرها. سوريا الثانية: مركزها مدينة أفاميا، أهم مدنها: حماه - الرستن - شيزر.

لبنان:وقسمت إلى: لبنان الأول ومركزها مدينة صور، أهم مدنها: عكا - صيدا - بيروت - جبيل - طرابلس - أرواد - عرقه لبنان الثانية: مركزها حمص، أهم مدنها: دمشق - تدمر.

فلسطين:وقسمت إلى ثلاثة أجزاء: فلسطين الأولى، مدينتها الرئيسية قيصرية، أهم مدنها: القدس - نابلس - يافا - غزة - عسقلان، فلسطين الثانية: مركزها بيسان - أهم مدنها: طبرية. فلسطين الثالثة: مركزها بتراء.

هذا التقسيم يوضح لنا تداخل بلاد الشام (سوريا) بعضها ببعض، فهي موحدة توحيداً سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وبشرياً وفكرياً، ولا يمكن الفصل بينها مهما كانت القوى الفاعلة على ذلك.

إن تقسيم بلاد الشام إلى ولايات، وانتقال العاصمة المركزية للامبراطورية الرومانية،

---

(١) هو من قرية عربية صغيرة في حوران، كان قائداً للحرس الأمبراطوري حيث اغتيل الأمبراطور، فنادى الجنود به خلفاً لسابقه، ثم صادق مجلس الشيوخ على هذا الاختيار سنة ٢٤٤م.

(٢) تقع حيث تلتقي أوربا بآسيا (إستنبول حديثاً) ودشنت عاصمة في عام ٣٣٠م.

ألحق الضرر بالعلاقات التجارية لبلاد الشام، سواء الداخلية منها أو الخارجية، فالتجارة كانت بأيديهم حيث كانوا يجتازون العالم الروماني يدفعهم لذلك حبهم للتجارة متحدّين جميع المخاطر.

أخيراً بقيت بلاد الشام ضمن الوطن العربي، تحت السيادة الرومانية إلا ما كان من شرقه، حتى زمن التحرير العربي الإسلامي، وإعادة وحدة الأمة العربية الإسلامية قوة مميزة في العالم.

ثانياً - مملكة الأنباط

بعد موت الاسكندر[1]، وتقسيم مملكته بين قادته الأربعة، وخضوع سورية للسلوقيين، لم تمض فترة طويلة حتى بدأ الضعف يدب، ويظهر على الدولة السلوقية في بلاد الشام، لذلك اغتنم الأنباط هذه الفرصة وكونوا دولتهم المعروفة. ويذكر بعض الباحثين أن وجود الأنباط في الشام يرجع إلى حوالي ٥٨٧ ق.م. عندما سيطروا على المناطق الخصبة المشرفة على الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، إلا أنه لم يرد ذكر الأنباط - كدولة أو شعب.

هذه الدولة التي ألفت نواة مملكة عربية عظيمة تمت لها السيطرة على الشام كلها - إلا في أواخر القرن الرابع ق.م، ٣١٢ ق.م، حيث هزموا خليفة الاسكندر، القائد العسكري انطغيوس وأبادوا جميع قواته، وقد جرت حروب أخرى بين الأنباط والروم لقرون كانت لصالح الأنباط، وفي بعضها الآخر لصالح الروم.

اختار الأنباط جنوب بلاد الشام، أي جنوب سورية وشمال خليج العقبة محطة للقوافل التجارية بين الجزيرة العربية وبلاد الشام ومصر والعراق.

اتخذ الأنباط مدينة البتراء[2] عاصمة سياسية وتجارية لهم، كما اتخذوها حصناً منيعاً ضد الغزوات، فكانت هذه المدينة من أهم المحطات التجارية.

---

(١) محمد أحمد باشميل - العرب في الشام قبل الإسلام - طبعة دار الفكر ١٩٧٣ - ص:٦٢

(٢) كان اسمها القديم هـ.سلع، أو هاسلع، نعتبر أيضاً بلغة الأوربيين الصخر. تبعد خمسين ميلاً إلى الجنوب من البحر الميت.
محمد أحمد باشميل - ص:٢٤. ويذكر منها أنها من بناء دولة الأدوميين عام ٣٨ ق.م حيث كانت حصناً لهم.

وكانت البتراء من أشهر مدن العالم القديم، تقع آثارها اليوم في وادي موسى، وكانت محصنة من جهاتها الثلاث الشرق والغرب والجنوب، كما كانت مسيطرة على الطريق المؤدية إلى غزة في الغرب إلى دمشق وبصرى في الشمال وإلى أيلة على البحر الأحمر، وعلى الخليج العربي عبر الصحراء. تمتاز بتراء بأنها مدينة غنية بالماء، وفيها كثير من البساتين. ومن المدن الأخرى الحجر، وتقع على شريان التجارة في العالم القديم.

أنشأ الأنباط دولة قوية وولّوا عليها ملوكاً ووزراء موظفين، كما ضربوا النقود، وفرضوا الضرائب على التجارة. ثم حدث صراع بينهم وبين الرومان، كان النصر حليف أعدائهم، بالتالي كانت نهايتهم.

لقد تأثر الأنباط تأثيراً كبيراً بالثقافة اليونانية، وكانوا مولعين بحياة الترف واللهو والشراب، حيث نجد لصور الكروم مكانة بارزة في النقش والنحت عندهم. كما برعوا في فن الحفر على الألواح كما كان للمرأة منزلة رفيعة عندهم.

وعن أصول تنظيم الدولة وكيفيتها عند النبط، فلا يعرف عنها شيء يذكر، إلا أن الملك هو رئيس الدولة، والشخص الوحيد الأعلى للحكومة، وهو يختار من يوكل إليهم إدارة الأعمال.

كان النبط إذن من الشعوب العربية التي جمعت ثروة عظيمة وقد اكتنزت الذهب والفضة بفضل اشتغالها بالتجارة وموقعها الممتاز، كونها عقدة مواصلات برية وبحرية. فالطرق البرية كانت عماد طرق القوافل حيث يصل إليها طريق من اليمن موازياً للبحر الأحمر ومنها يتفرع إلى الشام ومصر وغزة، ويصل إليها أيضاً طريق تجارية أخرى من الخليج. ويذكر رينيه ديسو ذلك عندما يذكر أن الأنباط أصبحوا مهيمنين على الطرق التجارية منذ القرن الرابع قبل الميلاد.

كما ملكوا شبكة المواصلات البرية والبحرية بين مصر والشام والجزيرة العربية وجنوب الجزيرة ويذكر أنه في حوالي عام ٨٥ق.م. كان الملك النبطي أريتاس الثالث يحتل دمشق التي كانت آنذاك عاصمة المملكة السلوقية.

لقد عمل ملوك الأنباط على الاستفادة من هذه الطرق، واستغلالها لمصلحة الدولة، مما دفعهم لوضع حراسة قوية لحماية القوافل، وتقديم التسهيلات الضرورية لأصحابها، والاتفاق مع الدول المجاورة لضمان سلامتها مقابل مبالغ تدفع لهم عند المرور (ترانزيت).

لقد تمكن الأنباط من الأخذ بالأساليب الحديثة في الحياة، كما تمكنوا نتيجة ذلك من استغلال أرضهم، وما فيها من موارد طبيعية، كما تعلموا استغلال مناجم النحاس والحديد، ومنهم انتقلت المصنوعات النحاسية والحريرية إلى اليمن.

لقد وسع الأنباط أنظمتهم ومركزهم بإقامة مراكز لحماية القوافل ومحطات لاستثمار المواد المعدنية لم يكتف الأنباط بمياه ينابيعهم، بل أصبحوا بارعين - نتيجة لخبراتهم - في استخراج المياه الباطنية، وفي استخدام مياه الأمطار رغم قلتها، من ثم في قدرتهم على حفظها.

ملوك الأنباط

تمكن الباحثون في تاريخ مملكة الأنباط من ضبط أسماء جملة من ملوكهم، علماً أنه تعسر عليهم ذكر إسم أول من أسس هذه المملكة والزمن الذي أسست فيه، والأسرة التي أنجبت أولئك الملوك. غير أن البعض يتكهن أن أرتاس هو اسم الأسرة الحاكمة لنبط.

إن استقلال النبط كان قبل الميلاد. وبالتالي فالملوك المعروفون هم:

الملك الحارث الأول: ويكثر اسمه بين أسماء الملوك، وظن بعض الباحثين أن هذا الاسم هو لقب، كما يعني فرعون بالنسبة للمصريين، والنجاشي وتبع بالنسبة لشعوبهم، وقد حكم البلاد حوالي سنة (١٦٩)ق.م.

الملك زيدال (زيدايل): حكم البلاد حوالي (١٤٦)ق.م.

الملك الحارث الثاني: حكم من حوالي (١١٠)-(٩٦)ق.م. وهناك من يدعي أنه حكم من (١٣٩-٩٧)ق.م. والبعض الآخر يدعي أنه حكم من (١٢٠-٩٦)ق.م. والأخبار عن هذا الملك غير واضحة، إلا أن بعض المؤرخين يذكرون أن أهل غزة طلبوا منه العون والمساعدة ضد خصومهم، إلا أنه خيب آمالهم، ولم يقدم لهم المساعدة. ويذكر بعضهم الآخر أن الملك الحارث الثاني اغتنم فرصة ضعف الأوضاع السياسية والعسكرية في مصر وبلاد الشام، فهاجم الاثنين معاً وغنم منهما غنائم كثيرة.

الملك عبادة الأول: كان حكمه حوالي سنة (٩٠)ق.م. ويذكر بعض المؤرخين أن حكمه بدأ عام (٩٣)ق.م.

الملك رب ايل الأول: حكم حوالي (٨٧-٨٦)ق.م. ويظهر أن المعلومات عن هذا الملك قليلة، كما أن حكمه كان قصيراً.

الملك الحارث الثالث: ويعتبر من أشهر ملوك الأنباط، وأخباره أوضح من الذين سبقوه وقد حكم من (٨٥-٦٠)ق.م. أو من (٨٧-٦٢)ق.م. اشتهر بتوسيعه رقعة ملكه، حيث جرت معركة بينه وبين انطوخس الثاني عشر، حيث انتصر الحارث الثالث، وقضى على معظم جيش خصمه.

وكان انتصاره في تلك المعركة سبباً في تقوية النبط وشد عزيمتهم كما تمكن بعد استيلائه على السلطة من السيطرة على دمشق سنة (٨٥)ق.م. ثم على سهل البقاع. وشكل مملكة واسعة الأطراف لها جيش قوي مدرب ونظامي، يعتمد عليه في المعارك.

الملك عبادة الثاني: تولى السلطة بعد أبيه الحارث الثالث، حكم من سنة (٦٢-٤٧)ق.م. غير أن هناك رأياً آخر يذكر أنه حكم من (٦٢-٦٠)ق.م. ويذكر أن تاريخه مجهول، إلا أنه عثر على نقد من الفضة ضرب بأمره، وهو من فئة الدراخما.

الملك مالك الأول: ملك بعد أبيه عبادة الثاني من سنة (٤٧-٣٠)ق.م. وهناك رأي آخر يذكر أنه حكم من سنة (٥٠)ق.م. أو حوالي سنة (٤٧)ق.م. إلى سنة (٣٠)ق.م. ويذكر البعض الآخر أنه حكم بعد الحارث الثالث أي من (٦٢-٣٠)ق.م.

الملك عبادة الثالث: حكم من (٣٠-٩)ق.م. ويذكر أنه قتل بالسم مع وزيره ومستشاريه، ويذكر أن الذي سمه إسمه صالح.

الملك الحارث الرابع: حكم من سنة(٩)ق.م. إلى سنة (٤٠)م. وكان متأثراً بالثقافة والحياة الهيلينية.

الملك مالك الثاني: (٤٠-٧١)م. أو (٤٠-٧٥)م.

الملك رب ايل الثاني: حكم من سنة (٧٠-١٠٦)م. أو من (٧٥-١٠١)م. وآخر ملوك الأنباط المعروفين هو مالك الثالث الذي حكم في رأي البعض من (١٠١-١٠٦)م.

وفي أيامه قضى تراجان سنة (١٠٦)م على استقلال المملكة وجعلها تحت سلطة حاكم سوريا، وأطلق عليها إسم الكورة العربية، ونقل مقر الحكم من بتراء إلى بصرى، بينما يذكر البعض أسماء ملوكها على الشكل التالي[1]:

الحارث الأول (١٦٩) ق.م - رب آيل (١٤٦)ق.م، الحارث الثاني «(١١٠-٩٦)».

---

(١) محمد أحمد باشميل - ص:٣١

عبادة الأول (٩٠)ق.م، رب آيل الأول بن عبادة الأول (٨٧)ق.م، الحارث الثالث بن رب آيل (٨٧-٦٢)ق.م، عبادة الثاني بن الحارث الثاني (٦٢-٤٧) مالك الأول بن عبادة الثاني (٤٧-٣٠)ق.م. عبادة الثالث بن مالك الأول (٣٠-٩)ق.م، الحارث الرابع الملقب فيلوباتر عبادة الثالث، الملك خلدو امرأته الملكة شقيلة، امرأته (٩-٤٠)م، مالك الثاني بن الحارث الرابع، الملكة شقيلة امرأته، رب آيل الثاني الملقب سوتر بن مالك الثاني (٤٠-٧٥)م ، الملكة شقيلة والدته أثناء وصايتها عليه (٧٥-١٠١)م. جميلة امرأته. مالك الثالث (١٠١-١٠٦)م.

أخيراً لقد شيد في حوران شبكة طرق تتجه إلى الجنوب إلى بصرى التي كانت سوقاً تجارية نبطية. وأصبح طريق القوافل الممتد من بصرى والمتجه نحو الجنوب ماراً بعمان حتى يصل إلى خليج العقبة من أهم الممرات التجارية كما وجدت طريق من بصرى إلى اذرعات، وطريق أخرى تصل إلى دمشق، وأخرى تصل إلى صلخد، ومنها إلى قلعة الأزرق.

أخيراً يختلف المؤرخون والباحثون في نسب الأنباط، فمنهم من يرى - وهم أصحاب أهل التوراة - أنهم من نسل نبايوط بن اسماعيل أي أنهم من عرب الحجاز، وبعضهم الآخر يرى أنهم من قوم بختنصر، الذي قدم إلى فلسطين واحتلها وخرب بيت المقدس في القرن السادس قبل الميلاد، حيث أباد اليهود وشردهم واستعبدهم، ورأي آخر يرى أن الأنباط جاؤوا من شواطىء الخليج العربي[1]، ويذكر أيضاً أنهم جيلان من أصل واحد البعض استوطن العراق، ويطلق عليهم الأردوانيون وآخرون استوطنوا الشام وعرفوا باسم الارمانيين[2].

بينما يذكر المسعودي[3] أن الانباط هم السريانون ، حيث يذكر أن أهل بابل وملوكهم هم النبط، وينكر عليهم كونهم عرباً بقوله إن النبط هم أبناء نبيط بن ماش بن آرم بن سام بن نوح.

---

(١) جرجي زيدان - العرب قبل الإسلام طبعة بيروت ١٩٧٩ ص:٨١ -٨٣-٩٢.

(٢) حمزة الأصفهاني - تاريخ سني ملوك الأرض - طبعة بيروت ١٩٦١- ص:٩٧.
وعمد أحمد باشميل - ص:٣٠ - ابن خلدون - ج ٢ - ص:١٧٠.

(٣) المسعودي - مروج الذهب - طبعة بيروت ١٩٧٤ - ج ١ - ص:١٢٩-١٣٣ ١٣٤ ٣٦٦.

لقد كان العرب في الجاهلية يحتقرون الأنباط لكونهم مجهولي الأصل وليسوا عرباً[1] وقد يكون المقصود بذلك بقايا الشعوب القديمة الذين كانوا يتكلمون بلهجات عربية، ولكن بركاكة أعجمية وبلكنة ظاهرة[2].

لكن الحقيقة التاريخية تؤكد أن الأنباط عرب، رغم أن الباحثين لم يعثروا على أي نص مدون لهم باللغة العربية، التي كانوا يتكلمون بها. إلا أن آثارهم دلت على أنهم كانوا يدونون كتاباتهم باللغة الآرامية[3]. لكن مما يؤكد أنهم عرب جملة أمور منها:

إن أسماء جميع ملوكهم ورد في أسماء عربية. يؤكد ذلك جواد علي عندما يؤكد أن النبط عرب، بل هم في نظره أقرب إلى قريش، وإلى القبائل الحجازية التي أدركت الإسلام، لأنهم يشاركون قريشاً في أكثر أسماء الأشخاص. ثم مشاركتهم في عبادة أكثر الأصنام كما أن خط النبط قريب جداً من خط القرآن الكريم[4]. ثم إن مؤرخي اليونان الذين عرفوهم، كانوا يذكرونهم ويسمونهم عرباً[5].

---

(١) محمد أحمد باشميل – ص:٣٠.
(٢) جواد علي ج ٣ ص:١١.
(٣) كان ذلك من الإشكالات التي جعلت كثيراً من الإخباريين يقولون إن الأنباط غير عرب.
(٤) جرجي زيدان – تاريخ العرب قبل الإسلام – ص:٩٤-٩٥.
(٥) محمد أحمد باشميل – ص:٣٠.

ثالثاً - مملكة تدمر

على أطراف بادية الشام شرق مدينة حمص، أقامت بعض القبائل العربية دولة عاصرت الفرس والروم هي دولة تدمر. وتدمر مدينة صحراوية تقع في أطراف البادية تفصل الشام عن العراق، وتبعد عن دمشق نحو ١٥٠ ميلاً نحو الشمال، و١٠٠ ميل عن حمص(١). ولموقعها أهمية كبيرة لمرور القوافل التجارية، أو الحملات العسكرية، للاستراحة والتزود بما تحتاجه، حيث أعطاها موقعها أهمية تجارية كبيرة، فكثر لذلك عدد سكانها(٢)، كما أنها ممر القوافل التي تحمل حاصلات اليمن والحبشة إلى العراق وآسيا الصغرى منذ القرن السادس قبل الميلاد، وقد بلغت تدمر قمة ازدهارها في القرن الثالث الميلادي.

وقد اختلف المؤرخون والباحثون في تعيين أول من سكن تدمر وأول من بناها، فتذكر بعض الروايات أن كلمة تدمر هي إسم بنت حسان بن أذينة(٣)، وتقول رواية أخرى إن النبي سليمان بن داوود هو أول من بنى تدمر وشيد بها القصور. وهناك من يذكر أن سكان تدمر هم من بقايا العمالقة كالأنباط، ورأي آخر وأخير أن لفظة تدمر وثنية تعني النخل، وأن الاسكندر ذو القرنين هو الذي أطلق عليها مدينة النخل عندما تغلب عليها. وهذا الرأي هو الأقرب إلى الدقة والصواب.

كان لتدمر نظام حكم يقوم على وجود مجلس للشيوخ، بالإضافة لمجلس شعب على غرار المدن الاغريقية(٤). غير أن وجود تدمر في قلب البادية، والحياة القبلية التي كانت سائدة،

---

(١) محمد أحمد باشميل - ص:٤١.

(٢) جرجي زيدان - ص:٩٨ - وجواد علي ج٣ - ص:٧١ وما بعدها.

(٣) معجم البلدان - ج٢ - ص:١٧.

(٤) عدنان البني خالد الأسعد - تدمر أثرياً تاريخياً وسياحياً - طبعة دمشق ١٩٧٩

لذلك فإن الدور الأكبر في التنظيم يعود للقبيلة[1] وضمنها العشيرة، لأن نظام تدمر الحضري كان في بعض جوانبه قبلياً، وقد استمر رغم السيطرة الرومانية على تدمر فيما بعد.

والمطلع على التاريخ التدمري، يلاحظ أنها كانت حتى النصف الثاني من القرن الأول الميلادي، حيث كانت تجهز نفسها وتؤمن طرق باديتها، ومصايفها بالاعتماد على قواتها الخاصة من الرماة التدمريين، بالإضافة للمشاة والهجانة والخيالة.

وفي هذا المجال يعتبر (تراجان) أول من أسس فرقة نظامية مساعدة للجيش الروماني، كما ويعتبر أول من أقام حامية رومانية في تدمر، وقد عني بالمواصلات، وأثناء فترة سيطرة الرومان على تدمر، لم يكن لمنظماتها الحقوقية الوطنية أي دور، وبقيت هكذا حتى دخلها الامبراطور هادريان[2] (١١٧-١٣٨)م، حيث استقبله أهل تدمر بحرارة وتكريم. ومنذ ذلك الحين حصلت تدمر على لقب المدينة الحرة، وهذا اللقب خولها أخذ القرارات والتحكم والاستقلال بتدمر وسن ضرائبها وجبايتها بنفسها. إلا أنه كان لروما في تدمر مندوب أمبراطوري لمراقبة الخزانة، وكان مثلها في ذلك مثل جميع المدن الحرة في العالم الروماني.

كان لتدمر فوج من الخيالة يعسكر خارج المدينة لمراقبة حدودها الشرقية، وكان تابعاً للجيش الروماني.

وقد كان لسقوط بترا ونهايتها عام (١٠٦)م[3] أثر على تفوق تدمر، حيث أصبحت كل الطرق التجارية خاضعة لموقعها، من ذلك عرفت أكبر قدر من الازدهار الاقتصادي. ومن ذلك الوقت كانت علاقة تدمر بروما حسنة، إلا أنها لم تصل إلى مرتبة المعمرة الرومانية، إلا في عهد الأمبراطور كراكلا الذي منحها هذا اللقب عام ٢١٢م، وبذلك أصبحت تدمر بمرتبة روما من حيث إعفائها من دفع الضرائب، فتطور بذلك اقتصادها وبناؤها، حتى أصبحت بمصاف كبرى مدن العهد الروماني. لكن احتلال الساسانيين لمصب دجلة والفرات في عام ٢٢٨م، بالإضافة لاحتلال مملكة فرجندونيا مسبين ذات الاستقلال الذاتي عند

---

(١) المرجع نفسه - ص: ٢٠.

(٢) يذكر محمد أحمد باشميل في الصفحة (٤٦) أن الأمبراطور هادريان. كان قد زارها عام ١٣٠ م،

(٣) عدنان النبي - خالد الأسعد - ص: ٢٣.

شط العرب، كل ذلك ساعد على سد وقطع طريق الخليج العربي على التدمريين. وبالتالي أخذت تدمر تفقد تدريجياً طرقها التجارية ومركزها التجاري.

أمام هذا الواقع أراد حكام تدمر إيقاف الخطر بتعاونهم مع روما، بمختلف الاتجاهات للحد من التوسع الساساني، إلا أن روما كانت أضعف من أن تقف ضد الساسانيين. أما تدمر فكان الوضع السياسي يتبلور فيها بشكل إمارة تدمرية ذات حكم ذاتي موالية للرومان وتلتف حول أسرة أذينة الأكبر، الذي بيده السلطات العسكرية والمدنية.

شعر الرومان أن أذينة الأكبر يسعى لإزاحة نير الاحتلال الروماني عن بلاده، وعندما شعروا بقوته وبنواياه عملوا على اغتياله، وكان له ولدان[1] هما:

خيران (سبتيموس) حيث تولى السلطة بعد مقتل أبيه، ومنحه الرومان منصب رئاسة الشيوخ في تدمر، إلا أنه لا يوجد شيء يدل على أنه كان ذا شأن في تاريخ تدمر، بل ذكر الرواة أنه مات.

أذينة بن أذينة الأكبر[2]: تولى السلطة بعد موت أخيه خيران، ويذكر أنه تولى السلطة عام ٢٥٨ م. وقد أصبح أذينة حاكماً لولاية سورية علماً أنه كان يحمل لقب عضو مجلس الشيوخ الروماني واستطاع أذينة الاستفادة من توغل سابور في بلاد الشام ليقطع عليه خط الرجعة، أثناء ذلك حصل أذينة على لقب ملك الملوك عام (٢٦٠) م واعتبار تدمر مملكته.

وكان أذينة قد طلب من الأمبراطور الروماني أن يقتص له من قاتل أبيه، غير أن القيصر لم يهتم بذلك، فاغتاظ أذينة وحقد على الرومان، وأضمر لهم العداء. كان أذينة يتصرف وفق مصالح تدمر ولحسابها، حيث كانت تدمر تأمل أن تستعيد مفاتيح تجارتها، فحققت انتصاراً على سابور[3]، وتمكنت من اخماد انقلاب في روما، بالتالي أصبح أذينة سيد الشرق.

---

(١) كان الذي اغتاله بأمر من القيصر هو روفينوس. وبهذا تخلص الرومان الدخلاء من خصم عنيد. وكان اغتياله في أواسط القرن الثالث للميلاد. (جواد علي ج ٣ - ص:٨٨-٨٩).

(٢) تولى شؤون تدمر في عهد القيصر الروماني (والربابوس) سنة ٢٥٨ م وكان يحمل درجة قنصل - محمد أحمد باشميل - ص:٤٨.

(٣) يذكر أن أذينة تمكن من تحرير كل المدن التي كان سابور قد استولى عليها في الجزيرة. وطارد سابور حتى ضرب عليه الحصار في عاصمته المدائن حتى كادت أن تستسلم وذلك عام٢٦٤ م لولا أحداث مفاجئة وهي أن أحد قادة الروم واسمه مكريانوس كان قد قام بانقلاب ونصب نفسه =

ورداً من روما على ذلك تمت عملية اغتيال أذينة في حمص من قبل ابن أخيه إلا ان أهل حمص تمكنوا من القاتل وقتلوه انتقاماً(١).

مهما يكن فزنوبيا هي التي استلمت السلطة بعد زوجها أذينة، فهي سيدة راجحة العقل سيدة الطموح واعية للوضع السياسي المتشكل، لذلك لعبت دوراً ذا أهمية بالغة. وكيف لا تكون كذلك وهي من أنبل نساء العالم وأقدرهن علماً وعملاً، وأكثرهن إشراقاً وجمالاً(٢) إلا أن المؤرخين يختلفون في نسبها، فمنهم من يقول إنها رومانية(٣)، ومنهم من يذكر أنها من أصل العمالقة(٤) وبعضهم الآخر يذكر أنها يهودية من الآدوميين(٥). وبعض المصادر الأخرى تذكر أنها كانت مسيحية، لكن هذه الآراء والأقوال ينقصها الواقع المستمد من النصوص والأسماء العربية مثل أذينة، الزباء، زبدا، خيران، تيم الله|تيم اللات، وهذه أسماء عربية كأسماء القرشيين(٦).

ويذكر ابن خلدون أن الملكة الزباء نفسها من أسرة مالكة من العمالقة الذين سبق لهم وملكوا الشام والعراق وأكثر الجزيرة العربية، وهم من العرب البائدة(٧).

= قيصراً على آسيا الصغرى ومصر وبلاد الشام. وكان هذا الانقلاب ضد القيصر غاليانوس. وعندما عاد أذينة تمكن من معالجة الوضع الخطير الناجم عن الانقلاب. ويذكر أيضاً أنه نجح في اخماد ذلك الانقلاب بعد أن قتل قائده وأنصاره الموالين له (باشميل ص:٥٠).

(١) قد يكون دافع قتل أذينة من قبل الرومان، لأن الاستعمار هو الاستعمار أينما وجد وحيثما حل، هدفه السحق والتدمير لكل من يحد من مصالحه. ولنا من سلوكه في العصر الحديث الكثير مما يؤكد ذلك.

(٢) كانت زنوبيا عربية الأصل تتكلم الآرامية القبطية وبعض اللاتينية واليونانية، ومحل اعجاب قياصرة الرومان لما تمتاز به من صفات عالية. وكان أمبراطور روما قد منحها في عهد زوجها لقب سبتسميا، وهو أكبر ألقاب الشرف عند الرومان. (جرجي زيدان - العرب قبل الإسلام ص:١٠١).

(٣) المسعودي - مروج الذهب - ج ٢ - ص:٩٢.

(٤) الطبرى - أبي جعفر محمد بن جرير الطبري - تاريخ الطبري - تاريخ الرسل والملوك - طبعة مصر ١٩٦٨.

(٥) محمد أحمد باشميل - ص:١٠٠.

(٦) جرجي زيدان - العرب قبل الإسلام - ص:١٠٦.

(٧) ابن خلدون - عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي المغربي - العبر، وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر - تصوير بيروت ١٩٧١ ج ٢ ص:٥٤٤.

وعندما توفي أذينة وقتل قاتله، كان ابنه وهب اللات دون سن الرشد، فتولى مقاليد الأمور تحت وصاية أمه بمواصفاتها السابقة حيث أخذت تنتظر الفرصة المواتية لكي ترفع تدمر لموقعها اللائق بها.

في عام ٢٦٨م ونتيجة أزمة الحكم في روما، بدأت بوادر القطيعة بين تدمر وروما بالظهور، وكانت الفرصة مواتية لزنوبيا، فانتفضت في تدمر وعبأتها سياسياً وعسكرياً، وتمكنت من طرد الرومان من مصر[١]. وأنزلت جنودها هناك، حيث حاول أعداؤها الروم إعادتها أكثر من مرة فكان مصيرهم الفشل[٢]. وبعد أن كونت دولة واسعة الأطراف في عام (٢٧١)م. سكبت عملة في بلاد الشام والإسكندرية.

أرسلت زنوبيا جيوشها نحو الأناضول بقيادة زبدا الذي وصل إلى مضيق البوسفور[٣] وبالتالي استعادت تدمر مجدها وعظمتها وكل طرق المواصلات البرية والبحرية مع الشرق الأقصى كما سيطرت على المصادر الرئيسية لتموين روما.

توجه الأمبراطور أورليان لسحق تدمر وجيوشها ومكانتها التاريخية فاتجه إلى الأناضول أولاً، فانسحب قائد قوات تدمر زبدا إلى انطاكية. وفي تلك الأثناء من عام (٢٧٢)م. كانت مصر قد أعيدت للحظيرة الرومانية، وعجزت قوات تدمر عن المحافظة عليها أو استعادتها فيما بعد. في نفس العام (٢٧٢)م. حدثت معركة عند انطاكية بين الرومان والقوات التدمرية فانسحبت الأخيرة إلى حمص[٤] وعقدت مجلساً حربياً قررت بموجبه الإنسحاب إلى تدمر ثم تحصينها بما يكفل مقاومتها للروم بكل ما يملكون من قوات.

تابع أورليان هجومه نحو تدمر فحاصرها[٥]وحدثت مناوشات بين الطرفين ومراسلات

---

(١) جواد علي - ج ٣ - ص:١٠٧.

(٢) يذكر في هذا المجال أن قيصر الروم اضطر في ذلك العهد إلى عقد معاهدة اتفاقية مع أمبراطورة الشرق زنوبيا على أن يكون الحكم مشتركاً. وكدليل على اعترافه بذلك وضعت صورة مشتركة لوجه قيصر روما أورليانوس ووجه ملك تدمر وهب اللات على النقود المضروبة الخاصة بالتداول في مصر وذلك سنة (٢٧٠) م.

(٣) محمد أحمد باشميل - ص:٦٣.

(٤) المرجع نفسه - ص: ٦٥.

(٥) محمد أحمد باشميل - ص:٦٧.

بين الأمبراطور والملكة زنوبيا حول تسليم تدمر. وكانت تدمر أثناء ذلك قد مكنت قدراتها القتالية وضاعفت تموينها واستعدادها.

قررت زنوبيا أن تتوجه سراً نحو الفرس[1] لطلب النجدة، ومعها فئة من أنصارها علم أورليان عن طريق عيونه وجواسيسه بذلك، وأرسل كوكبة من الجند وراءها، فتمكنوا منها على نهر الفرات عندما كانت تحاول اجتيازه، وعندما علم الجند الذين بداخل تدمر بذلك وبأسر ملكتهم، سلمت تدمر للرومان عام (٢٧٢)م. وتم دخولهم إليها. ثم خرج منها أورليان بعد أن ترك فيها حامية، ثم توجه إلى انطاكية، وبينما هو في حمص في طريق عودته، قتل التدمريون مندوب روما، فعاد أورليان واحتلها ثانية، وعاد ولم يكد يصل إلى روما، حتى ثارت تدمر[2]، إلا أنها استسلمت فيما بعد.

الإقتصاد التدمري

إن المواطن التدمري كان تاجراً قبل كل شيء، أي أنه كان صاحب قافلة، أو مشتركاً بها أو مرتبطاً بشؤونها، علماً أن التجار هم المصدر الأول لتولي المهات العظمى في المدينة. وكان لموقع تدمر ومركزها الهام بين الشرق والغرب أهمية عظمى، حيث كان يدر عليها أرباحاً باهظة.

في ١٨ نيسان عام (١٣٧) م قرر مجلس الشيوخ في تدمر نقش مواد القانون المالي على لوحة أمام المعبد، حيث يتضمن هذا القانون المواد التالية:

في الحقل الأول: مرسوم مجلس الشيوخ وهو مكتوب بالتدمرية واليونانية.

في الحقل الثاني: يتضمن القانون المالي لمستودع تدمر ومنابع مياهها، وهو يشكل التعرفة المالية الجديدة فيما يتعلق بالعبيد والمواد الجافة والأرجوان والزيوت وبعض المواد الأخرى.

الحقل الثالث: يتعلق بالنظام المالي القديم وكان للتدمريين ملكيات زراعية كبيرة نسبياً تهتم بزراعة الحبوب وتأمين الأعلاف.

---

(١) المرجع نفسه - ص:٧٠-٧١.

(٢) المرجع نفسه - ص:٧٣.

إن موقع تدمر الجغرافي، أعطاها مركزاً تجارياً ممتازاً، جعلها محطة رئيسية وشرياناً حيوياً للتجارة، حيث أنها على صلة مع الشرق والغرب.

لقد كانت على صلة باليمن، وغربي الجزيرة العربية وجنوبها، وما يتصل بها من مصادر هامة للتجارة في جنوب الهند، والشرق الأقصى، وأفريقيا ذات المواد الغنية.

وكان لها أيضاً صلة بالعراق وما يتصل بها من أسواق في إيران، وما وراء النهر وغرب الصين ومركزها هذا رفع مكانها في البادية، كما جعلها مركزاً دينياً لعبادة الأصنام، وسوقاً للتجارة، وأفادها ذلك الموقع التجاري بأن عمها خير كثير من أجور الوساطة في البيع والشراء، ومن الضرائب التي كانت تجنيها عن البضائع التي تمر بها أو تباع فيها.

أما من ناحية العملة فقد استبدلتها الزباء، وألغت التعامل بالدينار الروماني كعملة رسمية، ووضعت مكانه نقوداً تدمرية، وهذه النقود كانت نوعين، نوع كتب على أحد وجوهه اسمها، وعلى الوجه الآخر صورتها. والنوع الثاني دينار رسمت على أحد وجوهه صورة ابنها وهب اللات، وعلى الوجه الآخر اسمه، حيث نقشت هذه الأسماء على تلك العملة بالأحرف اليونانية.

رابعاً – الغساسنة

خلال مرحلة تصدع سد مأرب (من سيل العرم) هاجرت قبائل من الأزد وأقامت حول ماء في تهامة يقال له غسان، فسموا آل غسان، ثم انتقلت إلى مشارق الشام، وينسبون إلى جفنة بن عمرو ومزيقياء بن عامر الذي قادهم من اليمن.

ويذكر في بعض الأخبار أن الغساسنة أخذوا الحكم بالقوة من أيدي مهاجرين عرب كانوا قبلهم يحكمون هذه المنطقة يدعون الضجاغمة، وهم من سليم[1] بن حلوان، وهؤلاء من دون شك ولا خلاف من قضاعة.

ويذكر أن ضجعم هو أحد عمال الروم على عرب بلاد الشام، كان حكمه أواخر القرن الرابع الميلادي، ومن ملوك سليم النعمان بن عمرو بن مالك أحد عمال الروم على بلاد الشام، ثم ملك بعده ابنه مالك، ثم عمرو بن مالك، حيث استلم الغساسنة الحكم منهم.

أما حدود مملكة آل غسان فلم تكن ثابتة، بل متبدلة متغيرة حسب سلطة الملوك وتغيرهم، فملكهم كان يتوسع ويتقلص بحسب الظروف فيصل إلى مقربة من دمشق، وإلى فلسطين الثانية ولبنان وإلى ولايات سورية الشمالية في بعض الأحيان، كما يصل إلى مساحة شاسعة من البادية، ثم نجده تارة أخرى أقل توسعاً من ذلك لضعف الملك، إلا أن حكمهم كان يمتد من حوران إلى خليج العقبة، وتعتبر منطقة حوران أشهر مناطق الغساسنة، ففيها قبور بعض الأمراء الغساسنة، وبها كان في الغالب مقرهم الرئيسي، وقد اشتهرت الجابية بأنها قصر الملوك وعرفت بجابية حوران.

---

(١) أبي عمر بن أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي – العقد الفريد – طبعة القاهرة ١٩٥٢ ج ٣ – ص: ٣٧٣.

لقد أتقن الغساسنة الفنون الضرورية للاستفادة التامة من مياه الأمطار، واستثمار الينابيع الجوفية، مما يدل على حالة اقتصادية مزدهرة تؤكدها الأخبار التي يذكرها الشعراء كالنابغة، وحسان بن ثابت، ثم ما يذكره الإخباريون عن جبلة بن الأيهم وإسلامه، والأبهة التي كان بها، مما يؤكد بصورة غير مباشرة الحالة الإقتصادية المتطورة للغساسنة.

الأمراء الغساسنة: اعتمد الباحثون في ذكر أمراء الغساسنة على ابن الكلبي، وغيره كما نذكره فيما بعد، فجاءت النتائج قوائم متعددة سنذكر بعضها، حيث اعتمد بعضها على بعضها الآخر، الأحدث عن الأقدم مع تغيرات قليلة وتحليل غير مقنع. إلا أن المستشرق الألماني تيودر نولدكه درس معظمها، وضمنها رسالته أمراء غسان من آل جفنة، حيث يقابل الحاصل لديه بالموارد السريانية والبيزنطية والعربية، فجاءت القائمة التي وضعها على النحو التالي[1]:

١ - أبو شمر جبله حكم حوال سنة ٥٠٠م.
٢ - الحارث بن جبله: شغل وظيفة العامل الأكبر سنة (٥٢٩- توفي سنة ٥٦٩م).
٣ - أبو كرب المنذر بن الحارث (٥٦٩-٥٨٢).
٤ - النعمان بن المنذر (٥٨٢-٥٨٣).
٥ - الحارث الأصفر ابن الحارث الأكبر.
٦ - الحارث الأعرج ابن الحارث الأصغر.
٧ - أبو حجر النعمان ابن الحارث الأصفر (٥٨٣-٦١٤).
٨ - أخوه عمرو.
٩ - حجر بن النعمان.
١٠ - جبلة بن الأيهم سنة ٦٣٥.

ويذكر ابن قتيبة[2] أن أول من دخل الشام من العرب هو سليم، وهو من غسان ويقال: أنه قضاعه، وملك الروم أحدهم واسمه النعمان بن عمرو بن مالك على الشام، ثم ملك بعده ابنه عمرو، واستلم الحكم آل جفنة ويذكر ابن قتيبة قائمة بأسماء ملوك الغساسنة، وتختلف قائمته عن جميع اللوائح، لأنها تعتمد على شواهد الشعراء، وعلى الروايات المرتبطة بها، وذكرت على النحو التالي:

---

(١) تيودور نولدكه - أمراء غسان - طبعة بيروت ١٩٣٣ - ص:٥٧.
(٢) أبي محمد عبد الله بن مسلم ابن قتيبة - المعارف - طبعة مصر ١٩٦٩ - ص:٦٤٠.

١ - الحارث بن عمرو بن محرق (الحارث الأكبر ويكنى أبا شمر).
٢ - الحارث ابن أبي شمر الحارث الأعرج بن الحارث الأكبر أمه مارية ذات القرطين.
٣ - الحارث بن الحارث بن الحارث وهو الحارث الأصغر وله أخوة منهم: النعمان بن الحارث وله ثلاثة أبناء هم: حجر بن النعمان - النعمان بن النعمان عمر بن النعمان ومن ولده الحارث الأعرج أيضاً عمرو بن الحارث ومن ولده المنذر بن الأيهم بن الحارث وهو أبو جبلة بن الأيهم آخر ملوكهم.

أما المسعودي فيعتمد في قائمته على قائمة ابن الكلبي، إلا أنه لم يذكر بين ملوكهم الحارث الأكبر وهو أعظمهم، كما يعتبر وإذا ورد ذكره وضع تحت إسم الحارث بن أبي شمر وجعله معاصراً للنبي، أما الأعرج فلم يأت على ذكره أبداً، وقائمته جاءت على الشكل التالي[1]:

١ - الحارث بن عمرو بن عامر بن حارث بن امرىء القيس بن تغلبة.
٢ - الحارث بن تغلبة بن جفنة بن عمرو.
٣ - جبلة بن الحارث.
٤ - الحارث بن جبلة.
٥ - النعمان بن الحارث بن تغلبه بن جبلة بن جفنه بن عمرو.
٦ - المنذر أبو شمر بن الحارث بن جبلة بن ثعلبة بن جفنة بن عمرو.
٧ - عون بن أبي شمر.
٨ - الحارث ابن أبي شمر (كان ملكاً حين بعث النبي).
٩ - جبلة بن الأيهم.

أما ابن الوردي[2] فيذكر في كتابه تتمة المختصر أن ملوك الشام كانوا عمال الروم على عرب الشام أصلهم من اليمن من بني الأزد بن الغوث بن نبت بن مالك بن أود بن زيد بن كهلان بن سبأ بعد سيل العرم تفرقوا من اليمن، ونزلوا على ماء بالشام يقال له ماء غسان؛ فنسبوا إليه. كان قبلهم الضجاغمة من سليم فأخرجهم الغساسنة، وحلوا مكانهم. كان ملكهم (٦١٦) قبل الإسلام.

---

(١) المسعودي - مروج الذهب ج٢ ص:٢٣٢.

(٢) ابن الوردي - تتمة المختصر في أخبار البشر - طبعة بيروت ١٩٧٠ ج ١ ص: ٩٢

القائمة التي ذكرها ابن الوردي هي نفسها عند أبي الفداء في تاريخه المختصر في أخبار البشر، ويبدو أنه أخذها منه مباشرة، كما أن هذا الأخير قد أخذها عن قائمة ابن الكلبي.

وأشهر القوائم المعروفة وأفضلها في ذكر أمراء غسان، ما ذكرها حمزة الأصفهاني في كتابه سنى ملوك الأرض والأنبياء الذي ولد سنة (٢٧٠ هـ)[١].

سأذكرها هنا مع تعليق عليها ومقارنة بينها، وبين ما ذكره المستشرق تيودور نولدكه في كتابه أمراء غسان، وتتضمن القائمة إثنين وثلاثين ملكاً غسانياً في بلاد الشام نجدها على الشكل التالي: (يذكرها الأصفهاني في أن):

جفنة بن عمرو: أول ملك من ملوك غسان، واسمه بالكامل جفنة بن عمرو مزيقياء[٢] ابن عامر بن ماء السماء ابن حارثة الغطريف بن امرؤ القيس البطريق بن تغلبة بن مازن بن الأزد بن الغوث.

والذي ملكه على عرب الشام ملكاً من ملوك الروم يقال له: نسطورس، فلما ملك قتل ملوك قضاعة من سليح الذين كانوا يدعون الضجاغمة، كما دانت له قضاعة ومن بالشام من الروم وبني جلق وعدة مصانع، ثم هلك وكان ملكه خمسا وأربعين سنة وثلاثة أشهر (ولم يذكره نولدكه).

عمرو بن جفنة: ملك بعد والده، ومن أعماله بناء الأديرة وأهمها دير حالي، دير آيوب دير هناد أما ملكه خمس سنين (لم يذكره نولدكه).

ثعلبة بن عمرو: ملك بعد عمرو، ومن أعماله بناء العقة، وصرح الغدير في أطراف حوران مما يلي البلقاء. دام ملكه سبع عشرة سنة.

الحارث بن تغلبة: لم يذكر الأصفهاني شيئاً عنه إلا مدة ملكه وكانت عشرين سنة.

جبلة بن الحارث: ما يذكره الأصفهاني عنه أنه ملك بعد الحارث، ومن أعماله بناء القناطر وادرج والقسطل، ومدة ملكه عشر سنين.

---

(١) حمزة ابن الحسن الأصفهاني ص:٥.

(٢) سمي مزيقيا لأنه يحرق كل يوم من سنى ملكة حلتين لئلا يلبسها غيره وقيل سمي مزيقيا لأن الأزد تمزقت على عهده كل ممزق عند هروبهم من سيل الروم - يرجح نولدكه أن شخصيته ليست مسحة من الخرافة.

الحارث بن جبلة: يذكر الأصفهاني أنه ملك بعد أبيه، وأمه مارية ذات القرطين بنت عمرو بن جفنة وكان مسكنه بالبلقاء، وبنى بها الحفير ومصنعه بين دعجان وقصرا بير ومعان وكان ملكه عشر سنين.

أما نولدكه فيذكر عنه على كل حال فلا شك في أن أول أمراء بني جفنة وأعظمهم شأناً هو الحارث بن جبلة.

يذكر نولدكه في كتابه أمراء غسان أن بروكوبيوس يذكر في تاريخه أن الأمبراطور يوستنيان رقى الحارث بن جبلة إلى رتبة ملك وبسط سلطته فوق قبائل عربية متعددة، كان غرضه من ذلك أن يقيم خصماً قوياً في وجه المنذر ملك العرب في الشرق، ويذكر دونما تأكيد بقوله: من المرجح أنه لم يكن للروم قبل أيام الأمبراطور المذكور عمال كبار من العرب في سورية وأنه لم يكن لأحد من الضجاغمة أو لأمراء كندة الذين خضعوا مدة من الزمن للسلطة الرومانية، أو لغيرهم من أمراء العرب سلطة تضاهي ما توصل إليه بنو جفنة فيا بعد.

لم يحدد بروكوبيوس السنة التي عين فيها الحارث بن جبلة من قبل الأمبراطور، إلا أن نولدكه يقول: يستفاد من النص أن ذلك كان في سنة ٥٢٩ م. وفي هذه السنة وفي شهر آذار غزا المنذر الحميري سورية، وعاث في الأرض فساداً دون أن يصيبه عقاب.

يرفض نولدكه ويجسم أن يكون للغساسنة ملوكاً بقوله: لا يصح أن يكون الحارث أو أحد خلفائه قد حمل رسمياً لقب ملك، لأن هذا اللقب كان خاصاً بالقيصر وحده ويستغرب أن بعض كتبة اليونان يطلقون عليهم هذا اللقب، ويؤكدون ذلك، وحتى أن كتبة السريان كانوا يسمون أحياناً أمراء العرب في سورية ملوكاً.

ويتابع نولدكه فيقول إن الوثائق التي تمثل لغة الحكومة المستعملة رسمياً حينذاك لم تكن تطلق على الحارث، أو خلفائه سوى لقب بطريق، أو رئيس قبيلة، أو ما شابه ذلك.

ويذكر الأصفهاني أن للحارث ستة أبناء ملكوا جميعاً، كما هو وارد، وقد ملكوا أربعاً وتسعين سنة وثمانية أشهر، وهذا ممكن لأن الروم كانوا يحاولون قتل من يتمرد عليهم فيتسلم ولي عهده الحكم بعده وهكذا.

المنذر الأكبر بن الحارث: وملك ثلاث سنين.
النعمان بن الحارث: ملك خمس عشرة سنة.

المنذر الأصغر بن الحارث: وهو أبو شمر بن الحارث ملك ثلاث عشرة سنة.

جبلة بن الحارث: كان منزله بجارب فبنى بها قصر حارب، ومحارباً ومنيعه ملك أربع وثلاثين سنة وملك من أبنائه أربعة كما سيرد، وملكوا خمسة وسبعين عاماً وسبعة أشهر.

الأيهم بن الحارث: ملك ثلاث سنين بنى الأديار (دير ضخم دير النبوة، وسعف). وله ولدان ملكا وكان ملكهم ٤٣ سنة وخمسة أشهر.

عمرو بن الحارث: نزل السدير، وبنى قصر الفضاء، وصفاة العجلات، وقصر منار ملك إحدى وعشرين سنة وشهرين.

جفنة الأصغر بن المنذر بن الحارث: وهو الذي أحرق الحيرة، وبه سموا آل محرق، ملك ثلاث سنين.

النعمان الأصغر بن المنذر الأكبر: لم يبن شيئاً ملك سنة واحدة.

النعمان بن عمرو بن المنذر: بنى قصر السويداء، وقصر حارب، وهنا يذكر الأصفهاني أن أباه عمرو لم يملك وقيل ملك سبع وعشرين سنة.

جبلة بن النعمان: كان منزله بصفين، وهو صاحب عين آباغ، وقاتل المنذر بن ماء السماء ملك ست عشرة سنة.

النعمان بن الأيهم: لم يحدث شيئاً ملك إحدى وعشرين سنة.

الحارث بن الأيهم: لم يحدث شيئاً كان ملكه إثنتين وعشرين سنة وخمسة أشهر.

النعمان بن الحارث: هو الذي أصلح صهاريج الرصافة بعد أن خربها بعض ملوك لخم، ملك ثمان عشرة سنة ملك من ولده ثلاثة أبناء ملكوا جميعاً ٦٤ سنة وأربعة أشهر.

المنذر بن النعمان: لم يحدث شيئاً، ملك تسع عشرة سنة.

عمرو بن النعمان: لم يحدث شيئاً أيضاً ملك ثلاثين سنة وأربعة أشهر.

حجر بن النعمان: ملك إثنتي عشرة سنة.

الحارث بن حجر: ملك ستة وعشرين سنة.

جبلة بن الحارث: ملك سبع عشرة سنة وشهراً واحداً.

الحارث بن جبلة: واسمه الحارث بن أبي شمر وهو الذي أوقع ببني كنانة، كان يسكن الجابية ملك إحدى وعشرين وخمسة أشهر.

النعمان بن الحارث: كنيته أبو كرب لقبه قطام ملك سبعاً وثلاثين سنة وثلاثة أشهر.

الأيهم بن جبلة بن الحارث بن أبي شمر: صاحب تدمر وقصر بركة وذات أنمار والمواقع بين القبرين جسر وعامله ملك سبعاً وعشرين سنة.

المنذر بن جبلة: ملك ثلاث عشرة سنة.

شراحبيل بن جبلة: ملك خمساً وعشرين سنة وثلاثة أشهر.

عمرو بن جبلة: ملك عشرة سنوات وشهرين.

جبلة بن الحارث: ملك أربع سنوات.

جبلة بن الأيهم: ملك ثلاث سنين وهو آخر ملوك الغساسنة ومجموع ملكهم ستمائة سنة وست عشرة سنة.

ومهما يكن فإن كل ما قيل عن ملوك الغساسنة فيه من التخمينات والافتراضات الكثير، وأكثره ما قاله تيودور نولدكه في كتابه أمراء غسان.

إن تيودور نولدكه قلل كثيراً من أهمية الغساسنة في سلطاتهم ومجالاتهم السياسية وان الأمبراطور الروماني هو الذي كان يعينهم ويفرضهم كما ذكر في الصفحة الحادية عشرة من كتابه ويستبعد أيضاً في نفس الصفحة أن يكون الحارث، أو أحد خلفائه قد حمل لقب ملك لأن هذا اللقب كان خاصاً بالقيصر وحده، ويستغرب تيودور نولدكه نفسه، فيما كتبه المؤرخون اليونان عن الغساسنة، وكيف كانوا يطلقون أحياناً لقب ملك على الأمراء التابعين، ويتجنبون استعمال كلمة شيخ قبيلة التي كانت تطلق عادة على أمراء العرب. ويذكر أيضاً نصاً لوثيقة نقش عليها ما يلي:

(فلابيوس المنذر البطريق الفائق المدبر ورئيس القبيلة)[1] ويتابع تيودور فيقول: إن لقب بطريق كان لقباً سامياً جداً، وطبقة البطارقة، كانت تعد عند البيزنطيين أعلى الطبقات الاجتماعية على الإطلاق، أي أنها كانت أعلى من رتبة القناصل.

والحقيقة أننا لو حاولنا مقارنة هذه الأمور في مرحلة اندثرت، إلا من الوثائق، ومايعانيه عالمنا الحالي، لظهر لنا أن كثيراً من الدول التي تحمل اسم إمارة ليس لها صفة الدولة الرسمية بعرف نولدكه، وهي تابعة لقوة عظيمة في رأيه وكما يحلل هو وهذا غير صحيح، لأنها في عالمنا المعاصر ذات سيادة قانونية وسلطة شرعية. إذن إن نولدكه وما

(١) تيودور نولدكه – ص:١٢.

قدمه يحتاج إلى إعادة اعتبار وعلى الأخص إن الحفريات والمكتشفات الأثرية عن عصر الغساسنة تعطينا يوماً بعد يوم صورة صحيحة، وواضحة عن سيادة الغساسنة وسلطتهم السياسية المستقلة في بعض مراحلها، وأنها كانت دولة ذات سيادة إلا أن مكان عاصمتها كان في تغير مستمر، كما سيوضح لنا الأصفهاني، فيما ذكره عن ملوكهم ومكان إقامتهم.

يذكر الأصفهاني أن الحارث بن جبلة كان مسكنه بالبلقاء بينما يذكر نفسه عن جبلة بن الحارث وهم أخوة أن مسكنه بعد أن استلم السلطة كان بجازب، ويذكر أيضاً عن أخيهم الثالث عمرو بن الحارث أنه نزل السدير، بينما يذكر نفسه عن جبلة بن النعمان أن منزله كان بصفين، أما الحارث بن جبلة فيذكر عنه أنه سكن الجابية، أما الأيهم بن جبلة فيذكر عنه أنه صاحب تدمر وغيرها. مما يؤكد أنهم كانوا ينقلون عاصمتهم من مكان لآخر حسب ما تقتضيه ظروفهم السياسية آنذاك، وأن ملكهم امتد في أكثر بلاد الشام، مما يؤكد أن تاريخهم ما زال يحيط به غموض كثير هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية قد يكون من الممكن لتلك الدولة منذ البداية أن لا يكون لها أهمية سياسية واقتصادية مما أبعد الذين يذكرون الأخبار والروايات آنذاك عن ذكرهم منذ بداية وجودهم، حتى ولا في مراحل ضعفهم، ثم إن علماء الآثار ما زالوا يعملون في عمليات التنقيب وفي بحثهم عن الغساسنة قد يقدموا شيئاً جديداً يؤكدون فيه وجودهم كسيادة مستقلة في منطقتهم.

أخيراً إن بعض المستشرقين ومنهم نولدكه يحاولون التخفيف من قيمة العرب قبل الإسلام، وبعضهم يقلل من أهميتهم حتى بعد الإسلام، لذلك يجب أن لا يؤخذ برأيهم فيما يتعلق بتاريخ العرب في مختلف مجالاته..

ما ذكرته لا يقلل من أهمية جهود، نولدكه، لكنها محاولة لإثبات تلك الحضارة العريقة السابقة لدى العرب وأنها كانت موجودة حتى قبل الغساسنة وفي منطقة سكنهم.

نستنتج أنه كان للغساسنة عمال، لكنهم في رأي نولدكه غير كبار يمكن أن يأتي المؤرخون على ذكرهم، وعدم ذكرهم لا يعني عدم وجودهم، وأهميتهم بالنسبة لبلاد الشام. ومهما يكن فتاريخ الغساسنة يحتاج إلى إعادة نظر وإلى اكتشافات أثرية دقيقة في بعض مناطق سكنهم لأن تاريخهم ما زال يكمن في هذه المنطقة دون غيرها.

الباب الثاني

التحرير العربي لبلاد الشام

الفصل الأول : توجيه الجيوش
الفصل الثاني : معركة اليرموك
الفصل الثالث : التحرير الشامل لبلاد الشام

الفصل الأول

توجيه الجيوش

الفصل الأول

توجيه الجيوش

بعد حروب الردة وبعد أن استقر الوضع السياسي والإجتماعي والإقتصادي لم تطلع القادة المسلمون نحو تحقيق أهداف الإستراتيجية العربية الإسلامية السياسية، فدعا الخليفة إلى مجلس يضم هؤلاء القادة لمناقشة ذلك وتطبيقه، ثم خرج مجلسهم بقرار يقضي بفتح جبهات متتالية ضد أقوى قوتين عالميتين في تلك المرحلة:

أ - جبهة ضد الأمبراطورية الفارسية.

ب - جبهة ضد الأمبراطورية الرومانية.

بعد اتخاذ القرار أراد الخليفة أبو بكر إعداد الجند، وتوجيهها إلى بلاد الشام، فدعا قادة الدولة[١] إلى اجتماع حرب يستنفرهم، ويدعوهم للاستعداد الكامل وتعبئة عسكرية مطلقة لحرب ضد الروم في بلاد الشام، فكان رأي الجميع الموافقة على قرار الخليفة، فقام في الناس يحدثهم ويحثهم على ذلك قال:

أيها الناس، إن الله قد أنعم عليكم بالإسلام، وأعزكم بالجهاد، ووفقكم بهذا الدين على كل دين، فتجهزوا عباد الله إلى غزو الروم بالشام، فإني مؤمر عليكم، فأطيعوا ربكم ولا تخالفوا أمراءكم، ولتحسن نيتكم وسيرتكم وطاعتكم فإن الله مع الذين اتقوا، والذين هم محسنون.

---

(١) منهم عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان - علي بن أبي طالب طلحة بن عبيدة الله التميمي -الزبير بن العوام - عبد الرحمن بن عوف - سعد بن أبي وقاص: - أبو عبيدة بن الجراح.

إلا أن الرد كان الصمت، حتى قام خالد بن سعيد بن العاص، وتوجه إلى الخليفة. وقال: «نحن غير مخالفين لك، ولا متخلفين عنك، وأنت الوالي الناصح الشفيق، ننفر إذا استنفرتنا، ونطيعك إذا أمرتنا، ونجيبك إذا دعوتنا.

ثم خرج خالد بن سعيد، ومعه أخوته وغلمانه ومن تبعه فكانوا أول من عسكر أما الخليفة فأصدر أمره إلى بلال بأن يستنفر الناس إلى جهاد الروم في بلاد الشام، بعد ذلك دعا كلا من يزيد بن أبي سفيان - أبا عبيدة بن الجراح - ومعاذ بن جبل - وشرحبيل بن حسنة وقد اتخذ قراراً على:

أن يوجههم باتجاه الروم في بلاد الشام، هم الأمراء على الجند، أن يكون أبو عبيدة أميرهم إذا التقوا وإلا فيزيد بن أبي سفيان، عندما وصلوا إلى الخليفة وأطلعهم على قراره طلب منهم المغادرة فوراً والعمل على الإستعداد لذلك كسباً للوقت، ومنذ ذلك الحين بدأ الناس يزحفون باتجاه المعسكر الذي أقيم خارج المدينة إلى أن قدم عليهم الخليفة أبو بكر ومعه بعض مساعديه لتفقد حالتهم وإمكاناتهم.

وبعد تقديره ومن معه لحالة قواته العسكرية ومقارنتها مع قوة العدو كان الرأي دعوة أهل اليمن واستنفارهم لذلك. فكتب كتاباً إلى أهل اليمن، فلما وصل الكتاب وتلي عليهم، كان من أوائل من استجابوا لذلك ذي الكلاع الحميري حيث اجتمع إليه عدد ضخم من أهل اليمن وقدموا إلى المدينة وانضموا إلى معسكر المسلمين، ثم جاء بعده قيس ابن هبيرة بن مكشوح المرادي بمن معه بعد ذلك قرر الخليفة باعتباره القائد العام لجيوش المسلمين أن يوجه الجيوش الواحد بعد الآخر.

تنفيذاً لذلك دعا يزيد بن أبي سفيان وربيعة بن عامر كلا منهم على رتل ومعه رايته. ثم حدد لهم مقدمة ومحور حركة - طريق وادي القرى - تبوك - الجابية - دمشق - لكن القيادة كانت ليزيد بن أبي سفيان، وقبل أن يغادر يزيد وقف الخليفة يعطيه تعليمات وتوجيهات شفهية يقول له فيها:

«لا تضيق على نفسك ولا على أصحابك في مسيرك، ولا تغضب على قومك ولا على أصحابك، وشاورهم في الأمر، واستعمل العدل، وباعد عنك الظلم والجور، وإذا لقيتم القوم فلا تولوهم الأدبار، ومن يولهم يومئذ دبره إلا منحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة، فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير، وإذا نصرتم على عدوكم فلا تقتلوا ولداً

ولا شيخاً ولا إمرأة ولا طفلا ولا تعقروا بهيمة إلا بهيمة المأكول، ولا تفسدوا إذا عاهدتم، ولا تنقضوا إذا صالحتهم، وستمرون على قوم في الصوامع رهباناً، يزعمون أنهم ترهبوا في الله، فدعوهم ولا تهدموا صوامعهم، وستجدون قوماً آخرين من حزب الشيطان وعبدة الصلبان، قد حلقوا أوساط رؤوسهم، حتى كأنها مناحيص العظام، فأعلوهم بسيوفكم حتى يرجعوا إلى الإسلام، «ويعطوا الجزية عن يد وهم صاغرين، وقد استودعتكم الله».

في معنى هذا الكلام مخطط تعبئة واضح، ففيه يؤكد تعليمات للقائد أهمها:

١ - عدم إلزام نفسه وأصحابه بما يؤثر على مسيره وإعطاء كل ذي حق حقه وإعطاء الراحة قدرها لتبقى القدرة القتالية كامنة ومتوفرة ولا تكون شديداً على مرؤوسيك لأن ذلك يخفض الروح المعنوية عندهم وشاورهم في جميع الأمور لرفع معنوياتهم والوصول إلى قرار سليم وصحيح.

٢ - يؤمن العدل لأن الذي يلازم عناصره في وقت السلم، ويبعد عنهم الشر والظلم، لا يعدلون عنه وقت الحرب ويلازموه.

٣ - أوصاه أيضاً بتنفيذ المبادرة، وإعادة تجميع القوات، كما نهاه عن الفرار عند ملاقاة العدو لأن ذلك غضب الله.

٤ - وإذا كان النصر حليفك، فلا تقتل ولداً ولا شيخاً ولا طفلا، ولا تنقض عهداً، ولا تغدر لأن التزام هذه الأعمال يزرع الطمأنينة في المناطق التي تم فتحها، وتجعلهم يلتزمون بما عاهدوا عليه، وفي ذلك كسب استراتيجي للقوات العربية.

٥ - وأما رجال الدين الذين يعيشون في الأذيرة، فما لك وشأنهم وأما الموالين للشيطان، فاحمل عليهم سيفك حتى يدخلوا في دينك أو يدفعوا لك الجزية، وفي ذلك أيضاً كسب استراتيجي لأن الدين ذو نفوذ وتأثير على الآخرين.

إن المسير يعني انتقال القوات من موقع إلى آخر وبسرعة معقولة وأثناءه يجب توفير الراحة للقطعات المتحركة ثم الدقة المتناهية في التحركات والمحافظة على التوقيتات.

وعند المسير كلما كانت القطعات صغيرة في الرتل، كلما كان المسير سهلا وأمنع تنفيذاً لذلك قسم الجيش العربي الإسلامي إلى أرتال من قبل الخليفة آنذاك، وحدد لكل منها هدف.

تحرك يزيد بن أبي سفيان يحمل علمه معاوية أخوه[1] بعد أن أخذ تعليات من الخليفة، حتى وصل إلى تبوك في الوقت الذي علم فيه هرقل ملك الروم بمسير العرب المسلمين لفتح الشام، فجمع بطارقته بمجلس حرب استشارهم فيا هم فاعلون، فكان القرار أن جمع منهم ثمانية آلاف من أشجعهم وأمر عليهم خمسة بطارقة[2]، وساروا يدلهم على وعورة الأرض ذوو الخبرة من العرب - إلا أن يزيد وصل إلى تبوك قبل وصول أعدائه بثلاثة أيام، وفيما هم عازمون للرحيل إلى الجابية إذا بطلائع الروم تظهر لهم، فما كان من ربيعة بن عامر إلا وكمن بمن معه، وأما يزيد فبدأ يحرض جنده ويعرض عليهم هدفه وغايته ويؤكد لهم: أن الله وعدهم النصر والظفر على أعدائهم، أن الجنة تحت ظلال السيوف، أنهم أول جند للعرب المسلمين يدخلون الشام.

فكان ذلك سبباً في رفع معنوياتهم، مما أدى إلى إقدامهم على القتال طالبين النصر أو الشهادة. إن قلة العرب المسلمين لم توهن عزيمتهم، وبالمقابل فقد ساعد كثرة الروم على اندفاعهم دون اتخاذ قرار صحيح وسليم، ودون معرفة دقيقة للأرض ولخطة يزيد، وبعد اتخاذ كل منهم خطة محكمة بدأ القتال بين الطرفين، حاول الروم تطويق خصمهم، عند ذلك خرج ربيعة بن عامر ومن معه من الكمين، وشعارهم التهليل والتكبير، وحملوا على الروم حملة رجل واحد ملتزمين بقوله تعالى:

﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾.

وقد كانت النتيجة انسحاب الروم دون تنظيم، وقتل قائدهم البطاليق العقل المدبر والمفكر المخطط لهم، فكانت الهزيمة والفرار. إلا أن قائدهم الجديد جرجيس أعاد تجميعهم، وقرر العودة للقتال وحدثت مبارزة استطاع فيها ربيعة بن عامر أن يقتله، ثم تشابك الطرفان، وإذا بشرحبيل بن حسنة قد وصل تبوك فعبأ جنده، وزجهم كقوة طازجة في المعركة، فكانت الغلبة والإنتصار لصالح العرب المسلمين.

وبعد أن علم الخليفة بهذا النصر والفتح كتب كتاباً إلى أهل مكة والطائف وهوازن وبني كلاب وسائر المؤمنين يجدد لهم فيه:

---

(١) كان اختيار القائد الأموي للبلقاء على أساس معرفته بها، حيث كان لأبي سفيان بالبلقاء ضيعة تابعة له.

(٢) خمسة أمراء هم البطاريق: جرجيس - وصاحب شرطة هرقل - لوقا بن سمعان - صليب بن حنا - صاحب غزة - فتوح الشام للواقدي - طبعة المكتبة الشعبية ج ٢ - ص: ٤.

أنه قد أعلن الإستنفار العام، وأعلن الجهاد في سبيل الله لفتح بلاد الشام، ويحدد لهم السرعة في تنفيذ ما في كتابه لهم، ويحدد لهم أن واجبهم هو التلبية لأمره، وهم أهل حق، وهم أول من أسلم، وجاهد، ونصر دين الله.

ثم دعا عمرو بن العاص وسلمه الراية، وولاه ما اجتمع إليه من المقاتلين، وصاحب رايته سعيد بن خالد، ثم حدد له الخليفة أن هدفه فلسطين، وحدد له محوراً بأن لا يسلك الطريق الذي سار عليه يزيد، وشرحبيل بن حسنة، وإنما أمره ووجهه أن يسير على طريق إيلياء حتى يصل إلى فلسطين، وها هي بعض تعليماته وتوجيهاته له:

لا تسلك الطريق الذي سار عليها يزيد وشرحبيل بن حسنة بل طريق إيلياء حتى تصل فلسطين، ابعث العيون ليأتوك بالأخبار عن أبي عبيدة، لمساعدته إذا كان يريد ذلك، وإلا فأنت لقتال من في فلسطين، قدم الفرسان لأبي عبيدة والجيش أثر الجيش إذا طلب منك ذلك. أكرم من معك ولا تتعالى عليهم وانصحهم، شاور أولي الأمر والمشورة، اعمل على حراسة القوات وحمايتها، أوصيك بالمعاملة الحسنة لمن معك.

ثم سار عمرو بن العاص، وكل ما أوصاه به الخليفة بحضور أبي عبيدة بن الجراح، وكان قوام الجيش وعدته تسعة آلاف.

بعد مسير عمرو بن العاص بيوم واحد عقدت الرايات لأبي عبيدة بن الجراح، فحدد له هدفه الجابية ومحور الحركة:

وادي القرى[1] - الحجر - ذات المنار[2] - زيزا[3] - ماب - الجابية[4] - ثم قال الخليفة « فإنه ليس يأتيهم مدد إلا أمددناك بمثليهم، أو ضعفهم، وليس بكم والحمد لله قلة ولا ذلة، فلا أعرفن من جبنتم عنهم، ولا من خفتم منهم ».

في هذا النص يظهر مفهوم التعبئة واضحاً، بما حدده الخليفة من قدرة المسلمين على الإمداد الصحيح في وقته، بما يزيد على إمداد عدوهم، ثم يضيف الى التعبئة المادية تعبئة معنوية. عندما يؤكد لهم أنهم في عدة وعدد حسن، وهم فرسان ذوي صبر وقدرة على

---

(١) موضع بمحافظة حمص في سورية يطلق عليها (القريتين).
(٢) مكان في أول الشام في جهة الحجاز.
(٣) مكان مرتفع في أرض البلقاء في الأردن
(٤) إحدى مدن الشام شمال نهر اليرموك.

القتال، وما بهم خوف ولا جبن، مما يدفعهم لملاقاة عدوهم، بقلوب قاسية لا تعرف المسالمة ولا اللين.

مسير خالد من العراق الى الشام:

ثم إن الخليفة دعا خالد بن الوليد[1]، وعقد له راية وأمره على من اجتمع إليه وضم له جيش الزحف، وحدد له العراق وبلاد الفرس. وهو مسير مهم من الناحية الإستراتيجية ثم مسيره الثاني هدفه الشام راجعاً من العراق، والسبب في ذلك أن أبا بكر استخبر عن أبي عبيدة من أبي عامر الدوسي فقيل له:

«إنه قد أشرف على أوائل الشام ولم يجسر على الدخول إليها فلما سمع الخليفة ذلك علم أن أبا عبيدة لا يصلح لقتال الروم، وقرر أن يكتب إلى خالد بن الوليد يوليه على جيوش المسلمين، وقتال الروم، فكتب كتاباً وبعثه إليه يقول له فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم.. من عبد الله عتيق بن أبي قحافة إلى خالد بن الوليد سلام عليك، أما بعد، فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو، وأصلي على نبيه محمد ﷺ وإني قد وليتك على جيوش المسلمين وأمرتك بقتال الروم وأن تسارع إلى مرضاة الله عز وجلّ، وقتال أعداء الله وكن ممن يجاهد في الله حق جهاده ثم كتب... ﴿يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم﴾ وقد جعلتك الأمير على أبي عبيدة ومن معه».

من قراءة الكتاب نلاحظ أن الخليفة باعتباره القائد العام للجيوش العربية الإسلامية كان يحدد لأمراء جنده، وقادته عندما يوجههم للقتال. الهدف - مكانه الجغرافي - الإمكانيات والموارد التي يمكن توفيرها لتنفيذ هدفه - التحرك بسرعة إلى الهدف - تولي قيادة الجيش - محاربة الروم حتى النصر.

إلا أن الخليفة ترك لخالد بن الوليد اختيار الطريق الذي سيسلكه، ثم طريقة وأسلوب قتال عدوه. إن خالد بن الوليد عندما قرأ كتاب الخليفة، لم يكن يعرف أين تتوضع القوات الإسلامية التي سيقودها في بلاد الشام بشكل دقيق ومفصل. إلا أنه كان يعلم أنها موجودة في منطقة بصرى الشام (الجابية).

---

(١) يذكر الأزدي أن أبو بكر كتب إلى خالد بن الوليد وهو باليمامة يوجهه إلى العراق - الأزدي - ص: ٥٤.

بعد أن استلم خالد بن الوليد مهمته، قسم الجيش إلى نصفين[1] وأسرع بنصفه لنجدة المسلمين في الشام، ثم أخذ يفكر في الطريق الذي سيسلكه، حيث كان معروفاً لديه طريقان أحدهما يمر عبر دومة الجندل، حيث تستخدمه القوافل المتجهة للتجارة في بلادِ الشام، إن هذا الطريق له حسناته وهي:

طريق سهلة - توفر المياه على جوانبه - سلامة تحرك القوات على جوانبه من العدو. أما مساوئه فهي أنه طريق طويلة والسير عليها يستغرق وقتاً طويلاً.

أما الطريق الثاني فتمتد على طول نهر الفرات ومنه إلى شمال شرق بلاد الشام، إلا أنها رغم صلاحيتها وسهولة المسير عليها ذات مساوىء، وهي: بعدها عن الجيوش الإسلامية ووجود حامية رومانية عليها تسدها، وتخفف من سرعة سير القوات.

لذلك كان على خالد أن يختار طريقاً آخر، فدعا بعض أمراء جنده لهذا الأمر، وسألهم عن طريق غير ما ذكر فقيل له:

«لا نعرف إلا طريقاً لا يحمل الجيوش يأخذه الفذ - الراكب فإياك أن تغرر بالمسلمين».

لكن خالد كان يفكر في طريق آخر، فبادره رافع بن عميرة بطريق عبر أرض سماوة من الحيرة الى قراقر الى سنوى عبر عين التمر والمصيخ، لكنه حذر خالد بن الوليد من مغبة المرور بهذا الطريق بقوله له.

«إنك لن تطيق ذلك بالخيل والأثقال».

رغم وعورة هذا الطريق وصعوبتها، كما يؤكد رافع بن عميرة، قرر خالد عبوره وسار الجيش على هذه الطريق (أنظر الخريطة) ابتداء من الحيرة، ومعه تسعة آلاف رجل عبروا معه عين التمر - صندودة المصيخ إلى قراقر، وفي قراقر عمل خالد ومن معه على تموين نفسه بما يحتاجه، وخاصة من الماء لأن المنطقة التي سيعبرها في المرحلة القادمة قليلة الماء، وهم في جيش كثير، ومعدات نقل المياه قليلة لا تكفي الغرض.

فكان إقتراح رافع بن عميرة الدليل نفسه بعد استشارة خالد له قوله لخالد: نأخذ ثلاثين جملا ونعطشها، ثم نوردها الماء ونحزم أفواهها، بالإضافة إلى معدات المياه المنفردة،

---

(١) نصفه مع المثنى بن حارثة والنصف الثاني مع خالد يسير به باتجاه الشام.

وفعلا عمل خالد برأيه، فكانوا كلما نزلوا مكاناً للراحة في تلك الصحراء المقفرة، أخذوا عشرة من الإبل يشقون بطونها، ويأخذون ما يجدون من الماء فيها، فيشربون ويأكلون، ثم يتابعون مسيرهم، حتى وصلوا إلى نينوى، وفيها قضى خالد بن الوليد على جميع المقاومات، ومنها إلى أرك، ثم أخضع السخنة وكدمة، ثم إلى تدمر، ومنها إلى القريتين، ثم إلى حوارين ومنها إلى القطيفة – عدرة، وعبر ممر سمي بثنية العقاب نسبة لراية خالد ومنها تحول إلى مرج راهط، ثم بصرى متجهاً إلى دمشق.

وكانت القوات الإسلامية كما ذكرنا قد توجهت إلى عدة جهات، كل منها في تكتيكها تشكل هدفاً استراتيجياً، لأن اتجاه خالد، وهدفه يختلف عن اتجاه أبو عبيدة، وعمرو بن العاص إلا أنها جميعاً يخدمون الإستراتيجية العربية الإسلامية، وكان في وسع كل منها المقدرة على خوض وتحقيق الاشتباك بفاعلية كبيرة، وهي كاملة العدة والعدد، والتموين.

بشكل عام يرتبط المسير، بالتكتيك أكثر من الإستراتيجية لأن المسير عملية تحويل الكل إلى أجزاء، إلا أنها تعود إلى التجميع بعد انتهاء المسير، وعندما كان العرب المسلمون ينفذون المسير، وكانوا يسبقونه بحسابات على المسافة، وزمن الوصول مع تطلع لنتائجه كتدمير العتاد – إنهاك القوى البشرية – نقص التموين – اختبار واختيار الطرق – اليقظة والحذر مع وضع حلول لكل ذلك لتأمين نجاح المسير.

أخذ عمرو بن العاص جيشه، وتوجه إلى فلسطين، وقبل أن يصلها ومن معه أقبل عليهم عدي بن عامر[1] يخبرهم خبر الروم وجنودهم فعقد عمرو بن العاص رايته وأعطاها لعبد الله بن عمر بن الخطاب، وضم له ألف فارس، وأمرهم بالمسير كمقدمة لجيش المسلمين، وأمره أن يوجه المسير في طلب الروم، ثم تقابلت طليعة العرب المسلمين مع طليعة الروم: فقال عبد الله بن عمر لأصحابه:

«لا تهلوهم لأنهم لا بد لهم منكم، والله ينصركم عليهم واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف». ثم التحم مع بطريقهم صاحب الخبرة والرأي والحرب فقتله ابن عمر.

كانت نتيجة المعركة انتصار العرب المسلمين، فجمعوا الغنائم والأموال والأسرى، ثم انعطفوا راجعين إلى عمرو بن العاص، وأخبروه بما جرى، ثم دعى الأسرى واستجوبهم

---

(١) هو من أخيار المسلمين وكان كثيراً ما يتوجه إلى بلاد الشام للتجارة.

بالعربية فقالوا: إن جيش الروم قد أقبل، وأن المعركة التي انتهت كانت طليعة لجيشه وبنتيجة استجوابه للأسرى.أمر المسلمين بالإستعداد.

وفي صباح اليوم الثاني تحركوا قليلا وإذا بهم بجيش الروم يقوده روبيس، وهو موزع إلى عشرة أجزاء، فرتب عمر بن العاص أصحابه، في الميمنة الضحاك وفي الميسرة سعيد ابن خالد، وعلى المؤخرة أبا الدرداء وثبت عمر بالقلب وأمر بقراء القرآن تلك كان ترتيب القتال وعدته، ثم جعل يصفهم ويعبئهم تعبئة القتال، حتى تراهم وكأنهم بنيان مرصوص يشد بعضه بعضاً، وشعارهم آنذاك هو: (لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ يا رب أنصر أمة محمد).

بدأت المعركة حيث برز سعيد بن خالد فقاتل حتى قُتِل ورغم ثبات الروم وعددهم وتطور أسلحتهم فقد قرر العرب المسلمون إجراء تعبئة ثانية تشمل كل الوسائل الممكنة لمواجهة عدوهم ولتحقيق شعارهم، كما أعدوا أنفسهم لتنفيذ القرار الذي اتخذته قيادة القوات العربية بأن يعجوا دواب أعدائهم فيتفرقوا ويسهل عليهم قتالهم، ولم تدم المعركة طويلاً حتى انهزم جيش الروم وبدأ العرب بمطاردتهم فكانت خيلهم أسبق من خيل أعدائهم حيث حققت المطاردة غايتها.

كانت نتيجة المعركة انتصار العرب المسلمين، حيث شكلت هذه المعركة الحرب كلها بالنسبة للجيش الذي وجه وكان هدفه فلسطين ثم جمع عمرو بن العاص الغنائم، وكتب كتاباً وجهه إلى أبي عبيدة بن الجراح ذكر فيه من قتل من أصحابه وعلى رأسهم سعيد بن خالد. وكان أبوه مع جيش أبي عبيدة، فسمع بمقتل ابنه، فأخذ موافقة من أبي عبيدة كونه القائد العام للجيش بالذهاب إلى فلسطين لزيارة قبر ابنه، وزوده بكتاب إلى عمرو بن العاص يقول له فيه « فإن كان أبو بكر أمرك أن تكون معنا فسر إلينا وإن كان أمرك بالثبات في موضعك فأثبت ».

عندما وصل خالد بن سعيد إلى غمرو بن العاص قرر أن يأخذ بثأره لإبنه، فركب ومعه ثلاثمائة فارس، فانقض ومن معه على عدوهم في ذروته فقتلوا منهم وأسروا أربعة استجوبهم خالد بن سعيد عن جيش الروم، فقالوا: هم بأجنادين وعرف منهم محور حركة عدوهم وأن عندهم بطريق قدم إليهم ليحمل الميرة منهم والعلوفة ودله الأسرى على طريق المسير إلى عدوهم وإذا هم هناك بقوى مؤلفة من ستمائة مقاتل خاض معهم معركة صغيرة بتعبئة وبروح معنوية عالية، فانتصر عليهم، وأخذ منهم الميرة والعلوفة، وعاد إلى عمرو بن

العاص بما معه، بعد ذلك كتب عمرو بن العاص كتاباً إلى الخليفة أبو بكر يحدثه بما جرى له مع الروم ويخبره بفتح فلسطين.

لقد كان العمل الذي قام به عمرو بن العاص بعد مسيره باتجاه هدفه سبقاً علمياً لتطبيق مبادىء وأصول التعبئة، حيث عمل بكل ما يملك لإحضار قواته عدداً وعدة، لكي ينقض بها على المناطق الحاسمة في مسرح الحرب، متفادياً تعرض جيشه للخطر، بواسطة المقدمة التي أرسلها، وعلى رأسها عبد الله بن عمر بن الخطاب، وقوامها ألف مقاتل، وهي قادرة على خوض معركة مستقلة كما حدث، حيث شكلت هدفاً تكتيكياً يخدم القوات الرئيسة، وأعطاها دفعاً جديداً لكسب جديد.

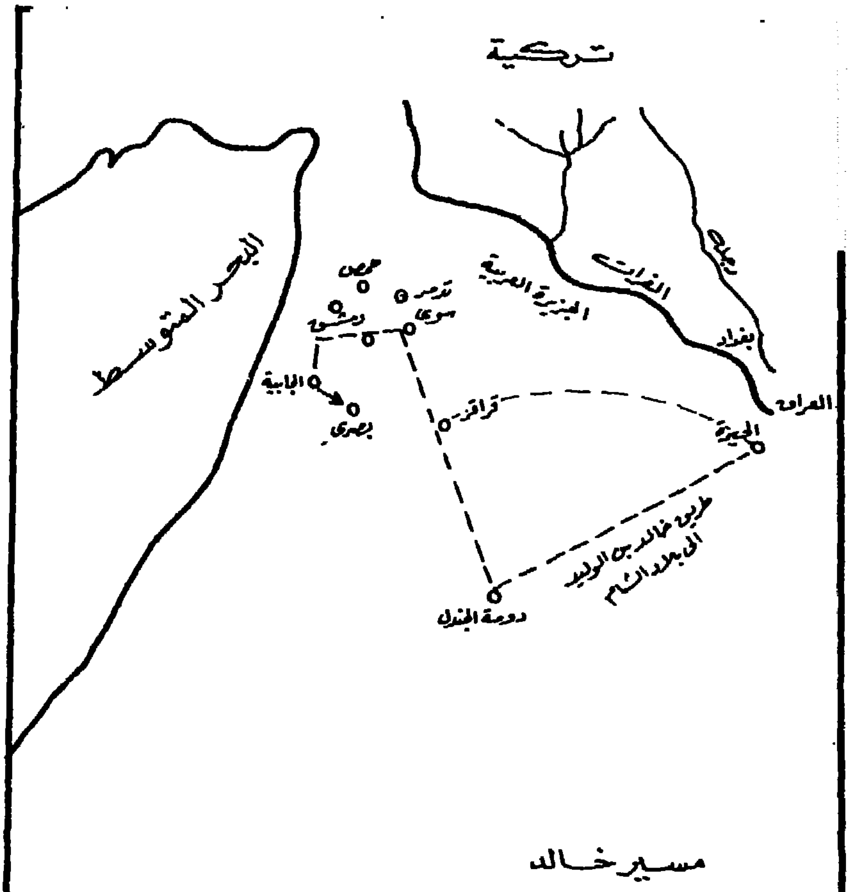
لقد شكلت المعركة الحاسمة التي خاضها عمرو بن العاص الحرب كلها كما ذكرنا في فلسطين فلقد رتب عسكره بحالة تمكنه أن يشتبك بكل قواته وبحالة تسمح له بالمناورة ضد قوات العدو كبيرة كانت أم صغيرة، يقول الواقدي:

(فلما أشرف الجيش على الجيش أقبل عمرو ورتب أصحابه وجعل في الميمنة الضحاك وفي الميسرة سعيد وأقام على الساق أبا الدرداء وثبت عمرو في القلب ومعه أهل مكة وأمر الناس بقراءة القرآن، وقال لهم اصبروا على قضاء الله وارغبوا في ثواب الله وجنته، ثم إنه جعل يصفهم ويعبئهم تعبئة الحرب).

إن هذا الترتيب ما كان سائداً في الجيوش آنذاك عربية أو معاصرة للدولة العربية، فهو يسمح لهم بخوض معركة بسرعة وبشكل مجمع، كما أنه يستطيع أثناء المعركة القيام، بمناورات تكتيكية تمكن من نقل الميمنة إلى الميسرة والميسرة إلى الميمنة أو التحرك في القلب باتجاه المنطقة الحاسمة في مسرح العمليات. ثم تطبيق مبدأ المطاردة التي أرادوا منها القتال لا الغنيمة، كما عبروا عن ذلك.

الفصل الثاني

معركة اليرموك



مسير خالد
ومحور حركته

الفصل الثاني

اليرموك [١٣ هـ]

الإعداد والتحضير لمعركة اليرموك:

بعد مسير الجيوش العربية الإسلامية باتجاه بلاد الشام والعراق وفارس بلغ ذلك هرقل ملك الروم، فكتب إلى أقاليم الأمبراطورية يدعوهمْ إلى تعبئة عسكرية شاملة لإعادة سيطرتهم على ما فتح المسلمون، فوجه من اجتمع إليه على الشكل التالي.

أرسل جيشاً إلى قيسارية ليدافع عن عكا وطبرية براً وبحراً، مع إعداد وتحضير أهلها للذود عنها. وجيشاً إلى بيت المقدس يدافع عن المقدسات فيها ويحميها ويعبىء سكانها وأبناءها ضد العرب المسلمين.

ثم دعا هرقل القادة العسكرين في أمبراطوريته الذين اجتمعوا إليه، إلى مجلس حرب، وأخذ يحذرهم ويوجههم ويضعهم في صورة الموقف بشكل دقيق: وهي أن العرب لا بد وأن يملكوا ما تحت سريره يقول:

«لا بد لهؤلاء العرب أن يملكوا ما تحت سريري هذا».

حدد لهم بأنه قد جمع من الجند، ما تعجز عنه أية قوة في العالم مهما كانت، وأنهم أكثر عدداً وعدة ومدداً وقوة من العرب. كما دعا القادة أن يعدلوا ولا يظلموا. لأن ذلك يضعف الروح المعنوية في جيشهم ثم دعاهم وأوصاهم بالمقاتلين وبالصبر في مسرح العمليات. دعاهم على اجتماع كلمتهم وتوحيدها تجاه الخطر الذي يحدق بهم.

حذرهم من الحسد والعجب، لأنهما ما نزلا بشعب إلا انخذل، ثم أخذ يعبىء نفوسهم

بالشجاعة، وأخذ العظة والعبرة من الماضي لأن الترك - والفرس - والجرامقة قد خذلوا مراراً، فكيف لهؤلاء العرب أن ينتصروا، ويسيطروا عليكم في أكثر من مكان. إن سبب تفوق العرب يعود لأسباب عديدة بعضها يكمن في عدوهم مثل:

تفشي الظلم عندهم وبعضهم على بعض، عدم الطاعة فيا بينهم مما يجعل تعبئتهم أقل أهمية. ثم عدم اعتناقهم عقيدة ثابتة راسخة توحدهم وتجمعهم - تعدد قومياتهم ولغاتهم وعاداتهم - وثقافاتهم. أما سبب تفوق العرب المسلمين فهو:

وجود عقيدة روحية وسياسية تجمعهم، ثم الطاعة لبعضهم ولذوي الفضل منهم، ملازمة القادة للجند في كل الأحوال، والإشراف على ما يحتاجون وفي مختلف المجالات، تطبيقهم مبدأ المساواة والعدل، الإقدام في القتال حتى النصر أو الشهادة، وهم أيضاً من أصل واحد وقومية واحدة (لغتهم واحدة - ثقافة واحدة - تاريخ مشترك - آمال وآلام مشتركة).

وعندما سمع من الذي حضروا مجلسه من قواده، قرروا بالإجماع مناهضة العرب وملاقاتهم، عند ذلك قرر أن يوجه ما اجتمع إليه من المقاتلين لملاقاة العرب المسلمين وسحقهم إذا قدروا على ذلك أينا وجدوهم.

ثم وجه جيشاً بقيادة تذارف أخوه وقوامه تسعون ألفاً نحو ثنية جلق بأعلى فلسطين، أما محور الحركة فكان اللاذقية جبلة طرطوس حمص.

جيشاً ثانياً يقوده جرحة بن تودر ملك عمورية وجهه نحو يزيد ابن أبي سفيان ومحور الحركة طريق الجادة.

وجيشاً ثالثاً يقوده الدراقوص نحو شرحبيل بن حسنة محور الحركة أرض العواصم.

وجيشاً رابعاً يقوده الفيقار بن نسطوس في ستين ألفاً. ووجهه نحو أبي عبيدة بن الجراح[1] ومحور الحركة حلب حماة حمص. وأخيراً مقدمة على رأسها جبلة بن الأيهم الغساني.

---

(١) يذكر الواقدي أسماء القادة الذين وجهوا كما يلي: طبعة دار الفكر - ج ١ - ص: ٩٧.
- قناطر ملك الروسية - محور الحركة جبلة اللاذقية الى شمال سورية
- جرجير ملك عمورية - محور الحركة - طريق الجادة العظمى - أرض العراق.

وقبل أن يتحرك هؤلاء القادة، وفي اجتماعه بهم حدد لهم بأن ماهان الارمني هو قائد هذه الجيوش إذا اجتمعت، وأمرهم بطاعته وتنفيذ أوامره، واستشارته في كل أمر كما عبأ أنفسهم حقداً وكراهية للعرب. ثم حدد لكل منهم طريقاً يسلكه وحدد اليرموك مكاناً لاجتماعهم في نهاية المسير.

لقد كان تعداد الجيش الذي وجهه هرقل إلى العرب المسلمين مائتين وأربعين ألفاً[1]. والعرب المسلمون في ستة وأربعين ألفاً[2]، فهاب العرب المسلمون تعداد جيش الروم، فكتبوا إلى الخليفة يستطلعون رأيه، فكان رأيه الاجتماع، يقول:

إن مثلنا إذا اجتمع لم يغلب من قلة.

أمرهم بالتساند بعد اجتماعهم في اليرموك، فبلغ ذلك هرقل ملك الروم، فبعث بكتاب إلى قائد جنده يحدد له ترتيب القتال يؤكد فيه العمل على حشد وجمع القوات وتعبئتها بشكل منظم حدد لهم ترتيب قتال يسهل عليهم قيادة القوات وإمكانية مناورتها - كما حدد لهم شروط المكان الذي يجب أن يجتمعوا به كما وعدهم أن تكون الإمدادات واصلة ومتواصلة لهم.

وعندما وصل كتاب هرقل نفذوا ما جاء به، ثم نزلوا الواقوصة (على ضفة اليرموك) فأصبح الوادي، وكأنه خندق لهم ونزل المسلمون العرب بعد ذلك على طريقهم بالقرب منهم وليس للروم إلا هذا الطريق.

- قورين: محور الحركة طريق حلب حماة حمص.
- الديرجان صاحب القسطنطينية محور الحركة أرض العواصم.
- ماهان ملك الأرمن - في أثرهم.
- جبلة بن الأيهم - مقدمة.

(١) منهم ثمانون ألفاً مقيداً وأربعون ألفاً منهم مسلسل للموت وأربعون ألفاً مربطون بالعمائم ثمانون ألف فارس وثمانون ألف راجل: الطبري ج ٣ - ص: ٣٩٤ - بينما يذكر الواقدي أن تعداد الجيش الرومي يتراوح ما بين ٦٠٠ - ٧٠٠ ألف مقاتل.

(٢) توافد إليهم مع الأمراء والجنود الأربعة سبعة وعشرون ألفاً وثلاثة آلاف من فلول خالد بن سعيد أمر عليهم أبو بكر معاوية وشرحبيل وعشرة آلاف من إمداد أهل العراق مع خالد بن الوليد سوى ستة آلاف ثبتوا مع عكرمة بعد خالد بن سعيد تاريخ الطبري: ج ٣ - ص: ٣٩٤ - ٣٩٥.

إن العرب المسلمين كانوا متفرقين وعندما وصل خالد كان كل أمير وجنده على حدة حتى أنه رغم وصية الخليفة لهم بطاعة أبو عبيدة والإنطواء تحت لوائه كان عمرو بن العاص ويزيد بن أبي سفيان لا يصليان مع أبو عبيدة وشرحبيل بن حسنة فلما رآهم خالد على ما هم عليه من التفرقة والاختلاف قال لهم:

«إن هذا يوم له ما بعده، ولا تقاتلوا قوماً على نظام وتبعية».

بعد أن تسلم خالد إمارة الجيش جمع الجند، واتعدوا اليرموك، ليجتمعوا به وجعلوا أذرعات خلف ظهورهم مقابل جيش الروم إن اختيار خالد للمكان له فوائد عدة منها. إمكانية إقامة حراسة على الطرقات، وفي مناطق مهمة ومفيدة حتى لا يفاجأ منها ثم إمكانية تقديم المساعدة من عند الخليفة، والأرض تمكنهم من المناورة وهم أدرى بها وماعليها من عدوهم. وهي صالحة لاستخدام الخيل - وإمكانية وضع النساء والأولاد على تل مجاور.

وهناك عبأ خالد أصحابه، ووضعهم بترتيب القتال، حيث قسمهم إلى ستة وثلاثين كردوساً إلى الأربعين، فكان ترتيب جيشه كما يلي:

خالد بن الوليد القائد العام لجيوش المسلمين - القلب وعليه أبو عبيدة وكله كراديس - الميمنة وعليها عمرو بن العاص ، ومعه شرحبيل بن حسنة، وكلها كراديس الميسرة وعليها يزيد بن أبي سفيان وكلها كراديس. يضاف إلى ما ورد القاضي أبو الدرداء، القاص - أبو سفيان بن حرب، على الطليعة قباث بن أشيم، وعلى المؤخرة عبد الله بن مسعود القارىء المقداد بن الأسود الكندي.

والشكل التالي يوضح ترتيب القتال:

مقدمة

عليها قباث بن أشيم

- القائد العام للجيش: خالد بن الوليد.
- القاضي: أبو الدرداء.
- القاص: أبو سفيان.
- القارىء: المقداد بن الأسود الكندي.
- المؤخرة: وفيها الجمال مع المؤن والعتاد ومعدات الحصار - مستشفى ميداني.

الميمنة	ميمنة القلب	القلب	ميسرة القلب	الميسرة
عمرو بن العاص + شرحبيل بن حسنة	عكرمة	أبو عبيدة بن الجراح	القعقاع بن عمرو	يزيد بن أبي سفيان

المؤخرة

عبد الله بن مسعود

اليوم الأول لمعركة اليرموك:

بعد أن اتخذ كلا الطرفين ترتيب القتال، أمر خالد بن الوليد القلب بميمنته وعليها عكرمة، وميسرته وعليها القعقاع بن عمرو أن ينشبا القتال، وبدأت معركة اليرموك بأول أيامها. إذ ورد عليهم بريد المدينة بموت أبو بكر، واستلام عمر بن الخطاب الخلافة، ثم تنصيب أبا عبيدة بن الجراح أميراً على جيوش المسلمين مكان خالد بن الوليد. إن عزل خالد بن الوليد ينطوي على أسباب عديدة أوجزها بما يلي:

خشية الخليفة منه، وقد حاول في زمن الخليفة أبي بكر عزله، فلم يقدر، فلما استلم الخلافة كان أول ما استفتح به هو عزل خالد رغم معرفته لقدرته، وعلمه بفنون الحرب وأصولها أكثر من أبي عبيدة. أو أن يكون الخليفة خشي أن يفتتن العرب المسلمون بخالد بن الوليد لما له من أهمية مع جنده.

إن الخليفة أراد أن يرد جميلا لأبي عبيدة بن الجراح، لأنه كان إلى جانبه عندما بدأت أزمة المسلمين في انتخاب خليفة، بعد الرسول وكان أبو عبيدة يرغب في أن تكون الخلافة إلى عمر.

إن الخليفة عمر بن الخطاب قال: لو كان أبو عبيدة حياً لاستخلفته، لكنه جعلها شورى من ستة، فكيف لا يوليه قيادة جيوش المسلمين، وهو يستطيع ذلك. علماً أن القيادة الفعلية، وأكثرية الفتوحات كانت بحنكة خالد، وقدرته القيادية على أصول الحرب وهذه حقيقة تاريخية وقد يكون قتله لمالك بن نويره سبباً في عزله.

في أيام طفولته كسر خالد بن الوليد رجل عمر بن الخطاب نتيجة صراع بينهما، واستمر الصراع والتنافس في كل عمل يقومان به نتيجة فقدهما الصبر والتروي.

وأخيراً عودة إلى ما تذكره كتب التراث فإنها تعطينا فكرة واضحة عن سبب العزل وهل هو شخصي أم لمصلحة العرب المسلمين يذكر الكامل في التاريخ لابن الأثير:

« دخل خالد الحمام فتدلك بغسل فيه خمر، فكتب إليه عمر بلغني أنك تدلكت بخمر، وأن الله قد حرم ظاهر الخمر وباطنه ومسه فلا تمسوها أجسادكم. فكتب إليه خالد إنا قتلناه، فعادت غسولا غير خمر.

فلما فرق خالد في الذين انتجعوه الأموال، سمع بذلك عمر بن الخطاب، وكان لا يخفي عليه شيء في عمله، فدعا عمر البريد فكتب معه إلى أبي عبيدة أن يقيم خالداً ويعقله

بعمامته، وينتزع عنه قلنسوته، حتى يعلمكم من أين أجاز الأشعث أمن ماله أم من مال أصابه بها، فإن زعم أنه.فرقه من أصابه أصابها، فقد أمر بخيانة، وإن زعم أنه من ماله فقد أسرف وأعزله على كل حال وأضم إليك عمله ».

ثم يتابع ذكر الخبر:

« فكتب إلى خالد بالإقبال إليه، فرجع إليه، فرجع إلى قنسرين فخطب الناس ووعدهم، ورجع إلى حمص، فخطبهم ثم سار إلى المدينة، فلما قدم إلى الخليفة عمر قال: قد شكوتك إلى المسلمين فبالله إنك امرؤ لغير مجمل فقال له عمر: من أين هذا الثراء قال، من الأنفال والسهمان.

إن قراءة دقيقة لهذا الخبر تجعلنا نتساءل من أين لعمر بن الخطاب الخبر عن كل ما يفعله خالد بن الوليد، إذا لم تكن هناك مراقبة خاصة، وموجهة ضد خالد، حتى تصل إليه كل شاردة وواردة عنه، وخاصة أنه استحم بالخمر، ثم إن كتابه لأبي عبيدة بتقييم خالد وعقله بعمامته، ثم نزع قلنسوته وعزله أليست انتقاماً.

إلا أن خالد عندما قرأ البريد خشي من تفرق الجند إذا علموا، لذلك طوى الكتاب، ووضعه في كنانته. في ذلك الحين، خرج أحد القادة الروم واسمه جرجة، وطلب مبارزة خالد بن الوليد، فقابله خالد وكان بينهما مناورة كلامية انتهت بإسلام جرجه، ثم استمرت المبارزة بين الطرفين، وهذا ما يلائم كلاهما لأنه فيه تطوير للمعركة، إلا أن قائد جيش الروم اضطر لوقف القتال بتلك الطريقة، لأن استمرارها سيؤدي إلى خسارة الروم عدداً من قادتهم وهذا ما يؤثر على روحهم المعنوية.

وبدأ الروم القتال بأن تحركت موجة بشرية ببطء للأمام مستفيدين من كثرة عددهم، وعندما أصبحوا على مدى رمي السهام. صبت عليهم من كل مكان، واستمر الروم بالتقدم إلى أن استخدم الطرفان السيوف، واستمر القتال إلى نهاية اليوم، علماً أن الهجوم الروماني كانت تنقصه بعض المبادىء القتالية:

كما لم يتصف بالإندفاع والحسمية على عكس هجوم العرب إن الهجوم كان يتصف بالبطء.

أكد قتال اليوم الأول أن قدرة المقاتل الروماني ضعيفة إذا ما قيست بظروف المقاتل العربي. إن قتال اليوم الأول خفضت الروح المعنوية عند الروم وولد الحذر لديهم رغم

كثرة عددهم وأدت إلى رفع معنويات العرب المسلمين. ثم إن الروم لم يعززوا قواتهم الأمامية عندما دفعوا بها، علماً أنه كان بإمكانهم ذلك. عدم استخدامهم المناورة بالقوات رغم إمكانية ذلك.

لقد انتهت الأعمال القتالية لليوم الأول بعودة كلا الطرفين إلى معسكراتهم وتفقد كل منها خسائره فكانت قليلة في كلا الجانبين إلا أنها أقل عند العرب. لقد أدت النساء وقوات المؤخرة دورها في ليل ذلك اليوم مثل تضميد الجراح وفتح القبور لقتلاهم وتم دفنهم بالإضافة لتحضير الطعام الذي كان يطلبه قائد الجيش في المؤخرة. حملن أعمدة الخيام بأيديهن وجمعن أكوام الحجارة لرد المقاتلين وضربهم بها على وجوههم حتى يعودوا إلى المعركة إذا حدث انسحاب. فكان ذلك عامل حاسم في دفع المقاتلين، بحماسة وشجاعة وبمعنويات عالية.

اليوم الثاني:

لم يحقق أحد من الطرفين على الآخر أي انتصار. إلا أن قائد جيش الروم قرر القيام بهجوم مفاجيء على العرب قبل أن يكونوا مستعدين لذلك، ووضع قواته بترتيب قتالي يؤمن له ذلك، ووضع خطة على الشكل التالي:

يثبت القلب الروماني للقلب المعادي بينما جناحا الميمنة والميسرة يقومان بالضربة الرئيسة، ووقف قائد جيش الروم على مرتفع يشرف منه على كلا الطرفين.

أما العرب المسلمون فقد كانوا يضعون بالليل نقاط حراسة أمامية، وفي صباح اليوم الثاني نفذ قائد جيش الروم خطته، فبوغت العرب المسلمون، إلا أن نقاطه الأمامية والموضوعة في الأمام استطاعت تأخير الروم لوقت يكفي العرب لإعادة تجمعهم، واتخاذهم ترتيب قتال في مسرح العمليات.

لقد اعتمد المسلمون في ذلك على السرعة حتى يفوتوا على الروم فرصة تحقيق هدفهم من هجومهم، أما الجنبتان فهما اللتان تحملتا قوة الصدمة، إلا أن الروم كانوا يكررون الهجوم، وبقطعات جديدة تصدى لها العرب، وخاصة عمرو بن العاص في الميمنة، وتكرر هجوم الروم للمرة الثالثة على الميمنة، حيث انسحب بشكل غير منظم وانضم قسم من قواته إلى القلب، وأمر الخيالة وهي كتيبة لم تستطع صد الهجوم لمدة أطول، وانسحبت

هذه الكتيبة إلى معسكر العرب، الذي خرجت فيه النساء، وهن يحملن الأعمدة، والحجارة لردهم.

واستمرت النساء في عملهن هذا حتى جمعهم عمرو بن العاص وقام بهجوم معاكس ثاني، أما ميسرة العرب المسلمين، وعليها يزيد بن أبي سفيان، فقد تعرضت لما تعرضت له الميمنة.

استمر الحال إلى منتصف النهار، أما القلب، وعليه خالد بن الوليد، فعندما رأى ذلك وضع خطة وذلك بزج احتياطه من الفرسان، لمساعدة الميمنة والميسرة، وأسرع في إعادة القوات العربية إلى ما كانت عليه في بداية اليوم. وبدأ خالد بن الوليد من القلب مع احتياطه بضرب ميمنة الروم، وقام عمرو بن العاص بهجوم معاكس. وهوجم الرومان من الميمنة والميسرة مما اضطرهم للتراجع إلى مواقعهم، واستعاد العرب المسلمون كل الأرض التي فقدوها في ذلك اليوم. كان ذلك نتيجة عبقرية خالد، وقيادته الإستراتيجية الحكيمة، وهكذا انتهى اليوم الثاني للمعركة وفق نتائجه.

واجه العرب المسلمون موقفاً صعباً في بدايته، إلا أنهم أعادوا الوضع إلى ما كان عليه بفضل حكمة خالد وقيادته الفذة. ولقد حدثت أكثر الخسائر عند المسلمين في الجناحين لأنّ الهجمات المعادية كانت موجهة إليها. تعدل ميزان القوى في نهاية اليوم، لصالح العرب المسلمين، حيث استردوا كل ما فقدوه من أرض ومعنويات ظهرت قوة جديدة إلى جانب العرب المسلمين هي قوة النساء، ودفعهم بالمسلمين المنهزمين ولو بالقوة إلى المعركة، مما رفع من معنويات المسلمين.

أما ليل اليوم التالي فقد كان هادئاً إلا من جانب النساء المسلمين حيث شغلن بالجرحى، وتضميد جراحهم والعمل على تموين الجند. أما المقاتلون في ليل ذلك اليوم فبقوا في حالة دفاع دائم، ويقظة مستمرة لئلا يباغتهم الروم مرة أخرى، أما حالة معسكر الروم فقد كانت سيئة نتيجة، لكثرة عدد القتلى، وتبدل القيادات[1] نتيجة قتل بعضها مثل الديرجان من قبل ضرار بن الأزور نتيجة هجوم قلب جيش العرب المسلمين على موازيه عند الروم.

اليوم الثالث:

كانت نتائج معركة اليوم الثاني مؤثرة على قتال الروم في اليوم الثالث، وأكثرهم تأثراً

(١) قتل ضرار الديرجان، عين فورين، فكان الديرجان، انتقلت القيادة إلى قناطير.

كان جيش السلاسل، إلا أن تفوق الروم بالعدد، وهجماتهم المتكررة وخاصة على ميمنة العرب المسلمين، وعلى نقاط الفصل رغم هذا كله استطاع المسلمون من صد الهجمات وخاصة على الميمنة، إلا أن كثرة الهجمات، وتقديم قطعات جديدة لزجها في المعركة لصالح الروم أدت إلى تراجع ميمنة العرب المسلمين، وعليها عمرو بن العاص، وميسرة شرحبيل، واحتدمت الهجمات المتكررة لفتح عدة ثغرات في جيش العرب وقامت النساء بنفس الدور التي كانت تقوم به في اليوم السابق حيث قال أحدهم:

«إن مواجهة الروم أسهل من مواجهة نسائنا».

وتدخل خالد بن الوليد بهجوم من القلب، وعمرو بن العاص بهجمات معاكسة متكررة من اليمين، وبمناورات للقوات قامت بها مشاة عمرو وشرحبيل، مما ساعد على تراجع الروم إلى موضعهم الذي كانوا عليه قبل بدء القتال في نفس اليوم، وساعد على ذلك ضعف مقاومة الروم، واستمر الحال الى نهاية اليوم، حيث كان أشد من سابقيه. فكان من نتائج هذا اليوم ما يلي:

خسائر المسلمين كانت قليلة بالمقارنة إلى خسائر الروم ارتفاع الروح المعنوية عند المسلمين وانخفاضها عند الروم. فشل مخططات القادة الروم، ونجاح مخططات خالد يؤكد ذلك فشل جميع الهجمات التي شنها الروم، ونجاح الهجمات المعاكسة التي كان يخطط لها القادة المسلمون.

في ليل ذلك اليوم خرج خالد بن الوليد، وأبو عبيدة يجوبان العسكر، ويزرعان في نفوس الجيش الطمأنينة والشجاعة، ويشرفان على الجرحى مهما كانت أنواع الجروح، حيث قرر الجرحى الذين أصيبوا بجراح طفيفة العودة للقتال في صبيحة اليوم التالي أما أصحاب الجراح البليغة فهم الذين يخرجون من المعركة، لحين عودة قدرتهم القتالية، وشفائهم من إصابتهم.

اليوم الرابع:

أشرف اليوم الرابع، وكلا الطرفين يعتبرانه يوماً حاسماً، فالروم أعدوا جندهم بطريقة جعلتهم يتصورون أنهم قادرون على خرق الجيش العربي الإسلامي، والقضاء على جميع محاولاته، وإعادة تجميع القوات، والقضاء على الهجمات المعاكسة من الجولة الأولى وإلا فهم عاجزون عن تنفيذ وشن أي هجوم.

أما المسلمون فجاء تقدير الموقف كما يلي: فالمعركة وصلت إلى مرحلة حاسمة، ونتائج اليوم التالي ستقرر النتيجة، وجاء أيضاً أنهم نتيجة خسارة الروم في الأيام الماضية، وقدرتهم على الصمود في هذا اليوم تجعلهم قادرين على أخذ ذمام المبادرة، والقيام بهجمات، وابتدأ القتال بين الطرفين وبدأ قائد الجيش الرومي بتنفيذ مخططه، وذلك بالهجوم على ميمنة العرب المسلمين، حيث يقودها عمرو بن العاص، وبشكل دقيق بين نقاط الفصل أي بينه وبين شرحبيل بن حسنة، وتراجع العرب المسلمون قليلاً، إلا أن عمرو بن العاص قاوم بعنف، واشترك خيار المقاتلين بذلك الهجوم في ذلك اليوم، حيث تم دحر العدو، وتراجع إلى مواقعه الأولية.

أما في اليسار، فقد تراجع منذ بداية الاشتباك، حيث استخدم الروم النبالة بشكل كثيف على العرب المسلمين، مما أدى إلى خروج عدد من المقاتلين من المعركة، وفقد الكثير منهم عينه[1]، واعتبر هذا اليوم بيوم فقد العيون، واستثمر الروم هذا الإنتصار، وتراجع العرب المسلمون في الميسرة التي يقودها يزيد بن أبي سفيان، إلا أن عكرمة لم يتخل عن موقعه نتيجة نضاله وبسالته في القتال، وانضمت النساء بما يحملنه من أسلحة تقاتل الروم، وتعمل على جلب الماء للجرحى والعطشى.

إن وجود النساء يقاتلن مع المسلمين من الدوافع التي جعلت المسلمين ينقضون على الروم بشجاعة متفوقة استطاعوا أن يطردوا الروم نتيجة هجومهم المعاكس وتراجع الروم أمامهم وتصميمهم على أخذ المبادرة. وانتهت المعركة في هذا اليوم عند المساء، حيث اشترك جميع القادة في القتال، وعاد كل جيش إلى مواقعه الأصلية، وكانت نتيجة المعركة:

عنف القتال بين الطرفين، لقد كان النصر قريباً من الروم إلا أنهم لم يستثمروه بشكل حسن، حدثت خسائر بين الروم وخاصة المقيدين بالسلاسل، خروج كلا الطرفين الى موقعه جعل العرب المسلمين يعتقدون أن أزمة المعركة قد أشرفت على الإنتهاء.

أما ليل ذلك اليوم فقد استشهد فيه عكرمة، وابن عمر نتيجة جراح أصابتها في اليوم الرابع. وأقام العرب المسلمون الحراسة للقوات في الليل، وكان أبو عبيدة يمر على نقاط الحراسة لكي يتأكد من يقظتها.

---

(١) قدر عدد الذين فقدوا أعينهم سبعمائة مقاتل مسلم.

اليوم الخامس:

في بداية اليوم الخامس استمر القتال بين الطرفين على ما كان عليه في أول أيام المعركة، ولم يقدم الروم على أي هجوم، حيث أخرج أحد القادة الروم من قبل قائد جيشهم إلى العرب المسلمين، لعقد هدنة بين الطرفين إلا أن خالد لم يوافق على ذلك، وأخذ يعد العدة، ويتخذ الترتيبات للقيام بهجوم، فعمل على إعادة تنظيم الجيش وترتيبه، وانتهى اليوم وهم على قدرة قتالية قليلة، كانت نتيجة اليوم أن القدرة القتالية للروم كانت قليلة بينما ازدادت تلك القدرة عند العرب نتيجة تصرف خالد بن الوليد، وإعادته ترتيب القتال وتعبئة الكتائب وتحضيرها لزجها بقوة جديدة في اليوم القادم.

اليوم السادس:

بدأ القتال في بداية اليوم السادس، بمبارزة بين قادة الجيشين، وخرج أبو عبيدة لملاقاة قائد جيش الروم وتسلم خالد بن الوليد قيادة الجيش لحين عودة أبي عبيدة، وإذا لم يعد، فالخليفة يتدبر الأمر، وبدأت المبارزة بين الخصمين، وحاول قائد جيش الروم استدراج أبي عبيدة، لكي يبادره ويقتله، إلا أن أبا عبيدة رد عليه بقوة ورماه أرضاً، ثم حمل الجيش العربي الإسلامي على الروم، حيث عمل خالد بخطة تقضي على طرد خيالة الروم من مسرح الحرب وتبقي المشاة، حيث تشكل القوة الرئيسة دون حماية فتصبح بذلك عاجزة عن المقاومة أمام الفرسان.

وجمع قائد جيش الروم خيالته، ووضعها خلف القلب، واشتبك الجيشان، حيث هوجمت خيالة الروم من الأمام والخلف من خيالة العرب المسلمين، بمناورة محكمة منظمة ودقيقة، فتراجعت خيالة الروم وتركت مكانها منتشرة في المنطقة، أما المشاة فقد تقهقروا وذعر بعضهم وبعضهم الآخر انسحب بانتظام متجها نحو وادي الرقاد، وعملت المطاردة دورها وأبدت نتائجها، لأن خالد قد خطط لها ونظمها بشكل دقيق، فحوصر الروم وانتهت المعركة بانتصار العرب المسلمين.

اليوم السابع:

كان قسم من الجيش يطارد الروم، والباقي منه يعمل لجمع الغنائم، ودفن الشهداء، وتمكن خالد وهو يطارد الروم من اللحاق بهم، وقتل قائدهم قبل وصولهم إلى دمشق.

اليوم الثامن:

عاد خالد من مطاردته العدو بن معه إلى القوات الرئيسة في اليرموك.

نتائج معركة اليرموك:

خسارة الأمبراطورية الرومانية بلاد الشام. وانتقال مركز القيادة من إنطاكية الى القسطنطينية، وفي طريق هرقل إليها على الحدود قال مقولته المشهورة:

(تحية لك يا بلاد الشام.. وداعاً فلن يعود إليك الروم أبداً).

إن معركة اليرموك كانت تضم أشكالا تكتيكية مثل: الهجوم الجبهي، المناورة، الهجوم على المؤخرة، انتصار الإستراتيجية العربية، ويعود الفضل في ذلك لخالد بن الوليد.

إن إسم خالد بن الوليد سيبقى محفوراً جيداً في مخيلة المؤرخين[1]، وكذلك فهو مرسوم بأذهان العرب والمسلمين، حيث تبين أن لفتوحاته معنى استراتيجياً عميقاً، فاجتياحه للعراق عندما وجهه الخليفة باتجاهها، هو عبارة عن هجوم قليل العمق، ومحدود الاتساع لأن الخليفة كلفه بالانتقال إلى بلاد الشام، إلا أنها رغم ذلك كان لها أهمية حيث لقن الفرس درساً قاسياً وأجبرهم على التراجع رغم كون الفرس قوة عالمة وخطراً آنذاك.

قدمنا أن خالد بن الوليد كان في العراق بأمر الخليفة لكن أمراً ثانياً من الخليفة له يأمره بالإنتقال باتجاه الشام، ومحاربة الروم، حيث كانت الغاية من مناورة نقل القوات من العراق الى الشام، ومن محاربة الفرس الى محاربة الروم. إن خطر الروم أشد. في الوقت الذي بقيت فيه بعض قوات العرب المسلمين في العراق تحارب الفرس بعد أن كسر خالد ابن الوليد شوكتهم، وأنزل بهم خسائر فادحة.

إن نقل خالد بن الوليد إلى بلاد الشام، حيث يتولى قيادة الجيوش الموجهة إلى هناك بخبرته العسكرية، كان ذلك لتنفيذ القسم الثاني من استراتيجية العرب وهي تحطيم القوات

---

(١) خالد بن الوليد – الجنرال أكرم.
خالد بن الوليد – اللواء مصطفى طلاس.
خالد بن الوليد – محمود شيت خطاب.

الرومية في بلاد الشام، فالمسير الذي أحدثه خالد بن الوليد كما ورد، وتجميعه القوات هناك، حيث هاجم الروم وحاميتها في كل بلاد الشام كما رأينا[1] وسنرى.

لقد هاجم خالد بن الوليد بعنف ودون انتظار بقرار سليم، حيث انتصر بفضل تسلحه بعقيدة، وسلاح متقدمين على عدوهم، وكانت المعركة التي خاضها قاسية ومريرة لكلا الطرفين، إلا أن الروم استطاعوا الإنسحاب، والإلتحاق بالقوات الموجودة في أقرب المناطق من مسرح العمليات العسكرية، إلا أن سرعة الهجوم من قبل الجيش الذي كان يقوده خالد بن الوليد، أحدثت الانتصارات تلو الإنتصارات، في جميع المعارك التي خاضها، قبل فتح مدينة دمشق التي تعتبر إحدى المراكز الرئيسة للروم في المنطقة.

إلا أن الروم أبرزوا جهوداً قوية وضخمة، لكنها بطيئة في الاستفادة من الدروس التي لقنهم إياها خالد بن الوليد في المعارك التي وقعت وخسروها. وتؤكد الحقائق التاريخية أن سبب انتصار خالد، يعود إلى قيادته الإستراتيجية الناجحة، وتفوقه على خصمه في وضع الخطط وتنفيذها، وحشده لقواته، وتوجيه الضربات القاسية. في الوقت المناسب مستفيداً من الوقت معتمداً على عقيدة يؤمن بها، ومن معه من المقاتلين.

إلا أن قوة الروم وامتدادهم على رقعة واسعة من الأرض في العالم، فإن فيهم جيشاً قوياً منظماً وموزعاً في أنحاء تلك المنطقة، لكن بطريقة غير سليمة، كما نلاحظ في توزيعها في مراكز وجودها في بلاد الشام، وميلها إلى الترف، وعدم التدريب، وتخليها عن عقيدتها كانت من أسباب انتصار خالد.

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى.. لقد أتاحت طبيعة البلاد للعرب المسلمين ومعرفتهم بها حيث مكنتهم من الهجوم بصلابة ودحر العدو على محور هجومهم، ثم عدم رغبة الروم بالقيام بهجوم غير مباشر (رغم قدرتهم عليه) على العرب المسلمين، حتى في مركز عاصمتهم المدينة آنذاك.

---

(١) لا بد من سرد تاريخي للمعارك التي خاضها خالد بن الوليد في بلاد الشام ليتضح ذلك – وهذا واضح فيما ورد. وسيرد.

الفصل الثالث

التحرير الشامل لبلاد الشام

التحرير الشامل لبلاد الشام

معركة أجنادين : [١٥ هـ]

بعد معركة اليرموك، علم هرقل بما فتح الله على المسلمين، وكان قد كاتب كل بطارقة مملكته كما ذكرنا، ولم يمض عليه إلا أياماً قليلة حتى أعد جيشاً، كان أوله في إنطاكية، وآخره في رومية الكبرى، وكان قد بعث جيشاً إلى قيسارية (ساحل الشام) وجيشاً آخر إلى بيت المقدس، وأخذ هرقل يحلل سبب خسارة قادته وانتصار العرب فقال:

« أنتم اليوم أكثر عدداً وأعز مدداً من العرب وأكثر خياماً وأعظم قوة، فمن أين لكم هذا الخذلان، وكانت الفرس والترك والجرامقة تهاب سطوتكم وتفزع من حربكم وشدتهم وقد قصدوا إليكم مراراً ورجعوا منكسرين، والآن قد علا عليكم العرب وهم أضعف الخلق عراة الأجساد جياع الأكباد ولا عدد ولا سلاح ».

إن السبب الذي جعل استراتيجيتهم تفقد كل عوامل انتصارها، أنهم بدلوا دينهم، وغيروا ملتهم، وجحدوا بالسيد المسيح، وظلموا بعضهم بعضاً، وفقد من بينهم من يأمر بالمعروف، وينهي عن المنكر، وزال من بينهم العدل والإحسان، وأضاعوا أوقات الصلوات، وأكلوا وزال من بينهم العدل والإحسان، وأضاعوا أوقات الصلوات، وأكلوا الربا، وانتشرت بينهم المعاصي والفواحش.

ما من أمة هذه صفاتها تهافتت على شهواتها، وتخاذلت أمام مشكلات الحياة، وتكاليفها، فلا تشعر بالمسؤولية، وإذا شعرت بها فرت منها، وتخلت عن حملها، وأن حملتها برمت بها، ووهنت أمام صعوباتها، وفشلت بأدائها، وتهاوت تحت ضربات خصمها، وضعفت أمام القوى الخارجية كلها، لفقدان القوة الداخلية فيها.

فالفرد فيها انصرف عن المنفعة العامة وجوهر الحقيقة والتقدم الإنساني، إلى مساوىء الحضارة وسفاسف الدنيا، فلم يكترث، ولم يشعر بما أصاب أمته، ولم يبحث بالعلم عن الوسائل التي ترفع من قدرتها، ومعرفة أسباب انهيارها.

كل ذلك جعل مخططي استراتيجيتهم وواضعيها يضعون خطة لإعادة، تكوين جيل حديد، وإعداد هذا الجيل، للمستقبل بكل ما يحمله، ثم يحددون ويعطون الناحية العسكرية، وخاصة القيادة والجندية أهمية فائقة، ويعدون لقتل الترف الذي هم فيه في مختلف مجالاتهم لأنه سبب انهيارهم، هذا من ناحية الروم.

أما العرب آنذاك فكانوا في أطوع جند، لأنهم مجاهدون في سبيل ربهم، ونصراً لدينهم، لأنه وعد مكتوب عليهم، يصومون النهار ويقومون الليل، لا يفارقهم ذكر الله، لا ظلم عندهم ولا عدوان، شعارهم الصدق، والأمانة والوفاء، والإخلاص إذا قاتلوا فلا يتراجعون لأنهم يعلمون عن عقيدة راسخة، أن الدار الآخرة هي دار البقاء وما هذه الدنيا إلا دار فناء.

ومن ذلك كان نضالهم وانتصارهم لأن شعورهم، وهم يجاهدون لانتشار دين الله هو المحرك الأساسي في أعصابهم، وإعطائهم الدفع لتحقيق ذلك، لقد علمهم نبيهم ﷺ حيث كان معلماً وجاء ليتم مكارم الأخلاق، والأخلاق هي أساس واستمرار للأمم، ورسم لهم خطة الإنقاذ، ووضع لهم أسس مجتمع صحيح وسليم تجده في القرآن الكريم حيث وضع الروابط بين أفراده، وعلمهم أيضاً التخلص من أسباب الضعف بإعداد وسائل العمل والإنتاج والقوة.

لنعد إلى أمر الجيوش الإسلامية الأخرى..

أشرف أبو عبيدة على أوائل الشام، إلا أنه لم يجسر على دخولها خوفاً على المسلمين من عدوهم، وأنه سمع أن جيوش الروم اجتمعت بأجنادين وهم في عدد لا يحصى، فوصل الخبر إلى الخليفة أبي بكر في الحجاز، فقرر أن يعزز موقفه الضعيف بسيف الله خالد بن الوليد، وفعلا كتب كتاباً إلى خالد يأمره بأن يترك العراق، ويتوجه إلى الشام، ويتولى قيادة جيوش المسلمين هناك، وأن يكون أبو عبيدة تحت أمرته. تلك هي القيادة الإستراتيجية، وتوجه خالد نحو أرض الشام بمسير طويل كما ذكرنا، ووجه خالد بن الوليد كتاباً إلى أبي عبيدة يخبره فيه بعزله، ويقول له لا تبرح مكانك حتى أقدم إليك.

إن قراءة دقيقة لكتاب خالد تظهر لنا الحزم والحسم في القيادة. وبعث الكتاب مع عامر بن الطفيل، فلما وصل الكتاب إلى أبي عبيدة قال السمع والطاعة، وأعلم القوات بعزله وتولية خالد وفي مسير خالد نحو الشام فتح الله عليه أركه والسخنة - تدمر - حوران.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى إن أبا عبيدة قبل أن يصله كتاب العزل كان قد وجه شرحبيل بن حسنة، بجيش قوامه أربعة آلاف فارس إلى بصرى، وبعد لقاء شرحبيل ببطريقهم روماس اختلفوا، ولم يقبل أحداً منهم بشروط الآخر، فكان القتال، وحمل الجيشان على بعضهما، وكان جيش بصرى في اثني عشر ألفاً، بينما كان العرب المسلمين في ضيق من القتال، إذ وصل إليهم خالد بن الوليد فقال يا شرحبيل:

أما علمت أن هذه ميناء الشام والعراق، وفيها عسكر الروم وبطارقتهم، فكيف غررت بنفسك، وبمن معك من المسلمين، قال كله بأمر أبي عبيدة. إلا أن خالد بن الوليد عبأ جيشه، ووضعه بترتيب قتال منظم ففي الميمنة رافع بن عميرة الطائي، وفي الميسرة ضرار بن الأزور، وعلى الدرك عبد الرحمن بن أبي بكر، وقسم جيش الزحف، فجعل على شطره المسيب بن نجيبه الفذري، وعلى الشطر الآخر مذعور بن غانم الأشعري، وبقي خالد في القلب.

بدأت المعركة بمبارزة كانت عبارة عن مناورة كلامية، بين خالد بن الوليد، وبين روماس بطريق بصرى، وقائدها وعندما عاد روبيس إلى قومه حاول أن ينهاهم عن قتال العرب المسلمين لأنه لا طاقة لهم بقتالهم، فعزلوه وألزموه قصره داخل المدينة، وولو مكانه الديرجان، وبدأت بعد ذلك مبارزة ما بين عبد الرحمن بن أبي بكر والديرجان هزم الأخير، وعاد إلى قومه.

ثم حمل المسلمون على جيش بصرى، فهزم أهل بصرى بعد معركة قصيرة، ودخلوا مدينتهم، وتحصنوا بداخلها، وفي الليل، وعندما كان عبد الرحمن بن أبي بكر، ومعمر بن راشد، ومعهما قوة من المقاتلين يؤدون دورهم وواجبهم، وذلك بدورانهم حول المعسكر للحراسة، ولمنع المفاجأة، حيث أحدث العرب المسلمون عملية ثقب في السور، وتسلحوا من داخل المدينة بسلاح الروم، ووزعوا في جوانب المدينة.

وتحرك عبد الرحمن بن أبي بكر في مجموعة الى الديرجان، ومعهم روماس فقتلوه، وبدأت المجموعة الموجودة داخل المدينة تردد شعارها الله أكبر، وهي إشارة للتعارف بين

من بداخل المدينة وبين المحاصرين لها، ففتحوا الأبواب، ودخل العرب المسلمون المدينة وفتحوها عنوة، وفرضوا الجزية عليها، وأقر أهل بصرى عليها، فكتب عبد الرحمن كتابين أحدهما إلى أبي بكر يخبره فيه بما فتحوه، والثاني إلى أبي عبيدة، كذلك ليخبره بالفتح ويأمره بالقدوم إلى دمشق، وزحف خالد كذلك باتجاه دمشق.

عندما وصل الخبر إلى هرقل بحركة خالد الإستراتيجية من العراق، وما فتح الله على يديه دعا إلى عقد مجلس في إنطاكية، وقال لهم: إن جيش العرب المسلمين توجه إلى دمشق، وأخذ يسأل عمن يستطيع بخبرته العسكرية أن يكفيه أمر العرب المسلمين، واتخذ على نفسه وعداً أن يملكه ما يسترده مما فتحه العرب، فرد عليه أحد بطارقته المشاركين بمجلسه واسمه كلوسي بأنه يكفيه أمرهم، ويرد العرب على أعقابهم، فسيره الملك هرقل، وقدمه على خمسة آلاف فارس، ومحور الحركة إنطاكية الى حمص ثم بعلبك، ومنها إلى دمشق، وعليها عزازير من قبل الملك هرقل، فلما دخل دمشق جرت مناقشة بينه وبين عزازير، إلا أنهما اتفقا على أن يخرج كل يوم واحداً منهم للقتال، وهم لا يخرجون إلا من باب الجابية وبدأت المعركة لفتح مدينة دمشق بمبارزة[1]، كان آخرها بين خالد وبين كلوس، حيث اختلفا حول شروط[2] كل منهما، وأسر خالد كلوس، ثم نزل ليبارز عزازير، فأسره أيضاً، ثم قتل خالد الأسيرين. والتقى بجيش الروم المعسكر هناك فقال خالد للمسلمين:

« هذا يوم له ما بعده يوم وهذا العدو قد زحف بخيله فدونكم والجهاد، فانصروا الله ينصركم، وكونوا ممن باع نفسه لله عز وجل، وكأنكم بأخوانكم المسلمين قدموا مع أبي عبيدة ابن الجراح. »

ثم التحق أبو عبيدة بمن معه إلى خالد، والتحم الطرفان في معركة لم تدم طويلا، حتى انهزم جيش الروم، ودخلوا دمشق، وأغلقوا وراءهم الأبواب في وجه من بقي منهم، فمنهم من قتل، ومنهم من أخذ أسيراً، ثم قرر خالد بن الوليد توزيع جيشه على أبواب مدينة دمشق، فكان خالد على الباب الشرقي بنصف جيشه، وترك أبو عبيدة على باب الجابية بنصفه الآخر، حيث كان عدده سبعة وأربعون ألفاً وخمسمائة فارس.

---

(١) اشترك فيها ضرار بن الأزور وعبد الرحمن بن أبي بكر وخالد بن الوليد - الواقدي ج ١ - ص:١٨.

(٢) شروط خالد: الإسلام - الجزية - القتال - شروط كلوس - تأخير القتال.

وبعد أن حوصر أهل دمشق في مدينتهم أرسلوا رسولا إلى هرقل يعلمونه بما جرى لهم، فعقد هرقل مجلس حرب، وقرر أن يرسل بوردان صاحب حمص، فأقدمه إلى إنطاكية، وسيره بجيش قوامه اثني عشر ألفاً، وإلى من بأجنادين أرسل يأمرهم بمنع عمرو بن العاص أن يجتمع بخالد، ثم رحل عن طريق وادي الحياة.

زحف خالد بن الوليد نحو دمشق وحاصرها عشرين يوماً، ثم أتى خالد بعد ذلك الخبر بأن الروم، قد اجتمعوا في أجنادين، وهم كثيروا العدد والعدة، وبعد استشارة أبي عبيدة الرأي قرر أن يرسل لهم ضرار بن الأزور في خمسة آلاف مقاتل كمقدمة، وفعلا ذهب ضرار لملاقاة وردان صاحب حمص الذي أرسله هرقل لقتال العرب والتحم معهم في معركة غير متكافئة أسر فيها ضرار بن الأزور قائد المجموعة ثم وصل الخبر إلى خالد بن الوليد بأسر ضرار، فترك على الباب الشرقي ألف مقاتل بقيادة ميسرة بن مسروف العبسي وزحف بالناس وقال لهم:

«أطلقوا الأعنة وقوموا الأسنة فإذا أشرفتم على العدو فاحملوا حملة واحدة ليتخلص فيها ضرار إن شاء الله تعالى إن كانوا أبقوا عليه والله إن كانوا عجلوا عليه لنأخذن بثأره».

وزحف خالد إلى أن التقى بوردان قائد جيش الروم، واشتبك الطرفان في قتال عنيف اشتركت فيه خولة بنت الأزور، ثم إن كردوساً من الروم أقبل باتجاه خالد يطلب الأمان لمدينة حمص، فرفض خالد ذلك الطلب، وسألهم عن ضرار بن الأزور، فقالوا له: إن وردان قد بعثه أسيراً ومعه مئة فارس إلى حمص ومنها إلى الملك، بعد ذلك دعا خالد ابن الوليد برافع بن عميرة، وسيره في ألف فارس، ومعه خولة بنت الأزور حتى وصل إلى منطقة وادي الحياة، كمن في المنطقة على الطريق الذي يسير عليه ضرار، وهو مأسور، حتى أصبحوا أمام الكمين، فحملوا عليهم وقتلوهم وأخذوا ضرار.

أما خالد بن الوليد، فاصطدم بوردان، واشتبك معه في قتال عنيف انتصر فيه المسلمون، وانسحب الروم مطرودين منهزمين، والعرب يطاردونهم إلى أن التقوا برافع بن عميرة، ومعه ضرار بن الأزور، ثم أعادوا تجمعهم وزحفوا باتجاه دمشق. وعندما وصل الخبر إلى هرقل كتب إلى وردان يقول له:

«إنك فارس الحرب ومجيد الطعن والضرب، وليس النصر آتيك لحل عليك سخطي،

والآن مضى ما مضى، وقد بعثت إلى أجنادين تسعين ألفاً، وقد أمرتك عليهم، فسر نحوهم وأنجد أهل دمشق ».

وعلم الخبر خالد بن الوليد بمسير الروم إليهم من شرحبيل بن حسنة، حيث أرسل رسولا يخبر العرب خبر الروم، فاستشار خالد أبا عبيدة، فكان رأيه أن العرب متفرقون، والصواب أن تكتب إليهم جميعاً بالاجتماع لملاقاة العدو معاً.

فكتب كتاباً ووجهه إلى كل أمير منهم يدعوه ليقدم إليه:

« بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد، فإن إخوانكم المسلمين قد عولوا على المسير إلينا يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون. فإذا وصل إليك كتابي هذا فأقدم علينا بمن معك إلى أجنادين تجدنا هناك إن شاء الله تعالى والسلام ».

وبعد أن وجه الكتب أمر الناس بالرحيل إلى أجنادين، وكان رأي خالد أن يكون هو على الساق، وأبو عبيدة في المقدمة خوفاً من هجوم مباغت من أهل دمشق من خلف، وكان ما توقعه خالد، حيث تحرك بطريق دمشق، واسمه بولص وكان عدد الذين زحفوا معه ستة آلاف فارس، وعشرة آلاف رجل، والتحمت الساق بمقدمة الجيش الرومي وعلم خالد بالخبر، فعاد بترتيب المسير مع الاحتفاظ بالقدرة على المناورة، والإنتقال إلى ترتيب القتال باتجاه المؤخرة حيث أمر على المقدمة رافع بن عميرة في ألف فارس، ثم أرسل عبد الرحمن بن أبي بكر بألفي فارس. وقال له أدرك العدو، وسار خالد ببقية الجيش، واصطدم الجيشان، وأسر خالد قائد جيش الروم بولص وكان أخو بولص واسمه بطرس قد أسر مجموعة من المؤخرة، فذهب خالد إليه أنقذهم وقتله هو وأخوه، ثم عاد ومن معه في طريقهم إلى أجنادين.

بعد أن تلقى القادة المسلمون[1] كتاب قائد الجيش يأمرهم فيه بالتوجه والتحشد في أجنادين زحفوا جميعاً ينفذون ما أمروا به في الوقت الذي كانت قوات الروم قد سبقتهم إلى هناك، حيث عسكروا وبدأوا عملية الاستعداد والتحضير والتنظيم للمعركة، ووضعهم قائدهم في حالة تأهب للرد على أي مفاجأة، ثم عبأ صفوفهم، ودعاهم إلى اجتماع حدد لهم فيه التعليمات التالية:

---

(١) شرحبيل بن حسنة – معاذ بن جبل – يزيد بن أبي سفيان النعمان بن المغيرة – عمرو بن العاص.

أن يعتمدوا الهجوم المنظم والمنسق، القتال بنظام الكتلة الواحدة. إذا خسرتم فلن تقوم لكم بعد هذه الخسارة قائمة وستهلك العرب هذه البلاد طلب منهم الصبر والصمود في القتال، وأن يكونوا كتلة واحدة. علماً أن عددهم أكبر من المسلمين بثلاث مرات.

أما قائد جيش العرب فبعد أن أقام معسكراً بالقرب من معسكر الروم في أجنادين يضم اثنين وثلاثين ألف مقاتل، بدأ بإعداد قواته، وتحضيرها لتنفيذ المعركة ثم حدد ترتيب قتال لقواته كما يلي: على القلب معاذ بن جبل، على الميمنة عبد الرحمن بن أبي بكر على الميسرة سعد بن عامر، في الجناح الأيسر شرحبيل بن حسنة على الساق يزيد بن أبي سفيان، خلف القلب في أربعة آلاف مقاتل (احتياط بيد خالد). ثم دعا النسوة وأوصاهن بأن يكن مدافعات بأشد ما يمكن.. ثم أصدر للمقاتلين تعلياته التالية:

القتال بعنف وبصبر في سبيل الله حتى النصر، أمرهم بالجهاد، أمرهم بالتعاون، وأن يكونوا صفاً واحداً متراصاً، وأن تكون سهامهم وكأنها من قوس واحدة.

ثم وقف خالد بن الوليد يخاطب قواته ويعبيء نفوسهم حماساً ويحثهم بمعنويات عالية محدداً لهم تعليمات القتال: الثبات في المعركة دفاعاً عن دين الله، اليقظة والحذر وبشكل دائم، طلب منهم أن يكونوا مهاجمين لا مدافعين، طلب منهم إذا اشتد عليهم القتال ألا ينهزموا ولا ينسحبوا إلا لقتال لأن الهزيمة تجلب غضب الله. كما طلب منهم أن لا يهاجموا إلا بأمر منه.

بعد هذا الاستعداد والتعبئة من الطرفين أرسل خالد بن الوليد ضرار بن الأزور بمهمة استطلاعية، إلا أنه اكتشف، فأرسلت قوة معادية لأسره استطاع أن يفلت منها بعد أن قتل مجموعة من عددها. ونستطيع القول إن المهمة التي أرسل ضرار بصددها فشلت لأن مهمته كانت كما ذكرنا استطلاعية. أما رئيس أركان قائد الجيش الروماني فقد أرسل أحد العرب الذين لم يسلموا بمهمة استطلاعية وتمكن من دخول معسكر المسلمين وبقي فيه أكثر من يوم، ثم عاد وقدم معلوماته فكان قوله.

« بالليل رهبان، وبالنهار فرسان، لو سرق ابن ملكهم قطعوا يده، ولو زنى رجم لإقامة الحق فيهم ».

بعد أن أتم كل من الجانبين المتخاصمين استعداده أمر خالد بن الوليد قواته بالتحرك إلى الأمام، وأن ينقسموا بترتيب قتال للمعركة قلب وجناحين يمتدان على مساحة واحدة

تقابل انتشار قوات العدو والتي تزيد عدداً. الغاية من هذا الإتساع في الجبهة منع العدو من التفكير بمناورات القوات ثم تطويق الجنبات الإسلامية، وزيادة في الحذر والحيطة من قبل القائد خالد بن الوليد، قرر إرسال مفارز استطلاعية على أطراف الجنبات زيادة في اتساع الجبهة، وتأكيداً لحماية القوات من مفاجأة العدو بمناورة القوات من الأطراف والمؤخرة، الغاية منها تطويق القوات.

اليوم الأول:

بينما كان خالد بن الوليد يقوم بمهام الإطلاع والتقدير للقوات إذ خرج فارس من جيش الروم وطلب من العرب المسلمين أحداً يفاوضه، فقابله خالد لقربه منه كونه أمام القوات وجرت مناوزة بالحديث بينهما لم يقبل أحد منهم بشروط الآخر.

فشروط الروم كانت التخلي عن القتال.

وشرط خالد الإسلام أو الجزية أو القتال.

وعاد الفارس الروماني الى قائده، فأخبره بذلك، فقرر أن ينشب القتال بعد أن أمر صفاً من نبالته بالتقدم إلى الأمام، حتى يصبح العرب المسلمون في مدى رميهم فإن العرب المسلمون مدافعون في البداية، حتى جاء قرار خالد بن الوليد بأن تكون المبارزة بديلا لذلك، وقدم ضرار للمبارزة. واشتدت حدتها، حيث حقق العرب التفوق فيها لأنهم قتلوا فيها الأبطال والقادة ذوي الخبرة والمعرفة بالحروب، وقتل هؤلاء لا يقارن بالمقاتلين العاديين. ثم أمر خالد بن الوليد، والمبارزة مستمرة، بشن هجوم جبهي ومفاجىء على الروم، واستمر القتال دون أن يقدر أحد الطرفين على إجراء مناورة بالقوات ضد الآخر حتى نهاية اليوم الأول.

لقد كانت نتائج معركة اليوم ألاول لغير صالح الروم. إذ قتل الآلاف منهم، مقابل عدد يسير من خصومهم، وفي هذا كسب معنوي، لكن وردان دعا إلى اجتماع حرب مع بعض قادته أيقن بعده أنه لا يمكن الإنتصار على خالد، إلا بخدعة تكتيكية، الغاية منها إجراء مفاوضات حول وقف القتال، وقرر إرسال أحد الذين يجيدون اللغة العربية لإعلام خالد بذلك، وأن يتقابل خالد ووردان، ويقررا ذلك، ثم قرر مع قادته بأن يكمن عشرة من أشجع قواته في مكان التقائه مع خالد، وعند حديثهما مع بعضهما ينقض العشرة على خالد فيقتلونه ثم يشن هجوماً مباغتاً على العرب ويحقق غايته.

اليوم الثاني:

في اليوم الثاني وتنفيذاً لما قرره قائد جيش الروم (وردان) أرسل إلى قائد جيش العرب المسلمين يطلب منه موادعة القتال. قابل هذا الرسول[1] خالد بن الوليد وحدثه بما يريده وردان، إلا أن خالد علم أن ذلك خدعة ومكيدة وقرر القبول بذلك. لكن بحذر، وهدد إذا كانت خدعة فإنها ستعجل بنهاية البقية المتبقية وإذا كان غير ذلك فلا صلح إلا بعد دفع الجزية.

فكر الرسول بما قاله له خالد وقرر أن يخبره بالمكيدة المدبرة، وفعلا أخبر خالداً بذلك وعاد الرسول إلى وردان وأخبره برد خالد وقبوله على عرضه من أجل مفاوضات لوقف القتال، قرر خالد بعد مشاورته أبو عبيدة حول ذلك وأرسل عشرة في الليل بقيادة ضرار ابن الأزور إلى المكان الذي قرر فيه وردان تنفيذ مكيدته لقتل خالد بن الوليد، وفي الليل تمكن ضرار من قتل من أرسلوا لتنفيذ الخدعة والمكيدة، وكمن في مكانهم لليوم الثالث للمعركة.

اليوم الثالث:

في صبيحة اليوم الثالث للقتال خرج قائد جيش الروم لمقابلة خالد الذي خرج بدوره لذلك ولإجراء صلح في الظاهر أما الباطن فيكمن عند كل منها الرد على تنفيذ الخدعة التكتيكية كما ذكرنا أما قوات الطرفين فبتعليمات من قبل القائدين كانت في حالة استعداد وتأهب للإشتباك في القتال وفي اللحظة المناسبة.

بدأت المفاوضات بعنف بينهما ورداً من وردان الرومي على خالد نادى قواته التي أمرها بالكمين فخرجت بزي روماني مما فاجأ خالداً إلا أن ضرار كان هو قائد هذه المجموعة.

ثم قتل وردان واستغل خالد هذه الميزة حيث صدم العدو بقتل قائدهم، ومعه عدة قادة قتلوا أيضاً في الليل.

قام خالد بشن الهجوم بكل قواته، واشتبك الخصمان في قتال عنيف، كان القادة في

---

(١) اسمه داوود عربي لم يسلم.

المقدمة، ولكي يحقق خالد التفوق وخاصة في مثل هذه الحالة زج باحتياطه الذي يقوده يزيد بن أبي سفيان، كقوة جاهزة كاملة العدة والعتاد، وبمعنويات عالية جداً، حيث تمكن العرب المسلمين من اختراق قوات العدو من الجبهة في أكثر من مكان، وقتل قائدهم الجديد وتمزقت قواته، وضعفت مقاومتهم ومن ثم كان انسحابهم غير المنتظم. في عدة اتجاهات، إلا أن خالداً أمر بمطاردة الروم المنهزمين في كل الإتجاهات، وحققت المطاردة غايتها، ثم عاد المقاتلون العرب المسلمون إلى معسكراتهم تغمرهم فرحة النصر.

الخبرة من أجنادين:

إن الروم حاربوا بأسلوب الكتل، وهذا الأسلوب من أساليبهم القتالية إلا أن هذا الأسلوب لا يعطي نتائجه، وخاصة في مثل تلك المعركة، فالمناورة كانت مفقودة، ولم تنفذ، رغم أنه بإمكانهم تنفيذها نظراً لعددهم المتفوق.

اعتمادهم القتال على جبهة ضيقة وعمق كبير رغم مساعدة الأرض على اتساع الجبهة وإجراء مناورة. أما العرب المسلمون فلقد اعتمدوا جبهة واسعة، لمنع مناورة العدو التطويق إضافة إلى استخدامهم قطعات جديدة تزج في المعركة تزيد من التفوق والقدرة في القتال.

ثم إن الروم اعتمدوا أسلوب الخداع غير المنظم لكسب الوقت ولربح المعركة واعتمادهم الهجوم الجبهي في مختلف مراحل المعركة.

تحرير دمشق : [١٣ هـ]

عندما حقق العرب المسلمون انتصارهم في أجنادين، كان هرقل في حمص، وقبل أن يتوجه إلى إنطاكية، وجه تعليمات لبعض قواته المنهزمة باتجاه القدس لعرقلة تحرك العرب المسلمين الزاحفين باتجاه دمشق كي يتسنى لحاميتها تحصينها، كما وجه أمراً آخر إلى بعض قواته الأخرى المنهزمة بالتوجه إلى دمشق لتعزيزها، وبعد وصوله إلى إنطاكية أرسل الى دمشق قوة قوامها خمسة آلاف جندي إضافة لما فيها والبالغ عددهم اثني عشر ألفاً.

أما خالد بن الوليد، فقد سار طالباً دمشق، في تلك المرحلة أتت قوة من عند الخليفة مدداً وعوناً له، عليها مالك بن الأشتر، وعمر بن معديكرب الزبيدي في تسعة آلاف، كما وصله كتاب من الخليفة يأمره أن يزحف إلى دمشق ويحاصرها حتى يفتحها، ثم يتوجه منها

إلى حمص حلب – إنطاكية، رغم كل المحاولات التي كانت تهدف لعرقلة تحركه إلى مدينة دمشق.

أما الروم فقد عسكروا جنوب المدينة في مرج الصفراء[1] حيث أرسلهم توما لقتال العرب المسلمين ولكسب الوقت إذا لم يتمكنوا من طردهم، وذلك من أجل العمل على تحصين المدينة وتموينها، لكي تصمد أمام قوة العرب-المسلمين لحين نجدتها.

عسكر خالد بن الوليد بالقرب من الروم، وبدأ القتال في البداية بمبارزة أرادها خالد لإشغال الروم، لحين تجمع قواته اشترك بها ضرار بن الأزور وشرحبيل بن حسنة وعبد الرحمن بن أبي بكر، ثم خرج خالد للمبارزة فقابله كلوس وهو أحد قادة الروم فأسره خالد ثم أسر قائداً آخر هو عزرائيل.

بعد هذه المبارزة، وبعد أن اجتمع العرب المسلمون عبأهم في ترتيب قتال قلب وجناحين، وأعطى أوامره بشن هجوم على جيش الروم وبالخسارة التي مني بها الروم من جراء المبارزة جعلتهم ينسحبون إلى مدينتهم ويتحصنون بها وأغلقوا أبوابها وراءهم، وفي صباح اليوم التالي زحف لحصار المدينة، حيث وزع قواته حولها بالترتيب التالي:

خالد بن الوليد على الباب الشرقي مع القوة الرئيسة وعليها رافع بن عميرة، أبو عبيدة بن الجراح على باب الجابية. يزيد بن أبي سفيان على الباب الصغير، شرحبيل بن حسنة على باب توما. عمرو بن العاص على باب الفراديس. قيس بن هبيرة على باب الفرج.

بعد ذلك أعطى خالد توجيهاته لأحد قادة القوات بقوله له:

(لا تسمح للقوم بالأمان، فيأخذوك بمكرهم، ولتكن متباعداً عن الباب، وابعث إليهم فوجاً بعد فوج، واجعل قتال الناس دولا، ولا يضيق صدرك من كثرة المقام، ولا تبرح من مكانك واحذر من القوم الكافرين.

عند تحليل هذا النص عسكرياً نراه يتضمن التوجيهات التالية:

الأمر بالبعد عن العدو قدر مدى المعركة أي أن يعسكروا على بعد رمي السهام وأن لا يسمح للقوم بالأمان خيفة مكرهم، البعد عن الأبواب بحيث تستطيع مع هذا البعد

---

(١) غرب الكسوة (الآن).

بمراقبة العدو بدقة. التثبت بالمكان والدفاع عنه بصمود (لا تبرح من مكانك) مقاومة الروم والهجوم باستمرار على دفعات متتالية. يأمر برد وصد أي هجوم قد يتعرضوا له. الصبر في القتال حتى تحقيق النصر والظفر. الأمر بشدة المراقبة لمنع المفاجأة. الحذر والحيطة والأمر بالتعاون والتعاضد والتناصر.

في الوقت الذي وصل إلى هرقل، خبر من توما قائد حامية دمشق يخبره فيه عن حالته السيئة طالباً منه النجدة فأمده بقوة مؤلفة من إثني عشر ألفاً، توجهت القوة عن طريق حمص وعلم خالد بن الوليد بأمر هذه النجدة، لذلك دعم القوة الموضوعة من قبله على الطرق المؤدية إلى دمشق حمص، فقد زودها بضرار بن الأزور، ومعه رافع بن عميرة في خمسة آلاف فارس، ثم إن خالداً أعطى ضرار التعليمات التالية:

التقدم بسرعة الى منطقة بيت لاهث على طريق دمشق حمص عينه قائداً لتلك القوة.

أمره بالإشتباك مع العدو والقضاء عليه إذا أمكن له ذلك حذره من السرعة في اتخاذ القرار والتهور والإندفاع، طلب إليه أن يقدر الموقف بموضوعية وأن يطلب تعزيزات لاستكمال قواته إذا وجد أنه بحاجة لذلك.

تحرك ضرار إلى ثنية العقاب وهناك كمن لعدوه، وعندما اقترب لم يفاجىء عدوه وإنما انتشر بسرعة بترتيب القتال واشتبك معه، فأسر ضرار وتسلم قيادة القوة مكانه رافع بن عميرة فأخبر خالداً بما حصل.

عندما وصل الخبر إلى خالد علم أن ضرار، لم ينفذ التعليمات التي حددها له، ولم يعبىء قواته بشكل يستطيع فيه مهاجمة عدوه، لذلك قرر أمام هذا الموقف المتشكل سحب قواته ليلا، حتى لا تتمكن الحامية بداخل المدينة من اكتشافه، وفي الليل سلمت القيادة لأبي عبيدة، وجرت تعديلات على القوات الموضوعة على الأبواب، فوضع مكان خالد ميسرة بن مسروف وزحف خالد ليلا، لكن بحذر إلى أن وصل إلى مكان اشتباك رافع مع عدوه، ودخل المعركة بقوة جديدة بعد أن عبأ الجيش وأعدهم لخوض المعركة، ثم التحم الطرفان، حيث انتصر خالد لأن تعبئته وإعداده كانت أخيراً أفضل من تعبئة وإعداد الروم، لذلك انتصر العرب، وانسحب الروم وهزموا باتجاه مدينة حمص مشتتين.

أما ضرار فقد أرسل خالد رافع بن عميرة ومعه مائة فارس لنجدته، وتم له ذلك قبل أن يصل إلى حمص. كما كلف خالد قوة مسلحة لمطاردة فلول الروم المنهزمة باتجاه حمص بقيادة (صمت بن الأسود).

ورجع خالد لحصار مدينة دمشق، وتسلم قيادة القوات، ووزعها كما كانت من قبل وحاصر المدينة، حيث اجتمع أهلها على توما (صهر ملك الروم)، ليكون مخلصهم مما هم فيه، فبدأ يقودهم ويحارب. ثم استدعى خالد ضرار بن الأزور ومعه ألف فارس وأمره أن يطوف حول المدينة وقال له:

(إن همك أمر ولاحت لك عيون القوم فأرسل إلينا).

وحاصر المدينة واجتمع أهل دمشق على توما، وبدأ يقودهم ويحارب العرب حتى فقد صليبه وعينه في إحدى المعارك على باب توما مع شرحبيل بن حسنة، ثم إن توما استدعى القادة داخل المدينة، ووزعهم على الأبواب على كل باب فرقة وقرر أن يهاجم العرب ليلا وقال لهم:

(يا قوم إذا فتحنا لكم الباب فأسرعوا إلى عدوكم وجدوا في سعيكم إلى أن تصلوا إلى القوم، فإذا وصلتم إليهم احملوا ومكنوا السيوف فيهم ومن صاح منهم بالأمان فلا تبقوا عليه إلا أن يكون أمير القوم ومن يبصر منكم الصليب فليأخذه).

وزحفوا ليلا بعد أن فتحوا الأبواب، فنهض إليهم العرب المسلمون لأنهم كانوا يقظين متأهبين تحسباً ورداً على أي هجوم، واعملوا فيهم السيف إلى أن أجلوهم إلى داخل المدينة، وأغلقوا وراءهم أبوابها.

ثم اجتمع في داخل المدينة رؤساؤها، وقرروا الصلح بعد استشارة توما الذي قرر أن يرسل كتاباً إلى الملك يعلمه فيه، أما أن يأتي بنفسه وينجده بقوة أو يصالح، إلا أن بعض أهالي دمشق اتفقوا مع أبو عبيدة على الصلح في الوقت الذي كان خالد بن الوليد يضيق الحصار من جهة باب شرقي، ففتحها عنوة وأعمل السيف فيهم، إلى أن التقى بأبي عبيدة وهو مصالح القوم، وقد كتب لهم كتاباً بذلك. عندما التقى أبو عبيدة بخالد قال له: أيها الأمير قد تم الصلح، فقال خالد وما الصلح لا أصلح الله بالك وأين لهم الصلح وقد فتحتها بالسيف، وقد خضبت سيوف المسلمين من دمائهم، وتم فتح دمشق وأرسل خالد كتاباً يعلم فيه الخليفة خلافهما حول فتح دمشق.

تحرير المنطقة الوسطى من سورية

بعد فتح مدينة دمشق أخذ أبو عبيدة يفكر، فيما يصنع، وأي مدينة من بلاد الشام يقصد حتى قطع عليه تفكيره رجل من دمشق من الذين عاهدهم على دينه، وقال له: قد

أتيتك ببشارة أو غنيمة فقال أبو عبيدة ما هي: قال الرجل: إنها حصن يعرف (بأبي القدس) على الساحل، حيث يقوم عنده سوق يلبس فيه الروم فاخر ثيابهم، وحليهم من الديباج والذهب والفضة، فلما علم أبو عبيدة بذلك ندب جنده لذلك، فوثب عبد الله بن جعفر الطيار وقال: أنا له، فسيره في خمسمائة مقاتل باتجاه الحصن. في الوقت الذي كان الروم فيه يتحصنون خوفاً من جند العرب علماً أن الحصن كان يعم فيه السرور والفرح من حفلة زفاف لابنة صاحب طرابلس، وقد قدمت إلى الدير ليأخذوا لها قرباناً من الذهب الذي فيه، ومعها قوة من الروم لحمايتها، وعند قيام السوق دخل عبد الله بن جعفر ومن معه الى الحصن وأظهروا سيوفهم ولاماتهم وعبد الله يحمل الراية أمامهم بعد أن رتبهم في خمسة كراديس وقال لهم:

(يا أصحاب رسول الله ﷺ احملوا بارك الله فيكم فإن كان غنيمة وسروراً فالفتح والسلامة، ويكون الإجتماع تحت صومعة الراهب وإن كان غير ذلك فهو وعدنا الجنة ونلتقي عند حوض رسول الله ﷺ مع الصحابة):

إلا أن عبد الله بن جعفر ومن معه كانوا قليلي العدد والعدة أمام قوة الروم في الحصن وضاق بهم الحال فذهب عبد الله بن أنيس وهو أحدهم إلى أبي عبيدة، وأخبره خبر المسلمين هناك، فندب الناس، وكان لها خالد بن الوليد، وتحرك بجيش الزحف إلى الحصن يحمل الراية بيده على الروم ووضع السيف فيهم، ففرقهم وطاردهم في الوقت الذي ملك أصحابه الدير، ثم حملوا الغنائم إلى دمشق وسلمت إلى أبي عبيدة. فكتب إلى الخليفة بذلك وعزم أبو عبيدة المسير إلى إنطاكية عن طريق حلب، وقدم على المقدمة خالد بن الوليد بجيش الزحف، ومعه رايته العقاب، وترك على دمشق صفوان بن عامر السلمي، وترك عنده خمسمائة مقاتل فسار أبو عبيدة ببقية الجيش على طريق البقاع، ثم بعث من هنالك خالد بن الوليد إلى حمص وقال له:

(يا أبا سليمان انهض على بركة الله تعالى وعونه ونازل القوم وشن الغارة على أرض العواصم وقنسرين وأنا أسير إلى بعلبك فلعل أن يسهل علينا فتحها).

وفي طريق أبي عبيدة إلى بعلبك ورد عليه بطريق جوسية، فصالحه أبو عبيدة، وسار يطلب حمص، حيث سار إليها خالد، فقرر أهل حمص مصالحة العرب لأسباب تتعلق بضعفهم فيها لأن صاحب حمص مات وتصوراتهم أن العرب لن يقدموا عليهم إلا بعد فتح بعلبك وجوسية وفعلا قرروا الصلح، يقول أحدهم:

(قال تصالحوا القوم على ما أرادوا وتقولون نحن لكم وبين أيديكم إن فتحتم حلب وقنسرين وهزمتم جيش الملك، فإذا توجه القوم عنا بعثنا إلى الملك بأن يمدنا بجش عرمرم ويولي من أراد علينا ويستوقف لنا من الطعام والعدد وبعد ذلك نقاتلهم).

في معنى هذا الكلام مكيدة، إلا أن أبا عبيدة صالح أهل حمص سنة كاملة، وبعد ذلك دعا أبو عبيدة خالد بن الوليد، وضم إليه أربعة آلاف فارس وقال له:

«يا أبا سليمان شن الغارة بهذه الكتيبة واقصد بها المعرة واضرب من معرة حلب وشن بها الغارة على بلد العواصم وارجع على أثرك وانفذ عيونك وانظر إن كان للقوم نجدة أو ناصر من قومهم أم لا».

سار خالد بن الوليد ونفذ ما أمره به أبو عبيدة، وبلغ الخبر أهل قنسرين أن أبا عبيدة يعطي الأمان إلى من يقصده واتفق أهل قنسرين وبطريقهم على صلح العرب المسلمين وفي قلوبهم الغدر، فكتب بطريقهم إلى أبي عبيدة يطلب منه الصلح لسنة كاملة فكتب له أبو عبيدة بذلك، واتفقوا على أن يضعوا صورة هرقل على حدود قنسرين، وأن لا يتجاوزها، وبينا هو كذلك أتاهم كتاب عمر بن الخطاب يحرضهم على القتال فقال المسلمون لأبي عبيدة: سر بنا إلى حلب وإنطاكية.

عزم أبو عبيدة المسير إلى حلب، وأمر عياض بن غانم أن يسير في المقدمة، واتبعه خالد ابن الوليد وعقد راية إلى سهل بن عمرو، وراية لمصعب بن محارب اليشكري، وسار أبو عبيدة بالبقية الى الرستن وصالح أهلها، ثم إلى حماة فصالح أهلها، ثم شيزر فصالحهم، وفي قنسرين علم أبو عبيدة أن بطريق قنسرين كتب إلى الملك هرقل يستنجده، وقد بعث إليه جبلة بن الأيهم الغساني، ومعه بطريق عمورية في عشرة آلاف فارس. ثم إن طلائع جبلة التقت مع سعيد بن عامر الأنصاري ثم التقى مع جبلة بن الأيهم فقال له جبلة:

«اعلم أن الملك قد بعثني أنا وهذا البطريق صاحب عمورية حتى ننصر صاحب قنسرين فإنه قد كادكم بصلحه لكم وأنا منتظر أن يلاقينا وقل له أن يرجع من حيث قدم ولا يتعرض لبلاد هرقل وسوف ينزع من أيديكم ما قد ملكتموه من بلاد الشام».

رجع سعيد بن عامر إلى أبي عبيدة وأخبره بذلك، قرر أبو عبيدة أن يرسل خالداً بعشرة رجال إلى الطريق الذي يتحرك عليه جبلة، واختلطوا بالروم وصاروا في جلتهم حتى التقوا ببطريق قنسرين وكان خالد والعشرة هم أوائل من استقبل هذا البطريق وخالد ومن معه ملسمين وغير معروفين حتى كشف عن وجهه، وقال للبطريق أنا خالد بن

الوليد، وضرب البطريق، وقبض عليه ورد المكيدة بمكيدة أعظم وأقسى وأفضل، وهنا بدأ خالد معركة مطوقة مع الروم حيث لا يستطيعون قتله ومن معه لأن البطريق الذي معه مقرب من الملك وهو في حوزتهم، وبدأت مناقشات طويلة بين جبلة بن الأيهم وخالد بن الوليد، إلا أن هذه المحادثات باءت بالفشل، وبدأ القتال إلى أن رأى أبو عبيدة أن يتحرك باتجاه خالد ينصره.

التقى العرب بالروم وحملوا عليهم، فلم يمض وقت طويل حتى أحاطوا بهم من كل جانب وخرج خالد وصحبه وانهزم الروم ثم ساروا بنفس الترتيب إلى قنسرين والعواصم، فشنوا الغارات عليهم، فأغلقوا أبواب المدينة، وأزعنوا للصلح وأداء الجزية فوافق أبو عبيدة، وكتب لهم كتاباً للصلح، وبدلا من أن يسير باتجاه حلب ذهب باتجاه حمص وجوسيه وشيزر لأن مدة الصلح قد انتهت، فوجد حمص قد تحصنت، فترك عليها خالد بن الوليد وسار أبو عبيدة إلى بعلبك، وفي طريقهم إليها استولوا على قافلة تحتوي على أربعمائة حمل من السكر والفستق والتين، وأخذوا منهم الفدية، ولم يقتلوا أحداً منهم.

استمر المسير باتجاه بعلبك، حيث علم أهلها بقدوم أبي عبيدة من أصحاب القافلة، وكان عليهم بطريق شديد البأس شجاع القلب، فجمع حوله رجاله، وأمرهم بلبس السلاح، وخرج لملاقاة أبي عبيدة في سبعة آلاف، فلما رآهم أبو عبيدة قال لجنده:

«أيها الناس اعلموا رحمكم الله تعالى أن الله قد وعدكم وأيدكم بنصره حتى هزم أكثر هؤلاء القوم وهذه المدينة التي أنتم قاصدون إليها وسط ما فتحتموه من البلاد وأهلها قد أكثروا من الزاد والعدد والقوة فإياكم والعجب وانتصروا وأعزوا أعداء الدين وانصروا الله ينصركم».

ثم حمل عليهم فلم تكن إلا جولة حتى انهزم الروم ودخلوا المدينة وأبي عبيدة في أثرهم حتى حاصروا المدينة. ثم إن أبا عبيدة دعا سعيد بن زيد بن عمر بن نفيل وعقد له راية، وأمره على خمسمائة فارس، وثلاثمائة راجل، وأمرهم أن يهبطوا على الوادي ويقاتلوا على الأبواب، ثم دعا ضرار بن الأزور، وعقد له راية أيضاً في خمسمائة فارس، ومئة راجل، وسيروا إلى باب الشام.

عند الصباح فتحت الروم الأبواب وخرجوا في جندهم وحملوا على جند العرب وطمعوا بهم أثناء ذلك كان أحد المقاتلين العرب قد أصابته جراح أخرجته من المعركة، وخرج يترقب المعركة عن قرب ورأى أصحابه وما هم فيه من المحنة فقال في نفسه: ماذا

ينفعنا ضرار بن الأزور، وسعيد بن زيد، فقرر أن يوقد ناراً[1]، فعلا منها دخان، فلما رأى ضرار وسعيد الدخان التحقوا بأبي عبيدة بن الجراح وهزم الروم، إلا أن أبا عبيدة لم يأمرهم بالمطاردة خشية أن تكون مكيدة، إلا أن سعيد بن زيد لم يسمع أوامر القائد أبو عبيدة، ولحق بهم حتى اضطرهم إلى الصلح وصالحت المدينة، وقبل صلحها أبو عبيدة وجعل عليها رافع بن عبد الله السهلي، ومعه خمسمائة فارس من عشيرته، وأربعمائة فارس آخر.

قبل أن يرحل أبو عبيدة إلى حمص ورد عليه صاحب عين الجوز يطلب الصلح، فصالحه وولى عليهم سالم بن دؤيب السلمي، ثم رحل إلى حمص وفي طريقه إليها لاقاه صاحب جوسيه، فجدد معه الصلح، ثم سار باتجاه حمص. فلما قرب منها وجه على مقدمة جيشه ميسرة بن مسروق العبسي، وعقد له راية، وضم له خمسة آلاف فارس، ثم بعث ضرار ابن الأزور في خمسة آلاف فارس، وتلاه عمر بن معديكرب الزبيدي، وقدم أبو عبيدة ببقية الجيش هناك حيث استقبلهم خالد بن الوليد.

عندما وصل أبو عبيدة الى ضواحي حمص سنة ١٥ هـ حدد مكان قيادته على النهر المقلوب، وكتب كتاباً إلى أهل حمص يحضهم فيه إما على الدخول في الإسلام، أو دفع الجزية أو القتال فكان جواب بطريق حمص، وقائدها القتال، عند ذلك قسم أبو عبيدة جيشه إلى أربعة فرق:

فرقة مع المسيب الفزاري ونزل بهم على باب الجبل مما يلي باب الصغير. فرقة مع المرقال بن هشام بن عتبة بن أبي وقاص ونزل بهم على باب الرستن. فرقة مع يزيد بن أبي سفيان ونزل بهم على باب الشام. ونزل الأمير أبو عبيدة وخالد بن الوليد على الباب الصغير.

وبعد هذا التوزيع من قائد هذه الجيوش زحف بكل الاتجاهات وبدأ القتال. وانتهى القتال في اليوم الأول دون حسم. أما اليوم الثاني فكان اقتراح خالد أن يقدم العبيد حول الأسوار وذلك مكيدة من خالد بالروم، واستخفافاً بهم، حتى بعث بطريق المدينة من ذلك، وأرسل كتاباً إلى أبي عبيدة يشير عليه أن يسير الى الملك هرقل، ويفتح ما بين أيديه كما فتحوا ما وراءه، وكانت المدينة قد حصنت بالطعام والعلوفة وآلة الحصار وكذلك بالرجال

---

(١) كان الدخان إشارة عند العرب إذا أرادوا أن يجمعوا بعضهم إلى بعض بأرض الشام وفي الليل.

فكان لا بد للعرب من حيلة تفتح المدينة، وإلا طال عليهم فتحها كدمشق، قرر العرب المسلمون أن يكتبوا لمن بداخل المدينة أن يبعثوا لهم الميرة خمسة أيام ثم يرحلوا عنهم إذا أرادوا أو لا يرجعوا عنهم حتى يفتح الله على أيديهم مدينة من مدن الشام في الإتجاهات فرضي أبو عبيدة وتم الصلح.

عندما تم الصلح كان في عسكر العرب المسلمين جواسيس عددهم أربعين، فلما رأوا باب الرستن فتح وتم الصلح هربوا إلى إنطاكية، وفي طريقهم إليها كانوا يقولون، لأهل كل حصن من الحصون التي يمرون بها إن أهل حمص دخلوا في طاعة العرب، وفتحوا مدينتهم صلحاً، وفعلا سار أبو عبيدة وترك حمص باتجاه الرستن فكتب إليهم كعادة العرب المسلمين[1] وقال لهم إنا متوجهون إلى إنطاكية لقتال هرقل، ومعنا أمتعة قد أثقلتنا، ورغبنا أن نودعها عندكم إلى حين عودتنا، وكانت حيلة مدبرة حيث أخذ عشرين صندوقاً ووضع داخلها عشرين رجلا من أشد رجاله شجاعة وقوة وخبرة بمكائد الحروب وأصولها، وأغلقوها ووضعوا عليها الأقفال من الداخل، بعد أن دخلوا المدينة خرجوا من داخل الصناديق، وأخذوا مفاتيح المدينة من زوجة صاحبها وأرسل عبد الله بن جعفر ففتح أبواب المدينة وكبروا فدخلوها ثم عرض خالد بن الوليد الإسلام على أهلها فأسلم قسم منهم، وبقي الباقي يدفعون الجزية.

وضع أبو عبيدة على الرستن هلال بن مرة اليشكري في ألف رجل من اليمن، وقبل رحيله غنموا غنيمة كان الملك هرقل، قد بعثها إلى هربيس بطريق حمص، كما أن بعض الأسرى أخبروا خالداً بأن هرقل، قد استنجد بالروس والصقالبة والإفرنج والأرمن واليونان وأهل رومية، وقد وصلت العساكر إليه.، لذلك رحلوا باتجاه حمص وأحاطوا فيها من كل جانب. ثم إن صاحبها قرر قتال العرب المسلمين وخرج إليهم وبدأ القتال وانكشف العرب المسلمون ورجعوا القهقرى وقد فشا فيهم القتل، والجراح حتى كان آخر النهار.

في اليوم الثاني قرر خالد بن الوليد أن ينهزم أمام الروم بخدعة حتى يتباعد الروم عن مدينتهم ثم انعطف عليهم بمن معه وصدموهم صدمة قوية، وأمر أبو عبيدة أن يسبقوا الروم إلى الأبواب ليمنعوهم منها، وكانت المعركة الفاصلة حيث انتهت بانتصار العرب وهزيمة الروم وقتل بطريقهم، وبذلك تم تحريرها.

---

(١) الدخول في الإسلام أو الجزية أو القتال.

تحرير حلب: [١٥هـ]

تحرك أبو عبيدة نحو حلب وفي طريقه إليها صالح أهالي قنسرين والعواصم على مبلغ خمسة عشر ألف مثقال من الذهب وخمسة عشر ألف مثقال من الفضة وألف ثوب من أصناف الديباج وخمسائة من التين والزبيب.

ومن خلال ما ورد يتضح لنا كيف يتم توين الجند بأشكاله المختلفة. وبعد أن تم الصلح كتب أبي عبيدة كتاباً يتضمن بنود الصلح ودخل المدينة، فعلم أهالي حلب بهذا الصلح وكان أخوه على حلب آنذاك. وبعد أن تمت المشاورة بينهم حول ما سيفعلون تجاه العرب صدر القرار بالحرب، وأخذ أحدهم يعد العدة، ويعبيء الجند لملاقاة العرب، ثم استدعى أحد بطارقته، وكلفه بحفظ البلد، ووضع تحت تصرفه ألف فارس وسار في اثني عشر ألف مدرع لملاقاة أبي عبيدة وجنده.

وبعد أن صالح أبو عبيدة أهالي قنسرين أقام فيها أياماً للراحة والتموين، ثم عزم على الزحف إلى حلب، لذلك دعا (كعب بن ضمرة) وأعطاه ألف فارس، ووجهه كمقدمة لجيشه، وأعطاه التعليمات بأن عمله عبارة عن مهمة استطلاعية، وأنه سيكون في أثره، كما أن واجبه أن لا يقاتل من لا يطيق قتاله.

أما عندما زحف يوقنا صاحب حلب فقد عين بعض الجواسيس، وسيرهم أمامه كمقدمة لجيشه ضمن مهمة استطلاعية لاستطلاع أخبار العرب، وعندما علم بأن مقدمة عدوه قد أشرفت في ألف فارس كمن بنصف من معه، وتقدم بالباقي حتى التقى مع كعب ابن ضمرة، ولما اشتد القتال بينهم خرج الكمين مما أدى إلى انقسام مقدمة أبي عبيدة إلى ثلاث مجموعات قصدت الأولى منها قتال يوقنا، وقصدت الأخرى قتال الكمين أما المجموعة الثالثة فقد انهزمت.

استمر القتال إلى أن وصل إلى أبي عبيدة وفد من أشراف حلب يطلبون منه الصلح بطريقة مغايرة لطريقة صاحب حلب. فوافق أبو عبيدة على الصلح، وقد تضمن الصلح الشرط بإعطاء أهالي قنسرين نصف ما صالح عليه ورجعوا سالكين الطريق الذي قدموا منه.

علم أحد جنود يوقنا بهذا الصلح، وأخبره به بينما هو في قتال مرير مع كعب. لذلك قرر الإنسحاب إلى القلعة والإحتماء بها وحمايتها ومحاسبة أولئك الذين قرروا الصلح. وبقي كعب بن ضمرة في نفس المكان إلى أن و... ...الد... ...العرب،

ووصلوا حلب بينما صاحبها يقتل أصحاب الصلح، فالتحم معهم في معركة أسفرت عن اندحار صاحب حلب، ومن معه إلى القلعة، حيث عبأ جنده داخلها، وأحكم حصارها، ونصب المجانيق على أسوارها، ونشر السلاح، وعظمت في رأيه آلة الحصار، وهنا التحق بأبي عبيدة بعض الأسرى، فسألهم عن نقاط الضعف في القلعة، وما هي الطرق والمسالك التي تؤدي إليها، وطريقة عبور هذه المسالك، فأجابوا بأن صاحبها قد شحنها بالمقاتلين كما أنه سد طرقاتها، وقطع مسالكها.

استشار أبو عبيدة – قائد جيش العرب – القادة حول ما سيفعلون فأجابوا بضرورة محاصرة القلعة، وبث الخيل، وشن الغارات، وقطع التموين عن القلعة ومن فيها. وارتأى خالد الزحف، ومحاصرة القلعة، والتضييق على أهلها، حتى يتم فتحها خشية المدد من ملك الروم، وقد تم حصار المدينة في الوقت الذي بدأ فيه الروم الرمي على أعدائهم بالمجانيق وكان أثر ذلك قوياً وشديداً.

استدعى أبو عبيدة قادته، وأمرهم بالإنسحاب قليلا إلى الوراء، تحاشياً لخطر المجانيق وأثرها عليهم، وقرر يوقنا صاحب حلب بعد ذلك أن يرسل وزيره في ألفين من جنده لغزو العرب محدداً له تعليمات القتال الكامنة بالسرعة في تنفيذ الإغارة ليلا، ويخلد الجند للراحة والنوم، كما حدد له مكان تنفيذ الإغارة.

نفذت الإغارة وتم أسر خمسين مقاتلا عربياً فدعاهم صاحب حلب، وأمر بقتلهم على سور المدينة، بينما جند العرب تنظر إليهم، فأصدر أبو عبيدة أوامره بتشديد الحراسة طالباً من كل جندي أن لا يوكل حراسة نفسه إلى غيره. في هذا الوقت كان صاحب حلب يفكر بمكيدة أخرى بعد أن علم من جواسيسه بأن العرب يطلبون العون المادي من القرى والوديان القريبة من مسرح العمليات، وقد اعتبر ذلك خرقاً لمعاهدة الصلح القائمة فيما بينه وبين العرب، فجهز ألف فارس وسيرهم ليلا ليقطعوا الطريق عن الممولين بالعلوفة والميرة، فالتفوا بالجيش العربي المحاصر للمدينة، وقاتلوهم وكانوا في مئة فارس، وانتصروا عليهم، وأخذوا ما معهم، واعتصموا بجبل منيع نهاراً وهم ينتظرون قدوم الليل فيطلبون القلعة.

عندما وصل الخبر أبا عبيدة دعا خالد بن الوليد وكلفه بمهمة وسيره إلى المكان الذي جرى فيه القتال، وأخذ معه مجموعة من الفرسان، فلما وصل قام بتحري الطريق الذي يوصل للقلعة، وكمن ليلا وإذ بحوافر الخيل قادمة فتركهم حتى توسطوا الكمين، ثم هاجمهم

بن معه، فأخذوهم ما بين قتيل وأسير، فأما الأسرى فتم قتلهم أمام أسوار المدينة رداً وانتقاماً بعد أن رفضوا الإسلام.

ومما ورد نستدل بأن تطويق العرب للمدينة لم يكن صحيحاً، وكان ينقصه الحذر والحيطة مما مكن العدو من التسرب إلى خارج القلعة. ورداً من العرب على ذلك فقد دعا أبو عبيدة عبد الرحمن بن أبي بكر، وضرار بن الأزور، وسعيد بن زيد ابن عمر وزودهم بتوجيهاته القيمة بأن يتفرقوا حول القلعة، ويسيطروا على الطرق، والمسالك من والي داخل المدينة.

استمر حصار القلعة فترة طويلة مما اضطر القائد أبو عبيدة للإنسحاب وفق خدعة تكتيكية (تخطيطية وفنية) يتمكن بها من فتح المدينة.

وتنفيذاً لذلك انسحب إلى منطقة النيرب بينما كان جواسيس صاحب المدينة يتحرون أخبار العرب، ويحاولون معرفة نواياهم. إلى أن تم اكتشافهم من قبل خالد بن الوليد. فقد بقي صاحب المدينة لا يبارح مدينته، وخاصة بعد أن عرف أسلوب الخدعة في الإنسحاب. ورجع أبو عبيدة لحصار المدينة ودام الحصار لها خمسة أشهر. وصل خلالها كتاب من الخليفة إلى أبي عبيدة يحثه فيه على الجهاد، ووصلت في الوقت نفسه إمدادات من قبل الخليفة ومعهم عبد الله بن قرط.

وفي الطريق إلى حلب كان حديث عبد الله بن قرط عن صاحب حلب وأفعاله وعدائيته للعرب. وكان في الجند رجل قوي الشكيمة يدعى دامس ويكنى أبا الهول لكبر هامته، وعند الوصول إلى المدينة أمرهم القائد بأن يتوزعوا حول المدينة. وفي وصول الإمدادات قام صاحب المدينة بإحداث غارة موجهة على جند العرب، لكن العرب المسلمين ردوا على صاحب المدينة وجنده، وهزموهم بعد أن تمكنوا من قتل عدد منهم وكان أبو الهول (دامس) على رأس من هاجم الروم، فاستدعاه أبي عبيدة للمناقشة في أمر القلعة وطريقة فتحها، فأجاب أبو الهول بأنها قلعة منيعة وحصينة شامخة يعجز عنها الوافد وتمنع عنها القاصد، لكن لي في فتحها حيلة فقال أبو عبيدة:

حدثنا عن حيلتك فقال أبو الهول: يلزم لفتحها:

ثلاثين فارساً عالماً بالحروب يأتمرون بأمره وسلاحهم خفيف ولا يؤثر على قدرتهم القتالية والحركية. كما يجب أن ينسحب أبو عبيدة عن القلعة مسافة فرسخ، ثم التزام الصمت وإعلان الإشاعة بأنهم انسحبوا عنها لعجزهم عن فتحها.

كما أصر أبو الهول في طلب فرسان ليكونوا واسطة للاتصال بينهم. وفي الليل قدم أبو الهول، ومن معه إلى الوادي وفي نفس الوقت انسحب أبو عبيدة مما أثار الروم، وشغلهم عن مراقبة أبي الهول ومن معه، واستمر أبو الهول في المسير ليلا حتى وصل إلى كهف في جبل قريب فدخله الجند. بينما وقف أبو الهول على بابه يحميه ويحرسه، وتم انسحاب أبي عبيدة تنفيذاً للخطة وأهالي القلعة ينظرون وهم فرحون.

في ليل اليوم الثاني طلب أبو الهول من جماعته أن يخرج أحدهم، ويتحرى أهالي القلعة بوضعهم الراهن. فلم يخرج أحد فخرج بنفسه وتمكن من أسر أحدهم ولم يكن يتكلم العربية. وتمكن أيضاً من أسر ثلاثة آخرين إلى أن تمكن من أسر آخر يجيد اللغة العربية والرومية. وأخذ في استفساره عن طريق تمكنه من الدخول إلى القلعة، ولكنه لم يتمكن من شيء ولم يصل إلى نتيجة.

في الليل قرر أن يفتح المدينة، فبعث برجلين إلى أبي عبيدة يخبرانه نبأ قراره. ومن ثم زحف بعد أن وضع جلد ماعز على ظهره، وأخذ بيده كعكاً وقال لأصحابه أن يتبعوه وهو يمشي على يديه ورجليه، والجلد على ظهره، وكان كلما أحسّ بشيء كان يقضم الكعك الذي بيده تشبها بالكلب، حتى تمكن من الوصول إلى السور فدار هو وجنده حوله وتركزوا في مكان بعيد عن أعين الحرس القائمة على السور، ثم اختار سبعة رجال أقوياء من رجاله، وأخذ يصعد الواحد على الآخر وهو يجثوا أسفلهم، وتمكن الثامن من الأعلى من الصعود إلى أعلى السور وقتل الحرس، وتمكن هذا الأخير من رفع رفاقه الواحد تلو الآخر حتى كانوا جميعاً على السور.

وتمكن أبو الهول فيما بعد من الوصول إلى مقر قيادة صاحب المدينة، وصاحب المدينة داخل مقر قيادته لكن أبا الهول لم يتمكن من شيء وعاد أدراجه إلى أصحابه ثم تحرك في مجموعة منهم إلى أحد أبواب القلعة، وتمكن من قتل الحرس، ووضع مكانه حرساً من العرب ورجع إلى أصحابه وأخبرهم بذلك، ثم زحف نحو باب آخر، وقام بنفس العملية، وكان أبو الهول ينتظر رجال أبي عبيدة الذين سيصلون في الصباح في وقت محدد ومتفق عليه.

ثم تحرك أبو الهول بمن بقي معه نحو دار يوقنا، فثار الروم لأنهم علموا بالحيلة لذلك عاد أبو الهول إلى الأبواب ليحميها بعد أن أطلقوا شعار الله أكبر، وبدأ الصراع بينه، وبين الروم، ففقدوا ثمانية وإذا بخالد بن الوليد يدخل القلعة، ومعه فوارس العرب، وشجعانهم

ووقعت معركة التي لم تدم طويلا، وانتهت بطلب الروم الموافقة على الصلح والأمان وبعد أن دخل أبو عبيدة القلعة عرض على أهلها الإسلام فكان يوقنا أول من أسلم، وقسمت الغنائم فأخذ خمسها ووزع الباقي على الجند.

وبعد أن أخذ الجند قسطاً من الراحة توجه أبو عبيدة نحو اعزاز ففتحها ضمن خطة تعتمد على الحيلة في التعامل مع العدو، وكانت هذه الخطة من تدبير يوقنا كما فتح انطاكية أيضاً وبهذا سيطر العرب على كل بلاد الشام.

تحرير بيت المقدس: [١٥ هـ]

بعد فتح دمشق وبعد أن استراح الجند بها شهراً دعا أبو عبيدة قائد الجيش أمراءه لعقد مجلس حرب، واستشارهم عن وجهة يزحفون إليها فكان القرار إما إلى بيت المقدس أو إلى قيسارية إلا أن رأي معاذ بن جبل كان استشارة الخليفة حول ذلك، فوجه أبو عبيدة كتاباً إلى الخليفة بهذا الخصوص، فكان الرد الإتجاه والزحف نحو بيت المقدس عندها عبأ أبو عبيدة جنده في سبعة فرق كما يلي:

دعا خالد بن الوليد وعقد له راية وضم له خمسة آلاف من جند الزحف ووجهه نحو بيت المقدس.

يزيد بن أبي سفيان ومعه خمسة آلاف.

شرحبيل بن حسنة ومعه خمسة آلاف من أهل اليمن وأمره أن لا يجتمع بمن سبقه.

الرقاع بن هاشم بن عتبة بن أبي وقاص في خمسة آلاف وأمره أن ينزل على حصن المدينة.

المسيب بن نجيبة الفزاري في خمسة آلاف.

قيس بن هبيرة في خمسة آلاف.

عروة بن مهلهل بن يزيد في خمسة آلاف.

وجه أبو عبيدة هذه الفرق على دفعات في كل يوم فرقة، فكان مجموع ما توجه نحو بيت المقدس من العرب خمسة وثلاثون ألف مقاتل.

حاصرت هذه الفرق بيت المقدس بعد أن تمركزت حولها، لمدة ثلاثة أيام دون أن يلقوا أية مقاومة، علماً أن أصحاب بيت المقدس كانوا قد حصنوا أسوار مدينتهم بالمجانيق والطوارق والسيوف والدرق والجواشن، يضاف لذلك أن عدتهم كانت كاملة وحراستهم شديدة إلا أنهم التزموا الصمت.

في اليوم الخامس لمحاصرة المدينة تقدم يزيد بن أبي سفيان إلى أسوار المدينة، وطلب من صاحب المدينة أحد ثلاث، إما الإسلام، أو الجزية، أو القتال فرفضوا ذلك، فكان القتال بينهم.

في صبيحة اليوم السادس عبأ المسلمون العرب جندهم، واستعدوا للقتال فلما أصبحوا على مدى رمي النشاب أطلقوا عليهم من على أسوار المدينة رشقة قوية، واستمر القتال إلى نهاية اليوم العاشر وفي بداية اليوم الحادي عشر عبأ أبو عبيدة جنده، وعلى يمنته خالد بن الوليد، وعلى ميسرته عبد الرحمن بن أبي بكر، وشعارهم في هذه التعبئة التهليل والتكبير، فكان لذلك أثر كبير على من بداخل المدينة، حيث لجأوا إلى صاحب المدينة، وأخبروه بذلك فقال لهم: إن كان صاحب نبيهم محمد ﷺ المسمى بعمر، فلا سبيل لقتالهم، ولا طاقة لنا بهم. لذلك تحرك إلى أسوار المدينة علّه يرى أوصافه فلم يجدها في أبي عبيدة.

عندما رأى أبا عبيدة ولم يكن هو المطلوب أمر الجند على السور ومن بداخل المدينة بقتال أبي عبيدة والوقت شتاء.

استمر حصار العرب للمدينة أربعة أشهر بعد ذلك ظهر صاحب بيت المقدس، وطلب من أبي عبيدة أن يحدد ماذا يريد فقال الإسلام: أو الجزية فرفض وقال له: إن الذي يفتتح مدينتنا صاحب نبيكم عمر بن الخطاب، فلما سمع أبو عبيدة ذلك قرر أمام هذا الواقع وحقنا للدماء، وبعد اجتماع ضم قادته أن يخاطب الخليفة، فأرسل إليه كتاب يخبره بذلك، فلما وصل الكتاب قرأه وعقد اجتماعاً حضره قادة الدولة وأعلمهم الخبر. فكان أول من تكلم عثمان بن عفان[1]، فنهاه عن المسير إليها، ثم تكلم علي بن أبي طالب غير ذلك، فكان رأيه نقيض سابقه، وهو أن يقدم إلى بيت المقدس فتفتح على يديه.

قبل الخليفة هذا الرأي وتوجه إلى بيت المقدس، وهناك تم له فتحها، وكتب لأهلها كتاباً عهد فيه إليهم وأقرهم فيه على الجزية بعد ذلك توجه إلى الجابية في دمشق وهناك قسم بلاد الشام إلى:

قسم من حوران إلى حلب وما يلي على هذا القسم، وعليه أبو عبيدة وأمره بالتوجه إلى حلب.

---

(١) الواقدي فتوح الشام – المكتبة الشعبية ج ١ – ص٢٤٨.

قسم فلسطين والساحل ليزيد بن أبي سفيان.

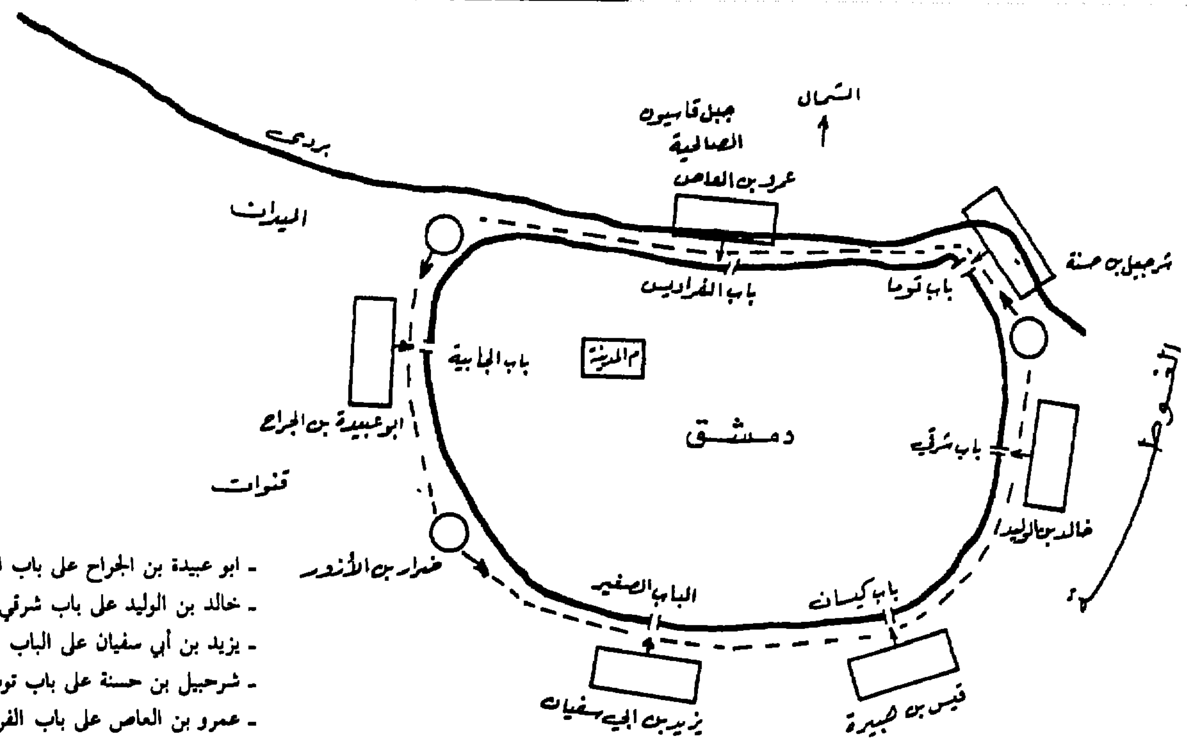
ثم سير عمر بن العاص إلى مصر ليفتحها.

أوكل لأبي عبيدة القيادة العامة على كل هذه الجبهات ثم توجه إلى المدينة مركز القيادة المركزي.

تحرك يزيد بثمانية آلاف باتجاه قيسارية وعليها قسطنطين ابن الملك هرقل الذي طلب من أبيه أن يمده عندما علم بقدوم العرب فبعث إليه أبوه عشرة آلاف وكان عنده من قبل عشرون ألفاً كما أرسل إليه المراكب تحمل الزاد والعلوفة والتموين وعلم يزيد بقوام عدوه وعدته فكتب إلى الخليفة يستنجده فوجه الخليفة إلى أبي عبيدة يأمره أن يمد يزيد بالجند لأن أبا عبيدة كان في عدد وعدة أكبر[1]، فبعث أبو عبيدة إليه ثلاثة آلاف فارس مع حرب بن عدي وبقي في سبعة عشر ألفاً أكثرهم من اليمن، ثم إن يزيد بن أبي سفيان، وجه أخاه معاوية إلى قيسارية بعد أن وصله كتاب من الخليفة بتوليته عليها، فتوجه معاوية إلى قيسارية، وتم له فتحها، ووجه منها كتاباً إلى الخليفة يخبره بفتحها، كما تمكن بمساعدة أخيه معاوية من فتح بقية الساحل الشامي، وتم سيطرة العرب على كل بلاد الشام.

---

(١) كان أبو عبيدة في عشرين ألف ومع عمرو بن العاص: ويزيد بن أبي سفيان عشرة آلاف.



- ابو عبيدة بن الجراح على باب الجابية .
- خالد بن الوليد على باب شرقي .
- يزيد بن أبي سفيان على الباب الصغير .
- شرحبيل بن حسنة على باب توما .
- عمرو بن العاص على باب الفراديس .
- قيس بن هبيرة على باب

مخطط حصار العرب لدمشق

الباب الثالث

الخلفاء الآمويون في دمشق

الفصل الأول الفرع السفياني

الفصل الثاني الفرع المرواني

الفصل الأول

الفرع السفياني

- معاوية بن أبي سفيان
- يزيد بن معاوية
- معاوية الثاني بن يزيد

الفصل الأول

الفرع السفياني

١ - معاوية قبل الخلافة:

إن طموح بني أمية للرئاسة منذ الجاهلية للسيطرة على وظائف الكعبة[١] تجلت في صراع هاشم مع أمية، والمناظرة بينهما والاحتكام إلى الكهان. وكانت النتيجة غلبة هاشم وانتصاره، ورحيل أمية إلى الشام لعشر سنين.

ثم النزاع الذي حدث فيما بعد، بين عبد المطلب بن هاشم، وبين حرب بن أمية، ثم تمادت العداوة بين البيتين[٢]، فكان لأبي سفيان بن حرب زعامة في قريش، فهو الذي كان يشارك في الإشراف على تجارتها[٣]، كما كان من أشد المعارضين للثورة العظيمة التي قادها النبي العربي العظيم كما قام بحملات وغزوات ضد هذه الثورة، ولم يؤمن بها، ولا بمبادئها ودستورها وقائدها إلا قبيل[٤] الفتح (فتح مكة) حيث أسلم وأسلم معه معاوية وأمه هند[٥]

---

(١) ابن هشام - محمد بن عبد الملك - سيرة النبي ﷺ - تصوير لبنان - دار الفكر - ج ١ - ص:٨٠.

(٢) المقريزي - أحمد بن علي بن عبد القادر بن ابراهيم بن تميم - النزاع والتخاصم فيما بين أمية وبين هاشم - طبعة مصر ١٩٣٧ - ص:١١.

(٣) ابن الأثير - ج ٤ - ص:٨٠.

(٤) ابن قتيبة - المعارف - ص:٣٤٤.

(٥) هي التي أكلت كبد حمزة عم النبي في موقعة أحد لأنه قتل بعض أقاربها وهم يحاربون الرسول.

بعد نجاح الثورة التي قادها النبي ﷺ ألغى كثيراً مما كان قائماً من النظم الإجتماعية والعسكرية[1]، فانتزع بذلك سلطة بني أمية، إلا أنه وضع لحقدهم حداً اتقاءً لعصبيتهم نحو بني هاشم عندما عامل النبي ﷺ أبا سفيان معاملة حسنة، بإعلانه أنّ من يدخل دار أبي سفيان فهو آمن[2]، وتزوج ابنته أم حبيبة[3]، كما استخدم ابنه معاوية[4] في الكتابة يضاف إلى ذلك استخدام بعض الأمويين على الصدقات، وبعضهم الآخر على بعض الأعمال[5].

اقتداءً بالرسول ﷺ سار الخليفة الراشدي الأول والثاني على هذا التقليد، بتقريب بني أمية، فقد استعمل أبو سفيان عاملاً على ما بين آخر حد الحجاز، وآخر حد نجران[6]، كما استعمل ابنه يزيد على أحد الجيوش الأربعة الرئيسية لتحرير بلاد الشام[7]. كما ولى معاوية مكة[8]، ثم على فلسطين[9]، ثم شارك في تحرير بلاد الشام، وافتتح بعض المدن فيه على[10] الساحل عندما توفي يزيد بن أبي سفيان وبعض القواد الآخرين في طاعون عمواس سنة (١٨ هـ). وضع معاوية أميراً على سائر الشام[11]

مما ورد يتضح لنا أن سلطة بني أمية في الجاهلية عادت بعد الإسلام، وعلى الأخص في عهد الخليفة الراشدي الثالث على الرغم من العهود، والمواثيق التي أخذت عليه قبل

---

(١) المقريزي – النزاع والتخاصم – ص: ٣٣-٣٤.
(٢) الطبري – ج ٣ – ص:٥٤.
(٣) عبد المنعم ماجد – التاريخ السياسي للدولة العربية عصر الخلفاء الأمويين – طبعة مصر ١٩٥٧ – ج ٢ – ص:١٦.
(٤) حسين بن محمد بن الحسين الديار بكري – تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس – طبعة بيروت – مؤسسة شعبان ج ٢ – ص:٢٩١.
(٥) المقريزي – النزاع والتخاصم – ص:٣٢-٣٣.
(٦) البلاذري – فتوح البلدان – طبعة بيروت ١٩٧٨ – ص:٨٠.
(٧) أحمد شلبي – التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية – طبعة مصر ١٩٧٠م – ج ٢ – ص:٣٣.
(٨) ابن عبد ربه – ج ٤ – ص:٣٦٥.
(٩) عبد المنعم ماجد – ج ٢ – ص:١٧.
(١٠) البلاذري – فتوح البلدان –ص:١٣٣.
(١١) ابن قتيبة – المعارف – ص:٣٤٩.

توليه[1] الخلافة وذلك بأن لا يجعل بني أمية على رقاب الناس، رغم هذه العهود والمواثيق فقد خالف عندما عين أقرباءه على بقية الأمصار، وأمر معاوية على الشام[2]. كان تصرف عثمان بن عفان من العوامل الرئيسية لقيام ثورات كانت نتيجتها قتله سنة (٣٥ هـ).

كانت هذه الثورة ومقتل الخليفة العامل الحاسم الذي أتاح لمعاوية التفرد الكامل بالسلطة في بلاد الشام[3]، وقيادة المعارضة والمطالبة بدم عثمان، فنجح وكيف لا ينجح وهو الموصوف بالحلم والدهاء[4] والمكايدة.

وحين ذهب طاعون عمواس[5] بيزيد بن أبي سفيان سنة (١٨ هـ) ولى عمر بن الخطاب أخاه معاوية، فلم يزل والياً لعمر حتى قتل غيلة[6]، ثم ولاه عثمان بن عفان ما كان عليه، فلما توفي عبد الرحمن بن علقمة الكناني، وكان على فلسطين ضم عمله إلى معاوية، وكان عمير بن سعيد الأنصاري في سنة (٢١ هـ) على دمشق والبثية وحوران وحمص وقنسرين والجزيرة، ومعاوية على البلقاء والأردن وفلسطين والسواحل وانطاكية ومعرة مصرين وقيلقية. ثم ولى عمير بن سعيد حمص وقنسرين ومعاوية على دمشق، وعلقمة بن محرز على فلسطين، وفي سنة (٢٥ هـ) اجتمع الشام لمعاوية.

إن حكم معاوية الطويل في بلاد الشام مع ما قد سبقه من تمهيد ممن سبقه من الأمويين أتاح له تأكيد سلطته العسكرية والسياسية[7] مما جعله يكون جيشاً قوياً نازع به جيش الأمة العربية الإسلامية الذي يقوده الإمام علي في موقعه صفين[8].

لكنه رغم ذلك نلاحظ ضعف القوة العسكرية لدى معاوية، بالمقارنة مع جيش خصمه،

---

(١) البلاذري – أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري – أنساب الأشراف – تصوير بغداد – ج ٥ – ص:٢٢.
(٢) البلاذري – الفتوح – ص:٨٢.
(٣) أسد الغابة – ج ٢ – ص:٢٨٦.
(٤) محمد أسعد طلس – تاريخ العرب – طبعة بيروت ١٩٧٩ مجلد أول – ج ٤ – ص:٢١.
(٥) ابن خياط – تاريخ خليفة بن خياط – طبعة بيروت ١٩٧٠ – ص:١٣٨.
(٦) ابن خلدون – تاريخ ابن خلدون – ص:١٢٤.
(٧) ابن الأثير – ج ٣ – ص:٧٥.
(٨) ابن الحنبلي – شذرات الذهب في أخبار من ذهب تحقيق أحمد رافع الطهطاوي – طبعة بيروت – ج ١ – ص:٤٤.

وقوته وتنظيمه في البداية، لكن المؤامرة التي حبكت أثناء المعركة الرئيسة، والدهاء الذي قام به عمرو بن العاص في مرحلتين متتاليتين[1] من المعركة هي التي حولت مجرى الأمور لصالح معاوية الذي جعل الحرب منذ البداية تخدم سياسته متبعاً أسلوب الدهاء والخداع، وكان التحكيم[2] إحدى ثمرات دهائه السياسي.

كان التحكيم «لا حكم إلا الله» كما عبر عنه الإمام «عليّ» كلمة حق أريد بها باطل سبباً في نجاح معاوية، وتولية الخلافة في بلاد الشام ثم مصر[3]، ولم يكتف معاوية بأسلوبه الملتوي للحصول على السلطة، وإنما زرع بذور الفرقة، وأثار الاضطرابات في العراق والحجاز، ومع ذلك بقي أضعف من أن ينال ما يريد. إلا أن اغتيال الإمام علي سنة (٤٠هـ) كان انتصارا سياسيا كسبه معاوية، وأعلن فوزه حين أعلن نفسه خليفة في بيت المقدس[4].

موقعة صفين:

وجه علي بن أبي طالب جرير بن عبد الله البجلي إلى معاوية بن أبي سفيان يدعوه إلى الدخول في طاعته، ولما عاد دعاه علي فأخبره خبر معاوية، واجتماع أهل الشام على قتاله.

خرج علي بن أبي طالب، فعسكر بالنخيلة، وهناك قدم عليه ابن عباس بمن نهض معه من أهل البصرة، فبعث عليّ زياد بن النضر الحارثي طليعة في ثمانية آلاف، ومعه شريح بن هانىء في أربعة آلاف، وخرج علي بمن معه من النخيلة، فلما انتهى إلى الرقة قال لأهلها: «اجسروا لي جسراً حتى أعبر من هذا المكان إلى الشام»[5].

فعبر بالاثقال والرجال، حتى قطع الفرات في الوقت الذي كانت فيه طليعة الطرفين قادمة كل منهما باتجاه الأخرى تحبس الطريق وتبث الخبر، فلما تقابلت طليعة علي وعليها زياد، وطليعة معاوية، وعليها أبو الأعور السلمي أرسل زياد إلى علي يقول:

---

(١) عندما كشف عن عورته في صراعه مع عليّ ثم في رفعه المصاحب قبل التحكيم.

(٢) يوليوس ولهاوزن، الخوارج والشيعة - طبعة مصر ١٩٥٨ - ص:٣-٦.

(٣) ابن الأثير - ج ٣ - ص:١٧٨.

(٤) الطبري - ج ٥ - ص:٦١/ - يذكر أبو الفداء أن الخلافة كانت قد آلت إليه قبل ذلك - أبو الفداء - المختصر - ج ١ - ص: ١٨٤.

(٥) الطبري - ج ٣ - ص:٥٦٥.

«إنا لقينا أبا الأعور السلمي في جند من أهل الشام فمرنا بأمرك»[1].

عند ذلك دعا علي الأشتر وقال له:

«فإذا قدمت عليهم فأنت عليهم... واجعل على ميمنتك زيادا وعلى ميسرتك شريحاً، وقف من أصحابك وسطاً، ولا تدن منهم دنو من يريد أن ينشب الحرب، ولا تباعد منهم بعد من يهاب البأس حتى أقدم عليك فإني حثيث السير في أثرك إن شاء الله»[2].

من قراءة هذا النص يتضح المخطط التالي:

إرسال مقدمة للقوة الرئيسية التي يقودها، تعيين قائد للمقدمة بقوله: «فإذا قدمت عليهم فأنت عليهم». تحديد ترتيب قتال: ميمنة، ميسرة، قلب. تحديد المكان المناسب في المعركة لا هو قريب ولا هو بعيد. الحركة وأثرها على المفاجأة يقول «إني حثيث السير في أثرك إن شاء الله».

فالمقدمة الأمامية تشكل جزءاً من الأمور التي تختلط معها العوامل التكتيكية مع الاستراتيجية فقد تنفذ المقدمة اشتباكات مستقلة بالوقت الذي تشكل مواقعها المتباعدة نسبياً عن القوة الرئيسية عوامل الاستراتيجية. إن المقدمات هي عيون الجيش وكل قوة عسكرية تحتاج لمقدمة تفتش عن العدو حتى تكشف تقدمه ولكي لا تفاجأ القوة الرئيسية.

ومن خلال النص نلاحظ ترتيب قتال حربي بتوزيع وتناسق القوات وتشكيلها فالتوزيع واقع في النص: اجعل على ميمنتك زياداً وعلى ميسرتك شريحاً وقف من أصحابك وسطاً. ومن هذا التوزيع نستنتج خطة القائد وقدرته على السيطرة.

أما تناسق الأسلحة والقوات فيظهر بوضوح في قدرة المقدمة على خوض معركة مستقلة، ويظهر أيضاً بالوقوف بثبات «ولا تباعد منهم بعد من يهاب اليأس حتى أقدم عليك». ثم معرفة الأرض والعدو.

أما التشكيل فيعني تحديد مواقف أجزاء الجيش داخل نظام المعركة، تجميع القوات، الحسم وفي الحسم تظهر الاستراتيجية ثم الحركية وأثرها.

لما انتهى علي بن معه إلى معاوية الذي كان قد عسكر في موقع سهل فسيح إلى جانب

(١) المرجع نفسه - ج ٤ - ص:٥٦٧.
(٢) - المرجع نفسه ج ٤ ص ٥٦٧

شريحة من الفرات جعلها في حيزه[1]، وبعث عليها أبا الأعور السلمي يمنعها ويحميها، حيث لا يوجد سواها، مما أدى إلى قتالهم نتيجة منع الناس الماء، ولما تمت سيطرة علي لم يمنع عنه أحداً يقول الطبري في ذكر الخبر: إن صعصعة بن صوحان قال:

«فصار الماء في أيدينا، فقلنا لا والله لا نسقيهوه فأرسل إلينا علي أن خذوا من الماء حاجتكم، وارجعوا إلى عسكركم وخلوا عنهم، فإن الله عزّ وجلّ قد ينصركم عليهم بظلمهم وبغيتهم»[2].

هنا بدأت عملية استراتيجية وتكتيكية في وقت واحد أدت إلى إظهار خطأ معاوية بحمايته للماء ومنعه خصومه مما أدى إلى دفع قواته والحصول عليه بالقوة. ثم بعث علي إلى معاوية يدعوه إلى الله وإلى الطاعة والجماعة فقال له معاوية: ليس بيني وبينكم إلا السيف.

وخرج معاوية وعمرو بن العاص في الناس يكتبان الكتائب ويعبيان الناس وأوقدوا النيران، وبات على ليلته كلها يعبىء الناس، ويكتب الكتائب ويدور في الناس يحرضهم[3].

وبدأ القتال بينهما فلما كان أحد الليالي خرج علي، فعبأ الناس وزحف وخرج إليه معاوية في أهل الشام فقال علي:

«من هذه القبيلة؟ ومن هذه القبيلة؟ فنسبت له قبائل أهل الشام حتى إذا عرفهم ورأى مركزهم قال: للأزد اكفوني الأزد، وقال: لخثعم اكفوني خثعم، وأمر كل قبيلة من أهل العراق أن تكفيه أختها من أهل الشام إلا أن تكون قبيلة ليس فيها بالشام أحد يعرضها إلى قبيلة أخرى تكون بالشام ليس منها بالعراق أحد»[4]. ثم تناهض الناس من الفريقين، فاقتتلوا قتالاً شديداً، ثم قام علي يوم صفين يحرض الناس فقال:

«إن الله عزّ وجلّ قد دلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم تشفي بكم على الخير

---

(١) الطبرى – ج ٤ – ص:٥٧٢.
(٢) المرجع نفسه – ج ٤ – ص:٥٧٢.
(٣) الطبري – ج ٥ – ص: ١٠.
(٤) المرجع نفسه – ج٥ – ص:١٤.

والإيمان بالله عزّ وجلّ وبرسوله ﷺ، والجهاد في سبيل الله تعالى ذكره، وجعل ثوابه مغفرة الذنب، ومساكن طيبة في جنات عدن، ثم أخبركم أنه يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص فسووا صفوفكم كالبنيان المرصوص وقدموا الدراع، وأخّروا الحاسر، وعضوا على الأضراس، فإنه أنبى للسيوف عن السهام، والتووا في أطراف الرماح فإنه أصون للأسنة، وغضوا الأبصار فإنه أربط للجأش وأسكن للقلوب، وأميتوا الأصوات فإنه أطرد للفشل، وأولى بالوقار، وراياتكم فلا تميلوها ولا تزيلوها، ولا تجعلوها إلا بأيدي شجعانكم فإن المانع للذمار والصابر عند نزول الحقائق، هم أهل الحفاظ الذين يحفون براياتهم ويكتنفونها، يضربون حفافيها خلفها وأمامها ولا يضعونها »[1].

قراءة دقيقة لهذا النص يتضح لنا ما يلي:

اجراء استطلاع دقيق للعدو وقوام قوته وتقديره ونواياه. الحض على الجهاد في سبيل الله واعلاء كلمته. الدعوة إلى الوحدة والالفة والمحبة في القتال. ثم ترتيب القتال القائم على تقديم الدارع وتأخير الحاسر. ثم تحديد أسس ووصايا لكل منهم أي ما يسمى حديثاً أمر القتال. الوصية بالراية بأن تكون بأيدي أشجع شجعانهم حتى لا يميلوها إلا بنهايتهم. كما يؤكد أثر القيادة والقادة الشجعان. القتال عن المعركة حتى يجعلها القائد خلف الظهر، يقول عبد الله بن كعب المرادي:

« قاتل عن المعركة حتى تجعلها خلف ظهرك فإنه متى أصبح غدا والمعركة خلف ظهره كان العالي »[2].

واستمر القتال بين علي ومعاوية حتى تقصفت الرماح، ونفذت النبل وصار إلى السيف، وأخذ علي يسير بين الميمنة والميسرة ويأمر كل كتيبة من القراء أن تقدم على التي تليها فلم يزل يقوم ويقدم ويفعل بذلك حتى أصبح والمعركة كلها خلف ظهره.

إن هذه المعركة أعطت معاني عديدة أهمها:

التفوق الواضح والمثل الحي لنتائج تعلم الاستراتيجية والسياسية وكيفية تنفيذ الاستراتيجية من الحواجز الجغرافية التي قد تبدو معوقة لها. معرفة المهاجم مثل أهمية

---

(١) الطبري - ج٥ - ص:١٦-١٧.

(٢) المرجع نفسه - ج ٥ - ص:٦٠.

الهجوم وأثره. توفر الإعداد الكافي واللازم في مختلف المجالات، واستخدامه بطريقة صحيحة. والتعرف من خلال المعطيات السابقة، وبهذا الشكل منذ بداية المعركة دليل على وجود أهداف سياسية جريئة وغايات استراتيجية هامة.

«فلما رأى عمرو بن العاص أن أمر أهل العراق قد اشتد وخاف الهلاك قال لمعاوية: هل لك في أمر أعرضه عليك لا يزيدنا إلا اجتماعاً، ولا يزيدهم إلا فرقة قال: نعم قال: ترفع المصاحف ثم تقول: ما فيه حكم بيننا وبينكم، فإن أبى بعضهم أن يقبلها وجدت فيهم من يقول: بلى ينبغي أن نقبل فتكون فرقة تقع بينهم وإن قالوا بلى، نقبل ما فيها، رفعنا هذا القتال عنا وهذه الحرب إلى أجل أو إلى حين، فرفعوا المصاحف بالرماح وقالوا: هذا كتاب الله عزّ وجلّ بيننا وبينكم من لثغور أهل الشام بعد أهل الشام، ومن الثغور أهل العراق بعد أهل العراق فلما رأى الناس المصاحف قد رفعت قالوا: نجيب إلى كتاب الله عزّ وجلّ وننيب إليه»[1].

مما ورد في النص السابق هو مخطط استراتيجي واضح لأن الاستراتيجية ليست عقيدة، وإنما هي أسلوب في التفكير يسمح بتطبيق الأحداث حسب أهميتها، وفيه تأكيد على الوحدة بين صفوف أعدائهم بقوله: «فإن رأى بعضهم أن يقبل وجدنا فيهم من يقول بلى ينبغي أن نقبل فتكون فرقة بينهم».

ثم إن علياً رد هذا المخطط بقوله لهم:

«ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، أنا أعرف بهم منكم، ثم قال: ويحكم إنهم ما رفعوها ثم لا يرفعوها ولا يعملون ما فيها وما رفعوها لكم إلا خديعة ودهاء ومكيدة»[2].

وقال أيضاً عن رفع المصاحف وعن لا حكم إلا الله بأنها كلمة حق أريد بها باطل».

استجاب عليّ فرفع القتال والحرب عنهم حالياً، وهم على وشك نهايتهم، وسقوط استراتيجيتهم في معركة رئيسية فاصلة.

ثم لجأ الطرفان للتحكيم: يقول الطبري في ذكر الخبر:

«إن علياً بعث أربعمائة رجل عليهم شريح بن هانىء الحارثي وبعث عبد الله بن عباس

---

(١) الطبري - ج ٥ - ص:٤٨.
(٢) الطبري - ج ٥ - ص:٤٩.

وهو يصلي فيهم ويلي أمورهم وأبو موسى الأشعري معهم، وبعث معاوية عمرو بن العاص في أربعمائة من أهل الشام حتى توافوا بدومة الجندل ».

« أثناء ذلك كان معاوية إذا كتب إلى عمرو بن العاص جاء الرسول وذهب لا يدري بما جاء فيه، ولا بما رجع، ولا يسأله أهل الشام عن شيء وإذا جاء رسول عليّ جاؤوا إلى ابن عباس فسألوه، ما كتب به إليك أمير المؤمنين فإن كفهم ظنوا به الظنون، فقالوا ما نراه كتب إلا بكذا وبكذا فقال ابن عباس: أما تعقلون »[1].

في هذا النص تنفيذ لوعد تم بينهما، وفيه تحديد الحكمين، ومكان اجتماعهما، وفيه أيضاً التزام أهل الشام مع معاوية وثقتهم به وبعمرو بن العاص، وعدم الالتزام والثقة من جانب أهل العراق بكلام عليّ مع ابن عباس إلى أبي موسى الأشعري.

أخيراً التقى الحكمان، وبعد نقاش بينهما فيه مراوغة من عمرو بن العاص، حيث أخذ يقدم أبو موسى الأشعري في الكلام بقوله: إنك صاحب رسول الله وأنت أسن مني، وكان من عادته أن يقدم أبو موسى في كل شيء[2]. كان رأي أبو موسى خلع الرجلين وجعل الأمر شورى بين المسلمين. فأقبلا إلى الناس وهم مجتمعون فقال عمرو بن العاص: يا أبا موسى أعلمهم بأن رأينا قد اجتمع واتفق، فتكلم أبو موسى فقال: إن رأيي ورأي عمرو قد اتفقت على أمر نرجو أن يصلح الله عزّ وجلّ به أمر هذه الأمة فقال عمرو صدق.

قم تكلم يا أبا موسى فقال: أيها الناس[3] إنا قد نظرنا في أمر هذه الأمة فلم نر أصلح لأمرها، ولا ألمّ لشعثها من أمر قد أجمع رأيي ورأي عمرو عليه. وهو أن نخلع علياً ومعاوية، وتستقبل هذه الأمة هذا الأمر، فيولوا منهم من أحبوا، وأجمعوا عليه، وإني قد خلعت علياً ومعاوية.

ثم تنحى وأقبل عمرو بن العاص فقام مقامه فقال: إن هذا يعني أبا موسى قد قال ما سمعتم وخلع صاحبه، وأنا أخلع صاحبه كما خلعه، وأثبت صاحبي معاوية، فإنه ولي عثمان بن عفان والطالب بدمه، وأحق الناس بمقامه. فقال أبو موسى: مالك لا وفقك الله،

---

(١) الطبري – ج ٥ – ص:٦٧.
(٢) ابن عبد ربه – ج ٤ – ص:٣٤٧.
(٣) ابن عبد ربه – ج ٤ – ص:٣٤٧.

غدرت وفجرت إنما مثلك كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث قال عمرو: إنما مثلك كمثل حمار يحمل أسفاراً[1].

ويذكر بعض المؤرخين أن التحكيم كان نتيجة وجود خونة في صفوف[2] أهل العراق[3] تآمر معهم معاوية وعمرو بن العاص مقدماً. فاليعقوبي يذكر أن معاوية كسب الأشعث بن قيس لصفه، علماً أن الأشعث كان وسيطاً بين الفريقين، حيث ذهب إلى معاوية، وتلقى اقتراحه حول التحكيم قبل أن يبدأ. ويذكر أيضاً أن الأشعث ظل في قلبه مشركاً قديماً فأراد الانتقام من الإسلام. ويذكر أيضاً أن أهل الشام قالوا للأشعث[4] قبل رفع المصاحف إننا إذا شعرنا بخطر الهزيمة سنرفع المصاحف على أسنة الرماح، فاعمل بحيث يوقف القتال.

وفقاً لهذه الخطة عمل بحيث يفهم أهل العراق هذه الخطة ويعملون بموجبها. أخيراً انصرف عمرو بن العاص ومن معه من أهل الشام إلى معاوية، وسلموا عليه بالخلافة.

وتثبت الحروب الطويلة التي قام بها معاوية، ومن جاء بعده أهمية الهجوم غير المباشر لأن نتيجتها، وضعت نهاية للصراع بين السلطة المركزية، والراغبين في الوصول إلى الحكم منذ البداية مبشراً منذ ذلك الحين بتفكيك الدولة الأموية، حيث أصبح ذلك أمراً محتوماً كما سنرى.

لقد حقق معاوية من مخططه الاستراتيجي ما رمى إليه، فعندما رفعت المصاحف[5]، وجدوا في العراق من يقول نحن مع كتاب الله، ومع ما جاء فيه، ووقعت الفرقة بينهم،

---

(1) ابن عبد ربه - ج ٤ - ص:٣٤٧.

(2) بولبوس فلهاوزن - الخوارج والشيعة - ص:٣-٦.

(3) المقصود بهم: أبو موسى الأشعري، الأشعث بن قيس كان أبو موسى والياً على البصرة من (١-٢٩) هـ: حيث عزله عثمان بن عفان وأسند منصبه لأحد أقاربه ثم ولاه الكوفة رغبة من أهلها فيه إلا أنه لم يكن راضياً عن مقتل عثمان أو بجعل أهل الكوفة على الحياد وعدم الانضمام إلى عليّ غير أنه لم ينجح علماً أنه كان يعلم موقفه جيداً لذلك اجتمع عليه الحاكم، واتهم من قبل أهل الكوفة بأنه لم يكن أميناً في سلوكه لدى معركة صفين بل لعب دوره على تفاهم وتواطؤ مع أهل الشام.

(4) بولبوس ولهاوزن - الخوارج والشيعة - ص:٨-٩.

(5) ابن عبد ربه - ج ٤ - ص:٣٤٦.

ونجحت الاستراتيجية، وخلص أهل الشام إلى نصر سياسي بعد هزيمة عسكرية.

فكانت البداية الأولى لوجود الدولة الأموية وانتشارها والوجود الفعلي لها كان عام (٤٠ هـ) عندما نودي بمعاوية خليفة في إيليا، وأصبحت دمشق عاصمة الدولة الأموية الوحيدة. إلا أن علياً لم يكن يجهل أهمية هذا المخطط عندما قال لأصحابه: «خدعتم والله فانخدعتم، ودعيتم إلى وقع الحرب فأجبتم»[١].

بعد التحكيم اختلف أهل العراق على عليّ بن أبي طالب بينما بايع أهل الشام معاوية، ثم إن معاوية عقد اجتماعاً لأكابر أتباعه، وقرر إرسال عمرو بن العاص إلى مصر والياً عليها ومعه ستة آلاف مقاتل.

كان على مصر آنذاك محمد بن أبي بكر من قبل عليّ[٢]، حيث جرت اتصالات بين عمرو وبينه حول تسليم مصر، إلا أن عمرو بن العاص تمكن من محمد بن أبي بكر، واحتل مصر، وكتب إلى معاوية يخبره بقتل محمد بن أبي بكر، واستيلائه على مصر، كما تمكن معاوية من البصرة.

ثم وزع عماله فأرسل بشر بن أبي أرطأة في ثلاثة آلاف مقاتل إلى الحجاز[٣]، فدخل بشر إلى المدينة، وأخذ فيها البيعة لمعاوية، ثم توجه إلى مكة، ومنها إلى اليمن ثم عاد إلى بر الشام بعد أن أخذ البيعة كما ذكرنا، وقتل وذبح الكثير ممن عارضه، بطريقة غير إنسانية.

عندما بلغ ذلك عليّ وجه إليه جارية بن قدامة[٤] في ألفين. كما ذهب وهب بن مسعود في ألفين نحوه، توجه جارية نحو نجران فهرب منها بشر وأصحابه، فاتبعهم حتى بلغ مكة وكان أهلها قد بايعوا الحسن بن علي لأن علياً كان قد اغتيل[٥]، ثم توجه نحو الكوفة.

رغم مقتل عليّ لم تنته متاعب معاوية بن أبي سفيان، ولم يفتح له باب السلطة على

---

(١) الطبري - ج ٥ - ص:٥٠.
(٢) خليفة ابن خياط - ص:١٩٢.
(٣) الطبري - ج ٥ - ص:١٣٩.
(٤) المرجع نفسه - ج ٥ - ص:١٤٠.
(٥) ابن عبد ربه - ج ٤ - ص:٣٥٩.

مصراعيه، بل على العكس، فلقد بايع المسلمون في العراق وما جاورها الحسن بن عليّ[1]، وكان أول من بايعه قيس بن سعد، وكان، على مقدمته[2] في إثني عشر ألفاً، أما معاوية فأقبل بأهل الشام فنزل مسكنة.

لكن الفتن في العراق، وانشقاقهم، ومخالفتهم الحسن بن علي جعله يقفل طريق المفاوضات والغاية حقن دماء المسلمين[3]، ووحدة الأمة، كما فعل أبوه من قبله عند قبوله التحكيم، أثناء ذلك يذكر أن منادياً نادى في عسكر الحسن: إلا أن قيس بن سعد قد قتل فانفروا. فنهبوا سرادق الحسن حتى نازعوه بساطاً كان تحته، فنزل الحسن المقصورة البيضاء بالمدائن، وتفرق عنه أصحابه، فبعث إلى معاوية يطلب منه الصلح[4] ثم قال الحسن لأهل العراق: يا أهل العراق إنه سعى بنفسي عنكم ثلاث: قتلكم أبي، وطعنكم إياي، وانتهابكم متاعي[5]. ثم توجه الحسن وأهله إلى المدينة حيث دخل الناس في العراق في طاعة معاوية وبويع في الخلافة.

بعد ذلك صالح معاوية كل من: عبدالله بن عباس، وقيس بن سعد واستقر له الملك والسلطة، وبذلك يبدأ عهد الدولة الأموية بعاصمتها الجديدة دمشق طوال العهد الأموي.

معاوية بعد الخلافة:

استعمل معاوية على الكوفة عبد الله بن عمرو[6]، لكن معاوية عزل عبد الله بن عمرو،

---

(٢) ابن قتيبة – أبي محمد عبد الله بن مسلم ابن قتيبة الدينوري – الإمامة والسياسة – طبعة بيروت – ج ١ – ص:١٤٠.

(٢) الطبري – ج ٥ – ص:١٥٩.

(٣) اليعقوبي – أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب ابن واضح الكاتب – تاريخ اليعقوبي – طبعة بيروت – ج ٢ – ص:٢١٥.

(٤) يذكر أن معاوية لم ينفذ الشروط التي وضعها على نفسه للحسن عندما أرادها (الطبري – ج ٥ – ص:١٦٢-١٦٣).

(٥) الطبري – ج ٥ – ص:١٥٩.

(٦) قال المغيرة بن شعبة لمعاوية عندما استعمل عبد الله بن عمرو بن العاص على الكوفة وأبيه عمرو ابن العاص على مصر: يا معاوية أنت في هذه الحالة بين فكي كماشة لذلك عزل معاوية عبد الله ابن عمرو عن الكوفة واستعمل المغيرة.

واستعمل المغيرة بن شعبة على الصلاة في الكوفة، كما استعمل أميراً آخر يتولى خراجها، وذلك بتحريض من عمرو بن العاص انتقاماً منه لأنه كان السبب بعزل ابنه.

ثم استعمل معاوية الولاة على بقية الأقاليم، والولايات التابعة للدولة، حيث لجأ معاوية، ومن جاء بعده من الأمويين إلى تبديل الولاة، أو اغتيالهم، وعلى الأخص عندما يصل أحدهم إلى مركز قوة، كما فعل معاوية مع عبد الرحمن بن خالد بن الوليد عندما اغتاله، وما أكثر ذلك في تاريخهم، حتى لا يشكلون خطراً على مصالحهم.

عند ذلك سار معاوية إلى العراق بجيشه، فدخل الكوفة وأخذ بيعتها، كما أخذ بيعة بقية الأمصار بالقوة[1].

أي أن طابع سلطته كان سياسياً، فكان يقول عن نفسه أنا أول الملوك[2] مخالفاً بذلك من سبقه من الخلفاء الراشدين، كما عمل على تغيير العاصمة من الحجاز، ومن العراق فيما بعد إلى دمشق.

فدمشق كانت عاصمة الغساسنة[3] كما كانت مقراً لقوافل الصيف التي تأتيها من الحجاز، ولضعف القوة البحرية آنذاك كانت المدن الرئيسية تقام في الداخل بعيدة عن الساحل، لعدم مهاجمتها من جهة البحر[4] هذا من جهة، ومن جهة أخرى كان يعني سقوط أسرة وقيام أسرة مكانها في السلطة.

وما تصرف معاوية في البقاء على الدواوين في دولته، كما كانت عليه في عهد الخلفاء الراشدين: إلا أنها لم تعرب لذلك أبقاها كما كانت باليونانية ، كما ترك العملة السائدة من قبله، إلا أنه أوجد ديوان[5] الخاتم لضبط المعاملات المالية وحماية الوثائق الهامة علماً أن هذا الديوان كان قد وجد بعد أن اكتشف تزوير أمر مالي بعث به إلى والي العراق كما

---

(١) أبو الفداء - المختصر في أخبار البشر - ج ١ - ص:١٨٣.
(٢) اليعقوبي - تاريخه - ج ٢ - ص:٢٧٦.
(٣) عبد المنعم ماجد - ج ٢ - ص:٢٤.
(٤) المقريزي - أحمد بن علي - المقريزي - المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية - تصوير بيروت - ج ١ - ص:٩٨.
(٥) محمد بن عليّ بن الطقطقا - الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية - طبعة بيروت ١٩٦٦ - ص:١٠٧.

وينسب إليه البريد[1] بعد أن استقرت له السلطة لتسرع إليه الأخبار من جميع أطراف الدولة كما كان لمعاوية نقش خاص لخاتمه (لا قوة إلا بالله).

لقد اعتمد معاوية على أسرته، ووجد في تأييدها ما يوحد[2] حكمه كما اعتمد بعض العناصر التي عملت على اغتيال الخلفاء الراشدين مثل لؤلؤة الذي اغتال عمر بن الخطاب حيث جعله عبده[3] وكان يفاوض خصومه بدهاة العرب. وكان أيضاً يستخدم المال والرشوة في كسب خصومه فكان أول من رشا في الإسلام[4]

وعندما وطد معاوية دعائم ملكه اتجه نحو الفتوحات، لكي يشغل العرب عنه، إلا أنه كان عند الأزمات الداخلية يضطر لعقد هدنات مع الأمبراطور البيزنطي. مثل المعاهدة التي عقدها مع الأمبراطور قنسطانز الثاني[5] قبل معركة صفين سنة (٣٦ هـ) وكان له معاهدة ثانية معه في أول خلافته سنة (٤٢ هـ)[6] ومعاهدة أخرى في آخر حياته، كما عقد معاهدة صلح مع الجراجمة، ودفع لهم أتاوة[7]

إلا أن معاوية شن الحرب ضد الروم في بلادهم ذاتها، عندما انتهى من مشاغله الداخلية، فبدأ حرباً ضد الروم من منطقة الثغور[8]

علماً أن منطقة الثغور هذه كانت شبه خالية من السكان، إلا من بعض الجراجمة اعتباراً من الفتح الإسلامي، لذلك نقل إليها العرب بعض القبائل العربية[9] كما وضع معاوية نظاماً لحرب الثغور[10] حيث كانت تخرج حملات سنوية، وبانتظام على أعدائهم ، وكان يقود

---

(١) المرجع نفسه – ص: ١٠٧.
(٢) المرجع نفسه – ص:١٠٦.
(٣) ابن الأثير – ج ٣ – ص:٣٦.
(٤) ابن قتيبة – المعارف – ص:٢٧٦.
(٥) اليعقوبي – ج ٢ – ص:٢١٧.
(٦) البلاذري – فتوح البلدان – ص:١٦٠.
(٧) المرجع نفسه – ص:١٦٣.
(٨) المرجع نفسه – ص:١٧٨ – ١٤٨.
(٩) المرجع نفسه – ص:١٦٣.
(١٠) نورمان بينز – الأمبراطورة البيزنطية – طبعة مصر ١٩٥٧. ص:١٧٥ وما بعدها.

هذه الحملات ولاة من مشاهير القادة العرب. ورداً من الروم على هذه الحملات، كانوا قد اتخذوا نظاماً دفاعياً عن حدودهم بتقسيمها إلى مناطق حربية[1]

إلا أن هذه المناطق الحربية بدفاعها المنظم، لم تصمد أمام الحملات العربية التي استهدفت القسطنطينية، حيث كانت السلطة فيها مضطربة[2] فحاولت عقد معاهدة للصلح إلا أن معاوية صمم على مهاجمتها، فوجه جيشاً بقيادة ابنه يزيد فحاصرها. إلا أنه انسحب دونها.

لقد برع معاوية في تكوين الأسطول البحري وتأسيسه، كما برع بإرسال حملات بحرية منظمة[3] ضد خصومه.

لقد عمل معاوية ما في وسعه ونجح في تحويل السلطة إلى مطلقة اتوقراطية وراثية في ذريته فاعتبر المؤسس الأول للدولة الأموية[4]. فانقسمت بلاد الشام منذ عصره إلى خمسة[5] أجناد هي: جند دمشق - جند حمص - جند فلسطين - جند الأردن - جند قنسرين. حيث خضعت هذه الأجناد للخلفاء الأمويين مباشرة، لوجود عاصمة الدولة الأموية في دمشق.

كما عمل معاوية على وجود الوحدة الوطنية في بلاد الشام خاصة للقبائل التي سكنت البلاد، حيث استفاد منها في ميدان التنظيم العسكري والسياسي، علماً أنهم نقلوا خبراتهم إلى معاوية وحكومته كما استطاع معاوية أن يقيم توازناً بين هذه القبائل، وعلى رأسها القيسية واليمنية.

اختار معاوية ولاته على بلاد الشام وعلى غيرها، وقلده بقية الخلفاء الأمويين، ممن يتوفر فيهم الولاء التام للبيت الأموي بالدرجة الأولى، مع القدرة العالية على التصرف

---

(١) ابن العبري - غريغوريوس الملطي - تاريخ مختصر الدول طبعة بيروت (تصوير بدون تاريخ) ص: ١١٤.

(٢) ابن الأثير - ج ٣، ص: ٢٢٧.

(٣) المقريزي - الخطط - ج ٣ - ص: ٣٠٨.

(٤) الذهبي - تاريخ الدول - ج ١ - ص: ٢٢.

(٥) كان هذا التقسيم قبل الدولة الأموية منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب إلا أن الأمويين وبالذات معاوية زاد عليها واحدة فأصبحت خمسة أجناد.

السياسي والتنظيم الإداري، كما كان الخلفاء الأمويين ابتداءً من معاوية يعملون على اختيار الولاة من بينهم، أو من بين أصحاب القربى.

كما أدى اهتمامه للاقتصاد فزاد مساحة الأراضي المزروعة.

بعد أن قضى معاوية على المعارضة ووزع ولاته، قدم عليه زياد بن أبيه فصالحه معاوية ونسبه إليه[1] فأصبح من أهم ولاته المخلصين علماً أنه كان من شيعة عليّ ومن ولاته[2] قبل أن ينسبه معاوية إلى أهل بيته بعد ذلك ولاه العراقيين بعد موت المغيرة بن شعبة.

ومن أعمال معاوية التي أثرت على سياسته أمره بنقل قبر رسول الله إلى الشام وقتله حجر بن عدي الكندي[3] وأصحابه لدفاعهم عن عليّ وآل بيته لأن ولاة معاوية كانوا يسبون على المنابر[4] عليّ وآل بيته بأمر منه.

عندما خرجت الخوارج على معاوية في بداية حكمه أجرى صلحاً مع ملك الروم حتى يتمكن من العمل لاستقرار السلطة.

أما الدواوين فإبتداء من عهد معاوية نلاحظ تأسيس دواوين لكل منها اختصاصاته حيث جرى نظامها بما يتفق والنظام الإداري اللامركزي. فكان يوجد دواوين مركزية مقرها العاصمة دمشق ودواوين اقليمية مقرها مراكز الولايات علماً أن العمل في هذه الدواوين جرى وفق قواعد ونظم ثابتة في إدارتها وأهدافها، ويمكن اعتبار معاوية المنظم الحقيقي للدولة، ومبتدع للنظام البيروقراطي[*]. بحيث تمكن بمساعدة زياد بن أبيه في الشرق، وسرجون بن منصور في الشام، وايتناس في مصر من انشاء وزارة للمالية.

وكان معاوية أول من أمر بتسجيل، وحفظ سجلات بمقادير الجزية والخراج في كل اقليم، فكان خراج بلاد الشام زمن معاوية. خراج دمشق ٤٥٠,٠٠٠ ألف دينار، خراج

(١) ابن قتيبة – المعارف – ص:١٤٧-١٧٦، العقد الفريد – ج ٣ – ص:٦٠٢ – الفخري – ص:١٥٢.

(٢) عبد المنعم ماجد – ج ٢ – ص:٢٨.

(٣) ما زال قبر حجر بن عدي الكندي موجوداً في منطقة عدرا حتى هذه الأيام ومن دون اهتمام.

(٤) ابن الأثير – ص:٢٠٧-٢٣٤ – الأغاني أبي الفرج الأصفهاني – ج ١٦ – ص:٧.

(*) عبد المنهم ماجد – ص:٢١.

فلسطين ٤٥٠,٠٠٠ ألف دينار، خراج جند حمص ٣٥٠,٠٠٠ ألف دينار، خراج جند قنسرين ٤٥٠,٠٠٠ ألف دينار.

إن وصول معاوية للسلطة بالقوة جعله يرغب في الرجل القوي القادر على قمع الثورات، وتوطيد الأمن، وضبط الأموال، كما فعل مع زياد بن أبيه. أي أن معاوية كان يولي كل من يجده قادراً على تحمل المسؤوليات ومستعداً لاظهار الولاء له وللدولة.

ولقد اعتمد معاوية أسلوب العزل، فعزل سعيد بن العاص عن المدينة، واستعمل مروان بن الحكم عندما رفض الأول تنفيذ أمر معاوية بهدم دار مروان[١]، وكان أول من اتخذ وأقام الحرس والشرطة[٢].

وكان معاوية يرى أنه لا يمكن الاستغناء عن غير العرب، كأصحاب الحرف والموظفين والأطباء والكتاب في إدارة الدولة، فعهد بالإدارة المالية إلى سرجون وأسرته هي أسرة غير عربية لا بل غير مسلمة، كما عين طبيبه ابن أثال عاملاً على خراج حمص[٣] واشتهر أيضاً زمن معاوية عدد[٤] من الأطباء منهم الحارث بن كلدة، أبو الحكم الدمشقي، ابن أثال، حيث كان يستعين بهم في الأمور الطبية.

ومن أعمال معاوية الأخرى إرسال عقبة بن نافع إلى أفريقية وبنائه مدينة القيروان[٥]، وإرسال حملات برية وبحرية لاحتلال القسطنطينية، ثم مصالحة الروم في آخر حياته، وعقده معاهدة معهم مدتها ثلاثون سنة لكي تتاح له الفرصة لمبايعة ابنه يزيد[٦].

إذن عمل الأمويون في عهد معاوية على الجامعة الوطنية بعد أن بنوا المدن، وأقاموا بها وتحضروا، ونشأت فيهم الغيرة على تلك المواطن، والدفاع عنها، والتعصب لها. أي أن الأمويين عملوا على بناء حضارة عربية تدريجياً، فبعد استقرار الأحوال السياسية، توجهت جهودهم إلى البلدان المجاورة براً وبحراً. وكان هدف الحملة البحرية في عهد

---

(١) الطبري - ج ٥ - ص:٢٩٣.
(٢) خليفة بن خياط - تاريخه - ص:٢٢٨ - اليعقوبي - ج ٢ - ص:٢٣٢.
(٣) اليعقوبي - ج ٢ - ص:٢٢٣.
(٤) القفطي - جمال الدين أبي الحسن عليّ بن القاضي الأشرف يوسف القفطي أخبار العلماء بأخبار الحكماء - طبعة بيروت (تصوير) ص:١١١.
(٥) الحميري - الروض المعطار في خبر الأقطار - طبعة مصر ١٩٨٠ - ص:٤٨٦.
(٦) غوستاف لوبون - حضارة العرب - طبعة مصر ١٩٦٩ - ص:١٤٢.

معاوية الأمبراطورية البيزنطية، حيث تعتبر الفتوحات التي تمت في عهده موجة ثانية في حركة التوسع العربي الإسلامي.

لقد جرت حركة التوسع في عهد معاوية في اتجاهين شرقاً، والأخرى غرباً، فكانت البصرة في عهد زياد القاعدة الأساسية للحملات الشرقية التي استكملت إخضاع خراسان، واجتياز نهر جيجون واجتاحت بخارى في أقاصي تركستان، وفتحت من المدن، مرو وبلخ وهراة، وهكذا حصل اتصال مع الشرق (الترك) حيث قدر لهم فيما بعد أن يلعبوا دوراً رئيسياً، وفعالاً في قيادة العالم الإسلامي، كما سنرى في الجزء الثاني

أما حركة التوسع غرباً، فكان قائدها عقبة بن نافع، عندما عينه عمرو بن العاص لقرابة كانت بينهما فابتنى هناك مدينة[١] وجعلها قاعدة حربية في وجه البربر.

توفي معاوية في سنة (٦٠ هـ) وصلى[٢] عليه ابنه يزيد.

٢ - يزيد بن معاوية:

بعد وفاة معاوية بويع ليزيد بن معاوية في ١٥ رجب سنة (٦٠ هـ). فكان أول ما قام به دعوته الذين رفضوا بيعته[٣] على عهد أبيه، كما سنرى وهم الحسين بن عليّ، عبد الله بن عمر، عبد الله بن الزبير. حيث كتب إلى الوليد بن عقبة عامله على المدينة بأن يتبع الشدة معهم إذا هم رفضوا البيعة[٤].

توجه كل من عبد الله بن الزبير والحسين بن علي إلى مكة، كل منهما على حدة. ولقد كان مع الحسين بنيه وإخوته وبني أخيه وجل أهل بيته غير محمد بن الحنفية، فلما علم يزيد عزل الوليد واستبدله بعمرو بن سعيد[٥].

بدأ الكوفيون مراسلتهم الحسين إلى مكة، ليولوه أمرهم، وأخبروه أنهم حبسوا أنفسهم

---

(١) تذكر بعض المصادر أن موسى بن نصير هو الذي بنى مدينة القيروان وهذا أصح.

(٢) يذكر أن يزيد بن معاوية لم يحضر وفاته ولم يصل عليه وإنما صلى عليه الضحاك بن قيس وهذا أصح.

(٣) البلاذري - أنساب الأشراف - ج ٤ - قسم ثاني - ص:١٣.

(٤) المرجع نفسه - ج ٤ - قسم ثاني - ص:١٢.

(٥) المرجع نفسه - ص:١٩ - الطبري - ج ٥ - ص:٤٧٤ وما بعدها - ابن عساكر - تاريخ دمشق - ص:٤٥.

عن الوالي، فأرسل مسلم بن عقيل إلى الحسين بن عليّ أن الكوفيين بايعوه وقد اجتمع عليه اثنا عشر ألفاً منهم[1] توجه الحسين بأهله، وأتباعه إلى الكوفة. في الوقت الذي كان فيه عبيد الله بن زياد قد قتل مسلم بن عقيل[2] وهانيء بن عروة المرادي، وتخلى الكوفيون عن نصرة الحسين، وهناك تخلوا عنه، فأرسل عبيد الله بن زياد، عمرو بن سعيد لقتاله إذا رفض الامتثال له، وكانت معركة كربلاء وقتلة[3] الحسين مع أهله وبنيه، وتمثيلهم بهم خلافاً لما أراده الله.

بعد مقتل الحسين بن عليّ قام عبد الله بن الزبير، فخطبا[4] في أهل مكة فعاب أهل الكوفة، وذم أهل العراق، وعظم مقتل الحسين ولعن قاتله.

كان على مكة آنذاك عمرو بن سعيد الأشدق، وكان شديداً على ابن الزبير، وعلى أصحابه وقد ولي المدينة لأن مروان كان قد وصف الوليد بن عقبة بالوهن والضعف، كما ولي مكة يحيى بن الحكم بن صفوان بن أمية بن خلف الجمحي، فحاول يزيد أن يحصل على بيعة ابن الزبير إلا أنه فشل، ثم أمر يزيد بن معاوية، عمرو بن سعيد الأشدق أن يوجه جيشاً إلى مكة ليقتل ابن الزبير.

أثناء ذلك طلب عمرو بن الزبير أن يقود هذا الجيش من المدينة إلى مكة ليقتل أخاه، توجه عمرو بن الزبير[5] بهذا الجيش، ومعظمه يميل لعبد الله بن الزبير.

عندما سمع عبد الله بن الزبير بذلك وجه رجالاً من الحجاز ذوي دين وفضل وثبات، فتقاتل مع عمرو، فلم يلبث أن تفرق جنده ومال بعضهم لعبد الله بن الزبير الذي قال: «يزيد الخمور، يزيد الفجور، يزيد الفهود، يزيد الغرور، يزيد الكلاب، يزيد النسوان، يزيد الفلوات»[6].

دعا عبد الله بن الزبير الناس لخلع يزيد وجهاده، وكتب بذلك إلى أهل المدينة، فتمكن بذلك من جمع الحجاز على طاعته وأمره.

---

(١) الطبري – ج ٥ – ص:٣٤٨.
(٢) المقريزي – النزاع والتخاصم – ص ١٤.
(٣) المقريزي – النزاع والتخاصم – ص:١٤.
(٤) البلاذري – أنساب الأشراف – ج ٤ – قسم٢ – ص:١٦.
(٥) المرجع نفسه – ص:٢٣.
(٦) البلاذري – أنساب الأشراف – ص:٣٠.

عندما علم يزيد بذلك بعث إلى مسلم بن عقبة وأمره أن يقود[1] جيشاً قوامه إثني عشر ألفاً بعد أن أعطاهم وأعان كل منهم بمائة دينار. أثناء ذلك كان أهل المدينة قد أخرجوا بني أمية بأثقالهم وأموالهم، وعددهم ألف إلى الشام[2].

وجه يزيد بن معاوية مسلم بن عقبة إلى المدينة، وهناك وفي منطقة الحرة عسكر مسلم، فلما رفض أهل المدينة مبايعة يزيد حاربهم، فانتصر عليهم واستباح المدينة ثلاث أيام ثم جلس للبيعة. توجه بعدها إلى مكة بمن معه، وخلف على المدينة روح بن زنباع الجذامي[3]

وفي طريقه إلى مكة توفي مسلم بن عقبة، وتولى قيادة الجيش حصين بن نمير، وقد أوصاه مسلم إذا وجد مقاومة من ابن الزبير أن ينصب المجانيق على جبال مكة المشرفة، وأن يرمي بيت الله الحرام إذا اجتمعوا فيه.

توجه الحصين بأهل الشام فأقام بمر الظهران ثلاثة أيام، وبدأ حصاره لمكة فلقي مقاومة عنيفة، فرمى بيت الله بالمنجنيق، وبينما هم محاصرون بيت الله أتاهم خبر وفاة يزيد بن معاوية، فعادوا إلى الشام دون أن يظفروا بعبد الله بن الزبير.

اهتم يزيد بن معاوية بالزراعة، وزيادة انتاجها فعمل على حفر نهر يزيد، وكانت المياه توزع عن طريق الأقنية.

لقد زاد من تعقيد الأمور في عهد يزيد بن معاوية، انقسام بلاد الشام بين[4] سكانها اليمنية والقيسية، فاليمنية هجرة قديمة وردت إلى الشام قبل الإسلام، واستقرت فيها[5] وهم قبائل عدة أشهرها قبيلة كلب[6]. أما القيسية فهاجرت الى بلاد الشام أثناء الفتح العربي الإسلامي من عرب الحجاز، حيث اعتبرت إحدى هجرات العرب[7] إلى الشام.

---

(١) المرجع نفسه – طبعة بغداد ١٩٣٨ – قسم ثاني – ج ٤ – ص:٣٣.
(٢) المرجع نفسه – ص:٣٢.
(٣) محمد الخضري – تاريخ الأمم الإسلامية – الدولة الأموية طبعة مصر – ١٩٦٩ – ج ١ – قسم٢ – ص:١٣٢.
(٤) عبد المنعم ماجد – ج ٢ – ص:٩٢.
(٥) المقريزي – النزاع والتخاصم – ص:٦٥.
(٦) القلقشندي – أحمد بن عليّ – صبح الأعشى في صناعة الانشاء نسخة مصورة بمصر ١٩٦٣ – ج ١ – ص:٣١٦.
(٧) عبد المنعم ماجد – ج ٢ – ص:٩٣.

وقد يكون العداء بينهما قد سبق العصر الأموي إلا أنه ازداد في العهد الأموي، وبعد نقلهم الخلافة إلى دمشق، حيث عمل الأمويون ابتداءً من معاوية إلى تقريب أحدهما على حساب الأخرى، حتى يتمكنوا من الاحتفاظ بسيادتهم[1]. حيث عمل الأمويون على تقريب يمانية الشام دون القيسية وذلك منذ عهد الخليفة عثمان بن عفان.

فأدى التعصب الأموي إلى اليمانية إلى تضعضع نفوذ القيسية[2]، مع أنهم أصحاب الفتح، مما جعلهم يكنون العداء للأمويين، وعندما أعلنت القبائل القيسية غضبها بعد موت يزيد، حيث مالت إلى ابن الزبير عدو بني أمية ومنافسهم.

لقد تعاظم صراعهما مع بعضهما ووصل إلى أوجه في مرج راهط، عندما غلت بلاد الشام بالعصبية القبلية من جراء هذه الموقعة[3] التي انتصرت فيها اليمانية، وخسرت القيسية، فأعاد هذا الصراع ذكرى الجاهلية.

٣ - معاوية بن يزيد:

بويع لمعاوية بن يزيد بالخلافة في بلاد الشام، بينما كانت الحجاز لعبد الله بن الزبير، إلا أن معاوية هذا لم يلبث إلا ثلاثة أشهر حتى مات، والبعض يقول لم يلبث إلا أربعين يوماً حتى مات وهذا أصح[4].

أثناء ذلك اجتمع على ابن الزبير أهل الشام، وعليهم الضحاك بن قيس الفهري، وقد بايعه أهل الشام، وزفر بن الحارث الكلابي بقنسرين، وقد بايع لعبد الله بن الزبير أيضاً، كما بايعه النعمان بن بشير الكلابي بحمص. أما حسان بن مالك بن بحدل الكلابي، فكان على فلسطين[5] لمعاوية ولابنه يزيد من بعده، وكان يهوى هوى بني أمية.

ثم إن حسان استخلف روح بن زنباع على فلسطين، وخرج إلى الأردن، فثار ناتل بن قيس على روح بن زنباغ، وأخرجه من فلسطين، واستولى عليها، وكان لصالح بن الزبير أي

---

(١) ابن الأثير - ج ٣ - ص:٢٦١ - البلاذري - الأنساب - ج ٥ - ص:٣٠١.
ابن قتيبة - المعارف - ص:١٧٨.

(٢) فيليب حتي - تاريخ العرب المطول - طبعة بيروت ١٩٦٥ - ج ١ - ص:٣٥٠.

(٣) البلاذري - الأنساب - ج ٥ - ص:٣٠٨.

(٤) ابن عبد ربه - العقد الفريد - ج ٤ - ص:٢٩١.

(٥) المرجع نفسه - ص:٣٩٥.

بلاد الشام بجملها كانت لابن الزبير إلا الأردن وعليها حسان بن مالك. عند ذلك كتب الضحاك إلى النعمان بن بشير، وهو على حمص وإلى زفر بن الحارث، وهو بقنسرين وإلى ناتل، وهو على فلسطين يستمدهم، فأمده النعمان بشرحبيل بن ذي الكلاع، وأمده زفر بأهل قنسرين، وأمده ناتل بأهل فلسطين، كما أن الأجناد كلها إلا جند الأردن كانت قد اجتمعت تحت قيادة الضحاك في مرج راهط[1]، وهو يرى رأي ابن الزبير.

أما معاوية بن يزيد فقال: «يا حسان بن مالك اضبط ما فيك، وصلّى بالناس إلى أن يرضى المسلمون بإمام يجتمعون عليه[2] بقي حسان بن مالك على دمشق، حتى ورد كتب من ابن الزبير بتوليه الضحاك بن قيس على دمشق، فانحاز حسان إلى فلسطين، فكانت فلسطين والأردن في يده من يزيد ابن معاوية ثم بقي عليهما، حتى خرجت فلسطين كما رأينا. أثناء ذلك كان خالد بن يزيد على حمص، فبنى مسجدها، ومات في أيام عبد الملك بن مروان[3].

---

(١) الطبري - ج ٥ - ص:٥٣١.
(٢) أنساب الأشراف - البلاذري - طبعة ١٩٣٨ - ج ٤ - قسم أول - ص:٦٥.
(٣) المرجع نفسه ص:٦٥.

لفصل الثاني

الفرع المرواني

١ - مروان بن الحكم.
٢ - عبد الملك بن مروان.
٣ - الوليد بن عبد الملك.
٤ - سليان بن عبد الملك.
٥ - عمر بن عبد العزيز.
٦ - يزيد بن عبد الملك.
٧ - هشام بن عبد الملك.
٨ - الوليد بن يزيد بن عبد الملك.
٩ - يزيد بن الوليد.
١٠ - ابراهيم بن الوليد.
١١ - مروان بن محمد.

الفصل الثاني

الفرع المرواني

مروان بن الحكم:

كان أهل دمشق المؤيدون للأمويين الذين اجتمعوا في الجابية فريقين[١]، فريق يهوى بني يزيد بن معاوية، وفريق يهوى أن تكون الخلافة لمروان بن الحكم، وحجتهم في ذلك أن أبناء يزيد كانوا صغار العمر بالنسبة لمروان إذا قيسوا بعبد الله بن الزبير.

أخيراً بويع مروان بن الحكم، وانتصر مؤيدوه في الجابية في ٣ ذي العقدة (٦٤ هـ)، وكان قادة القبائل، وزعماء بني أمية في الجابية قد قرروا أن تكون ولاية العهد[٢] بعد مروان لخالد بن يزيد، ومن بعده لعمرو بن سعيد بن العاص على أن تكون إمارة دمشق لعمرو بن سعيد، وإمارة حمص لخالد بن يزيد بن معاوية.

توجه مروان بن الحكم من الجابية بمن معه من قبيلة كلب - السكاسك، غسان، السكون، وعشيرة حسان بن مالك إلى مرج راهط، حيث كان الضحاك ومن معه.

في ذلك الوقت ثار في دمشق ابن أبي النمس بعبيدها، فغلب عليها وعلى خزائنها، وبيت المال، وأخرج منها عامل الضحاك[٣].

---

(١) محمد ماهر حمادة - الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر الأموي - طبعة بيروت ١٩٨١ - ص:٢٦٨ وما بعدها - أبي الفداء - المختصر - ج ١ - ص:١٣.

(٢) يوليوس ولهاوزن - الدولة العربية وسقوطها - طبعة دمشق ١٩٥٦ - ص:١٤٩.

(٣) الطبري - ج ٥ - ص:٥٣٧.

ثم بايع لمروان وأمده بالأموال والسلاح والرجال. كان ذلك من عوامل نصرتهم بعد أن نشب قتال عنيف إنتصر فيه مروان، وقتل الضحاك، وانهزم أصحابه كل إلى جنده أهل فلسطين إلى فلسطين، وأهل قنسرين إلى قنسرين، وأهل حمص إلى حمص، ولو أن ابن الزبير استغل هذا الموقف، وتزعمه بقواته لكان من الممكن أن يتغير الموقف، وينتصر لأن موقف الأمويين كان ضعيفاً ومتردداً.

بعد أن استقر الأمر في بلاد الشام، لمروان نقض مؤتمر الجابية ومقرراته وأمر بالبيعة من بعده لابنه عبد الملك[1] ومن بعده لعبد العزيز، وجعلها وليا عهده. ثم أرسل جيشاً بقيادة حبيش بن دلجة للمدينة، ومن بعدها لقتال ابن الزبير بمكة، والقضاء عليه إلا أن حبيش هذا قتل، وكان معه في جيشه الحجاج وولده. ثم توفي مروان بن الحكم، وبايع الناس في بلاد الشام عبد الملك بن مروان.

عبد الملك بن مروان:

اسمه عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب تولى الخلافة في رمضان (٦٥ هـ)، فى عهده اشتد أمر الخوارج، وقتل نافع بن الأزرق[2].

وفي عهده أيضاً وثب المختار بن أبي عبيد بالكوفة مطالباً بدم الحسين بن عليّ، وقتل من شارك في قتاله وقتله كل من كان بالكوفة[3] من قتلته، والمشايعين على قتله بينما هرب الذي لم يتمكن منهم، ثم بايع أهل البصرة المختار فقوي أمره، فأرسل ابراهيم بن الأشتر لحرب ابن زياد ومن معه من أهل الشام، فتمكن من قتل ابن زياد[4]، وهزيمته ومن كان معه.

في سنة(٦٨ هـ) كان في بلاد الشام قحط شديد، مما أدى إلى تخلف اقتصادهم، وبالتالي عدم قدرتهم العسكرية مما أثر على وضعهم السياسي.

ومن الأمور الأخرى التي حدثت خروج سعيد بن عمرو في دمشق على طاعة عبد

---

(١) محمد كرد علي - خطط الشام - طبعة دمشق ١٩٦٩ - ج ١ - ص:١١٧.

(٢) البغدادي - عبد القاهر - بن طاهر البغدادي - الفرق بين الفرق - طبعة بيروت ١٩٧٨ - ص:٦٥.

(٣) بولبوس ولهاوزن - الخوارج والشيعة - ص:١٩٧ - وما بعدها.

(٤) ابن الوردي - ج ١ - ص:٢٦٥.

الملك[1]. عندما كان متوجهاً للعراق لقتال مصعب بن الزبير، فعاد إلى دمشق وقتله وقتل كل من كان على رأيه. وكان قتله أول غدر في الإسلام[2]، لأن مروان بن الحكم كان قد جعله ولي العهد بعد ابنه عبد الملك. وعندما آلت الخلافة إلى الأخير قتله وغدر بعهده. كما صالح عبد الملك بن مروان الروم[3] عام (٧٠ هـ) على أن يؤدي لهم كل جمعة ألف دينار. توجه عبد الملك إلى العراق، لقتال مصعب بن الزبير سنة (٧١ هـ)، وتم له دخول الكوفة وقتل مصعب[4] ثم عاد إلى دمشق.

ومن أهم الأمور في عهد عبد الملك بروز الحجاج وتوجيهه لقتال ابن الزبير، ورميه الكعبة، وقتله ابن الزبير[5] في (١٧) جمادى الأولى سنة (٧٣ هـ)، وبذلك استقرت وحدة العالم الإسلامي للخلافة الأموية في دمشق إلا من شغب الخوارج. ولى عبد الملك بن مروان الحجاج العراق وخراسان وسجستان وما في تلك النواحي، وقد اشتهر بعد خطبته[6] عند دخوله العراق.

ومن الأعمال الأخرى التي حدثت في عهد عبد الملك بن مروان، والتي كانت ذات أثر على بلاد الشام ذلك الطاعون الذي حدث فيها، وما نتج عنه من مصائب شديدة، حيث لم يقدر أهل الشام من شدته على القتال والغزو.

أمر عبد الملك الحجاج ببناء مدينة واسط[7]، ثم خلفه بالعهد ابنيه الوليد، وسليمان من بعده.

---

(١) البلاذري – أنساب الأشراف – ج ٤ – قسم ٢ – ص:١٣٨.

(٢) عندما أراد عبد الملك النهوض أتاه الخبر بأن طاغية الروم قد تجهز لغزو العرب فكره أن يتشاغل بمحاربته مع اضطراب البلدان فوجه إليه فصالحه، وحمل أموالاً كثيرة إليه – اليعقوبي – ج٤ – ص:٢٦٩.

(٣) ابن خياط – تاريخه – ص:٢٦٨.

(٤) ابن خياط – تاريخه – ص:٢٦٣.

(٥) محمد ماهر حمادة – الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر الأموري – ص:٣١٢.

(٦) زكريا بن محمد محمود القزويني – آثار البلاد وأخبار العباد – طبعة بيروت – دار صادر – صفحة:٤٧٨ – ابن الوردي – ج ١ – ص:١٩٨.

(٧) الدينوري – ابي حنيفة أحمد بن داود الدينوري – الأخبار الطوال طبعة بيروت ١٩٥٩ – ص:٣١٦.

ويجمع المؤرخون أن عبد الملك بن مروان هو أول من ضرب الدراهم والدنانير العربيـة في الإسلام سنة (٧٦ هـ). وسميت الدنانير التي ضربها بالدمشقية، وجعل وزن الواحد منها إثنين وعشرين قيراطاً إلا حبة بالشامي، كما كتب إلى الحجاج أن يضرب الدراهم على خمسة عشر قيراط من قراريط الدنانير. فكان بذلك أول من نقش كلمة درهم بالعربية على الدراهم. واستمرت إلى ما بعد سقوط الدولة العباسية، كما عمل على إحكام نظام البريد[١]، فكان يأمر حاجبه أن يدخل عليه صاحب البريد متى جاء ليل نهار. وكان أيضاً أول من نقل الطراز إلى العربية[٢].

عزم عبد الملك عندما آلت إليه مقاليد الأمور أن يحدث نفس التوازن بين قبائل بلاد الشام، فأظهر حنكته في هذا المجال، ورغبة منه في ابقاء الوحدة الداخلية، فها هو يولي إمارة الأجناد في بلاد الشام إلى أفراد من البيت الأموي، لأن الأمويين كونهم من قريش، فهم فوق القبائل، وخارج منازعاتهم كما كان سائداً آنذاك.

اتبع عبد الملك أسلوب معاوية في اختيار الولاة، كما فعل مع الحجاج، وتعيينه على العراق لأنه وحده أقدر الناس، وأقواهم على قمع الفتن ضد الدولة وتوحيد سلطاتها، وتنفيذاً لذلك فقد عين ابنه سليمان على فلسطين، وعبد الله على حمص وعثمان بن مروان على الأردن.

امتاز عبد الملك بالمعاملة الحسنة لرعايا الدولة غير المسلمين حيث كانت معاملته لهم حسنـة كما ذكرنا، وكان شاعر الدولة الرئيسي، والمقرب من البلاط في عهده الشاعر الأخطل. وفي عهده تمثلت الهندسة المعمارية عندما بنى مسجد الصخرة في بيت المقدس وغيره كما سنرى فيما بعد.

كان عبد الملك بن مروان أول من أحدث الآذان في عيد الفطر والأضحى، وكان أول من كسا الكعبة بالديباج، ويذكر السيوطي أنه لو لم يكن له مساوىء سوى توليه

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية - هارتمان - جـ٣ - ص:٦٠٩ - صبح الأعشى - ج ١٤ - ص:٣٦٨ - العقد الفريد - ج ٢ - ص:٣١٧.

(٢) جرجي زيدان - تاريخ المتمدن الإسلامي - طبعة بيروت - (حسين مؤنس) - ج ١ - ص:١٤٦.

الحجاج على المسلمين وعلى الصحابة يهينهم ويذلهم قتلاً وضرباً وشتماً وحبساً وختم أعناق بعضهم كأنس بن مالك وغيره من الصحابة لكفاه ذلك. ويحدثنا عنه أبو الفداء[1]. عندما أتته الخلافة كان جالساً والقرآن في حجره فأطبقه وقال: هذا آخر العهد بك.

وعمل عبد الملك بن مروان على إعادة تنظيم الإدارة، فأتم عمل البريد فأحكمه، وعمل أيضاً على انتظام الدواوين بفروعها المختلفة مثل ديوان الرسائل والخراج والخاتم.

لم يتبع عبد الملك سياسة التفرقة بين القيسية واليانية، كما فعل سابقوه، وإنما جعل نفسه فوق الأحزاب فعمل على التقليل من العصبية بينهما، فقربهم، وجعلهم معاً عماد جيشه، وبذل لهم العطاء. أما في مجال الفتوحات فتوجه عبد الملك إلى حرب الروم، حيث هاجموا الثغور وخاصة فلسطين، كما هاجموا مدن الساحل مثل عسقلان وقيسارية وصور وعكه[2]، وأنزلوا بها عسكزهم[3]، ولعلهم كانوا ينوون الهجوم على بلاد الشام[4]، لكثرة الفتن فيها، والصراعات الداخلية بالإضافة لكونهم كانوا يثيرون عناصر الجراجمة على حدود سورية ضد السلطة الأموية.

بعث عبد الملك بن مروان في أول خلافته بالأموال والهدايا إلى ملك الروم جستنيان الثاني[5]، وعمل على مصالحته، كما صالح الجراجمة، وجدد الهدنة مع الأمبراطور جستنيان سنة (٧٠)[6]. وخاصة عندما شغل بفتنة عمرو بن سعيد.

ولكن عبد الملك نقض الهدنة مع الروم، عندما انتهى من الفتن الداخلية، وعاد الحرب ضدهم، كما عادت حملات الشواتي والصوائف من ثغور الشام[7]، وطرد الروم من أفريقية وفتح المغرب[8].

---

(١) أبي الفداء عماد الدين اسماعيل – المختصر في أخبار البشر – طبعة بيروت ج ١ ص: ١٩٤.
(٢) البلاذري – فتوح البلدان – ص: ١٨٥.
(٣) المرجع نفسه – ص: ١٤٣.
(٤) المسعودي – مروج الذهب – ج ٥ – ص: ٢٢٤.
(٥) المرجه نفسه – ج ٢ – ص: ٢٢٤-٢٢٥.
(٦) البلاذري – الأنساب –ج ٥ – ص: ٢٩٩-٣٠٠.
(٧) ابن خلدون ج ٣ – ص: ٧٠ – ابن الأثير. ج ٤ – ص: ٢.
(٨) المرجع نفسه – ج ٣ – ص: ٧٠.

الوليد بن عبد الملك:

تولى السلطة بعد وفاة عبد الملك سنة (٨٦ هـ)[١]، من الأعمال التي حدثت في عهده فتح حصن طوانة من بلاد الروم[٢]، وعلى الجيش آنذاك مسلمة بن عبد الملك. كما فتح بخارى[٣] من قبل قتيبة بن مسلم وغيرها، وفتحت الأندلس[٤]، وعلى الجيش موسى بن نصير، وعلى مقدمته طارق بن زياد، حيث تمكن من فتح طليطلة، كما تمكن محمد بن القاسم من فتح الهند[٥].

يعتبر الوليد عند أهل الشام من أفضل الخلفاء الأمويين ويعود ذلك لبعض أعماله التي تركت أثراً أهمها بناؤه المساجد (مسجد دمشق)[٦]، وقد أنفق مبالغ طائلة في بنائه، وأصبح من عجائب الدنيا السبع. ثم بنى مسجد قصر الحلابات، ومن آثاره في مجال البناء القصور في المدن والبادية، وامتاز عهده بحضارة عمرانية وزراعية متطورة واسعة.

اتبع الوليد سياسة أبيه في تعيين إمارة الأجناد من المقربين لهم، وإذا لم يكونوا أمويين، وأهم ولاته على بلاد الشام[٧]، على دمشق عبد العزيز بن الوليد، على الأردن عمر ابن الوليد، على فلسطين سليمان بن عبد الملك، على حمص العباس بن الوليد. أحدث في عهده ديوان المستغلات، ويسجل فيه أجور أراضي الدولة، وأملاك الحكومة، يوصف بأنه كان جباراً ظالماً.

لم يكن للوليد حق سابق في الخلافة، لأن مروان بن الحكم كان قد بايع لعبد الملك، ولعبد العزيز من بعده، لكن عبد الملك أراد أن ينحي عبد العزيز، والمبايعة لأبنه الوليد.

---

(٤) شكري فيصل – حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول – طبعة بيروت – ١٩٥٢ – ص:١٩٢

(٥) كامل بن حسين بن محمد بن مصطفى الحلبي الشهير بالغزي نهر الذهب في تاريخ حلب – حلب ١٩٦ – ج ٣ – ص:٢٤.

(٣) الطبري – ج ٦ – ص:٤٣٤.

(٤) المرجع نفسه – ج ٦ – ص:٤٣٩.

(٥) مؤلف مجهول – أخبار مجموعة في فتح الأندلس – تصوير بغداد طبعة ٨٦٧ – ص:٣ وما بعدها – ابن الأثير – ج ٤ – ص:٥٥٦ وما بعدها.

(٦) الطبري – ج ٦ – ص:٤٩.

(٧) ابن خليفة – تاريخه – ص:٣١١.

هذا ويذكر أن الحجاج، هو الذي رسم خطة بيعة الوليد، وحببها[1] لعبد الملك، لكن عبد العزيز قاوم وكان على مصر، علماً أن عبد الملك كان قد فكر بخلعه[2] لولا أن تريث[3] إلى أن توفي في حياته. بعد وفاته بايع لابنه الوليد من بعده، حيث كان عبد الملك قد هدد ابني يزيد[4] بن معاوية، خالد وعبد الله إذا لم يبايعاه.

لقد تميز عهد الوليد بالاستقرار، ووطد الدعائم، كما تميز بنهضة عمرانية مثلت جميع أجزاء الدولة العربية، المساجد[5] منها خاصة.

لقد أراد الوليد أن يجذب أنظار العالم إلى بلاد الشام وجمالها وأن يجعل من دمشق جنة يكيف بها وجعل من مسجده في دمشق مرحلة جديدة من تطور البناء[6]، حيث أعتبر أعظم أثر أموي في بلاد الشام، وقد جمع لبنائه صناعاً مهرة من الشام ومصر بلغ عددهم أكثر من عشرة آلاف، دام العمل فيه تسع سنوات[7] ابتداءً من سنة (٨٧ هـ). فأعطى[8] لكل ضرير قائد، ولكل مقعد خادم، وأجرى عليها الأرزاق، وعمل أيضاً على إنارة الطرقات في المدن ليلاً[9].

استخدم أخاه مسلمة في حروبه ضد الروم، بالاضافة لابنه العباس بن الوليد. أهم الحصون التي استولى عليها العرب في عهد الوليد حصن[10] طوانة سنة (٨ هـ)، وسيطروا على عدد آخر من الحصون أقاموا فيها الحاميات كسلوقية[11] ومرعش بين الشام وبلاد

(١) ابن الأثير - ج ٤ - ص:١٠١.
(٢) ابن سعد - الطبقات الكبرى - طبعة بيروت ١٩٥٧ - ج ٥ -ص:٢٣٣.
(٣) ابن الأثير - ج ٤ - ص:١٠٢ - البلاذري الأنساب - ج ٥ - ص:١٨٣ - ابن سعد ج ٣ - ص:١٧٥.
(٤) الدينوري - الأخبار الطوال - ص:٣١٢.
(٥) ابن الأثير - ج ٤ - ص:١٣٧ - ياقوت الحموي - ج ٤ - ص:٧٥.
(٦) معجم البلدان - ج ٤ - ص:٧٥.
(٧) إبراهيم الشريقي - التاريخ الإسلامي - خلال أربعة عشر قرناً منذ العهد النبوي حتى العصر الحاضر - طبعة - ص:٩٢.
(٨) عبد المنعم ماجد ج ٢ - ص: ١٩٠.
(٩) ابن الأثير - ج ٤ -ص:١٠٨.
(١٠) فتوح البلدان - ص:١٤٨.
(١١) فتوح البلدان - ص:١٤٨.

الروم[1] وعمورية[2]، حيث زودوها بكل ما تحتاجه وحملوا إليها الجواميس.

استمرت في عهد الوليد الفتوحات في بلاد المغرب، حيث قام في عهده موسى بن نصير بفتح الأندلس - كما سنرى أخيراً أن خلفاء الوليد هذا حصروا همهم على شهوات النفس، وركوب اللذات من معاصي الله والتي كانت من عوامل الإطاحة بالدولة[3] الأموية.

سليمان بن عبد الملك:

كان الوليد بن عبد الملك يرغب في آن يولي ابنه عبد العزيز[4]، وقد يكون الحجاج هو الذي حرضه على ذلك. مع العلم أن الحجاج كان يحقد على سليمان، لأنه حافظ على يزيد بن المهلب بعد عزله من خراسان، وهروبه من سجن الحجاج.

كان الوليد قد هيأ ابنه عبد العزيز لمنصب الخليفة[5]، لكن سليمان رفض التنحي عن ولاية العهد، وشنع على أخيه الوليد[6]. علماً أن كثيراً من الناس، لم يوافقوا الوليد على تولية ابنه، مما جعله يفشل في عزل أخيه سليمان[7]. وكان الوليد قد ولى سليمان بن عبد الملك جند فلسطين[8]، فنزل اللد، ثم أحدث مدينة الرملة، وكان أول ما بناه فيها قصره، والدار التي تعرف بدار الصباغين، وجعل في الدار صهريجاً متوسطاً ثم بنى مسجدها، كما حفر لأهلها القنوات والآبار.

بويع سليمان بن عبد الملك بعد وفاة الوليد، ويعتبر سليمان من خيار ملوك بني أمية، ففي عهده توجهت الجيوش إلى القسطنطينية بقيادة مسلمة بن عبد الملك[9]، وأمره أن يقيم عليها حتى يغنمها. كما استخلف عمر بن[10] عبد العزيز، والذي دفعه إلى ذلك رجاء بن حيوة الراوي*، حيث كانت مكانة هذا في أوجها.

---

(1) البلاذري - فتوح البلدان - ص:189 - ياقوت الحموي - ج 8 - ص:25.
(2) المرجع نفسه - ص:168 - الكامل في التاريخ - ابن الأثير - ج 4 - ص:110.
(3) ابن خلدون - المقدمة - ص:366-367.
(4) ابن الأثير - ج 4 - ص:.
(5) ابن خلدون - العبر - ج 3 - ص:71.
(6) ابن عبد ربه - العقد الفريد - ج4 - ص : 423
(7) ابن الأثير - ج 4 - ص:138.
(8) البلاذري - فتوح البلدان - ص:149.
(9) اليعقوبي - ج 2 - ص:299.
(10) اليعقوبي - ج 2 - ص:299.

من أعماله استبقاؤه الرملة(1) في فلسطين مقراً للخلافة، وهذا ما جعله محبوباً في فلسطين، علماً أنه كان يقيم في دابق، وتعتبر مركز قيادته في شمال بلاد الشام، حيث كانت الجيوش توجه منها.

يعتبر سليمان مستهتراً، إلا أنه اتخذ تدابير ضد الفساق، فقد نهى عن الغناء إلا أنه كان مؤثراً للعدل. كان محباً للغزو، ومن محاسنه أن عمر بن عبد العزيز كان وزيراً، وكان يتمثل أوامره في الخير، فعزل عمال الحجاج، وأخرج من كان في سجنه في العراق، ثم أحيا الصلاة لأول مرة بمواقيتها، لأن من سبقه من بني أمية كانوا قد أماتوها بالتأخير.

في عهده ظهر ديوان النفقات الذي يسجل فيه كل النفقات، ومن أهم أعماله العمرانية بناؤه جامع حلب، مسجد حران، مسجد الأبيض بالرملة، وبناؤه قصر الحائر الشرقي ويقع شرقي تدمر.

كان سليمان يجد في نفسه الحقد والرغبة في الانتقام من الذين وافقوا أخاه الوليد على تنحيته، يوصف بأنه كان مغروراً، وكان إذا نظر في المرآة قال: «أنا والله الملك الشاب»(2). فلما تولى الخلافة أمر عامله بمكة خالد بن عبد الله القسري بشتم الحجاج، ونشر عيوبه وإظهار البراءة منه(3).

كان قتيبة الذي كان عاملاً للحجاج على خراسان، قد وافق على خلع سليمان، وتولية عبد العزيز بن الوليد(4)، لذلك خاف أن يعزله سليمان، ويسيء إليه(5) كما سترى.

كما أمر سليمان بعزل محمد بن القاسم، فاتح السند كونه من أقرباء الحجاج وعامله، وانتقم سليمان من موسى بن نصير، بأن وضعه في السجن، وأساء معاملته، ودس أي خبر عن طارق بن زياد، كما حرص سليمان على قتل عبد العزيز بن موسى في الأندلس(6). وعزل

---

(1) اليعقوبي – ص:٢٩٩.
(٢) ابن سعد – ج ٥ – ص:٢٤٧ – المسعودي – مروج الذهب – ج ٥ – ص:٤٠٣.
(٣) ابن عبد ربه – العقد الفريد – ج ٣ – ص:١٣ – ابن الأثير – ج ٤ – ص:١١.
(٤) ابن الأثير – ج ٤ – ص:١٣٨.
(٥) ابن الأثير – ج ٤ – ص:١٣٨.
(٦) أحمد بن محمد المقرىء التلمساني – نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب – طبعة بيروت ١٩٦٨ – ج ١ – ص:٢٨١.

عبد الله بن موسى الذي تركه أبوه على المغرب في نفس العام الذي قتل فيه عبد العزيز[1]، وأمر عامله محمد بن يزيد أن يعذبه ويسجنه ثم يقتله.

إن تصرف سليمان على هذا النحو في السياسة الداخلية، أي القضاء على الرجال المخلصين سيكون له أثره في فقد الدولة سيطرتها على الولايات التي تحتلها.

عندما تولى الخلافة تحول من دمشق إلى الصحراء، فأخذ البيعة له في الرملة[2]، حيث يرى بعضهم أن الأمويين يهربون إلى الصحراء خوفاً من الطاعون الذي كان يقع بالشام من وقت[3] لآخر، أو من البق[4]، أو خوفاً من البعوض الكثير.

عرف سليمان بن عبد الملك بحبه للهو، وكان سليمان أحد الخلفاء الأمويين الذين تركوا دمشق للصحراء، فكان ذلك إيذانا بوجود العواصم الصحراوية في بلاد الشام، فإنشاء سليمان الرملة على الطريق الممتد من القدس إلى البحر. وكانت هذه العواصم الصحراوية تضم الشعراء الذين كانوا ينظمون الشعر إلى الخلفاء على أنهم سادة للقبيلة. أي أن هذه العواصم، حلت محل أسواق العرب، مما ساعد على تقدم الشعر في العهد الأموي.

عمر بن عبد العزيز:

اعتبر عمر بن عبد العزيز الخليفة الصالح خامس الخلفاء الراشدين[5]، تولى الخلافة في (١٠) صفر سنة (٩٩ هـ)، وبويع في دابق. وأولى أعماله أنه وجه إلى مسلمة بن عبد الملك، وهو بأرض الروم بوقف القتال، والعودة بمن معه من المسلمين.

لم يعمر طويلاً بعد استلامه السلطة، ويعاب عليه من حساده قبل توليه السلطة الاغراق في التنعم، والاختيال في المشية[6]. كان شديداً وبوجه خاص على بني أمية، حيث انتزع من أيديهم كثيراً مما غصبوه لذلك تبرموا به، وسقوه السم فمات.

---

(١) المرجع نفسه – ج ١ – ص:٢٣٤.
(٢) عبد المنعم ماجد – ج ٢ – ص:٢٤١.
(٣) المرجع نفسه – ص:٢٤٢.
(٤) ياقوت الحموي – ج ٤ – ص:٢٥٦.
(٥) الذهبي – أبو عبد الله شمس الدين – تذكرة الحفاظ – طبعة بيروت (١٣٧٤ هـ) – ج ١ – ص:١١٨.
(٦) السيوطي – الحافظ جلال الدين السيوطي – تاريخ الخلفاء – طبعة بيروت ١٩٧٤ – ص:٢١٢

وصف بالعدل، حيث رد فدك على ما كانت عليه في عهد النبي ﷺ، كما أخذ ما بأيدي أهل بيته، وسمى أموالهم مظالم[1]، وقطع عنهم ما كان يجري عليهم من أرزاق. كان بنو أمية قبل توليه الخلافة يسبون الإمام علي كرَّم الله وجهه في الخطبة، فلما ولي أبطل ذلك بكتب وجهها لعماله[2]. وخرج على قاعدة من سبقه في تعيين الولاة من الأمويين بالدرجة الأولى من المؤيدين للبيت الأموي فنراه يعزل يزيد بن المهلب من العراق ويستبدله بِعُديّ بن أرطأة الفزاري على البصرة وبعبد الحميد بن عبد الرحمن بن يزيد بن الخطاب الأعرج على الكوفة، ثم قبض على يزيد بن المهلب، ووضعه في السجن إلا أن يزيد هرب من سجنه في سنة مائة.

في عهده خرج جماعة من الخوارج بالعراق، فكلف والي الكوفة عبد الحميد حيث وجه هذا قوة نحوهم هزمتها الخوارج، لذلك وجه عمر بن عبد العزيز جيشاً بقيادة مسلمة ابن عبد الملك، ومعه أهل الشام فهزمهم.

خرج على عمر بن عبد العزيز شوذب الخارجي، وكانت مراسلة بينهما، وكانت مناظرة حول ولاية العهد ليزيد. كان نتيجة ذلك خوف بني أمية أن يخرج الأمر من أيديهم، فدسوا إليه من سقاه السم فمات.

خطا الطب في عهده خطوة إلى الأمام، وذلك بنقله تدريس الطب من الاسكندرية إلى انطاكية وحران، وذلك بنقل الطبيب عبد الملك بن أبجر الكتاني، كما استعان بطبيب يدعى سرجون في تفسير كتاب اهدن بن أعين إلى العربية.

من ولاته في بلاد الشام[3] على دمشق عبد الله بن الحسحاس العذري، على الأردن عبادة ابن نسيء الكندي، على فلسطين النضر بن بريخ بن أبرهة بن الصباح، وعلى حمص يزيد ابن حصين السكسوني، على قنسرين الوليد بن هشام بن الوليد في عهده بدأت الدعوة العباسية تظهر بشكل أقوى وأوضح.

إن عمر بن عبد العزيز يختلف عمن سبقه من الخلفاء الأمويين الذين كانوا يعيشون في بذخ، ويسيرون في الحكم سيرة المكر والدهاء، ومن أعماله أنه أخذ من أفراد أسرته

---

(١) المرجع نفسه - ص:٢١٣.
(٢) سهيل زكار - أحمد غسان سبانو - المائة الأوائل - طبعة دمشق ١٩٨٠ - ص:١١٢.
(٣) اليعقوبي - ج ٢ - ص:٣٠٨.

اقطاعاتهم[1] وجعل زوجته فاطمة بنت عبد الملك تترك جوهرها لمال المسلمين[2].

عمل عمر بن عبد العزيز على رد المظالم، ونظم السجون لأول مرة، فأوجد لها الديوان[3]، كما فصل بين حبس الرجال، وحبس النساء. عمل عمر على تنظيم الضرائب كما أطلق الحرية للناس في التنقل من الريف إلى المدينة.

لم يكن الاستقرار صفة لعمر بن عبد العزيز، فقد ترك دمشق أكثر من مرة[3]، لأنه رفض أن ينزل في منازل أهل بيته التي بنوها بمال الله وفيء المسلمين، ثم عاد إلى دمشق فنزل دار أبيه، وهي بجانب المسجد، ثم ارتحل إلى حلب، ثم إلى حمص[4]، فاغتيل ومات في دير سمعان في (٢٥) رجب سنة (١٠١ هـ).

يزيد بن عبد الملك:

تولى الخلافة في رجب سنة (١٠١ هـ)، فعزل والي المدينة أبا بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، وولى عليها عبد الرحمن بن الضحاك بن قيس الفهري، وولى مسلمة بن عبد الملك العراق وخرسان، وعزله عنها عام (١٠٢ هـ). وعين بدلاً عنه عمر بن هبيرة[5]، كما تمكن يزيد بن المهلب من خلع يزيد بن عبد الملك بالبصرة[6]، إلا أن يزيد وجه له مسلمة بن عبد الملك، والعباس بن الوليد، فتمكنوا منه وقتلوه بالقرب من كربلاء.

في عهده نقض أهل السغد العهد، وأعانوا الأتراك على العرب المسلمين، فتوجه إليهم سعيد بن مذينة، فقطع نهر بلخ وغزاهم، فتمكن منهم، كما قتل أهل أفريقية من عليهم، لأنه عزم أن يسير بهم في الغرب، مسيرة الحجاج في الشرق. فأجمع رأيهم على قتله، فقتلوه وولوا محمد بن يزيد، وكتبوا بذلك ليزيد بن عبد الملك.

تولى يزيد بن عبد الملك الخلافة، بعد عمر بن عبد العزيز، بعهد من أخيه سليمان،

---

(١) ابن سعد - ج ٤ - ص:٢٩٠.
(٢) المرجع نفسه - ص:٣٥٧.
(٣) اليعقوبي - ج ٢ - ص:٣٠٦.
(٤) المرجع نفسه - ص:٣٠٧.
(٥) اليعقوبي - ج ٢ - ص:٣١١
(٦) المرجع نفسه - ج ٢ - ص:٣١٠

وكان سليمان قد حاول تنحيته عن ولاية العهد، بتوليته أحد أبنائه، إلا أنه لم يلبث أن أسلم الأمر لابن عمه عمر.

لم يكن عمر بن عبد العزيز يرغب في أن يولي عهده يزيد، لما عرف عنه من بذخه وميله إلى اللهو، حتى أن الخوارج كانت تحرضه على عزله[١] وقد يكون ليزيد يد في موته[٢] مسموماً، عندما هددا بني مروان، بالانسحاب إلى المدينة ليجعلها شورى[٣].

كان يزيد يحب حياة البادية، فنزل في موضع اسمه موقر في البلقاء قرب دمشق[٤]، فاستسلم لغرائزه وشغف بحب جاريتين إحداهما تسمى حبابة، والأخرى سلامة[٥]، وكانت تغني وتضرب بالعود.

ظهرت لدى يزيد تصرفات غريبة أخذت عليه، مثل أمره بقتل كل ما هو أبيض[٦] من كلاب وحمام وديوك ورجال شقر، وقطع ذراع السارق، وليس يده، حيث كانت هذه الأعمال من الأمور التي جعلت الآخرين يحتقرونه[٧]، وتصرفاته هذه جعلته لا يهتم بأمور الدولة، وإنما تركها للولاة، أو لجواريه، حيث يذكر أن حبابة كانت تولي وتعزل العمال بغير أمره.

إذن جرت سياسته الداخلية إلى بعث روح العصبية بين اليمانية، والمضرية[٨]، مما جعلها تنخر في عصب الخلافة الأموية إلى أن قضت عليها، فيزيد أعلن انضمامه صراحة للمضرية، لأنه كان متزوجاً ببنت أخي الحجاج[٩].

كما جعل المضرية تستأثر بعطف الخلافة الأموية في عهده على حساب أهل الشام[١٠].

---

(١) ابن الأثير - ج ٤ - ص:١٥٢.
(٢) المرجع نفسه - ج ٤ - ص:٥٧.
(٣) المرجع نفسه - ج ٤ - ص:١٩١-١٩٢.
(٤) ياقوت الحموي - ج ٦ - ص:١٩٩.
(٥) ابن الأثير - ج ٤ - ص:١٩١-١٩٢.
(٦) عبد المنعم ماجد - ج ٢ - ص:٢٧٢.
(٧) المرجع نفسه - ج ٢ - ص:٢٧٢.
(٨) كانت المضرية في نفوذ وازدياد منه صالح عبد الملك المضرية لا سيما وأن الحجاج بن يوسف مضري حيث كان يسيطر على الدولة في عهد عبد الملك وابنه الوليد.
(٩) ابن الأثير - ج ٤ - ص:١٦٠.
(١٠) عبد المنعم ماجد - ج ٢ - ص:٢٧٣.

فأنقص يزيد عطاء اليمانية مع أن اليمانية كانوا أغلب سكان سورية، فجعله نصف عطاء المضرية. كان ذلك من عوامل حدوث اضطرابات في بلاد الشام.

إن غضب اليمانية على يزيد بن عبد الملك بلغ غايته، عندما حبس يزيد بن المهلب[1]، حيث كان للحجاج على خراسان بعد وفاة أبيه[2]. ثم عزله عبد الملك برأي الحجاج، ولى مكانه قتيبة بن مسلم[3]، فحبسه الحجاج إلى أن تمكن من الهرب من السجن[4] سنة (٩٠ هـ). حيث أجاره سليمان بن عبد الملك، وأخذ له الأمان من الوليد.

وعندما تولى سليمان الخلافة، عزل يزيد بن أبي مسلم كاتب الحجاج عن عمل العراق، وولاه يزيد بن المهلب[5]، ثم لم يلبث يزيد بن المهلب أن سيطر على عامل الخراج أيضاً، وطمع في خراسان، فوليها[6] وله اليد الطولى في فتوحات عظيمة في نواحي بحر قزوين.

وعندما تولى الخلافة عمر بن عبد العزيز، عزله لمأخذ عليه[7] ووضعه في السجن[8] في حصن حلب سنة (١٠٠ هـ)، إلا أن يزيد بن المهلب استطاع الفرار[9] أيضاً عندما سمع بموت عمر بن عبد العزيز سنة (١٠١ هـ) فذهب إلى واسط بالعراق لوجود قبيلته فيها.

ثم إن يزيد بن المهلب خلع الخليفة، ودعا إلى الرضا من بني هاشم، أو الشورى في اختيار الخليفة، وعاد إلى العراق حيث الثورة على الخلافة الأموية، وهذا ما يشبه ثورة المختار، ومصعب وأبناء الأشعث.

وعاد بذلك النزاع، بين العراق والشام فأرسل الخليفة له أخاه مسلمة بن عبد الملك،

---

(١) عبد المنعم ماجد - ج ٢ - ص:٢٧٣.
(٢) ابن الأثير - ج ٤ - ص:٨٣.
(٣) ابن الأثير ج ٤ - ص:٩٦ - الوفيات - ج ٦ - ص:٢٧٩.
(٤) المرجع نفسه - ج ٤ - ص:١١٤.
(٥) ابن خلكان - أبي العباس - أحمد بن محمد بن أبي ياسر ابن خلكان - وفيات الأعيان - وأنباء الزمان - طبعة بيروت ١٩٧٨ - ج ٦ - ص:٢٧٨.
(٦) ابن الأثير - ج ١ - ص:١٤٥.
(٧) المرجع نفسه - ج ١ - ص:١٥٧.
(٨) ابن خلكان - ج ٦ - ص:٢٧٩.
(٩) ابن الأثير - ج ٤ - ص:١٦٠.

وعباس بن الوليد، فتمكنا من صده عن أخذه الكوفة، ثم التقى ابن المهلب[1] مع الجيوش الشامية في عقر بابل، قرب كربلاء يمين[2] الفرات سنة (١٠٢ هـ).

وفي عهد يزيد رجع العمال في الدولة إلى سياستهم الأولى في الاساءة إلى الموالي، مما جعلهم يثورون على الخلافة، ويكفرون بالإسلام.

أما سياسته الخارجية، فقد تأزمت الأمور في عهده، فلم يسمع في عهده بغزوة عظيمة، وكان همّ قواده أن يبقوا ما استطاعوا على أملاك الدولة ضد خطر الأعداء الطامحين بها.

كما وقفت الجبهة البيزنطية إلا من غزوات، كما أن الشعوب القوقازية على حدود أرمينية بدأت تغير، وتهزم عمال العرب، فأرسل إليهم يزيد الجراح بن عبد الله، فأوقف تقدمهم دون أن يقضي على خطرهم، أما في الهند فلم نسمع عن حملات.

كانت وفاة الخليفة يزيد بسبب حزنه على جاريته حبابة بعد وفاتها، حيث تركها ثلاثة أيام لا يدفنها، وهو يشمها ويقبلها، ثم توفي بعدها ودفن إلى جوارها.

توفي في ٢٥ رجب عام (١٠٥ هـ) في أرض البلقاء.

هشام بن عبد الملك:

تولى الخلافة في أواخر شعبان سنة (١٠٥ هـ)[3] ازداد في عهده دعاة بني العباس، وظهر دور أبي مسلم الخراساني سنة (١٢٤ هـ) وعلا أمرهم[4]. عندما تولى الخلافة عزل عمر ابن هبيرة عن العراق[5] وما كان له في المشرق، وولى ذلك كله خالد بن عبد الله القسري.

ظهر في عهده زيد بن علي[6]، وتمكن يوسف بن عمر وكان والي العراق والمشرق أن

---

(١) ابن خلكان – ج ٢ – ص:٤٠٧.

(٢) ابن الأثير – ج ٤ – ص:١٧١-١٧٢.

(٣) ترجمة رشيد بقدونس – التاريخ العام – طبعة دمشق ١٩٢٤ – ج ٢ – ص:٣٧١.

(٤) ابن كثير – البداية والنهاية – طبعة بيروت ١٩٧٤ – ج ٩ – ٢٣٣ المرجع نفسه – ج ٩ – ص:٢٣٣.

(٥) المرجع نفسه ج ٩ – ص: ٢٣٣.

(٦) عبد الرحمن سنبط قنيتو الأربلي – خلاصة الذهب المسبوك مختصر سيرة الملوك – طبعة بغداد – ص:٢٦.

يقتله، عندما بلغه أن زيد أزمع على الخروج على طاعته. في عهده، تم فتح قيصرية الروم بالسيف، كما تم فتح قنجرة في ناحية طليطلة.

اهتم هشام بالطريق الداخلي الموصل بين انطاكية والمصيصة، فبنى عدة حصون، منها حصن موره، كما رتب فيه أربعين رجلاً وجماعة من الجراجمة، بنى حصناً بغراس وأقام به مسلمة، وبنى أيضاً بوقاً من عمل انطاكية واهتم بأمر فلسطين عندما هاجمها الروم عام (١٢٣ هـ). وفي عهده شكا أهل الشام قلة الماء في بردى، فأمر القاسم بن زياد أن يوزع الماء عليهم، حتى بلغ عدد الأنهار المتفرعة من بردى ما يزيد عن ثلاثة عشر نهراً.

عاصر هشام غيلان الدمشقي الذي كان يقول وقد تولى بيع الخزائن في عهد عمر بن عبد العزيز «تعالوا إلى متاع الخونة، تعالوا إلى متاع الظلمة، تعالوا إلى متاع من خلف الرسول من بني أمية بغير سنته وسيرته».

فلما ولي هشام خرج غيلان إلى أرمينية، فطلبه هشام ووضعه في السجن، ثم أخرجه بعد أن قطع أطرافه ثم قتله فيما بعد. يذكر أن قتله لم يكن من أجل مذهبه العذري، وإنما من أجل أسباب سياسية، حيث يذكر أن هشام أمر به فضرب عنقه.

من أعماله العمرانية بناؤه الرصافة بقنسرين، ثم بناء قصر المشتى جنوب عمان، ثم قصر الطوبا جنوب شرقي عمان، وجدد بناء[1] مدينة عكا بعد خرابها. كانت فيها صناعة بلاد الأردن ثم نقل هشام الصناعة منها إلى صور.

إهتم هشام بشؤون الدولة العربية، وقد أحب سكن البادية كسابقيه من الخلفاء، ولم يعارض بالخلافة لأن مسلمة بن عبد الملك كانت أمة من الرقيق[2]، ولا عارضه أيضاً العباس بن يزيد لأن أمه كانت رومية[3].

كان هشام يقيم في الرصافة (رصافة هشام) وكان يوصف بالتقوى، من هوايته كان يقيم الحوانيت في المدن والخانات والبيوت[4]. مع ذلك لا يعتبر هشام قد قضى على النتائج

(١) ياقوت الحموي – ج ٤ – ص:١٤٤.
(٢) عبد المنعم ماجد – ج ٢ – ص:٢٨٠.
(٣) الطبري – ج٥ – ص:٣٣٣.
(٤) عبد المنعم ماجد – ج ٢ – ص:٢٨٠.

السيئة لسلفه يزيد، لأنه حاول أن يصلح ما أفسده الآخرون ممن سبقه، وقد وصفه أبو جعفر المنصور فيما بعد بأنه رجل بني أمية.

ففي أقليم العراق كانت اليمانية لا تزال تحقد على الخلافة الأموية، بسبب هزيمتها على يد يزيد بن عبد الملك، ولكي يخفف هشام من حدة غضبها عزل عاملها القيس بن هبيرة، وأرسل عبد الله بن خالد[1] الذي اشتهر بالرأي والخطابة.

وقد استطاع بحنكته من أن يهدىء من حدة نزاع القبائل، ويقضي على فتن الخوارج[2]، ويقدم أيضاً للعراق فترة استقرار طويلة عندما اهتم بتحسين أحواله الزراعية وجود عملته التي عرفت باسمه[3] لذلك أحبه أهل العراق.

إلا أن هشام غضب على خالد المذكور، وعزله سنة (١٢٠ هـ)، وأرسل مكانه ابن عم الحجاج يوسف بن عمر الثقفي[4] قد يكون سبب عزله لخالد رغبته في تغيير سياسته الخارجية نحو أهل العراق، لأنه هادن الشيعة من قوادهم.

وقد يكون ذل أهل الإسلام في ولايته، لأن أمه غير مسلمة، وكان الحكم في عهده لأهل الذمة[5] ولعل السبب في عزله أنه كان يطلق لسانه في حق هشام، أو بسبب تدخله في ولاية العهد لكثرة أمواله.

أما يوسف بن عمر، فعاد لسيرة الحجاج في الفتن، وعلى الأخص ضد الشيعة الذين قادهم زيد بن عليّ بن الحسين[6] سنة (١٢٢ هـ). فحاربه يوسف بن عمر بعد أن حاول الالتجاء إلى هشام الذي أذله، فهرب إلى الكوفة وقتل زيد ودفن، فأخرج جثته وصلبها وحرقها، وحمل رأسه إلى الأمصار[7]، وعرف أصحابه باسم اليزيدية[8]. ولقد تمكنوا من

---

(١) ابن الأثير - ج ٤ - ص:١٩٢.
(٢) المرجع نفسه - ج ٤ - ص:٢٣٠-٢٣٣.
(٣) الماوردي - والأحكام السلطانية - ص:١٣٩.
(٤) ابن الأثير - ج ٤ - ص:٢٣٥ - ابن خلكان - ج ٢ - ص:٥٣٦-٥٤٣.
(٥) ابن خلكان - ج ٢ - ص:٥٤٣ - ابن الأثير - ج ٤ - ص:٢٣٥-٢٣٨.
(٦) ابن سعد - ج ٥ - ص:٢٣٩.
(٧) المرجع نفسه - ج ٢ - ص:٢٤٠.
(٨) البغدادي - الفرق بين الفرق - ص:٢٥.

تكوين دولة جنوب بحر قزوين، ثم أن ابنه يحيى سار فقتل أيضاً وصلب كأبيه سنة (١٢٥ هـ)، حيث بقيت جثته إلى وقت ظهور العباسيين فأنزلوه.

كانت خراسان في قلاقل مستمرة، بسبب النزاع بين مضر واليمانية، مما أضعف من نفوذ العرب. علماً أن رغبة هشام كانت في أن يسود السلام بين القبيلتين[١]، كما ساءت حالة الموالي في بلاد ما وراء النهر، بسبب سوء معاملة الولاة لهم.

ففي سنة (١١٠ هـ) كتب عامل خراسان واسمه أشرس إلى جميع عماله أن يأخذوا الخراج حتى ممن أسلم وفرض الجزية، وعزل العمال الذين لم يوافقوه مما جعلهم يثورون ويرتدون عن الإسلام[٢] كان ذلك من دواعي وقوع ثورة ضد هشام في هذه المنطقة واسم قائدها الحرث بن سريج[٣] إلا أنه قتل بعد هشام سنة (١٢٨ هـ)[٤].

ولم تخف غضبة الموالي في خراسان على الأمويين، إلا حين بعث هشام نصر بن سيار، فأقام المظالم وعفا عمن كان مسلماً فارتد، ورفع الجزية عمن أسلم[٥]، وفي الهند ارتد ملوكها لسوء المعاملة التي أمر بها، واضطر المسلمون إلى الخروج من الهند، وضاعت سيطرتهم[٦] عليها.

أما في مصر فلم يصبر القبط على سوء معاملة عمال الأمويين لهم، فكانت ثورتهم سنة (١٠٧ هـ)، حيث استمرت حتى سنة (١٢١ هـ)، فعمت الدلتا والصعيد. إلا أن هشام أرسل نحوهم عدة عمال، حتى تمكن عامله حنظلة بن صفوان في سنة (١٢٢ هـ) من القضاء على هذه الثورة بعد أن استعمل القسوة[٧].

كما ثار الخوارج على هشام في المغرب حيث أصبحت حركتهم في المغرب أقوى وأقسى من المشرق. وثار البرابرة على هشام سنة (١٢٢ هـ)، وتزعمهم خارجي من الصفرية اسمه ميسرة، إلا أن هذا ما لبث أن ساء السيرة، فنقم عليه البرابرة وقتلوه. وولوا خالد بن

---

(١) ابن الأثير - ج ٤ - ص:٢٠٠.
(٢) المرجع نفسه - ج ٤ - ص:٢٣٩.
(٣) المرجع نفسه - ج ٤ - ص:٢١٨ - حسن إبراهيم - الدولة العربية - ص:٢٥٤.
(٤) المرجع نفسه - ج ٥ - ص:٢٧٢.
(٥) ابن الأثير - ج ٤ - ص:٢٤٣.
(٦) المرجع نفسه - ج ٤ - ص:١٣٤-١٣٥.
(٧) المقريزي - الخطط - ج ١ - ص:١٢٧-١٢٨.

حمد الزناتي[1] فانتصر على العرب هناك فغضب هشام وأرسل لهم جيشاً بقيادة كلثوم بن عياض القسري[2]، قوام هذا الجيش ثلاثون ألفاً[3]، كما أرسل جند الأردن بقيادة ابن أخي كلثوم بلبج بن بشر القسري، فتمكن البربر من هزيمة العرب بعد أن انقسموا إلى قسمين اتجه كل قسم منهم نحو قائد، فقتل كلثوم واستمر القتال[4].

أدرك هشام أنه أمام ثورة قوية تحتاج إلى عناية، فأرسل جيشاً بقيادة حنظلة بن صفوان الكلبي سنة (١٢٤ هـ)، وكان عامله على مصر فقابل البربر بخطة بارعة. وقد قابل كل جيش منهم على حدة فدارت الدائرة على البربر، فهزمهم الواحد بعد الآخر، حتى قتل منهم مئة وثمانون[5] ألفاً، فتم بذلك إخضاع المغرب للخلافة الأموية.

أما الأندلس فكانت قد انقسمت في نزاعات داخلية، وأصبح أهلها يولون عليهم بأنفسهم، وازدادت الاضطرابات، حتى أرسل هشام لهم عاملاً اسمه أبا الخطار حسام بن ضرار الكلبي، فوصل الأندلس سنة (١٢٥ هـ) لجمع الكلمة[6]. ثم تعاظم الخطر في عهد هشام، وبعده، وتعددت الجبهات، وتوقفت الفتوحات إلا أنه حافظ على الفتوحات السابقة بفضل قواد عظام.

فنظام الثغور قد أفشل بموت مسلمة سنة (١٢١ هـ)، وأخذت غزوات الروم تتكرر، وأخذوا ينقلون القتال في آخر حكمه إلى الحدود العربية ذاتها، وغير ذلك من الثورات والحروب الخارجية من الشعوب الأخرى كالخزر[7]، واللان[8]، والسرير[9]، وخطر الترك في وسط آسيا[10] وغير ذلك.

---

(١) الجاحظ – البيان والتبيين – طبعة بيروت – ١٩٧٨ – ج ١ – ص:٥٣.
(٢) المرجع نفسه – ج ١ – ص:٥٤.
(٣) المرجع نفسه – ص:٥١-٥٢.
(٤) أخبار مجموعة في فتح الأندلس – ص:٣٣.
(٥) الجاحظ – ج ١ – ص:٥٩.
(٦) أخبار مجموعة – ص:٣٧-٣٨.
(٧) ياقوت الحموي – ج ٣ ص:٤٣٢.
(٨) المسعودي – مروج الذهب – ج ٢ – ص:٤٢.
(٩) المرجع نفسه – ص:٤٢.
(١٠) ابن الأثير – ج ٤ – ص:١٧٨.

الوليد بن يزيد:

تولى الخلافة في ٦ ربيع الآخر سنة (١٢٥ هـ)[١]، وعندما ولي أجرى على عميان بلاد الشام فكساهم وأعطى لكل منهم خادم وزاد على ما كان يخرج لهم هشام، وزاد الناس جميعاً في العطاء عشرة عشرة. ثم زاد أهل الشام خاصة بعد زيادة العشرات عشرة عشرة، وزاد من وفد إليه من أهل بيته في جوائزهم الضعف.

ذكر عنه أنه كان صاحب لهو وحب ذات، وصف بتهاونه واستخفافه بأمر دينه قبل خلافته، وعندما ولي زاد في ذلك اللهو واللذة وركوب الخيل والصيد وشرب الخمور ومنادمة الفساق، حتى سمي بالخليفة الفاسق. يضاف لما ورد كان منتهكاً حرمات الله، وأراد الحج ليشرب الخمر فوق[٢] الكعبة، من أهم مساوئه نكاح أمهات أولاد أبيه استخفافاً بأمر الله[٣].

قال عنه أخوه سليمان بن يزيد بعد مقتله: أشهد أنه كان شروباً للخمر ماجناً فاسقاً، لم يخفف الآسام، ولقد راوده عن نفسه، كما كان زنديقاً اشتهر بالتلوط كما رشق المصحف بالسهام[٤].

استقر التوازن بين قبائل بلاد الشام حفاظاً على الوحدة الوطنية داخل البلاد. من أعماله بناؤه الجسر بين أذنه والمصيصة، كما أعاد بناء حصن زبطرة، أهم عماله على دمشق، الحكم بن الوليد، على حمص عثمان بن الوليد. عهد بالخلافة من بعده إلى ابنه الحكم أولاً، ومن بعده لأخيه عثمان بن الوليد، وأرسل بذلك إلى الأمصار لأخذ البيعة إلا أنه فشل.

تولى الخلافة وذلك بعهد سابق من أبيه، علماً أن هشام حاول أن يعزله عن ولاية العهد، ويولي ابنه مسلمة. فطالبه هشام أن يخلع نفسه، كما حرمه العطاء، وجفاه وعمل سراً في البيعة لابنه، لكن مسلمة توفي قبل أبيه، فكان ذلك سبباً في تولية الوليد[٥].

اتفق الوليد مع من سبقه في حب البادية، وزاد شغفه بحب بناء القصور، فإليه يعود

---

(١) القلقشندي – صبح الأعشى – ج ٣ – ص:٢٥٧.
(٢) ابن الأثير – ج٥ – ص:٢٦٤.
(٣) الطبري – ج٧ – ص:٢٠٩.
(٤) المسعودي – ج٤ – ص:٥٤.
(٥) ابن الأثير – ج ٤ – ص:٢٥٦.

الفضل في بناء قصر عمرة عندما كان أميراً. وبعد أن تولى الخلافة، نسب إليه بناء قصر المشتى (في الأردن)، وعرف له أيضاً في البلقاء عدة قصور مثل الأزرق - الأغداق - اللؤلؤ.

كان الوليد هذا يطلب اللذات[1]، أحب الصيد[2]، إلا أنه كان يختلف عمن سبقه من الخلفاء، كونه كان يجيد الشعر والغناء، وقد وصف بالكفر والتهاون بالدين[3].

أظهر حباً للانتقام والتشفي كفعله عندما قبض على أولاد هشام وجلده بعضهم، وحجز أموالهم[4]، وأساء إلى خالد بن عبد القسري إرضاءً ليوسف بن عمر، وفي عهده قتل يحيى بن زيد وغيرهم[5].

هذه التصرفات جعلته غير مرغوب فيه لا من رعيته[6]، ولا من جنده، وبخاصة اليمانية[7]، كما كرهه أفراد[8] بيته، فكان ذلك سبباً في قتله[9] سنة (١٢٦ هـ) (٧٤٤ م)، وسجنوا ابنيه الصغيرين عثمان[10] والحكم.

يزيد بن الوليد:

تولى الخلافة أول رجب سنة (١٢٦ هـ)[11] فخطب الناس وبرر قتله للوليد بن يزيد بقوله إن فعله هذا جاء غضباً لله ولدينه. في عهده اضطرب حبل بني مروان وهاجت الفتنة بينهم، فخرج عليه أهل حمص وعليهم العباس بن الوليد، كما سار عليه بشر بن

---

(١) المرجع نفسه - ج ٤ - ص:٢٥٧.
(٢) ابن الأثير - ج ٤ - ص:٢٦٤.
(٣) ابن الأثير - ج ٤ - ص:٢٦٩.
(٤) المرجع نفسه - ج ٤ - ص:٢٦٩.
(٥) المرجع نفسه - ج ٤ - ص:٢٥٨-٢٦٤.
(٦) المرجع نفسه - ج ٤ - ص:٢٦٢-٢٦٣ - ابن خلكان - ج ١ - ص:٢٣٩.
(٧) المرجع نفسه - ج ٤ - ص:٢٦٤.
(٨) الدينوري - الأخبار الطوال - ص:٢٥١.
(٩) ابن الأثير - ج٤ - ص : ٢٦٤ - ٢٦٩
(١٠) عبد المنعم ماجد - ج ٢ - ص:٣١٢.
(١١) يذكر أنه بويع بالخلافة لنفسه في جادى الآخر سنة (٢١٦ هـ) - صبح الأعشى - ج ٣ - ص:٢٥٨.

الوليد، وهو على قنسرين، وعمر بن الوليد، وهو على الأردن، ويزيد بن سليان، وهو على فلسطين[١]، وأخيراً سار عليه، وخالفه مروان بن محمد.

رغم ذلك وضع أخاه ابراهيم بن الوليد ولياً لعهده، ووجهه للأردن، وكان وجوده في السلطة بداية انشقاق بين الأمويين أنفسهم، أدى إلى انشقاق بين القبائل في بلاد الشام، فكان ذلك عاملاً مساعداً على ضعفهم ونهايتهم.

اعتنق يزيد بن الوليد مذهب القدرية[٢]، ودعا الناس إليه وحملهم عليه، كما قرب أصحاب غيلان الدمشقي، كان يزيد يختلف عن سابقه لأنه كان ذا دين وورع يتظاهر بالنسك[٣].

اعتمد يزيد على تأييد اليمانية في العمل على إخماد ثورة القيسية في أماكن متعددة من سورية. وحبس يزيد يوسف بن عمر عامل العراق وقريب[٤] الوليد، وولى مكانه عبد الله ابن عمر بن عبد العزيز سنة (١٢٦ هـ)[٥] وصف الوليد هذا بالناقص[٦]، لأنه أنقص أعطيات الجند[٧] التي زادها الوليد قبله. حكم ستة أشهر، توفي في ذي الحجة سنة (١٢٦ هـ) (٧٤٤ م).

إبراهيم بن الوليد:

لم تتم له بيعة ولي سنة (١٢٦ هـ) بعد أخيه يزيد، في عهده توجه مروان بن محمد إلى الشام وخلع إبراهيم[٨] مطالباً بدم الوليد، حيث اعتبر مظلوماً[٩] بعد أن حدثت بينه، وبين سليمان بن هشام حرب بمنطقة عين الجر.

ثم إن مروان بن محمد استلم السلطة.

---

(١) ابن الأثير - ج ٤ - ص:٢٧٥-٢٧٩.
(٢) الذهبي - تاريخ الدول - ج ١ - ص:٦١.
(٣) ابن الأثير - ج ٤ - ص:٢٦٤ - الذهبي - تاريخ الدول - ص:٦٠.
(٤) ابن الأثير - ج ٤ - ص:٢٧١-٢٧٢- ابن خلكان - ج ٢ - ص:٥٤١-٥٤٤.
(٥) المرجع نفسه - ج ٤ - ص:٢٧٤.
(٦) المرجع نفسه - ص ٢٦٩.
(٧) ابن عبد ربه - ج ٢ - ص:٢٤٧ - القلقشندي - صبح الأعش - ج ٣ - ص:٢٥٨.
(٨) القلقشندي - صبح الأعشى - ج ٣ - ص:٢٥٨ - ابن الأثير - ج ٤ - ص:٢٧٨.
(٩) ابن الأثير - ج ٤ - ص:٢٧٧.

مروان بن محمد:

كان مروان هذا يسمى مروان بن محمد بن الجعدي نسبة إلى مؤدبه[1]، وقد ولي مروان الجزيرة وأرمينية كان صبوراً عرف لصبره بالحمار[2]، كان مروان هذا هو أول من سمى يزيد بالناقص.

بعد مقتل الوليد ترك مروان بلاد الخزر، وانصرف إلى الجزيرة واستولى عليها[3] وخرج يطالب بدم الوليد الذي سماه كعثمان الخليفة المظلوم[4].

لذلك سار بجند الجزيرة متوجهاً إلى حمص، وكان أهل حمص قد رفضوا بيعة يزيد، فثاروا عليه، فهزمهم يزيد، ورفضوا بيعة ابراهيم، فدخلها مروان وساروا معه[5].

لما سمع إبراهيم بذلك أرسل جيشاً من دمشق، فتمكن مروان بن محمد من هزيمته فأرسل جيشاً آخر بقيادة سليمان بن هشام، فتقابل مروان معه في منطقة عين الحر (بين بعلبك ودمشق) وهزمه في معركة قاسية[6].

بعد هذه الهزيمة قتلت اليمانية ولدي الوليد الحكم وعثمان[7]، ودخل مروان دمشق، وأخمد الفتن فيها، حيث هرب إبراهيم، ونبش قبر يزيد وصلب جثته[8]. ثم بايع أهل الشام مروان بالخلافة سنة (١٢٧ هـ). إلا أنه لكثرة اليمانية في دمشق، لم يأمن الإقامة فيها، فانتقل إلى حران قصبة ديار بكر. ثم قدم عليه إبراهيم وسليمان، فخلع إبراهيم نفسه من الخلافة فأمنها[9].

في عهده عادت أيام العصبية القديمة[10] بين القيسية واليمانية، ففي بلاد الشام ثارت

---

(١) ابن الأثير - ج ٤ - ص:٣٣٢.
(٢) ابن الأثير - ج ٤ - ص:٣٣٢.
(٣) المرجع نفسه - ج ٩ - ص:٢٨٢.
(٤) البلاذري - الأنساب - ج ٥ - ص:١٨٧.
(٥) ابن الأثير - ج ٤ - ص:٢٨٤.
(٦) المرجع نفسه - ج ٤ - ص:٢٨٣.
(٧) ابن خلكان - ج ٢ - ص:٥٤٢.
(٨) ٥ابن الأثير - ج ٤ - ص:٢٨٣.
(١) ابن الأثير - ج ٤ - ص:٢٨٣.
(٢) المرجع نفسه - ج ٤ - ص:٢٨٦.

الكلبيـة بعد انتقال مروان إلى حران، فاضطر لسحقها، ثم ثار عليه أهل حمص، فهزمهم أيضاً، كما أرسل جيشاً إلى غوطة دمشق لقتل يزيد بن خالد، حيث ثار فيها، وأرسل جيشاً إلى فلسطين أنهى فتنتها.

في عام (١٢٩ هـ) أظهر العباسيون الدعوة بخراسان بأمر إبراهيم بن محمد، وقام بذلك أبو مسلم الخراساني. في عهده تركز الاهتمام بالمصيصة، وبني حصن الحصون شرقي جيجان، وأحاطه بسور وزوده بأبواب من خشب، وبخندق وأسكنه الفرس والصقالبة والأنباط. وبنى في عهده حصن الحصون، وله أهمية كونه منطقة متوسطة، ومركزية لأربع مدن محيطة به هي زبطرة - مرعش - ملطية - سمسياط.

ثار على مروان سليمان بعد أن تركه مروان بالرصافة حيث جاءته اليمانية، وأعلنت عليه بالخروج، وأعلنته خليفة في عام (١٢٧ هـ). فعسكر سليمان بقنسرين قرب حمص، كما كاتب أهل الشام، فسار عليه مروان وهزمه، فهرب إلى حمص، ثم إلى تدمر ومنها إلى العراق[١].

في الجزيرة اندلعت فتنة الضحاك، واستولى على الكوفة، ومد نفوذه إلى الموصل بالجزيرة. فالتقى به مروان في نصيبين وقتله سنة (١٢٨ هـ)[٢]، واستمر الخوارج بعد الضحاك، إلا أنهم خسروا جميع معاركهم.

في خراسان وقع الخلاف بين المضرية واليمانية[٣]، كما ظهرت في الجزيرة العربية فرق الخوارج، هذه الاضطرابات الخطيرة في الدولة الأموية، لم تغب عن أعين منافسيهم فنسقوا للاستفادة منها. فكانت نهايتهم عام (١٣٢ هـ)، وانتقال العاصمة المركزية من دمشق إلى الكوفـة.

---

(١) ابن الأثير - ج ٤ - ص:٢٨٧-٢٨٨.
(٢) المرجع نفسه - ج ٤ - ص:٢٩٦.
(٣) عبد المنعم ماجد - ج ٢ - ص:٣١٩.

الباب الرابع

الثورات في العصر الأموي

الفصل الأول: ثورة الحسين بن علي

الفصل الثاني: ثورة عبد الله بن الزبير

الفصل الثالث: الدعوة العباسية والثورة

الفصل الرابع: الخوارج

* * * * * * * * * * * * * *

الفصل الأول

ثورة الحسين بن علي

الفصل الأول

ثورة الحسين بن علي

دوافع الثورة:

قدم المغيرة بن شعبة على معاوية بن أبي سفيان يشكو إليه ضعفه ويطلب منه أن يعفيه، حيث كان والياً على الكوفة - [1] فأعفاه معاوية، وأراد أن يستبدله بسعيد بن العاص.

ورداً من المغيرة على معاوية، دخل المغيرة - وهو أحد دهاة العرب - على يزيد بن معاوية، وأخذ يعرض له البيعة ويرغبه فيها.

إلا أن يزيد نقل كلام المغيرة إلى أبيه معاوية، حيث علم هذا الأخير بنوايا المغيرة وكان أشد دهاء وحنكة من المغيرة، فرده إلى عمله في الكوفة، حيث بقي والياً عليها إلى أن توفي.

كتب معاوية إلى زياد بن أبيه يستشيره ببيعة يزيد، فاستدعى زياد عبيداً بن كعب النميري[2] يستشيره في ذلك بقوله له: إن يزيداً صاحب رسل وتهاون مع ما قد أولع به من الصيد. فقال له عبيد بن كعب: لا تفسد لمعاوية رأيه، ولا تمقت إليه ابنه، والرأي أن أجتمع إلى يزيد فأخبره الخبر وأقول له إنك ترى له أن يترك ما يؤخذ عليه. ثم قال لزياد أن يكتب إلى معاوية بالصبر، وأن - لا يتعجل في الأمر.

---

(١) - قال المغيرة: ان معاوية كان يريد أن يبد له أي يعزله، فسبقه المغيرة بدهائه وفعل ما ورد، ردع معاوية عن عزله.

(٢) - الطبري - ج ٥ ص: ٣٠٢.

وعندما مات زياد دعا معاوية لابنه يزيد، وأخذ له البيعة إلا خمسة من سادة العرب وقاداتها: الحسين بن علي، عبد الله بن عمر، عبد الله بن الزبير، عبد الرحمن بن أبي بكر، عبد الله بن عباس، ولتحقيق البيعة توجه معاوية إلى المدينة فأرسل الى الحسين بن علي ليأخذ منه البيعة، لأنه كان يمثل الخطر الأكبر الذي يتهدد بني أمية، فحدثه بذلك وحدث البقية حديثه مع الحسين[1]. فوعد الجميع أنه عندما تتم بيعة الجماعة سيبايعون.

وعندما توفي معاوية وولي يزيد كان همه هؤلاء الذين رفضوا بيعته، لذلك كتب إلى عامله على المدينة الوليد بن عقبة أن يأخذهم أخذاً شديداً حتى يبايعوا. وقد اجتمع مروان بن الحكم مع الوليد وقال له أن يبعث إليهم جميعاً ويأخذ منهم البيعة، وإذا رفضوا ضرب أعناقهم قبل أن يعلموا بموت معاوية.

إلا أن الحسين كان قد علم قبل دخوله على الوليد أن طاغيتهم قد مات[2]. وفي الليل الذي طلب فيه عبد الله بن الزبير، توجه إلى مكة وتوجه بعده الحسين ببنيه وبني أخيه وجل أهل بيته.

ثم إن يزيداً عزل الوليد بن عقبة عن المدينة وولي عليها عمرو بن سعيد الأشدق سنة ٦٠ هـ. حيث وجه هذا في نفس السنة عمرو بن الزبير لحرب أخيه عبد الله، إلا أنه فشل كما ذكرنا[3].

وكان أهل الكوفة قد كتبوا للحسين أنهم حبسوا أنفسهم عليه، وأنهم لا يحضرون الجمعة مع الوالي، وأنهم ينتظرونه، ويدعونه للقدوم إلى الكوفة.

---

(١) - أرسل معاوية الى الحسين بن علي فقال: يا ابن أخي قد استوثق الناس بهذا الأمر غير خمسة نفر من قريش أنت تقودهم. يا ابن أخي فما أربك إلى الخلاف؟ قال: أنا أقودهم؟ قال: أنت تقودهم. قال: فارسل إليهم فإن بايعوا كنت رجلا منهم، وإلا تكن عجلت علي بأمر قال: وتفعل قال: نعم الطبري - ج ٥ - ص: ٣٠٣.

(٢) - قال عبد الله بن الزبير للحسين: فما تراه بعث إلينا في هذه الساعة التي لم يكن يجلس فيها فقال الحسين: أرى طاغيتهم قد هلك، فبعث إلينا ليأخذنا بالبيعة قبل أن يفشوا في الناس الخبر. الطبري - ج ٥ ص: ٣٣٩.

(٣) - كتب يزيد إلى عمرو بن سعيد الأشدق يأمره أن يوجه إلى عبد الله بن الزبير جيشاً من أهل العطاء والديوان لمحاربته ويولي أمرهم رجلا عارفاً ناصحاً. وكان عمرو بن الزبير - أمه من بني العاص: - ناقماً على شرطة عمرو بن سعيد، فسأله توجيهه على ذلك الجيش وكان أخوه عبد الله بن الزبير - البلاذري - أنساب الإشراف - ج ٤ - قسم ٢ - ص: ٢٣ وما بعدها.

فبعث الحسين مسلم بن عقيل[1] لينظر ما كتبه أهل الكوفة إليه. وفي الكوفة تحدث الناس بقدوم عقيل فجاؤوا إليه وبايعه اثنا عشر ألفاً، لكن رجلاً من أنصار يزيد بعث إليه يخبره[2] فكتب يزيد إلى عبيد الله بن زياد، وكان واليه على البصرة يخبره أنه ولاه على الكوفة مع البصرة[3] وطلب إليه أن يقتل مسلم بن عقيل إن وجده. فتوجه عبيد الله في أشراف أهل البصرة، فقدم الكوفة متلثماً، وكان لا يمر على مجلس من مجالسهم ويسلم إلا قالوا له: عليك السلام يا ابن بنت رسول الله وهم يظنون أنه الحسين بن علي عليه السلام. حتى نزل القصر فدعا مولى له فأعطاه ثلاثة آلاف درهم وقال له:

اذهب حتى تسأل عن الرجل الذي يبايع له أهل الكوفة، فاعلمه أنك رجل من أهل حمص جئت لهذا الأمر، وهذا مال تدفعه لتتقوى به فلم يزل يتلطف به ويرق له حتى دل على شيخ من أهل الكوفة يلي البيعة فلقيه فأخبره. فقال له الشيخ: لقد سرني لقاؤك إياي، وقد ساءني، فأما ما سرني من ذلك فما هداك الله له، أما ما ساءني فإن أمرنا لم يستحكم بعد. فادخل إليه وخذ منه المال وبايعه، وارجع إلى عبيد الله فأخبره.

وقد تحول مسلم حين قدم عبيد الله بن زياد من الدار التي كان فيها إلى منزل هانىء بن عروة المرادي، وكتب مسلم بن عقيل إلى الحسين بن علي عليه السلام يخبره ببيعة اثني عشر ألفاً من أهل الكوفة ويستقدمه.

قال عبيد الله لوجوه أهل مكة: ما لي أرى هانىء بن عروة لم يأت فيمن أتاني[4]؟ وتطورت الأحداث، فأحضر هانىء إلى عبيد الله وعنده شريح القاضي، فاستفسر عبيد

---

(1) - ابن عبد ربه - ج ٤ - ص: ٣٧٧.

(2) - كتب عبد الله بن مسلم إلى يزيد بن معاوية: أما بعد فإن مسلم بن عقيل قد قدم الكوفة فبايعه الشيعة للحسين بن علي، كان لك بالكوفة حاجة فابعث إليها رجلا قوياً ينفذ أمرك ويعمل مثل عملك في عدوك، فإن النعمان ابن بشر رجل ضعيف أو هو يتضعف الطبري - ج ٥ - ص:٣٥٦.

(3) - كان يزيد ساخطاً على عبيد الله بن زياد وقد هم بعزله عن البصرة، إلا أن الأحداث تغيرت فكتب إليه يسترضيه وأنه قد ولاه الكوفة مع البصرة، وكتب إليه أن يطلب مسلم بن عقيل فيقتله إن وجده - الطبري ج ٢ - ص: ٣٤٨.

(4) - الطبري - ج ٥ - ص: ٣٤٨.

الله من هانىء عن مسلم بن عقيل وواجهه بالرجل الذي دفع إليه الدراهم(١) فلم يجد مفراً من الإعتراف بوجود مسلم في داره.

وعلمت مذحج بخبر هانىء فخرجوا إلى باب القصر، وأحدثوا جلبة سمعها عبيد الله فأرسل شريح القاضي يخبرهم أن صاحبهم بخير، وإنما يسألهم الأمير، فصدقوا القاضي، وقالوا: ليس على صاحبك بأس فتفرقوا.

وأتى مسلم بالخبر، فنادى بشعاره، واجتمع إليه أربعة آلاف من أهل الكوفة، فقدم مقدمته، وعبأ ميمنته وميسرته، وسار في القلب إلى عبيد الله. وبعث عبيد الله إلى وجوه أهل الكوفة، فجمعهم عنده في القصر، فلما سار إليه مسلم، وانتهى إلى باب القصر، أشرفوا على عشائرهم وأخذوا يكلمونهم ويردونهم.

وبدأ أصحاب مسلم يتسللون حتى أصبح في خمسمائة رجل فلما اختلط الظلام وذهب أولئك أيضاً، ولما رأى مسلم أنه بقي وحده فريداً في الطرقات أتى باباً فنزل عليه، فخرجت إليه امرأة، فقال لها: أسقني فسقته(٢) ثم أخبر عنه ابنها، فسلم لعبيد الله، فضرب عنقه، وصلب صاحب هانىء بن عروة(٣).

إن تحليل هذه النصوص التاريخية التي تروي قصة مسلم بن عقيل، وعبيد الله بن زياد في الكوفة تعطي تصوراً شبه شامل لممارسة التعبئة العسكرية والسياسية في تلك الحقبة من التاريخ.

فالنصوص التي بين أيدينا تقدم فريقين كل منها يريد الإستيلاء على الحكم في الكوفة التي هي جزء من كل، مما يريد كل من الفريقين السيطرة عليه.

أما الفريق الأول فهو الفريق الأموي المستولي على السلطة عملياً. وموت معاوية وتولي ابنه يزيد هما اللذان أفسحا المجال لفرصة جديدة للفريق الثاني الذي هو فريق آل بيت

---

(١) - قال عبيد الله بن زياد: يا هانيء أين مسلم؟ قال: ما أدري فأمر عبيد الله مولاه صاحب الدراهم فخرج إليه فلما رآه قطع به فقال: أصلح الله الأمير لو كان تحت قدمي ما رفعتها عنه قال: أدنوه إلى فادني فضربه على حاجبه فسجه.

(٢) - الطبري - ج ٥ - ص: ٣٥٠.

(٣) - المقريزي - النزاع والتخاصم - ص: ١٤ - ابن عبد ربه - ص: ٣٧٧ والطبري - ج ٥ - ص: ٣٥٠.

رسول الله ﷺ. فكيف عبأ كل من الفريقين أصحابه لتحقيق أهدافه؟ لقد استخدم فعل التعبئة مرة واحدة في النص التاريخي عندما قال الطبري:

فقدم مقدمته وعبأ ميمنته[1] وميسرته، وسار في القلب إلى عبيد الله.

إن التعبئة هنا من النوع العسكري تناولت ترتيب قتال الجماعة المجتمعة بصورة جيش منظم في مقدمة، ميسرة، ميمنة، قلب، وذلك شكل تنظيم الجيش في تلك الأيام.

لكن هذه التعبئة العسكرية سبقت بمناداة الشعار[2] الذي من أجله يجتمعون، وهو بمثابة التعبئة النفسية، لأن الشعار يذكرنا بالمبدأ الذي يوجد الجماعة، ويسوقها باتجاه معين. فلماذا فشلت تعبئة مسلم بن عقيل وهزم أمام تعبئة عبيد الله؟

إن سلوك عبيد الله ينطوي على عناصر التعبئة العملية من الوجهة السياسية والنفسية حيث جاء إلى الكوفة متلثماً[3] ومعه وجوه أهل البصرة، فظنه الناس الحسين بن علي (ع) وهذا تكتيك أول ربح من الجولة الأولى. فلم يثر نفوس الناس من أهل الكوفة بالإضافة لاستخدامه الجاسوسية[4] لمعرفة من يبايع له من أهل الكوفة، وقد نجح في اكتشافه.

وعرف أن خصمه مسلم بن عقيل عند هانىء بن عروة المرادي، فحبسه عنده ثم استخدم القاضي ليقنع جماعة هانىء أنه لا بأس عليه[5] لأن القاضي ثقة عندهم، فتفرقوا.

وبقي هانىء محبوسا عند عبيد الله بن زياد الذي استقدم وجوه أهل الكوفة وجمعهم

---

(١) - الطبري - ج ٥ - ص: ٣٥٠.

(٢) - فأتى مسلم الجند، فنادى بشعاره، فاجتمع إليه أربعة آلاف من أهل الكوفة الطبري - ج ٥ - ص: ٣٤٨.

(٣) - أقبل عبيد الله في وجوه أهل البصرة حتى قدم الكوفة متلثماً لا يمر على مجلس من مجالسهم فيسلم إلا قالوا: عليك السلام يا ابن بنت الرسول.

(٤) - قال عبيد الله لأحد مواليه: اذهب حتى تسأل عن الرجل الذي يبايع له أهل الكوفة فاعمله انك رجل من حمص: جئت لهذا الأمر، وهذا مال تدفعه إليه ليتقوى، فلم يزل يتلطف ويرفق به حتى دل على شيخ من أهل الكوفة يلي البيعة.

(٥) - قام القاضي الجبان شريح فهدأ ثائرتهم بأن أكد لهم أن هانئاً حياً فشكروا الله وانسحبوا، وكأن كل شيء كان على ما يرام. يوليوس ولهاوزن - الخوارج والشيعة ص: ١٦٤.

عنده في القصر، فلما جاءت عشائرهم مع خصمه مسلم، استخدمهم في التأثير على عشائرهم، فانصرفت العشائر من حول مسلم[1] وبقي وحيداً لا قوة له.

وهذا تكتيك سياسي ناجح لأنه يعتمد على فهم طبيعة الشعوب في التاريخ، فالشعوب تقاد بوجوهها، فلكل عشيرة شيخها، وهذا الشيخ هو المفتاح إلى التأثير عليها.

أما تعبئة مسلم فكانت قائمة منذ البداية على أهواء لا على عقيدة راسخة توجه إرادة أتباعه البالغ عددهم اثنا عشر ألفاً.

أخيراً إن المواجهة الحاسمة بين الخصمين، كانت في إلقاء القبض على مسلم بن عقيل وصاحبه هانىء بن عروة، وهما مجردان من كل قوة، وقتل الإثنين. وفي قتلهما تعبئة جديدة[2] لصالح ابن زياد والأمويين، لأن كلا منهما تحدثه نفسه بالقيام ضدهم يتذكر مقتل مسلم وهانىء، يقول شاعرهم بعد مقتلهم:

فإن كنت لا تدرين ما الموت فانظري ... إلى هانىء في السوق وابن عقيل
أصابهما أمر الإمام فأصبحا ... أحاديث من يسعى بكل سبيل
أيركب أسماء الهماليج آمناً ... وقد طلبته مذحج بذحول[3]

فالبيت الأخير يشير إلى التعبئة المضادة التي خلفها مقتل مسلم بن عقيل وهانىء وإن طلبت الثأر لن يسمحوا لقاتليهما أن يعيشوا بأمان.

فالتعبئة في الحادثة ذات وجهين: تعبئة النفوس بالخوف من قوة الأمويين الحاضرة، وتعبئة النفوس بالحقد والثأر من الأمويين في المستقبل.

وحين تحول مسلم بن عقيل إلى دار هانىء بن عروة المرادي، وبايعه اثنا عشر ألفاً، حيث أرسل كتاباً إلى الحسين بن علي يذكر له فيه أنه قد بايعه اثنا عشر ألف من أهل الكوفة، ويطلب منه السرعة في القدوم، مؤكداً له أن أهل العراق معه، وليس لهم مع بني أمية رأي ولا هوى.

---

(١) - يوليوس ولهاوزن - الخوارج والشيعة - ص: ١٦٥.
(٢) - يوليوس ولهاوزن - الخوارج والشيعة - ص: ١٦٦ - ١٦٧.
(٣) - المقريزي: النزاع والتخاصم - ص: ١٤ - والطبري - ج ٥ - ص: ٣٥٠ - ٣٥١.

ثم إن مسلم بن عقيل قال لعمر بن سعيد - عندما أدخله ابن زياد القصر - : إن بيني وبينك قرابة فاسمع، ولي إليك حاجة: إن علي بالكوفة ديناً سبعماية درهم فاقضهم عني وانظر جثتي فوارها، وابعث إلى الحسين من يرده لأنني كتبت له. فقال عمر بن سعد لابن زياد ما قاله مسلم ثم قتل مسلم وهانىء كما ذكرنا.

وقد كتب ابن زياد بقتلها إلى يزيد بن معاوية، فرد عليه يزيد أنه قد بلغني أن الحسين بن علي قد توجه نحو العراق[3]، ثم أمره أن يوزع المقاتلين في مواضع متفرقة في اتجاه تحركة، حيث يرقبون تحركاته.

الثورة ومقتل الحسين:

وتهيأ الحسين للتوجه إلى الكوفة، وقد كان ابن عباس قد نهاه عن ذلك، بينما شجعه ابن الزبير، وفي الطريق إلى الكوفة وبينما كان في منطقة تسمى الصفاح[4] التقى بالشاعر الفرزدق، فقال له الحسين: بين لنا نبأ الناس خلفك فقال الشاعر قلوب الناس معك، وسيوفهم مع بني أمية، والقضاء ينزل من السماء، والله يفعل ما يشاء.

وفي طريق الحسين إلى الكوفة وصلته رسالة من عبد الله بن جعفر يقول له فيها: إن هلكت اليوم طفىء نور الأرض، فإنك علم المهتدين، ورجاء المؤمنين[5] وتابع الحسين

---

(١) كان الرسول الذي أرسله مسلم بن عقيل إلى الحسين هو عابس بن أبي شبيب الشاكري - الطبري - ج ٥ - ص: ٣٧٥.

(٢) يوليوس ولهاوزن - الخوارج والشيعة - ص: ١٦٦ - والطبري - ج ٥ - ص: ٣٧٦.

(٣) قال يزيد بن معاوية: انه قد بلغني أن الحسين بن علي قد توجه نحو العراق فضع المناظر والمسالح، واحترس على الظن، وخذ على التهمة، غير أنه لا تقتل الأمن قاتلك، واكتب إلي في كل ما يحدث من الأخبار. الطبري - ج ٥ - ص: ٣٨١.

(٤) - موضع بين حنين وأنصاب الحرم بسرة الداخل الى مكة. وصفاح نعمان: جبال بين مكة والطائف - الطبري - ج ٥ - ص: ٣٨٦.
- بينما يذكر الدينوري - ص: ٢٤٥ - قول الفرزدق خليتهم وقلوبهم معك وسيوفهم عليك.

(٥) - الطبري - ج ٥ - ص:٣٨٧.

مسيره حتى نزل (شراق) ثم (ذو جشم)[1] وهناك أتاه الحر بن يزيد التميمي اليربوعي، فوقف يقابل الحسين في حر الظهيرة من القادسية[2] علماً أن ابن زياد كان قد بعث الحصين ابن نمير التميمي، وكان على شرطته فأمره أن ينزل القادسية، وأن يراقب المحاور، عندما بلغه خبر قدوم الحسين.

قدم الحصين الحر بن يزيد بين يديه[3] حتى التقى بالحسين، فخاطب الحسين الجمعين، الذين معه، والذين مع الحر بن يزيد مؤكداً أنه قدم الكوفة لأن أهلها كتبوا له واجمعوا عليه، وكان معه خرجين مملوءين صحفاً[4] فنشرها بين أيديهم ثم اتفقا على أن يأخذ الحسين طريقاً لا يدخله الكوفة ولا يرده إلى المدينة[5] ثم يكتب الحر إلى ابن زياد، بينما يكتب الحسين إلى يزيد بن معاوية إذا أرادوا.

ثم سار الحسين في أصحابه، والحر بالقرب منه لا يفارقه، فلما انتهوا الى عذيب الهيجانات[6] قدم على الحسين أربعة رجال من الكوفة، فسألهم خبر الناس في الكوفة، فقال له أحدهم وهو مجمع بن عبد الله العائذي: أما أشراف الناس فقد أعظمت رشوتهم، وملئت غرائزهم، يستمال ودهم، ويستخلص من نصيحتهم، فهم قلب واحد عليك. وأما سائر الناس فإن أفئدتهم تهوي إليك، وسيوفهم غداً مشهورة عليك.

وتابع الحسين طريقه والحر لا يفارقه حتى انتهى إلى قرب نينوى[7]، وهناك وصل إلى الحر كتاب من ابن زياد يقول له فيه: عندما يبلغك كتابي فارعج الحسين واحبسه من غير حصن، وعلى غير ماء[8] وقد أمر رسوله أن لا يفارق الحر حتى تأتيه آخر الأخبار.

---

(1) - الدينوري - الأخبار الطوال - ص: ٢٤٨.

(2) - القادسية: قرية قرب الكوفة من جهة البرية بينها وبين العذيب أربعة أميال.

(3) الدينوري - الأخبار الطوال ص:٢٤٩.

(4) - المرجع نفسه - ص: ٢٤٩.

(5) الدينوري - ص: ٢٥٠.

(6) - عذيب: تصفية العذب، ماء على يمين القادسية، بينه وبين القادسية أربعة أميال.

(7) - قرية قديمة لا تزال آثارها باقية قبالة مدينة الموصل، يروي أنها كانت قرية النبي يونس.

(8) - أما بعد فجعجع بالحسين بن علي وأصحابه بالمكان الذي يوافيك كتابي فلا تنزله إلا بالعراء على غير حصن ولا ماء. الدينوري - ص: ٢٥١.

هذا وقد أخبر الحسين بمحتوى الكتاب، فطلب من الحر أن يسمح له بالنزول في قرية نينوى، أو إحدى القرى المحيطة بالمنطقة كالغاضرية[1].

فلما كان محرم سنة ٦١ هـ بعث ابن زياد، عمر بن سعد في أربعة آلاف من أهل الكوفة، بعد أن عهد له على الري[2]، وأمره بالخروج، فخرج وعسكر بحمام أعين وعندما قدم الحسين دعا زياد بن أبيه: عمر بن سعد وقال له: سر إلى الحسين، فإذا فرغنا منه سر إلى عملك في الري.

توجه عمر بن سعد إلى الحسين بن علي، فلما وصله وضيق عليه، تلقى كتاباً من ابن زياد يذكر له فيه أن يحول بين الحسين وأصحابه، وبين الماء، فاشتد العطش على الحسين وأصحابه علماً أن الحسين وعمر بن سعد كانا يلتقيان.

وقد كتب عمر بن سعد إلى ابن زياد أن الحسين يطلب أن يسمح له بالتوجه نحو أي ثغر من ثغور المسلمين، أو أن يأتي يزيد بن معاوية، أو أن يعود من حيث أتى.

فقبل ابن زياد ذلك في البداية، إلا أن شمر بن ذي الجوشن حرضه بأن لا يدع الحسين إلا بعد أن ينزل على حكمه هو وأصحابه.

وكان شمر بن ذي الجوشن قد حاول أكثر من مرة أن يفسد في عمر بن سعد عند ابن زياد وعن لقائه بالحسين محاولا التشهير به.

ثم إن ابن زياد أرسل شمر بكتاب إلى عمر بن سعد يأمره فيه بحرب الحسين، إذا لم ينزل على حكمه، وإذا لم يحاربه، فسيكون شمر هو القائد[3].

وقدم شمر بكتاب ابن زياد إلى عمر بن سعد فقرأه، وقرر أن يتولى هو نفسه حرب الحسين مفضلا الدنيا على الآخرة. ثم حشد قواته، ونادى بشعاره، فركب الناس وزحف بهم نحو الحسين. وعند وصوله تقابل الحسين وعمر بن سعد واتفقا أن يؤجلا القتال إلى صباح اليوم التالي[4].

---

(١) - الغاضرية: قرية من نواحي الكوفة قريبة من كربلاء.

(٢) - الدينوري - الأخبار الطوال - ص: ٢٥٣.

(٣) - الدينوري - الأخبار الطوال - ص: ٢٥٥.

(٤) - المرجع نفسه - ص: ٢٥٦.

وفي صباح اليوم التالي (يوم عاشوراء) خرج عمر بن سعد بمن معه، وعبأ أصحابه[١] حيث جعل على ربع أهل المدينة عبد الله بن زهير بن سليم الأزدي، وعلى ربع مذحج وأسد عبد الرحمن بن أبي سبرة الجعفي، وعلى ربع ربيعة وكندة قيس بن الأشعث وعلى ربع تميم وهمدان الحر بن يزيد.

أما الحسين فعبأ أصحابه[٢]، وكانوا اثنين وثلاثين فارساً، وأربعين راجلاً، حيث كان زهير بن القين في الميمنة، وحبيب بن مظاهر في الميسرة، ورايته مع العباس ابن علي. وجعل مؤخرته في ظهورهم، وأمر بوضع حطب وراء المؤخرة، فحرق مخافة[٣] أن يأتوا إلا من وجه واحد. ثم أن الحسين بن علي خاطب وجوه الكوفة ممن كتب إليه، يقول لهم: ألم تكتبوا لي قد أينعت الثار، وأخضر الجناب؟ فقالوا: لم نفعل ذلك فكذبوا بوعدهم.

وعندما زحف عمر بن سعد قال الحر بن يزيد لعمر بن سعد وأصحابه: أما لكم في واحدة من الخصال التي عرضها عليكم الحسين فقال له عمر بن سعد: إن ابن زياد أبى أي واحدة منها.

ثم إن الحر بن يزيد انضم للحسين[٤] عليه السلام، ثم زحف عمر بن سعد نحو الحسين حيث جرت مبارزة بين الطرفين كانت في أكثرها لصالح أصحاب الحسين بن علي، ثم خاطب أحد أصحاب عمر بن سعد أصحابه قائلا: يا حمقى أتدرون[٥] من تقاتلون؟ إنكم تقاتلون فرسان المصر، قوم مستميتين لا يبرز لهم منكم أحد إلا قتله وأخذت ميمنة عمر بن سعد وميسرته بالهجوم على أصحاب الحسين فصرع مسلم بن عوسجة بعد مقاومة عنيفة من أصحاب الحسين، لم يتوقعها خصومهم لذلك قرر عمر بن سعد إرسال الحصين بن تميم مع

---

(١) الطبري – ج ٥ – ص: ٤٢٢.

(٢) – المرجع نفسه – ص: ٤٢٢.

(٣) – أمر الحسين أصحابه أن يضموا مضاربهم بعضهم من بعض ويكونوا أمام البيوت وأن يحفروا وراء البيوت أخاديد، وأن يطمروا فيه حطباً كثيراً، لئلا يؤتون من أدبار البيوت فيدخلونها – الدينوري – ص: ٢٥٦.

(٤) – الدينوري – الأخبار الطوال – ص: ٣٥٦.

(٥) – الطبري – ج ٥ – ص: ٤٣٥.

خمسمائة من الرماة، فلما دنوا من أصحاب الحسين رشقوهم بالنبال، فبقروا[1] جميع خيول خصومهم، وأصبحوا جميعاً مترجلين. واستمر القتال.

ثم إن شمر بن ذي الجوشن حمل حتى بلغ فسطاط الحسين، وأراد إحراقه، إلا أنه دفع عنه بمقاومة عنيفة.

واستمر القتال على أشده، فقتل من أصحاب الحسين، حبيب بن مظاهر، الحر بن يزيد، عمرو بن عبد الله الصائدي.

وتتابع قتل أصحاب الحسين الواحد بعد الآخر، حتى أصيب أهل بيته[2]، وكان أولهم علي الأكبر ابن الحسين بن علي، ثم عبد الله بن مسلم بن عقيل، ثم عون بن عبد الله بن جعفر ابن أبي طالب، ومحمد بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وعبد الرحمن بن عقيل وجعفر بن عقيل، والقاسم بن الحسن. كما قتل العباس وعبد الله، وجعفر أبناء علي.

وقتل أيضاً عبد الله بن علي بن أبي طالب، وجعفر بن علي، وعثمان بن علي، ومحمد بن علي، واشتد عطش الحسين، فدنا ليشرب من الماء، إلا أن خصومه حالوا بينه وبين الماء[3].

وأقبل شمر بن ذي الجوشن ومعه عشرة من رجال أهل الكوفة، وحالوا بين الحسين وبين المؤخرة (أهل بيته) وأخذ شمر بن ذي الجوشن يحرض أصحابه على الحسين وكان الحسين يقاومهم، وأخيراً تمكن منه شمر بعد أن حمل عليه سنان بن أنس بن عمرو النخعي، فطعنه بالرمح فوقع على الأرض.

وطلب سنان من خولي بن يزيد أن يجز رأس الحسين فلم يفعل، فنزل سنان ففعل[4] ثم مال الناس على ثقل الحسين ومتاعه أي على المؤخرة.

ثم أمر عمر بن سعد بعض أصحابه أن يدوسوا جسم الحسين بخيولهم، وسرح برأس

---

(١) - الطبري - ج ٥ - ص: ٤٩٢.

(٢) - الدينوري - الأخبار الطوال - ص: ٢٥٧ - وما بعدها.

(٣) - المرجع نفسه - ص: ٢٥٨.

(٤) - الدينوري - الأخبار الطوال - ص: ٢٥٨.

الحسين إلى ابن زياد[1] مع خولي بن يزيد، وعاد إلى الكوفة ومعه بنات الحسين وأخواته، ومن كان معه من الصبيان، وعلى رأسهم علي بن الحسين وكان مريضاً. كما سير باثنين وسبعين رأساً من آل حسين مع شمر بن ذي الجوشن ومع قيس بن الأشعث وعمرو بن الحجاج،وعزرة بن قيس إلى ابن زياد أيضاً. وسير ابن زياد، زحر بن قيس، ومعه رأس الحسين ورؤوس أصحابه إلى يزيد بن معاوية.

فلما دخلوا عليه قالت زينب بنت علي ليزيد بن معاوية بعد مناقشة: بدين الله ودين أبي وابن أخي وجدي، اهتديت أنت وأبوك وجدك[2].

فأنكر يزيد عليها ذلك، تمرداً على الحقيقة الساطعة، وتمرداً على الإسلام ومبادئه مؤكداً عصبية الجاهلية.

ثم سأل يزيد علي بن الحسين، فقال له علي قوله تعالى: ﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم، إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير، لكيلا تأسوا على ما فاتكم، ولا تفرحوا بما أتاكم، والله لا يحب كل مختال فخور﴾[3]. ثم إن يزيد ابن معاوية أرسلهم إلى المدينة.

لقد زادت النقمة على يزيد بعد مقتل الحسين، ويؤكد ذلك قوله لابن زياد وغضبه عليه. حيث قال: أن ابن مرجان بغضني بقتله الحسين إلى المسلمين وزرع في قلوبهم العداوة، فبغضني البر والفاجر بما استعظم من قتل الحسين، مالي ولابن مرجانة لعنة الله وغضب عليه.

---

(١) - ابن عبد ربه - ج ٤ - ص: ٣٨٠.

(٢) - الطبري - ج ٥ - ص:٤٦٢.

(٣) - سورة الحديد - الآية ٣٢٢.

الفصل الثاني

ثورة عبد الله بن الزبير

الفصل الثاني

ثورة عبد الله بن الزبير

دوافع الثورة:

عـزل يزيـد بـن معاوية الوليد بن عتبه سنة (٦٢ هـ) عن المدينة، وولي مكانه عثمان ابن محمد بن أبي سفيان[١] الذي بعث ليزيد وفداً من أهل المدينة وفيهم عبد الله بن حنظل الأنصاري وغيره[٢]، فأكرمهم يزيد وأحسن إليهم، وأعظم جوائزهم، ظناً منه أنه كسبهم لصالحه في الصراع الدائر، وقد يكون يزيد نفسه الذي خطط ذلك للوالي.

وعاد الوفد للمدينة، وأظهر شتم يزيد بقولهم عنه أنه رجل لا دين له يشرب الخمر، يعزف الطنابير، ويلاعب الكلاب – وغير ذلك، وقالوا لأهل المدينة إنا نشهد على خلعه، فتبعهم الناس.

بايع أهل المدينة عبد الله بن حنظلة الغسيل، ووثبوا على عامل يزيد بن معاوية وعثمان ابن محمد، ومن بالمدينة من بني أمية ومواليهم، ومن رأى رأيهم من قريش، حيث كانوا نحواً من ألف رجل مجتمعين بدار مروان بن الحكم فحاصرهم الناس عند ذلك دعا مروان بن الحكم حبيب بن كره، فكتب ومن معه من بني أمية كتاباً إلى يزيد بن معاوية[٣]، وأخذ

(١) كان فتى غراً وحدثاً، لم يجرب الاحداث ولم تحنكه السن، ولم تغرسه التجارب.

(٢) عبد الله بن أبي عمرو بن أبي جعفر بن المغيرة المخزومي، المنذر بن الزبير.

(٣) كتب بنو أمية: أما بعد فأنا قد حضرنا في دار مروان بن الحكم، ومنعنا العذب ورمينا بالجبوب. فياغوثاه. (الطبري – ج٥ – ص:٤٨٢).

الكتاب عبد الملك بن مروان وحبيب بن كره، فلما كانا في ثنية الوداع، سلم عبد الملك الكتاب لرسول بني امية إلى يزيد وقال له: ستجدني عند عودتك هنا، منتظرك بعد أربعة وعشرين يوماً.

أخذ حبيب بن كره الكتاب وتوجه إلى يزيد فقرأ يزيد الكتاب، وسأل الرسول ألم يستطع بنو أمية، وعددهم ألف رجل، أن يقاتلوا ساعة واحدة؟.

فقال له الرسول: أجمع الناس كلهم ضدهم. وهذا ما يؤكد عدم شرعية الخلافة الأموية وإنها مفروضة على الناس فرضاً.

وحاول يزيد إرسال عمر بن سعيد لقتالهم، إلا أنه رفض[1] لأن ذلك يتعلق بقريش ثم بعث إلى مسلم بن عقبة المرى فدخل عليه، ثم خرج، فندب اثني عشر ألف رجل أما الرسول فعاد في الموعد والمكان المحددين، والتقى مع عبد الملك بن مروان وتوجها إلى دار مروان، ثم أخبرهم الرسول بخبر مسلم بن عقبة المرى.

أمر يزيد بن معاوية، مسلم بن عقبة أن يستخلف على الجيش في حال وفاة حصين بن نمير السكوني، وقال له: ادعوا القوم ثلاثاً، فإن لم يستجيبوا فأبح المدينة ثلاثة أيام، ثم خذ البيعة عليهم، وتوجه إلى مكة.

وأقبل مسلم بن عقبة بالجيش نحو المدينة، فبلغهم خبر إقباله، فوثبوا على بني أمية وحاصروهم، وأخذوا عليهم عهداً وميثاقاً ألا يدلوا على عورة أهل المدينة[2]. ولا يظاهروا عليهم عدواً فأعطوا هذا العهد والميثاق، وأخرجوهم من المدينة، حيث التقوا مع مسلم بن عقبة بوادي القرى، وهناك دعا مسلم عمرو بن عثمان ليدله على عورة خصومهم، فرفض لأنه أعطى عهداً بذلك ثم دعا عبد الملك بن مروان، فقال مسلم: هات ما عندك، وكيف ترى الرأي؟ قال له عبد الملك بن مروان[3]: أرى أن تسير بمن معك على هذا المحور، حتى إذا أتيت أدنى نخل لها، ثم لف حيث يستظل الناس بظله، وكلوا من عصارته، ودبسه فإذا كان الليل وجهت استطلاعك وفي الصباح تتحرك فتنزل المدينة يساراً ثم تدور حول المدنية، فتباغتهم من قبل الحرة مشرقاً، ثم تستقبل القوم.

---

(١) قال عمر بن سعيد ليزيد: قد كنت ضبطت لك البلاد، واحكمت لك الأمور، فأما الآن إذ صارت إنما هي دماء قريش تراق بالصيد فلا أحب أن أتولى ذلك.

(٢) البلاذري - أنساب الأشراف - ج٤ - ف٢ - ص:٣٢.

(٣) نفس المرجع - ص:٣٤.

نفذ مسلم بن عقبة خطة عبد الملك، وهاجم من جهة المشرق، ثم أجلهم ثلاثة أيام إلا أنهم رفضوا الرضوخ لحكمه. وكان ترتيب قتال أهل المدينة على النحو التالي[1]: عبد الرحمن بن زهير على ربع منهم من جانب المدينة، وعبد الله بن مطيع على ربع آخر وفي جانب آخر، ومعقل بن سنان الأشجعي على ربع أيضاً وفي جانب آخر من المدينة وأمير جماعتهم في أعظم تلك الأرباع هو عبد الله بن حنظلة الغسيل الأنصاري.

أقبل مسلم بن عقبة من جهة الحرة، فضرب فسطاط على محور الكوفة، وبدأ القتال بين الطرفين كأشد قتال، وتمكن مسلم بن عقبة من هزيمة أهل المدينة، ثم أباحها ثلاثة أيام يقتلون وينهبون[2]، ثم دعا للبيعة على أنهم خول ليزيد بن معاوية يحكم في دمائهم وأموالهم وأهليهم كما يشاء.

الثورة:

وبعد أن أخذ مسلم بن عقبة البيعة من أهل المدينة، توجه بجنده إلى مكة يريد ابن الزبير ، بعد أن خلف على المدينة روح بن زنباع الجزامي، فلما وصل مسلم إلى المشلل توفي في آخر محرم سنة (٦٤ هـ).

وكان مسلم قد أوصى الحصين بن نمير السكوني وسلمه قيادة الجيش وقال له: أسرع السير، وعجل الوقاع، وعم الأخبار، ولا تمكن قريشاً من اذنك ثم مات ودفن هناك[1].

توجه الحصين نحو مسكن، وقد بايع أهلها، وأهل الحجاز، ابن الزبير، وقدم على ابن الزبير أهل المدينة بالاضافة لنجدة بن عامر الحنفي في جماعة من الخوارج لمنع احتلال بيت الله.

جمع ابن الزبير قواته، وقابل الحصين، وحدثت معركة، بدأت بمبارزة قتل فيها المنذر ابن الزبير، وصمد عبد الله بن الزبير ضد خصومه، حتى حل الليل فانصرفوا عنه إلا أنه عاود القتال واستمر شهرين.

---

(١) من قتلاهم محمد بن أبي الجهم بن حذيفة العدوي، معقل بن سنان، يزيد بن وهب بن زمعة.

(٢) البلاذري - أنساب الأشراف - ج٤ - ف٢ - ص:٤٠.

(٣) يذكر أنه مات في ثنية هرشا، وهناك سلم قيادة الجيش.

رمى الحصين وأهل الشام الكعبة بالمجانيق، وحرقوا بيت الله الحرام[1] بالنار علماً أن أهل مكة، كانوا قد وضعوا حول الكعبة خشباً، ووضعوا فوق الكعبة جلوداً لترد عن الكعبة.

وعندما حل الربيع من عام (٦٤ هـ) هلك يزيد بن معاوية في قرية حوارين[2] في منطقة حمص من أرض بلاد الشام، وعمره لا يتجاوز ثمان وثلاثين سنة. وبعد يزيد بويع للخلافة معاوية بن يزيد في الشام، وبويع لعبد الله بن الزبير في الحجاز.

نعود للحصين بن نمير، وهو محاصر ابن الزبير بمكة، حيث ضيق عليه الحصار. أثناء ذلك بلغ ابن الزبير أهل الشام أن يزيداً قد هلك[3]، إلا أن أهل الشام استمروا في القتال، فقال ابن الزبير للحصين: أدن مني أحدثك فدنا منه[4] فقال له الحصين: إن يكن يزيد قد هلك فأنت أحق الناس بهذا الأمر، هلم فلنبايعك ثم أخرج معي إلى الشام، ومعي فرسان الشام ووجوهها، فوالله لا يختلف عليه اثنان. وأخذ الحصين يكلمه سراً، وابن الزبير جهراً، ويقول: والله لا أفعل. فقال له الحصين: قبح الله رأيك، أكلمك سراً، وتكلمني جهراً، أدعوك للخلافة، تعدني بالقتل والتهلكة، قبحك الله من داهية بعد اليوم[5] ولو سار ابن الزبير مع الحصين حتى دخل الشام، ما اختلف عليه أحد ولكان في ذلك وجه جديد للتاريخ. وقد ندم ابن الزبير على تصرفه هذا. ثم إن الحصين خرج بأصحابه نحو المدينة، وهناك استقبله علي بن الحسين بن عليّ، فقدم للحصين القت والشعير لأنه نفذ عند الحصين.

أما أهل المدينة، فأخذتهم الجرأة على أهل الشام، فذلوهم، لذلك كانوا يجتمعون في معسكرهم فلا يتفرقوا.

---

(١) الدينوري - الأخبار الطوال - ص:٢٦٨.

(٢) البلاذري - أنساب الأشراف - ج٤ - ق٢ - ص:٥١.

(٣) الطبري - ج٥ - ص:٤٩٩.

(٤) أثناء ذلك أخذ فرس الحصين يجفل (الورث) فجاء حمام الحرم يلتقط من الجفل فكلف الحصين فرسه عن الحمام، فسأله ابن الزبير: مالك؟ قال الحصين: أخشى أن يقتل فرسي حمام الحرم فرد ابن الزبير: أتخاف من هذا وتقتل المسلمين؟ قال له: لا اقاتلك، فأذن لنا نطوف البيت وننصرف عنك.

(٥) البلاذري - أنساب الأشراف - ج٤ - ق٢ - ص:٥٢.

ثم إن بني أمية قالت للحصين: لا تبرحوا مكانكم حتى نخرج معكم إلى الشام[1]. وتوجه ذلك الجيش حتى دخل الشام، ولم يلبث معاوية بن يزيد إلا فترة حتى هلك[2].

أما أهل البصرة فبايعوا عبيد الله بن زياد، وذلك حتى يصطلح الناس على حاكم يرتضونه لأنفسهم.

ثم إن ابن زياد بعث وفداً من قبله إلى الكوفة هم عمرو بن مسمع، وسعد بن القرحا التميمي، لكي يبايعوه على ما بايعه أهل البصرة.

إلا أن أهل الكوفة لم يفعلوا، فعاد الوفد وأخبر أهل البصرة، فوثبوا على عبيد الله وكان المحرض في ذلك سلمة بن دؤيب.

حاول ابن زياد جمع الناس، فلم يأتوه ولم ينصاعوا لرأيه فهرب بمال بيت المال[3] إلى الشام، واستخلف على البصرة مسعود بن عمرو.

إلا أن أهل البصرة اجتمعوا، فولوا أمرهم النعمان بن صهبان الراسبي [4] ورجلاً آخر، لكي يختارا لهم رجلاً فيولوه أمرهم، فاتفقا على عبد الله بن الحارث، فبايعه أهل البصرة[5]. فسلم هذا شرطته هميان بن عدي السدوسي. وبعد مدة قدم عليهم من قبل عبد الله بن الزبير عمر بن عبد الله بن عمر فمكث شهراً، ثم قدم عليهم الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي.

أما أهل الكوفة فولوا أمرهم عامر بن مسعود، حيث مكث والياً ثلاثة أشهر ثم قدم عليهم عبد الله بن يزيد الأنصاري على الصلاة، وإبراهيم بن محمد بن طلحة بن عبيد الله على الخراج.

---

(١) الطبري - ج٥ - ص:٥٠٣.

(٢) اختلف في فترته. بعضهم يذكر أنه لم يمكث إلا أربعين يوماً. وبعضهم الآخر يذكر أنه استمر في الخلافة ثلاثة أشهر. (الطبري - ج٥ - ص:٥٠٣).

(٣) يذكر أنه كان مجموعة تسعة عشر ألف، ويقال ستة عشر ألف، ورأي آخر أنه كان ثمانية آلاف.

(٤) يذكر أن أهل البصرة ولو أمرهم عبد الملك بن عبد الله بن عامر، ثم جعلوا عبد الله بن الحارث بن عبد المطلب.

(٥) الطبري - ج٥ - ص:٥١٢.

وبذلك يكون قد اجتمع لابن الزبير أهل الكوفة والبصرة والجزيرة، وبعض أهل الشام ما عدا الأردن.

عندما قدم عبيد الله بن زياد دمشق، كان عليها الضحاك بن قيس الفهرى[1]، حيث قسمت بلاد الشام. وثار زفر بن الحارث الكلابي بقنسرين، وبايع لابن الزبير كما بايعه النعمان وابن بشير الأنصاري بحمص.

أما في فلسطين فكان حسان بن مالك بن بحدل الكلبي[2]، وكان عاملاً لمعاوية ولابنه يزيد من بعده، وقد خرج حسان هذا إلى الأردن، واستخلف روح بن زنباع على فلسطين، فثار ناتل بن قيس ضد روح بن زنباع، واخرجه واستولى على فلسطين وبايع لابن الزبير[3].

كان ابن الزبير قد كتب لعامله على المدينة أن ينفي بني أمية منها إلى الشام وفيها مروان بن الحكم. وكان الناس في بلاد الشام فريقين[4]، فريق مع حسان بن مالك، ويهوى هوى بني أمية ويدعو له، وفريق آخر مع الضحاك بن قيس الفهرى، ويهوى ابن الزبير ويدعو له.

لذلك قام حسان بن مالك بالأردن، وبايعه أهلها على قتال ابن الزبير على أن لا يتولى أمرهم ولدا يزيد بن معاوية (عبد الله وخالد) لحداثة سنهما بقولهم لحسان: نخاف أن يأتينا الناس بشيخ ونأتيهم بصبي[5].

كتب حسان بن مالك إلى الضحاك يعظم له بني أمية، ويدعوه لطاعتهم وأرسل كتابه مع رسول، وأمره إن لم يقرأ الضحاك الكتاب على الناس، أن يقوم هو بقراءته[6] ثم كتب إلى بني أمية أن يحضروه.

---

(١) عندما مات يزيد بن معاوية بايع أهل الشام لابن الزبير إلا أهل الأردن. وبايع أهل مصر ابن الزبير أيضاً، وقد استخلف ابن الزبير الضحاك بن قيس الفهري على أهل الشام.

(٢) الدينوري الأخبار الطوال - ص:٣٩٥.

(٣) قاتل نائل بن قيس الجزامي، فدعا إلى ابن الزبير وأخرج روح بن زنباع من فلسطين.

(٤) الدينوري - الأخبار الطوال - ص:٣٩٥.

(٥) المرجع نفسه - ص:٣٩٥.

(٦) كتب حسان بن مالك الكتاب.ودفعه إلى ناغصة وقال: إن قرأ الضحاك كتابي على الناس فهو =

تلقى الضحاك الكتاب، وفي يوم الجمعة قام يخطب الناس، ولم يقرأ الكتاب فقام رسول حسان فقرأ على الناس. أثناء ذلك اضطرب الناس، فأمر الضحاك بالوليد بن عقبة، ويزيد بن أبي النمس، وسفيان بن الأبرد فوضعهم في السجن[1]. ثم انقسمت القبائل، فقيس تدعو إلى ابن الزبير، ونصره الضحاك، وكلب تدعو إلى بني أمية (إلى خالد بن يزيد).

دخل الضحاك دار الإمارة، ثم بعث لبني أمية فاعتذر لهم[2] وقال: إنه لا يريد شيئاً يكرهونه، ثم قال لهم: تكتبون لحسان بن مالك، ونسير معاً إلى الجابية حتى نوافيه فنبايع لرجل منكم. وكتب إليه الضحاك، ثم خرجت إليه الناس يريدون الجابية. أثناء ذلك قدم ثور بن معن بن يزيد بن الأخنس إلى الضحاك،.وقال له: دعوتنا إلى طاعة ابن الزبير فبايعناك، وأنت تريد أن نذهب إلى الجابية للمبايعة[3].

قال له الضحاك: ما رأيك؟ قال: أن تظهر ما نحن عليه، وتدعو لطاعة ابن الزبير. فوافق الضحاك على ذلك، وانعطف بالناس حتى نزل مرج راهط وعندما قدم عبد الله ابن زياد إلى دمشق، كان قد اجتمع مع مروان بن الحكم وقال له[4]: أنت كبير قريش ورئيسها. بعد ذلك كان أهل الأردن وغيرهم قد قالوا لمروان: أنت شيخ كبير، وابن يزيد غلام، نحن نبايعك فبايعوه بالجابية في ذي القعدة سنة (٦٤ هـ).

وسار بنو أمية ومن معهم حتى وافوا حسان بالجابية أما الضحاك فكتب إلى النعمان بن بشير وهو على حمص، والى زفر بن الحارث، وكان على قنسرين، وإلى ناتل بن قيس، وهو على فلسطين، يستمدهم العون[5]، وكانوا على طاعة ابن الزبير، فاجتمعت هذه الأجناد مع الضحاك بالمرج.

= له، وإلا فقم واقرأ هذا الكتاب على الناس - الطبري - ج٥ - ص:٥٣٢. وهناك بعض المصادر تذكر أن رسول حسان بن مالك لم يقرأ الكتاب.

(١) الطبري - ج٥ - ص:٥٣٢.

(٢) بعث الضحاك إلى بني أمية فدخلوا عليه في الغد فاعتذر لهم، وذكر حسن بلائهم عند مواليه وعنده، وإنه لا يريد شيئاً.

(٣) الطبري - ج٥ - ص:٥٣٣.

(٤) يذكر أن عبيد الله اجتمع ببني أمية في تدمر. فقال عبيد الله بن زياد لمروان وقد قرر مبايعة ابن الزبير: أن يفعل ذلك وأن يدع تدمر، فبايعهم ثم سر بهم وبمن معك منهم إلى الضحاك، حتى تخرجه من دمشق. الطبري - ج٥ - ص:٥٤١.

(٥) ابن الأثير - ج٢ - ص:١٤٩.

كانت أهواء أهل الجابية مختلفة، فبعضهم كان يميل مع بني يزيد بن معاوية وبعضهم الآخر كان يرغب أن تكون الخلافة لمروان بن الحكم. وفي اجتماع لبني أمية وأنصارهم، تقرر البيعة لمروان، ثم لخالد بن يزيد من بعده ثم لعمرو بن سعيد بن العاص، على أن تكون إمارة دمشق لعمرو بن سعيد، وإمارة حمص لخالد بن يزيد بن معاوية.

وعندما بايع الناس مروان بن الحكم، سار بمن معه إلى الجابية، فنزل مرج راهط[1] على الضحاك الذي كان معه أهل الأردن.

وعبأ مروان أصحابه، حيث كان ترتيب قتاله على النحو التالي[2]: على ميمنته عمرو ابن سعيد بن العاص، وعلى ميسرته عبيد الله بن زياد.

أما ترتيب قتال الضحاك فكان على الشكل التالي: على ميمنته زياد بن عمرو بن معاوية العقيلي، وعلى ميسرته أحد أتباعه.

عندما ترك الضحاك دمشق استخلف عليها عامله، وقد ثار يزيد بن أبي النمس الغساني بأهل دمشق وعبيدها، فغلب عليها، وأخرج عامل الضحاك، وغلب على الخزائن والأموال، وبايع لمروان، وأمده بالسلاح والعتاد والرجال. وكان ذلك فتحاً جديداً لبني أمية وأول جولة كسبوها ضد ابن الزبير.

وجرى قتال بين مروان والضحاك، فهزم الضحاك، وقتل[3] وهزم أصحابه إلى أجنادهم، فانتهى أهل حمص إليها، وكان عليها النعمان بن بشير.

أما زفر بن الحارث فلحق بقرقيسيا، وعليها عياض الجرشي، فحال بين زفر وبين قرقيسيا. إلا أن زفر تمكن من قرقيسيا[4]، أما ناتل بن قيس صاحب فلسطين، فهرب إلى ابن الزبير في مكة.

---

(١) سار مروان إلى الجابية ومعه الناس حتى بلغ مرج راهط، على الضحاك وهو في أهل الأردن من قبيلة كلب، ثم أتته السكاسك والسكون وغسان. ورجع حسان بن مالك إلى الأردن. الطبري - ج٥ - ص:٥٣٧.

(٢) الطبري - ج٥ - ص:٥٣٧ - يذكر الدينوري أن الضحاك كان في ستين ألفاً، بينما كان مروان في ثلاثين ألفاً (الدينوري - الأخبار الطوال - ص:٣٩٦).

(٣) الدينوري - الأخبار الطوال - ص:٣٩٦.

(٤) الطبري - ج٥ -٥٣٩.

تمكن مروان من بلاد الشام، واستعمل عليها عماله، ثم توجه نحو مصر، وكان عليها عبد الرحمن بن جحدم القرشي يدعو لابن الزبير[١]. وبعث مروان، عمرو بن سعيد الأشدق أمامه، فدخل مصر، وعين مروان عماله عليها، وعاد إلى دمشق. وفي طريق عودته، أخبرته جواسيسه أن ابن الزبير بعث أخاه مصعب إلى فلسطين[٢]، فوجه له مروان، عمرو ابن سعيد بن العاص بجيش لاقاه قبل أن يدخل الشام، فقاتله وهزم أصحابه.

حركة المختار بن عبيد ومقتله:

بعد مقتل الحسين بن علي دخل زياد الكوفة، فتلاقت الشيعة بعد أن تفرقت ورأت أنها أخطأت بدعوتها الحسين إلى الكوفة، وتركهم إياه. ورأوا أيضاً أن عارهم لا يغسله إلا قتل من قتل الحسين، فاجتمعوا إلى خمسة أمراء منهم، وهم[٣]: سليمان بن صرد الخزاعي، المسيب بن نجيبة الفزاري، عبد الله بن سعد بن نفيل الأزدي، عبد الله بن وال التميمي، رفاعة بن شداد البجلي، واجتمع الكل في منزل سليمان بن صرد[٤]، حيث قال لأصحابه: من أراد منكم فليأت بماله إلى عبد الله بن وال التميمي فإذا اجتمع عنده، أخرجناه فجهزنا به أتباعنا ثم أخذ يكاتب بعض الناس، حيث كتب إلى سعد بن حذيفة ابن اليمان، يستنصره، فأجابه حذيفة لذلك.

أخذ سليمان بن صرد وأتباعه، بجمع آلة الحرب والإستعداد للقتال، أثناء ذلك مات يزيد بن معاوية، وكان على العراق آنذاك عبيد الله بن زياد[٥].

وقدم أصحاب سليمان بن صرد إليه يطلبون منه الثورة بالكوفة، وقتل قتلة الحسين، إلا أن رأيه كان التريث، وبث الدعاة، وكسب الناس ليقوى أمرهم. ثم اجتمع رأيهم على الوثوب إلى الكوفة بعد موت يزيد، وكان واليها آنذاك عمرو بن حريث المخزومي

---

(١) الطبري - ج٥ - ص:٥٤٠.
(٢) بلغ مروان أن ابن الزبير كان قد بعث أخاه مصعب بن الزبير نحو فلسطين - (الطبري - ج٥ - ص:٥٤٠).
(٣) البلاذري - أنساب الأشراف - ج٥ - ق٢ - ص:٢٠٤.
(٤) المرجع نفسه - ج٥ - ص:٢٠٥.
(٥) يوليوس ولهاوزن - ص:١٩٠.

فأخرجوه، واصطلحوا على عامر بن مسعود بن أمية بن خلف الجمحي[1] وأخذت دعاتهم تنتشر، وكثر جمعهم.

ولم تمض ستة أشهر على هلاك يزيد بن معاوية، حتى ذهب المختار إلى الكوفة[2] وذلك قبل قدوم واليها عبد الله بن يزيد الأنصاري، وإبراهيم بن محمد بن طلحة بن عبيد الله، من قبل ابن الزبير.

أخذ المختار يدعو شيعة أهل الكوفة للانتقام، وكانوا يردون عليه بقولهم هذا سليمان بن صرد شيخ الشيعة، وقد انقاد له الناس، واجتمعوا عليه، فقال لهم: إني جئتكم من قبل المهدي محمد بن علي بن الحنيفة[3] مؤتمنا مأمونا نجيبا وزيرا فمال إليه قسم من الشيعة إلا أن جلهم بقي مع سليمان بن صرد وبقي قسم آخر مع والي الكوفة.

أما المختار فقد أدخله ابن زياد السجن، بعد أن ضربه بقضيب كان في يده على عينه، فشترها[4]، إلا أن عبد الله بن عمرو كتب إلى زياد بإخراجه من السجن لقرابة كانت بينهما فأخرجه، وأمهله ثلاثة أيام يترك العراق بعدها. لحق المختار بالحجاز وسأل عن ابن الزبير، إلا أنه ترك مكة فترة وعاد إليها بعد سنة حيث اجتمع مع ابن الزبير. فقال له المختار:

ابسط يدك[5] أبايعك على ألا تقضي دوني أمراً، وعلى أن أكون أول من تأذن له، وإذا ظهرت، استعن بي على أفضل عملك. فقال ابن الزبير: أبايعك على كتاب الله وسنة نبيه فرد المختار:

لا أبايعك إلا على هذه الخصال.

---

(١) البلاذري - أنساب الأشراف - ج٤ - ق٢ - ص:٢٠٧.

(٢) يوليوس ولهاوزن - الخوارج والشيعة - ص:٢٠٠.

(٣) البلاذري - أنساب الأشراف - ج٤ - ق٢ - ص:٢٠٧.

(٤) قال ابن زياد للمختار: أنت المقبل لنصر ابن عقيل. فقال المختار: والله ما بت إلا تحت راية عمرو. فرفع ابن زياد قضيباً كان بيده، فاعترض به وجه المختار فشتر عينه، وشهد له عمر وعلي ناقل. ثم أمر به فحبس.

(٥) البلاذري - أنساب الأشراف - ج٤ - ق٢ - ص:٢١٦.

ثم إن ابن الـزبـير وافق ، وبـايعـه المختـار ، وشهـد معـه الحصـار الاول لمكة من أهل الشام ، الذي قام به الحصين بن نمير السكوني(١).

واستمر المختار مع ابن الزبير بعد هلاك يزيد بن معاوية لمدة خمسة أشهر وبعض الايام، كان خلالها أهل الكوفة قد اصطلحوا على عامر بن مسعود، الذي بايع الزبير فيما بعد.

إلا أن ابن الزبير لم يوف بشروط المختار، ولم يقدمه، فأخذ المختار يسأل كل قادم من الكوفة عن حال الناس فيها، وهيأتهم، وكان من الذين سألهم هانيء بن أبي أُحيَّة الوادعي، حيث ذكر له طاعة الناس لابن الزبير إلا طائفة، لو كان لهم رجل يجمعهم على رأيهم أكل بهم الأرض، فأجاب المختار: أنا لها(٢).

وقرر المختار الخروج إلى الكوفة، فلما بلغها وعلم بخبر سليمان بن صرد أبلغ بعض شيعة أهل الكوفة، إنه مرسل من قبل المهدي محمد بن الحنفية وأنه أمره بقتل الملحدين والطلب بدماء أهل بيته، وأخذ يحرض الناس على سليمان بن صرد ويكسب بعض شيعته.

إشتد خطر المختار، فاقتيد إلى السجن من قبل عبد الله بن يزيد وإبراهيم بن محمد(٣).

ذكرنا أن سليمان بن صرد قد اجتمعت له الشيعة، وقرر الخروج عندما علم أن عبيد الله ابن زياد متجه نحو العراق، فعسكر سليمان بالنخيلة(٤) ثم قرر الخروج والتوجه لقتال ابن زياد.

ترك النخيلة واتجه إلى دير الأعور ومنها إلى الاقساس على شاطيء الفرات إلى قبر الحسين بن عليّ عليه السلام، ومنه تابعوا مسيرهم إلى الحصّاصة، ثم إلى الأنبار، فإلى الصدود، ومنها إلى القيارة ثم تابعوا مسيرهم إلى قرقيسيا وعليها آنذاك ابن الحارث. فأكرمهم وأمدهم بالعون، وقال لهم أن يتجهوا إلى عين الورد حيث أقبل أهل الشام.

كان ابن زياد قد سرح أمامه الحصين بن نمير، كمقدمة في إثني عشر ألف رجل ثم

---

(١) المرجع نفسه – ص:٢١٧.
(٢) يوليوس ولهاوزن – الخوارج توالشيعة – ص:٢٠٠ – والبلاذري – أنساب الأشراف – ج٥ – ص:٢١٧.
(٣) البلاذري – أنساب الأشراف – ج٥ – ص:٢١٨ – والطبري – ج٥ – ص: ٥٨١
(٤) يوليوس ولهاوزن – الخوارج والشيعة– ص:١٩٣.

اجتمعت أهل الشام، وجماعة سليمان بن صرد، وبدأت المعركة الرئيسية[1] حيث قتل فيها سليمان بن صرد، فخلفه على قيادة أهل الكوفة ومن معهم المسيب بن نجية فقتل أيضاً، ثم هزم أصحابه، وعاد أهل المدائن إلى بلدهم، وأهل البصرة والكوفة إلى الكوفة، وكان المختار بها محبوساً.

ثم خرج المختار من السجن، ونزل داره، فقدمت إليه الشيعة، واجتمعت عليه علماً أن الذي كان قد بايع له وهو في السجن كانوا خمسة هم[2]: السائب بن مالك الأشعري، يزيد بن أنيس، أحمر بن شميط، رفاعة بن شداد، عبد الله بن شداد.

وأخذ أمر المختار يقوى ويشتد بعد خروجه من السجن، حتى عزل ابن الزبير عبد الله ابن يزيد، وإبراهيم بن محمد، وبعث عبد الله بن مطيع بدلهما على الكوفة، كما بعث الحارث ابن عبد الله بن أبي ربيعة على البصرة، وأخاه مصعب بن الزبير على المدينة.

بلغ عبد الملك بن مروان أن ابن الزبير بعث عماله على البلاد، وأن عبد الله بن مطيع في الكوفة، فولى شرطته أياس بن مضارب العجلي، ثم إن عيون ابن مطيع أخبرته بخبر المختار وأمره، وكان رأي أصحابه أن يؤخذ ويدخل السجن[3].

بعث ابن مطيع كلا من زائدة بن قدامة، وحسين بن عبد الله إلى المختار ليحضراه له، وكان المختار قد جهز نفسه للخروج، إلا أن زائدة بن قدامة ذكر له قول الله تعالى: ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون، ويمكر الله، والله خير الماكرين﴾[4].

فاعتل المختار عندما سمع ذلك ولم يخرج.

ثم بعث المختار إلى أصحابه فجمعهم، وقد أراد المكوث بالكوفة، أثناء ذلك توجه وفد من الكوفة إلى محمد بن الحنفية، ليتأكد من صدق قول المختار وادعائه فلما وصلوا إلى محمد

---

(١) الطبري - ج٥ - ص:٥٩٩ والبلاذري - أنساب الأشراف - ج٥ - ص:٢٠٤ وما بعدها.

(٢) يوليوس ولهاوزن - الخوارج والشيعة - ص:٢٠٢.

(٣) بعث ابن مطيع أياساً إلى المختار ليأتيه فتمارض المختار، ودعا بقطيفة وقال إني لأجد قفقفة. (البلاذري - ج٥ - ص:٢٢١.

(٤) سورة الأنفال - ٣.

أخبروه عن حالهم وعن المختار[1] ثم عادوا إلى الكوفة، فاجتمعوا مع المختار، وقالوا له: لقد أمرنا بنصرتك لذلك جمع المختار الشيعة وأخبرهم بذلك، ثم لقوا إبراهيم بن الأشتر، وكلموه في بيعة المختار حتى تمكنوا من ذلك.

وأخذ ابراهيم بن الأشتر يختلف إلى المختار عشية عند كل مساء. ثم إن أياس بن مضارب قال لعبد الله بن مطيع: إن المختار خارج عليك في إحدى هاتين الليلتين[2]، فلو بعثت إلى كل جبانة رجلاً من أصحابك في جماعة، لهابك المختار وامتنع عن الخروج.

فما كان من ابن مطيع إلا أن بعث أصحابه إلى جبانة السبيع، وجبانة بشر، وجبانة كندة، وجبانة الصائدين، وجبانة مراد - وأوصى أصحابه على كل جبانة بأن يكفوه الجهة التي هو فيها[3] ويخبروه بأمرها.

خرج إبراهيم بن الأشتر كعادته يريد المختار، ومعه كتيبة يبلغ قوامها مائة رجل، وعليهم الدروع التي سترت بالأقبية، متقلدون السيوف فاعترضه أياس بن مضارب فقتله إبراهيم بن الأشتر، وتوجه إلى المختار[4] وبث دعاته في الكوفة بشعارات يطلقونها كان أهمها الثأر للحسين.

اجتمع للمختار ثلاثة آلاف وثلاثمائة رجل من أصل إثني عشر ألفاً كانوا قد بايعوه[5]، أما ابن مطيع فجمع أهل الجبانتين، وبعث شبث بن ربعي في ثلاثة آلاف رجل إلى المختار، كما بعث راشد بن أياس في أربعة آلاف من الشرطة (كان ابن مطيع قد ولاه الشرطة بعد مقتل أبيه أياس).

لكن المختار وأصحابه بقيادة إبراهيم بن الأشتر، تمكنوا من عبد الله بن مطيع ومن

---

(١) كان ابن الحنفية قد قال لهم: فوالله لو ددت أن الله انتصر لنا من عدونا بمن شاك من خلقه الطبري - ج٦ - ص:١٤.

(٢) الطبري - ج٦ - ص:١٩.

(٣) البلاذري - أنساب الأشراف - ج٥ - ص:٢٢٤ - والطبري -ج٦-ص ٨ .

(٤) البلاذري - أنساب الأشراف - ج٥ - ص:٢٢٤ - والطبري - ج٥ - ص ٢٢.

(٥) هكذا قد ذكره الطبري، بينما يذكر البلاذري أنه قدم عليه ثلاثة آلاف وثمانمائة رجل - البلاذري - ج٥ - ص:٢٢٥.

جنده، وهزموهم وحاصروا ابن مطيع وبعض أصحابه في دار الإمارة ثلاثة أيام، هرب ابن مطيع بعدها، ونزل دار أبي موسى[1]، فأمن إبراهيم كل من في القصر على أنفسهم.

بعد ذلك علم المختار بابن مطيع، وكان له صديقاً، فبعث إليه المختار بمائة ألف درهم[2] وأمره أن يخرج، فخرج إلى البصرة.

ثم بايع أهل الكوفة المختار، فأصاب في بيت المال تسعة آلاف. استعمل المختار على شرطته عبد الله بن كامل الشاكري، وعلى حرسه كيسان أبو عمره، ووزع عماله، فعقد رأيه لعبد الله بن الحارث على أرمينية وبعث ابن عمير بن عطارد على أذربيجان، وبعث عبد الرحمن بن سعدة على الموصل، واسحق بن مسعود على المدائن وأرض جوخى، وقدامة بن أبي عيسى على بهقباذ الأعلى، كما بعث محمد بن كعب على بهقباذ الأوسط، وبعث حبيب بن منقذ على بهقباذ الأسفل، وبعث سعد بن حذيفة على حلوان.

أما مروان بن الحكم، فلما استقامت له الشام، أرسل جيشين أحدهما إلى الحجاز، وعليه حبيش بن دلجة، والآخر إلى العراق، وعليه ابن زياد وقد ذكرنا أمره مع سليمان بن صرد، علماً أن مروان كان قد أمر ابن زياد بنهب الكوفة إذا غلب عليها.

توجه ابن زياد نحو الموصل، فتركها عامل المختار بذلك سرح يزيد بن أنيس في ثلاثة آلاف، وأمره أن يتوجه إلى الموصل. وقال له: إني ممدك بالعتاد والرجال.

توجه أنيس إلى الموصل، بعد أن أعطاه المختار تعليمات[3] قال له فيها: إذا بلغت عدوك، فلا تناظرهم، وإذا وجدت فرصة فلا تؤخرها. وأمره أن يوفد أخباره إليه كل يوم. وأكد له أنه إذا احتاج إلى مدد أن يكتب إليه، فلما كان يزيد بن أنيس بسوراً، أقام بها يوما يعبىء نفسه مادياً ومعنوياً، وتابع مسيره بعدها نحو الموصل فنزل ببنات تلى.

---

(١) البلاذري – ج٥ – ص:٢٢٨.

(٢) بعث المختار إلى ابن مطيع: إني قد عرفت مكانك، وقد ظننت أنه بك عجز عن النهوض، وقد بعثت إليك بمائة ألف درهم، فقبلها ابن مطيع وشخص من الكوفة البلاذري – ج٥ – ص٢٢٨.

(٣) البلاذري – أنساب الأشراف – ج٥ – ص:٢٢٩ –

بلغ ابن زياد مكان خصمه وقوته، فأرسل له ستة آلاف مقاتل:

ثلاثة آلاف مع ربيعة بن المخارق، وثلاثة آلاف أخرى مع عبد الله الخثعمي في يوم واحد، وكتب لهما من يسبق الآخر فهو الأمير على صاحبه[1].

التقى الجيشان، وكان يزيد بن أنس مريضاً، فهزم جيش ابن زياد، واحتل معسكره.

ثم إن يزيد بن أبي أنيس حدد خليفته إذا قتل، فلما مات، تولى قيادة الجيش بعده، ورقاء بن عازب الأسدي.

عقد ورقاء اجتماع حرب، قرر فيه الانصراف عن مقابلة ابن زياد بأهل الشام وكان عددهم ثمانين ألف رجل[2] لأنه لا طاقة له بهم. عند ذلك دعا المختار، إبراهيم بن الأشتر، بعد أن جمع جيشاً قوامه سبعة آلاف رجل، وعقد له راية، ووجهه لقتال أهل الشام، فخرج ابن الأشتر وعسكر بحمام أعين.

أما أشراف أهل الكوفة، فقد اجتمع رأيهم على قتال المختار، وانتظروا خروج إبراهيم بن الأشتر[3] فوثب أشراف الكوفة على المختار، الذي عبأ بعض أصحابه، ثم وجه عمر بن توبة رسولاً لابن الأشتر، وهو في ساباط، وأمره بالعودة سريعاً ما أمكنه حتى يدخل الكوفة. أما المختار فأخذ يستقبلهم ويسايسهم، حتى يصل ابن الأشتر، فلما وصل رسول المختار إلى ابراهيم بن الأشتر عاد إلى الكوفة[4]. فجهز المختار أصحابه، ثم وجه ابراهيم إلى خصمه بالكناسة، وكان عليهم آنذاك شبث بن ربعي، ومحمد بن عمر بن عطارد، بينما توجه المختار إلى أهل اليمن. وتقابل ابراهيم مع خصمه فانهزم أهل الكوفة أمام إبراهيم وانتصر عليهم، وتمكن المختار من خصومه بالكوفة.

ومسك المختار قتلة الحسين بن عليّ وقال لأصحابه: (انظروا كل من شهد منهم قتل الحسين فأتوني به وإلا فاقتلوه). فقتل منهم أثناء ذلك مائتين وثمانية وأربعون قتيلاً[5]،

---

(١) بعث جيشين أحدهما إلى الحجاز وعليه بن دلجة، وآخر إلى العراق وعليه عبيد الله بن زياد.

(٢) الطبري - ج٦ - ص:٤٣.

(٣) عندما سار ابن الأشتر يريد الموصل توالى أهل الكوفة على المختار وظنوا أنه كاهن.

(٤) أقبل إبراهيم بن الأشتر فمر في المدائن مجداً في السير، وجهز ماله حتى قدم الكوفة ووافى المختار - البلاذري - ج٥ - ص:٢٣٢.

(٥) البلاذري - ج٥ - ص:٢٣٤ - والطبري - ج٦ - ص: ٥١

فهزمت أزلامهم ووجوه عشائرهم لذلك لحقوا بمصعب بن الزبير في البصرة، وكان قد غلب عليها.

ثم إن المثنى بن مخربة العبدي بايع المختار بالبصرة، وكان قد بايعه وهو في الكوفة بشكل سري قبل قدومه البصرة اجتمع عليه قومه، فدعى للمختار، إلا أنه فشل في ذلك وعاد إلى المختار.

علم المختار أن أهل الشام قد أقبلوا نحو العراق، فخشي أن يأتيه أهل الشام من جهة الغرب ويأتيه مصعب بن الزبير من قبل البصرة، لذلك وادع ابن الزبير في مكة وداراه(١)

في تلك الأثناء كان عبد الملك بن مروان قد أرسل عبد الملك بن الحارث بن الحكم، إلى وادي القرى أما المختار فكتب إلى عبد الله بن الزبير يقول له: (إن عبد الملك أرسل لك جيشاً، فإن أردت فإني أمدك وأساعدك). فوافق عبد الله بن الزبير على ذلك، فسرح له المختار شرحبيل بن ورس في ثلاثة آلاف رجل، وكان أكثرهم موالياً له(٢) وقال المختار: سر حتى تدخل المدينة، فإذا دخلتها فاكتب لي حتى يأتيك أمري) وكانت غاية المختار من ذلك، احتلال المدينة، وقطع المعونة عن ابن الزبير.

توجه ابن ورس إلى المدينة، فلما رآه عبد الله بن الزبير خشي أن يكون المختار قد دبر له أمراً، فبعث من مكة إلى المدينة عباس بن سهل في ألفي رجل، وأمره أن يستنصر الأعراب وأن يكايد أصحاب المختار إن لم يكونوا تحت طاعته.

اجتمع عباس بن سهل مع شرحبيل بن ورس في الرقيم(٣) حيث كان ابن ورس على أتم استعداد لملاقاة الخصم بينما لم يكن عباس بن سهيل مستعداً لذلك. فخاطب عباس بن سهيل شرحبيل بن ورس على أن يتوجها لقتال أهل الشام، فقال له شرحبيل: (ادخل المدينة أولاً فاكتب إلى المختار، لم أؤمر بطاعتك) فعلم عباس بن سهل أن ابن ورس دبر له مكيدة، لذلك قال له: إني سائر إلى وادي القرى.

---

(١) عندما بلغ المختار اقبال أهل الشام نحو العراق خاف أن يأتيه أهل الشام من شامهم وأهل البصرة من بصرتهم، فقرر الميل إلى عبد الله بن الزبير ومداراته وكتب بذلك - البلاذري - ج٥ - ص:٣٤٦.

(٢) الطبري - ج٦ - ص:١ - البلاذري - ج٥ - ص:٢٤٦.

(٣) البلاذري - ج٥ - ص:٢٤٩.

فنزل عباس بن سهل على ماء هناك، وبعث إلى ابن ورس[1] بدقيق وغنم، فأخذ أصحاب ابن ورس يذبحون الغنم، وتركوا تعبئتهم، واختلفوا على الماء، وأمن بعضهم بعضاً، فلما رأى عباس بن سهل ذلك جمع من أصحابه نحو ألفي رجل من ذوي القوة، وتوجه بهم إلى شرحبيل بن ورس. فحاول الأخير تعبئة قواته من جديد، وعلم أن الحيلة قد انطلت عليه. وتقابل الطرفان. فهزم أصحاب المختار[2] وبلغه خبرهم بعد أن استقر أمر أهل الكوفة للمختار، وجه ابراهيم بن الأشتر، نحو عبيد الله بن زياد وقال له: (سر وعجل بالسير، فإذا لقيت عدوك فناجذهم ساعة تلقاهم).

مقتل ابن زياد:

توجه ابن الأشتر ومن معه نحو تخوم أرض العراق، فنزل قرية يقال لها باربيتا فأرسل مقدمة له الطفيل بن لقيط، ثم قدم عبيد الله بن زياد فنزل قريباً من معسكر ابن الأشتر، أثناء ذلك أرسل عمر بن الحباب إلى ابن الأشتر يعلمه أنه معه ومؤيده[3].

أخذ ابن الأشتر يعبي أصحابه للحرب ووضع ترتيب جيشه على النحو التالي[4]: سفيان ابن يزيد بن المغفل على الميمنة، وعلي بن مالك الجشمي على الميسرة وعبد الرحمن بن عبد الله على الخيل، والطفيل بن لقيط على الرجالة، ومزاحم بن مالك ومعه الراية مع ابن الاشتر الذي جلس على تل مشرف على الطرفين يقود القتال.

أما ابن زياد فرتب قتاله فجعل على الميمنة الحصين بن نمير السكوني، وعلى الميسرة عمير بن الحباب السلمي، وشرحبيل بن ذى الكلاع على الخيل، وبقي هو في الرجالة ثم اصطف كلا الطرفين، وبدأ القتال بينهما، فهزم ابن الأشتر ابن زياد وجنده، وتمكن من

---

(١) كانت خطة لكي يتمكن المختار من ابن الزبير في المدينة من جهة، ومن جهة أخرى لكي يبعد خطره ولو لوقت قصير.

(٢) البلاذري - ج٥ - ص:٢٣٦ - وما بعدها.

(٣) أرسل عمير بن الحباب السلمي - إلى ابن الأشتر يقول له إني أريد لقاءك الليلة. فأتاه الحباب، وجرى بينهما كلام كثير منه قول عمير أعلم إني منهزم بالناس إذا قامت الحرب فسأله ابن الاشتر لكي يؤكد له صدقه في قوله: أترى أن أخندق على نفسي وأتلوّم يومين أو ثلاثة، فقال له عمير أن لا يفعل ذلك فإن القوم أضعافكم وكان دافع الحباب لذلك أن قيس الجزيرة كانت آنذاك حاقدة على بني مروان لما كان منهم في معركة مرج راهط - البلاذري - ج٥ - ص:٢٤٨.

(٤) الطبري - ج٦ - ص: ٨٧

قتله، كما قتل[1] الحصين بن نمير وغيرهم من الأمراء، وهزم جند أهل الشام، وطاردهم ابن الأشتر، فكان من غرق منهم أكثر من قتل.

في تلك الأثناء عزل عبد الله بن الزبير، القباع بن عمرو عن البصرة، وبعث عليها أخاه مصعب[2].

مقتل المختار:

أخذ مصعب يجمع الجند، فاستدعى المهلب بن أبي صفرة، وهو عامله على فارس، فلما قدم عليه أمر مصعب أن يقام المعسكر عند الجسر الأكبر[3] ثم خرج مصعب بعد أن قدم أمامه عباد بن الحصين، ووضع على ميمنته عمر بن عبيد الله بن معمر، وعلى ميسرته المهلب بن أبي صفره، ومالك بن مسمع على خمس بكر بن وائل، ومالك بن المنذر على خمس عبد القيس، والأحنف بن القيس على خمس تميم، وزياد بن عمرو على خمس الأزد، وقيس بن الهيثم على خمس أهل العالية، عندما علم المختار بمسير مصعب إليه[4]، دعا أحمر بن شميط، فعسكر بحمام أعين، ووجهه بجيش نحو مصعب، حيث جعل على مقدمته ابن مالك الشاكري، ونزل ابن شميط في المزار حيث عسكر مصعب بالقرب منه.

وبعد أن عبأ كل منهما جنده تقابلا فهزم أصحاب المختار، ولم ينج منهم إلا القليل.

وعندما علم المختار بهزيمة أصحابه، نزل بمن معه السيلحين ثم سد مجرى الفرات على مجتمع الأنهار فبقيت سفن أهل البصرى في الطين[5]، إلا أن أهل البصرة كسروا السد وتابعوا سيرهم. أما المختار فنزل حروراء وعبأ أصحابه، فكان على ميمنته سليم بن يزيد الكندي، وعلى ميسرته سعيد بن منقذ الهمداني، وعلى الشرطة عبد الله بن مراد، وعلى الخيل عمر بن عبد الله النهدي وعلى الرجالة مالك بن عمرو النهدي.

---

(1) وصل إبراهيم إلى عبيد الله بن زياد فقتله، وهو لا يثبته، وقال يا قوم لقد قتلت رجلاً وجدت منه رائحة المسك، فطلب، فإذا هو ابن زياد.

(2) البلاذري – ص:٢٥٠ – ابن الأثير – ج٤ – ص:٢٦٦ – والطبري – ج٦ – ص:٩٢.

(3) المرجع نفسه – ج٤ – ص:٢٦٨.

(4) المرجع نفسه – ج٦ – ص:٩٩.

(5) عندما بلغ المختار أنهم اقبلوا عليه في البحر، وعلى الظهر سار حتى نزل السيلحين ونظر إلى مجتمع الأنهار: نهر الجرة، نهر السيلحين، نهر القادسية، نهر يوسف – فسكر الفرات على مجتمع الأنهار فذهب ماء الفرات كله في هذا الأنهار وبقيت سفن أهل البصرة في الطين – الطبري – ج٦ – ص:٩٩.

وعبأ مصعب أصحابه بترتيب قتال مشابه[1]، فكان على ميمنته المهلب بن أبي صفرة وعلى ميسرته عمر بن عبيد الله بن معمر التيمي وعلى الخيل عباد بن الحصين وعلى الرجالة مقاتل بن مسمع، وعلى أهل الكوفة محمد بن الأشعث.

ثم تقابل الطرفان، فانتصر مصعب وهزم المختار وأصحابه، والتجأ المختار إلى القصر، فحاصره مصعب وضيق عليه الخناق، فخرج المختار من مخبئه وقاتل حتى قتل، ثم خرج كل من في القصر من أصحابه حيث قتل أكثرهم، وبذلك ينتهي دور المختار وحركته التي قام بها كنزوة فردية.

كان مصعب بن الزبير قد استخلف على البصرة عبيد الله بن معمر وعندما قتل المختار ودخل مصعب الكوفة، ثم توجه مصعب إلى مكة فعزله عبد الله بن الزبير وولى ابنه حمزة، حيث ظهر من هذا الأخير خفة وضعف، فكتب الأحنف بن قيس إلى عبد الله بن الزبير يعلمه بذلك، فعزله وأعاد مصعباً إلى عمله

مقتل عبد الله بن الزبير:

أما عبد الملك بن مروان فاجتمع بأهل الشام وتوجه يريد مصعب ومعه خالد بن عبد الله بن أسيد حيث طلب من عبد الملك أن يوجهه إلى البصرة، ووعده أن يكفيه أهلها، فدخلها إلا أنه فشل وأخرج منها.

أثناء ذلك عاد عبد الملك إلى دمشق لأن عمرو بن سعيد كان قد ثار عليه فقتله ثم جمع عبد الملك بن مروان جنده وتوجه إلى العراق فنزل مسكن حيث[2] اختلف عليه أهل الشام بقولهم له: (لو أقمت، مكانك وبعثت على هذا الجيش رجلاً من أهل بيتك) إلا أن عبد الملك صمم أن يستمر في قيادة الجيش.

سار مصعب إلى باجميرا[3]، حيث هم أهل العراق أن يغدروا بمصعب ومعه إبراهيم ابن الأشتر. وعندما تقابل الجيشان بدير الجاثليق[4] بدأ القتال فقتل ابن الأشتر ثم تراجع

---

(١) المرجع نفسه – ص:٩٩.
(٢) ابن الأثير – ج٤ – ص:٣٣٤.
(٣) البلاذري – أنساب الأشراف – ج٥ – ص:٣٣٣.
(٤) الطبري – ج٦ – ص:١٥٧.

معظم أصحاب مصعب، حيث قتل هو[1] ودخل عبد الملك بن مروان العراق، فدعى أهلها للبيعة، ثم وزع ولاته. لم يبق أمام عبد الملك من مخاطر سوى عبد الله بن الزبير، لذلك جهز جيشاً من أهل الشام بقيادة الحجاج بن يوسف حيث توجه حتى قدم مكة ومعه ألفان من المقاتلين[2].

خرج الحجاج في جمادى الأول سنة (٧٢ هـ) ولم يأت المدينة، بينا سلك طريق العراق فنزل الطائف، ثم كتب إلى عبد الملك يستأذنه بحصار مكة ويطلب منه المدد. وكتب عبد الملك بن مروان إلى طارق بن عمرو، يأمره باللحاق بمن معه بالحجاج وكانوا زهاء خمسة آلاف مقاتل.

توجه الحجاج فنزل بئر ميمون، وحاصر ابن الزبير، بعد أن أخذ الموافقة من عبد الملك، ورمى الكعبة بالمنجنيق[3]، فنزلت الصواعق، وكانت ذات أثر فعال على قتال الطرفين، فتفرق أكثر أصحاب ابن الزبير ودخل ابن الزبير على أمه يستشيرها في أمره، فحرضته على القتال، فعاد وقاتل حتى قتل، ودخل الحجاج مكة[4].

لقد كانت تعبئة أهل الشام، واستعدادهم الاقتصادي والعسكري[5] على حالة حسنة تسمح لهم باستمرار القتال لمدة طويلة، بينا كان ابن الزبير على عكس ذلك.

وبذلك تنتهي ثورة ابن الزبير وخلافته، وبالتالي استقر الأمر لعبد الملك بن مروان حتى كانت وفاته سنة (٨٦ هـ).

---

(١) البلاذري - أنساب الأشراف - ج٥ - ص:٣٤٠ وما بعدها.

(٢) لما قتل عبد الملك مصعب بن الزبير، وأتى الكوفة وجه فيها الحجاج بن يوسف إلى عبد الله بن الزبير في الفين، ويقال في ثلاثة آلاف، ويقال في خمسة آلاف البلاذري - أنساب الأشراف - ج٥ - ص:٣٥٧ - والطبري - ج٦ - ص:١٧٤.

(٣) كتب الحجاج إلى عبد الملك يستأذنه بقتال ابن الزبير فأذن له في قتاله ومحاصرته فقدم مقدمته، ونصبوا المجانيق على أبي قبيس - البلاذري - أنساب الأشراف - ج٥ - ص:٣٥٧.

(٤) كان أهل الشام ينتظرون نفاذ ما كان عند ابن الزبير من الطعام. حيث كان ابن الزبير لا ينفق منه إلا ما يمسك الرمق - البلاذري - ج٥ - ص:٣٦١.
ويذكر الطبري أن أصحاب الحجاج كان عندهم طعام كثير، وكانت تأتيهم المدد من الشام، كالطعام والكعك والسويق والدقيق.

(٥) الطبري - ج٦ - ص:١٧٥.

الفصل الثالث

الدعوة العباسية والثورة

الفصل الثالث

الدعوة العباسية في العصر الأموي

أصل الدعوة

أوصى علي بن عبد الله بن عباس أبناءه، أن يلحقوا بعبد الملك بن مروان في دمشق بعد وفاته. وإذا خيرهم[1] المكان أوصاهم أن ينزلوا البلقاء في جنوب بلاد الشام.

وبعد وفاة عبد الله بن عباس سنة ٦٨ هـ قدم ابنه علي إلى عبد الملك، فخيره عبد الملك، فاختار علي البلقاء، ومنها اختار الشراة، فالحميمة.

وبقي عبد الملك يكرمه حتى نهاية ولايته. وفي ولاية الوليد بن عبد الملك لم يكن لعلي نفس الإكرام والتقدير الذي لقيه من عبد الملك. ثم إن علي بن عبد الله هلك في الشام أيام الوليد الثاني[2]، بعد أن عهد علي لابنه محمد وأعطاه أسراره. فقام محمد داعياً، إلا أنه لم يبادر إلى الفرقة والإنقسام ولا نازع في فتنة، وكتم سره، وأخفى أمره، وأخذ يترقب الفرصة السانحة والوقت الملائم.

---

(١) - يذكر أنه توفي سنة ١٧ هـ أيام هشام بن عبد الملك.

(٢) - تذكر بعض المصادر أن علي بن عبد الله أراد أن يوصي لابنه محمد، فرفض محمد هذا فأوصى لابنه سليمان. وقد قالت به الكيسانية، وهم منسوبون إلى المختار بن عبيد الله وكان يلقب بكيسان. وهو أول من قال بإمامة محمد بن علي، وأن أباه أوصى له بينما يذكر آخرون أن الإمامة كانت للعباس عم النبي ﷺ ثم لابنه عبد الله ثم لابنه علي ثم لمحمد بن علي ثم لإبراهيم ابن محمد، ثم لأبي العباس أول الخلفاء العباسيين ثم لأبي جعفر المنصور، ثم للمهدي... الخ.

في ذلك الوقت، كان أهل خراسان يختلفون إلى أبي هاشم[1]، فلما مرض أمر أتباعه أن يتبعوا محمداً هذا، علماً أن أبا هاشم كان قد دخل السجن من قبل الوليد بن عبد الملك، لتخاصمه مع زيد بن الحسن بن علي، عندما اتهمه بالوشاية، وبأن له شيعة بالعراق وخراسان، إلا أنه أخلى سبيله لوساطة علي زين العابدين بن الحسين، وأمره بالمقام في بلاد الشام.

وقدم محمد بن علي إلى دمشق، فاجتمع عند فضالة بن معاذ، وكان هذا تاجراً ينزل دمشق باستمرار. ثم توجه أبو هاشم ومحمد بن علي إلى البلقاء، في الوقت الذي خلف فيه أبو هاشم سلمة بن بجير في حاجة له بدمشق، وأمره أن يتبعه إلى البلقاء.

وفي منزل محمد بن علي بالحميمة[2] توفي أبو هاشم[3]، ومعه بعض أتباعه[4] وكان معه صحيفة صفراء[5]، دفعها إلى محمد بن علي.

أما ابن بجير فتوجه نحو البلقاء بعد انتهاء عمله، فوجد صاحبه قد توفي. ودعا محمد بن علي أصحاب أبي هاشم وابن بجير معهم فبايعوه، ثم أخذ محمد يدون أسماء أصحابه[6]، وكان بعضهم من بني مسلية حيث يذكر أنهم تولوا أمر الدعوة في بدايتها.

ترك أصحاب الدعوة البلقاء، فمرض ابن بجير، وهو رئيسهم، ومات، فتسلم قيادتهم أبو رباح ميسرة النبال. أما إبراهيم بن سلمة فبقي عند محمد بن علي بينما توجه الآخرون نحو الكوفة، حيث كان اجتماعهم في بني مسلية عند سالم وأصحابه.

---

(١) – هو أبو هاشم بن عبد الله بن محمد بن الحنفية بن علي بن أبي طالب ولم يكن له ولد ذكر.

(٢) – يذكر أنه توفي بالسراة.

(٣) – يذكر أن الوليد دس إليه بشخص من دمشق سقاه شربة لبن مسموم، فكان موته بذلك (أخبار الدولة العباسية – ص: ١٨٨).

(٤) – أبو رباح ميسرة النبال، أبو عمرو البزار، محمد بن خنيس، أبو بسطام مصقلة الطحان، حيان العطار، إبراهيم بن سلمة.

(٥) – مؤلف من القرن الثالث الهجري – أخبار الدولة العباسية – طبعة بيروت ١٩٧١ – ص:١٨٤.

(٦) سجل في ديوانه: سالم بن أجير، أبو هاشم بكير بن ماهان – حفص بن سليمان، أبو سلمة الخلال، وهم من بني مسلبة، ثم رهط عامر بن إسماعيل هم: ميسرة الرحال، موسى بن سريج السراج، زياد بن درهم الهمداني معن بن يزيد الهمداني، منذر بن سعيد الهمداني وغيرهم.

واستروا أمرهم حتى كانت سنة مائة للهجرة، وعددهم في الكوفة لا يبلغ ثلاثين رجلاً.

ثم إن أبا رباح مرض ومات، فتولى أمرهم سالم، فكتبوا إلى محمد بن علي يخبرونه بأحوالهم، وأرسلوا كتبهم مع بكير بن ماهان.

توجه بكير إلى دمشق بصفة تاجر عطر، حتى وصل الحميمة، ودخل على محمد بن علي بعد أن رآه إبراهيم بن سلمة - وكان يعرفه - فأخذ محمد الكتب وقرأها.

وعلم أن عدد أتباعه ثلاثون رجلاً، فدفع إليه مالاً قدره مائة وتسعون ديناراً جمعهم من أهل الكوفة، وطوقاً من ذهب، وثوباً، فكان ذلك أول مال تحمله شيعة بني العباس له.

واتفق محمد بن علي مع بكير بن ماهان على أن يكون فضالة بن معاذ واسطة ترد عليه كتبهم وكتبه، فيوصلها إلى الطرفين، أي أن يكون بمثابة بريد بين الطرفين. ثم أخبر بكير بن ماهان، محمد بن علي عن بعض أصحابه في خراسان[1]، عندما كان يحارب مع المهلب في فتح جرجان، ومن هؤلاء: قيس بن السري، وأبو عامر إسماعيل وبشر بن النهيد، وقد بايعوه على مثل هذه الدعوة، كما أخبره أنه التقى مع سليمان ابن كثير، وقد بايعه أيضاً.

توجه بكير نحو العراق، بعد أن أوصاه محمد بن علي بكتم أسرار الدعوة، بينما توجه محمد إلى الصائفة، وكان ذلك في عهد عمر بن عبد العزيز.

وقدم بكير الكوفة فلقي سالماً وأصحابه، وأبلغهم رسالة محمد بن علي في انفاذ كتبهم ورسلهم إلى فضالة بن معاذ.

وبعد ذلك توجه بكير إلى خراسان ومعه سعيد الحرسي، ومنها إلى السند فسجستان ثم انحدر نحو السند حتى وصل إلى صاحبه سليمان بن كثير.

---

(١) - كان محمد بن علي قد قال لبكير: ما ترى في فضالة، أخبره علماً بيني وبينكم، ترد عليه كتبكم، فينفذها إلي، وترد عليه كتبي إليكم، فينقلها. ثم أن محمد بن علي جمع بين بكير وبين فضالة، وقال له: إذا أتاك رسوله أو رسول أصحابه أو كتبهم فانقلها إلي، ومتى كتبت إليهم بشيء، فعجل نقله إليهم.

قال بكير بن ماهان: لقيت رجلا يقال له قيس بن السري بجرجان، ومعي قيس بن السرى، وابو عامر إسماعيل، وهما يريدان الحج، فلما قدما الري خرج منهم قوم من خراسان ومنهم سليمان بن كثير، فبايعه على ما بايعه ابن النهيد، وكان هذا قد بايعه على دعوة بني العباس وأمرهم.

وكان سليان أول من عرف الدعوة بخراسان، ثم يزيد بن النهيد، وقيس بن السرى، كما بايعته جماعة من خزاعة.

ثم إن بكير بن ماهان جمع شيعة بني العباس، مع سليان بن كثير، وقال لهم إنه يريد أن يختار دعاته منهم، كما فعل موسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم وقال إن النقباء إنما هم على من بمرو، ومن أتاها مجيباً لمن فيها من دعاتكم. وأما سائر الكور، فلكل داعية فيها نصيب، يختار لنفسه أمناء من أهلها، ثم إنهم أجمعوا على اختيار النقباء الإثني عشر من أهل مرو[1].

ثم اختاروا باقي السبعين[2] دعاة، منهم أربعون رجلا من أهل مرو ومن أهل نسا ستة رجال، وسبعة من أهل أبيورد، ورجلان من أهل بلخ، ورجل من أهل مرو الروز ومن أهل خوارزم رجل، ومن أهل أمل رجل. فيكون مجموعهم سبعين[3].

هذا ويذكر أن الدعاة غير النقباء، وكان عددهم سبعين دون النقباء ثم اختاروا نظراء للنقباء، ويقال إن عددهم عشرون[4]، واختاروا أيضاً دعاة الدعاة، حيث يروى أن عددهم (٣٧) رجلا.

ثم إن بكير بن ماهان أخذ البيعة على من حضر، ثم جمعوا مالا كثيراً، وقدم بكير على إمامهم محمد بن علي، ومعه بعض أصحابه[5]، حيث خلف على شيعتهم سليان بن كثير، فتوجه هذا نحو الكوفة، ومنها إلى الحميمة مقر الدعوة المركزية السري، وكان بصحبته أبو سلمة، فدفع لمحمد بن علي ما قدم به، وأخبره بما هم عليه، واختياره للنقباء والدعاة وغيرهم.

---

(١) - أبو عبد الحميد قحطبة بن شبيب الطائي - أبو التميم عمران بن إسماعيل، أبو محمد سليان بن كثير، أبو نصر مالك بن الهيثم الخزاعي، أبو منصور طلحة بن زريق أبو الحكم عيسى، أبو حمزة عمرو بن أعين، أبو داوود خالد بن إبراهيم الربعي، أبو علي بن طهمان، أبو عتبة موسى بن كعب، أبو جعفر لامز بن قريظ أبو سهل بن مجاشع.

(٢) - مؤلف مجهول في القرن الثالث الهجري - ص: ٢١٦.

(٣) - نقباء ١٢، بقية الدعاة ٤٠ من مرو + ٦ + ٧ + ٢ + ١ + ١ + ١ = ٧٠.

(٤) - مؤلف مجهول في القرن الثالث الهجري - ص: ٢٢٠.

(٥) - من أهل مرو: أوب حيد، أبو إسماعيل، صبيح، الأزهر بن أشعب، ثم أبو سلمة.

وقد حذر محمد بن علي بكير من أمر زيد بن علي وأنصاره.

ومضى بكير وأصحابه نحو خراسان، فبدأ بجرجان، ثم إلى مرو، فنزل على كامل ابن المظفر، وأتته شيعة بني العباس، حيث تحدث إليهم عن أخبار إمامهم. وأتت عيون نصر ابن سيار فأخبروه بمكان بكير. وقال نصر لمن حضر مجلسه: من يأتيني بخبر الرجل؟ فقال عبيد الله بن بسام: أنا آتيك بصحة خبره[1].

فانطلق بأمر نصر بن سيار، بعد أن أوفد أمامه رجلاً إلى بكير يأمره بالتنحي عن مكانه، لأن نصر أميرهم قد وجهه في طلبه. في الوقت نفسه أرسل نصر أحد أتباعه يترقب أعمال عبيد الله، ويكون عيناً عليه.

فتوجها حتى قدما منزل كامل بن مظفر، وكان بكير قد تركه إلى منزل خالد بن عثمان فدخل عبيد الله بن بسام، وأمين نصر، فنزلا منزل كامل وفتشاه فلم يجدا فيه أحداً ثم مضى عبيد الله بن بسام إلى الصيد، بينما انصرف الآخر إلى نصر بن سيار فأخبره بأن قضية بكير كاذبة وباطلة وليست بصحيحة.

أما بكير فأقام هناك شهراً ووجه دعاته إلى الأمصار، ثم انصرف إلى العراق ومنها إلى صاحب دعوتهم.

وقد قال محمد بن علي لبكير بن ماهان يوصيه: (هذا إبراهيم إبني لكم فيه خلف صدق) ثم مرض محمد بن علي وتوفي سنة ١٢٤ هـ[2].

بعد ذلك توجه بكير بن ماهان إلى خراسان ماراً بالكوفة، ومعه كتاب إبراهيم الإمام إلى شيعتهم هناك ينعي فيه محمد بن علي، وبطاعة بكير بن ماهان، وتابع بكير مسيره فوصل إلى جرجان وفيها اجتمعت الشيعة عليه فنعاهم محمد بن علي وأخبرهم أن ابنه إبراهيم هو زعيم الدعوة بعده ووقع لهم كتاب إبراهيم الإمام وأقام معهم شهرين ثم عاد وبصحبته بعض أصحابه[3] فقدموا الكوفة، وفيها بلغهم موت هشام واستخلاف الوليد سنة ١٢٥ هـ.

---

(١) - كان قد أجاب دعوة بني العباس، وكان على علاقة وطيدة بنصر، وكان من ثقاته.

(٢) - يذكر أن بكير بن ماهان توجه إلى منزل أبي الحكم عيسى بن أعين عندما ترك منزل كامل بن مظفر.

(٣) - يذكر أنه توفي سنة ١٢٥ هـ في أرض الشراه في أرض الشام وهو ابن ست وستين سنة، ويذكر أنه توفي سنة ١٢٢ هـ.

ثم توجهوا إلى مكة ومعهم أبو سلمة، فاجتمعوا مع إبراهيم الإمام، ودفعوا له مالا، ثم توجهوا معاً إلى منزل إبراهيم بالسراة. ثم مضى بكير فلقي أصحاب الدعوة وحدثهم عن فضل إبراهيم الإمام.

وكان إبراهيم قد أوصى بكير انه إذا دخلت السنه المئة والثلاثون للهجرة فمعنى ذلك ظهور الدعوة، وأن السواد هو لبس رجال الدولة وشعارهم.

توجه بكير ومعه أبو سلمى إلى الكوفة، فلما قدمها تعلق به دائنون له وحبسوه في دين كان لهم عليه، فبعث أبا سلمى إلى خراسان ودفع له ثلاث رايات سوداً وأمره أن يعطي واحدة إلى أصحابه بمرو، وواحدة إلى من بجرجان وأخرى إلى من وراء النهر.

توجه أبو سلمى إلى خراسان، فكان أول من قدمها بالرايات السود، ثم دفع الراية في جرجان إلى أبي عون، وبعث براية إلى سليمان بن كثير في مرو، وأرسل إلى ما وراء النهر بالراية الثالثة، وأقام هو بمرو.

تمكن أبو سلمى من نشر الدعوة وبث دعاته ورسله حتى قويت الدعوة هناك، ثم قدم إلى الكوفة فلقي بكير محبوساً[1]، فدفع المال إلى دائنيه وأخرجه من السجن حيث مرض ومات. ثم أوكل أمر الدعوة ودعاتها إلى أبي سلمى، وفي أيام سجن بكير كان أبو سلمى قد تعرف على أبي مسلم الخراساني، وعرفه بالدعوة واختلط أبو مسلم بأهل الدعوة وكان أبو مسلم قد ولد في منزل عيسى بن معقل العجلي في إمارة خالد بن عبد الله القسري حيث حبس خالد، عيسى بن معقل بالكوفة لأن بيته كان معقلا للصوص، وكان أبو مسلم معه آنذاك يخدمه[2].

كما كان خالد قد وضع في السجن بعض شيعة أهل العباس من الكوفة، وبعضهم الآخر من خراسان حيث بعث إليه بهم أسد بن عبد الله.

---

(١) - كان أبو سلمى زوج بنت بكير بن ماهان.

(٢) - كان أبو مسلم يسمع الشيعة وهم في السجن يتذاكرون بالدعوة، كما كان من في السجن يرسلونه في حوائجهم، ويبلغ أهل الكوفة رسائلهم فعظم قدرهم ثم وجهو إلى إبراهيم الإمام رسولا فلما قدم عليه أعجبه فسماه عبد الرحمن وكناه بأبي مسلم. وكان قبل ذلك قد سمي إبراهيم ويكنى أبو اسحق ثم كتب إبراهيم الإمام وأرسل معه إلى شيعته، أنه قد سماه وكناه وأمرهم أن يجعلوه رسولهم إليه وإلا يرسل غيره.

ويذكر أيضاً أن أبا سلمى اشترى أبا مسلم من إدريس بن معقل الأصبهاني بسبع مائة درهم.

قدم أبو سلمى على إبراهيم الإمام وبصحبته أبو مسلم حيث وصى إبراهيم بأبي مسلم خيراً، ثم توجه أبو سلمى إلى خراسان ومعه أبو مسلم، فنزل جرجان واجتمع بأصحابه فيها، وأمرهم أن يستعدوا وأن يظهروا دعوتهم سنة ١٣٠ هـ وأن يجعلوا ثيابهم وراياتهم سوداً.

ثم توجه إلى مرو ماراً بنساء، ومنها وفد إلى أبيورد، ثم إلى مرو حيث أمرهم بالإستعداد، وانصرف بعد أن وكل بهم سليمان بن كثير، وبعث أبا مسلم إلى بلخ، أما هو فتوجه إلى العراق.

فقدم الكوفة وغلب الضحاك الخارجي الذي كان والياً عليها، ثم توجه إلى الحميمة حيث يسكن إبراهيم الإمام، وطلب إبراهيم من أبي سلمى أن يترك له أبا مسلم فتركه عنده، ثم توجه أبو سلمى نحو العراق، ومنها تتابعت الكتب إلى سليمان بن كثير وأصحابه بخراسان بالإستعداد، أما إبراهيم الإمام فوجه أبا مسلم إلى خراسان بكتاب يأمر فيه أبا سلمى الإقامة بالكوفة، وجعل له ولاية ما دون عقبة همدان من أرض العراق فالجزيرة فالشام. وجعل ولاية أبي مسلم - إن ظهر - ولاية خراسان وسنجستان وكرمان وجرجان والري وأصبهان وهمدان، وأمره بمكاتبة أبي سلمى.

توجه أبو مسلم حتى دخل مرو سنة ١٢٩ هـ فاجتمع عليه النقباء ورجال الشيعة في منزل سليمان بن كثير، حيث وضع كتاب إبراهيم الإمام نصب أعينهم.

عند ذاك ضرب سليمان بن كثير أبا مسلم فجرح جبينه، وكان النقباء والدعاة وبقية أتباعهم ترغب أن تضع من مكانة سليمان بن كثير. فاجتمعوا هناك واتفقوا على أن يكون أبو مسلم قائدهم، وبذلك خذلوا سليمان بن كثير، ثم بايع أبا مسلم النقباء وأصحابهم وبايع سليمان مثل أصحابه(١).

ثم اجتمع أبو مسلم مع سليمان بن كثير وقرأ له ما كتب به إليه من قبل الإمام إبراهيم:

---

(١) - مؤلف مجهول في القرن الثالث الهجري - ص: ٢٧٢.

(إن قبل سليان بن كثير بأمر الدعوة، ونصب نفسه لذلك فسلم له، وأن كره قبول القيام فلاتعصي لسليان أمراً).

إظهار الدعوة وانتصارها:

ثم اتفق أبا مسلم مع سليان على إرسال الكتب إلى الدعاة ليتأهبوا ويستعدوا وذلك سنة ١٣٠ هـ ثم عقدا مجلساً قررا فيه المكان الذي يجب أن تبدأ به الدعوة وكان قرارهما أن تظهر بمرو.

ثم اجتمعت شيعة بني العباس، فكثر سوادهم عند أبي مسلم وهم في قرية يقال لها شنفير، وهي قرية سليان بن كثير.

بلغ نصر بن سيار اجتماعهم وهو يحارب علي بن الكرماني، فحاول نصر وقف الحرب بينهما بالوسائل السياسية أكثر من مرة، إلا أنه فشل في جميع محاولاته لأن أبا مسلم كان قد استمال علي بن الكرماني وأتباعه.

ثم جرت مراسلات بين نصر بن سيار وبين أبي مسلم انتهت جميعها إلى الفشل علماً أن نصر كان يحاول الإساءة للدعوة(١).

واجتمعت شيعة بني العباس من كل مكان حول أبي مسلم، عند ذاك كتب نصر إلى مروان بن محمد يخبره بذلك. ثم وقعت الحرب بين أبي مسلم وبين نصر، حيث لم تجد أية وساطة سياسية.

وكانت كتب أبي مسلم إلى نصر، فيها تكريم في البداية، إلا أنه عندما رأى منه شدة ونكراناً تغيرت لهجته، ثم كتب نصر بن سيار إلى مروان بن محمد يقول:

أرى خلل الرماد وميض نار ... ويوشك أن يكون لها ضرام
فإن النار بالعودين تذكى ... وان الحرب يبدؤها الكلام
فقلت من التعجب ليت شعري ... أأيقاظ أمية أم نيام

ووصف نصر إلى مروان أمر أبي مسلم، وكثرة من معه، وجعل اليانية وربيعة أمرهم إليه،

---

(١) - كقوله وأتباعه وخصوم الدعوة العباسية: (أن أصحاب الدعوة لا يصلون وأنهم يعبدون السنانير وغيرها من دعاوى باطلة).

فكتب مروان إلى نصر يقول له: إني قد وجهت عامر بن ضباره ونباته بن حنظلة للحاق بك، وأكد له توقع القوة والإمداد.

أما أبو مسلم فقدمت عليه وجوه اليمن وربيعة ومضر ممن في عسكر نصر، ثم اجتمع أبو مسلم مع علي بن الكرماني تأكيداً على اتفاقهما معاضد بني مروان أينما كانوا. فازداد أبو مسلم قوة ونشاطاً، وارتفعت الروح المعنوية لديه بينما ازداد نصر وهناً وضعفا، وقلت الروح المعنوية لدى مقاتليه، ثم أمر أبو مسلم على مرو شبل بن طهمان.

وأمر دعاته أن ينتشروا في البلاد، ويدعوا الناس إلى الدعوة، وعلم نصر بن سيار باستفحال أمرهم، فكتب إلى مروان بن محمد يظهر له حاله وضعفه وكيف أصبح لا مال ولا رجال ولا مكيدة. فجمع نصر وجوه أصحابه لمجلس حرب إلا أن مجلسه انفض دون قرار، ثم كتب نصر إلى مروان يقول:

أبلغ ربيعة في مرو وأخوتهم	ليغضبوا قبل ألا ينفع الغضب
مابالكم تنصبون الحرب بينكم	كأن أهل الحجى عن رأيكم غيب
وتتركون عدواً قد أطاف بكم	فأين غاب الحجى والرأي والأدب
ذروا التفرق والأحقاد واجتمعوا	ليوصل الحبل والأصهار والنسب

وكانت مرو أثناء ذلك قد انقسمت قسمين، أحدهما مع أبي مسلم والآخر مع نصر بن سيار.

بعد ذلك ملك أبو مسلم دار الإمارة ومعه علي بن الكرماني، وبايعه الناس فبلغ نصر ذلك، فقال لأصحابه من وجوه وأشراف مضر: هذا اليوم نعيت إليكم فيه أنفسكم، كونوا مع الناس. ثم هرب.

أما أبو مسلم فركب في طلبه، عندما علم بهروبه، إلا أنه لم يستطع اللحاق به وكتب أبو مسلم إلى أبي سلمى باستيلائه على مرو، كما كتب بذلك إلى إبراهيم الإمام.

أما نصر فقدم نيسابور، حيث انضم إليه من هرب من أبي مسلم ولم يبايعه، وكتب إلى ابن هبيرة وهو على العراق، وكان يختلف معه، وكان ابن هبيرة يكره تأمير نصر بن سيار، كتب نصر إلى هذا يعلمه بوضعه ويطلب منه الإمداد والعون.

علم أبو مسلم بوضع نصر بن سيار، فوضع له عيوناً وجواسيس، يلاحقون أخباره،

وأخبار جماعته، أثناء ذلك وصلت رسالة من إبراهيم الإمام إلى أبي مسلم يأمره فيها بتولية قحطبة بن شبيب الطائي[1]، والمسير بالجنود إلى العراق.

خرج قحطبة فأقام في منطقة الواتحان من أبيورد، فخندق على من معه حتى انتهى فصل الشتاء، وأصبحت الطرق سالكة، ثم بعث إليه أبو مسلم الجنود والسلاح والمؤن، وأمره أن يرسل بسام بن إبراهيم، ومعه حازم بن خزيمة فيمن معهم إلى سرخس كمقدمة له.

وتمكن قحطبة من سرخس، بعد أن وقعت معركة بينه وبين شبيب بن سلمه الحروري، ومعه ما يقارب الثلاثة آلاف، حيث قتل وهزم أصحابه. ثم أرسل قحطبة بكتاب إلى أبي مسلم يعلمه بفتح سرخس، فكتب له أبو مسلم أن يأتي طوس من أعلاها. كما كتب إلى القاسم بن مجاشع أن يأتيها من أسفلها. وكان في طوس النابي بن سويد العجلي الذي كتب إلى نصر بن سيار مستنجداً فوجه إليه إبنه تميماً، كما كتب إليه أنه شاخص إليه بنفسه ومن كان معه.

أما نباتة بن حنظلة فكان قد قدم الري، وعلم أن قحطبة موجود بطوس، وهناك جرت معركة بين تميم بن نضر، والنابي، وبين قحطبة على خصومه فهزمهم، وقتل تميم في المعركة، ثم كتب قحطبة إلى أبي مسلم يعلمه بذلك. وخلت نيسابور من جند بني أمية، فخرج نصر منها وتوجه إلى قرية يقال لها موروشك.

أثناء ذلك كتب نصر بن سيار إلى مروان بن محمد يطلب منه العون والمدد فكتب له مروان بأنه قد أرسل له جمعاً كثيراً من أهل الشام.

وجه قحطبة العكي إلى نيسابور، فقدمها، ثم كتب إلى أبي مسلم يذكر له دخوله نيسابور، أما نباتة بن حنظلة فتوجه إلى جرجان من الري. أثناء ذلك أمر أبو مسلم قحطبة أن يمضي إلى نصر، إلا أنه توجه نحو نباتة بن حنظلة لأن خطره كان أكبر.

وكتب بذلك إلى أبي مسلم، فتمكن منه ومن الإستيلاء على جرجان، ثم وجه قحطبة ابنه الحسن من جرجان على مقدمته نحو قومس، فنزل بسطام مدينة قومس، فتمكنوا منها

---

(١) كان قحطبة الذي أخذ كتاب أبي مسلم إلى إبراهيم الإمام يعلمه فيه بالإستيلاء على مرو، وانتصارها الدعوة العباسية وقوتها. وهو أحد النقباء أيضاً، وله مكانته بين قومه، التي ساعدته على نشر الدعوة وانتصاره ا.

أيضاً. وكان قحطبة كلما فتح بلداً استخلف عليه أسيد بن عبد الله الخزاعي، ثم يرسل أبو مسلم عاملا عليه، بدلا من أسيد الذي يلتحق بقحطبة فوراً.

وتوالت انتصارات العباسيين، فتم فتح طبرستان والري.

ثم مات نصر بن سيار، فاستخلف ابنه سيار بن نصر بعده.

أما قحطبة فتمكن من فتح أبهر وهمدان، ثم فتح قم واصبهان، حيث وقعت معركة جابلق، وكان فيها على ميمنة قحطبة، العكي، وعلى ميسرته أبو غانم عبد الحميد بن ربعي، كما جعل عامر بن إسماعيل على المؤخرة، مع شراحيل ليكون رداء له ووقف قحطبة مع أصحابه في القلب على هذه التعبئة.

أما ابن ضبارة، فقد صف أصحابه، وجعل على ميمنته محمد بن نباتة، وعلى ميسرته عطيف بن بشر، وكانت راياتهم صفراء.

كانت نتيجة المعركة انتصار قحطبة، وهزيمة ابن ضبارة، ثم تابعوا زحفهم فدخلوا نهاوند، ومنها إلى قرماسين ثم إلى شهرزور، وكانت خصومهم تخسر المعركة تلو الأخرى.

أمر أبو سلمة، قحطبة التوجه نحو الكوفة، وأخبره أن خالد بن أسيد القسرى خلع بني أمية، وخرج بالكوفة مع أبي سلمة.

ثم إن قحطبة التقى مع أهل الشام فانتصر عليهم، إلا أنه قتل، ويذكر بعضهم أنه غرق وتسلم ابنه الحسن قيادة الجند.

وبعد ذلك تم فتح الكوفة، حيث ظهر أبو سلمة بالكوفة، وألقى خطبة فيها ووزع عماله كما يلي:

أبو الجهم تسلم ديوان الجند، عبيد الله بن بسام ديوان الحرس، أبا غانم الشرطة، عمروية الزيات حجابته، المغيرة بن الريان: الخراج. ثم نقله إلى ديوان الرسائل. يوسف ابن ثابت ديوان الخراج، الصوافي والقطائع والخزائن عبد السلام بن عبد الرحمن الغامدي، ثم بعث أبا سلمى إلى بيت المال، فوزع ما فيه على العسكر، وأعطى الجند جميعاً على ما رسم لهم. وكان أول من أعطى فيضاً من ديوان بني العباس، وهو فرض فرضه للجند، حيث جعل رزق الرجل في الشهر ثمانين درهماً. وأجرى للخاصة كبراء القواد، وأهل الغناء من النقباء وغيرهم ما بين ألف إلى ألفين، وخص من دونهم ما بين مائة إلى ألف درهم.

وبعث أبو سلمة عمال الخراج إلى كل كورة، فجيء بالخراج. أثناء ذلك كان إبراهيم

الإمام قد قتل في سجن مروان، وكانت له وصية إلى أبي العباس السفاح، الذي توجه إلى الكوفة، وكان أول خلفائها وبداية للدولة العباسية.

أخيراً تكمن عوامل قوة الدعوة العباسية في ضعف بني أمية. فمنذ اغتيال الوليد استخلف يزيد فلم يلبث إلا طويلا فهلك، ووثب على أمرهم مروان بن محمد فأخذ السلطة غصباً.

أما العوامل الأخرى فتكمن في انتفاضة البلاد على بني أمية، وتفتت أمرهم ووثوب بعضهم على بعض، ثم خلاف اليمانية وغيرهم من القبائل على نصر بن سيار بخراسان، والحروب بين نصر والخوارج، وحروب مروان بن محمد لأهل حمص وأهل فلسطين، والخوارج، ثم ظهور الدعوة العباسية، وميل الناس إليها، وازدياد قوتها، بالإضافة لمخالفة سليمان حبيب بن المهلب بالأهواز، وغلبة عبد الله بن معاوية على فارس وأصبهان والري، وغلبة منصور بن جمهور الكلابي على الجبل، وأخيراً ظهور أبي مسلم الخراساني وانتصار الثورة العباسية.

الفصل الرابع

الخوارج

الفصل الرابع

الخوارج

ظهور الخوارج في عهد علي:

إن الخوارج حزب ثوري[1]، لم ينشأ عن عصبية العروبة، بل عن عصبية الإسلام. هذا من الناحية الشكلية، أما من الناحية الموضوعية فالخوارج كانوا يجاهدون في سبيل الله وحده على طريقتهم الخاصة.

والخوارج من القراء في الإسلام، كما أنهم مؤمنون بالتقوى، والتقوى في الإسلام – كما نعلم – ذات اتجاه سياسي عام، وكذلك هي لدى الخوارج. أي أن عليهم الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وتغيير المنكر واجب على كل فرد منهم بلسانه أو بيده. وهذا مبدأ إسلامي عام، إلا أن تحقيقه بمناسبة وغير مناسبة كان علامة دالة على الخوارج.

كما أن مذهب الخوارج مذهب سياسي، هدفه تقرير الأمور العامة لأوامر الله ونواهيه، لكن سياستهم ليست موجهة نحو أهداف يمكن تحقيقها؛ وهي معارضة للمدنية.

إلا أن جهادهم وسياستهم كانت قائمة على إبتغاء الفوز بالجنة، معارضين النظام السائد للجماعة، خصوماً لجمهور الأمة، انفصاليين.

وقد اختلف كثيراً في كيفية خروج الخوارج، فبعضهم يقول إنهم الذين خرجوا على علي بن أبي طالب. فإذا كان هذا الرأي صحيحاً، فذلك يعود للمرحلة التي تلت وفاة

(١) – يوليوس فلهاوزن – الخوارج والشيعة – ص: ٢٩.

الرسول ﷺ مباشرة. حيث كان وجود الخوارج في بدايته، لأن العصبية القبلية كانت أقوى عندهم من العقيدة الجديدة التي قدم بها النبي ﷺ لحداثة عهدهم بها.

ولا يمكن اعتبار المرتدين خوارج، لأنهم ارتدوا في عصر الرسول ﷺ ثم أسلموا، وحسن إسلام بعضهم كما نعلم.

أما الخوارج فلم يرجعوا عن معتقداتهم التي أحدثوها كما سنرى، وقد استمروا في قتالهم وجهادهم حسب عقيدتهم ضد السلطة الأموية والعباسية، وما زال لهم بقية باقية إلى أيامنا هذه.

إذن فالخوارج هم كل من خرج على الإمام الحقيقي الذي اتفقت عليه الجماعة سواء أكان الخروج على الخلفاء الراشدين، أم كان بعدهم.

وأول من خرج على علي أمير المؤمنين، وكان أشدهم خروجاً هو الأشعث بن قيس ومسعود بن فدكي التميمي، وزيد بن حصين الطائي.

وقد قالت الخوارج قبل التحكيم: يدعوننا إلى كتاب الله، وأنتم تدعوننا إلى السيف فقال لهم علي: أنا أعلم بما في كتاب الله وأمرهم أن ينصرفوا لقتال عدوهم معاوية. فقالت الخوارج لعلي: لترجعن الأشتر، وإلا لنعاملنك كعثمان بن عفان فرد علي الأشتر، بعد أن تمكن من هزيمة معاوية ومن معه، إلا شرذمة قليلة[1]. وقد حمل الخوارج علياً على التحكيم، كما حملوه على إرسال أبي موسى الأشعري علماً أنه كان يريد أن يبعث عبد الله بن عباس، فرفضه الخوارج، بقولهم لعلي: هو منك.

وكان الاتفاق على أن يحكم الحكمان بكتاب الله، إلا أن الأمر جرى على خلاف ذلك. وبنتيجة التحكيم خرجت الخوارج بقولة (لا حكم إلا الله).

وأول من قال هذه الجملة منهم هو عروة بن أُدَيّة الحنظلي[2]، فأرسل لهم علي، ابن عباس علهم يرجعون عما هم فيه، فلم يرضوا، فتوجه إليهم وكلمهم بنفسه. واجتمعت الخوارج (بحروراء) من ناحية الكوفة، وكان عليهم آنذاك كل من عبد الله بن الكواء،

---

(١) - بوليوس فلهاوزن - الخوارج والشيعة - ص: ٤.

(٢) - أبي محمد علي بن أحمد بن حزم الظاهري - الفصل في الملك والأهواء والنحل - الهامش للشهرستاني - طبعة بيروت تصوير ١٩٧٥ ص: ١٥٦.

عتاب بن الأعور، عبد الله بن وهب الراسبيّ، عروة بن جرير، يزيد بن عاصم المحاربي، حرقوص بن سعيد المعروف بذي الثدية.

وكانوا آنذاك في اثني عشر ألفاً من الرجال، فقاتلهم علي بالنهروان، فما انفلت منهم إلا أقل من عشرة، وما قتل من أصحاب علي إلا أقل من عشرة.

وقد فر اثنان من الذين نجوا إلى عمان، واثنان الى كرمان، واثنان إلى سجستان واثنان إلى الجزيرة، وواحد إلى تل موررون باليمن.

والخوارج أشد الناس بالقياس، ومن آرائهم أن لا يكون في العالم إمام، ومن بدعهم قولهم: أخطأ علي في التحكيم إذ حكم الرجال، ولا حكم إلا الله.

وقد كذبوا على علي مرتين:

الأولى قولهم إنه حكم الرجال وهم كاذبون، لأنهم هم الذين حملوه على ذلك.

والثانية قولهم بحكم الرجال وهو جائز. والقوم هم الرجال الحاكمون في هذه المسألة وهم رجال. لذلك قال علي (كلمة حق أريد بها باطل) ثم كفروا علياً وسبوه وطعنوا في أصحاب الجمل وصفين.

وقبل مقتل علي بن أبي طالب كرم الله وجهه كانت الدولة العربية الإسلامية تنازعها ثلاثة أحزاب: حزب يتزعمه علي بنفسه، وحزب انشق عنه بعد التحكيم وسموا بالخوارج وحزب معاوية بن أبي سفيان، وقد خرج أيضاً ورفض الانضواء تحت زعامته وهو الخليفة الشرعي للدولة.

وكان علي قد بعث إلى الخوارج عبد الله بن عباس في مهمة سياسية علهم يرجعون عن غيهم وظلمهم الآخرين فرفضوا، فتوجه إليهم علي بنفسه وقال لهم:

(أنشدكم الله، ألست قد نبهتكم عن قبول التحكيم فرددتم عليّ رأيي، ولما أبيتم إلا ذلك اشترطنا على الحكمين أن يحكما بما في القرآن[1]) وأردف قائلاً لهم: (إنا لم نحكم الرجال، وإنما حكمنا القرآن، وهذا القرآن هو خط مسطور بين دفتين، لا ينطق وإنما يتكلم به

---

(١) - حسن إبراهيم حسن - تاريخ الإسلام السياسي - والديني والثقافي والإجتماعي طبعة مصر ١٩٦٤ ج ١ ص: ٣٧٧.

الرجال) فلما لم يقتنعوا، اجتمعوا وهم من أهل البصرة والكوفة، وقصدوا النهروان، بعد أن قدموا عليهم عبد الله بن وهب الراسبيّ، فالتقى بهم علي، فقال لأصحابه: والله لا يقتل منكم عشرة، ولا يبقى منهم عشرة.

الخوارج في عهد معاوية:

لكن بعد مقتل علي، وتخلي أتباعه عن ابنه الحسن، خفت المعارضة في عهد معاوية من جانب أبناء الإمام علي، ولم يكن أمام معاوية سوى حزب الخوارج، الذين كانوا يكرهون معاوية، لما يعتقدون فيه من عبثه بأموال المسلمين، واتخاذه القصور والحرس، وما شابه ذلك من مظاهر الملك والبذخ. كما أنه لم ينل الخلافة بإجماع المسلمين ورضاهم، بالإضافة لكونه من طلقاء مكة.

إذن كانت الخوارج خطراً شديداً على معاوية، ومن جاء بعده، وكان من الصعب ردهم إلى صفوفه، وخاصة أنهم كانوا يعتبرون أن غيرهم من المسلمين كفاراً، لذلك لجأ الأمويون إلى الشدة والعنف ضدهم.

وبعد تنازل الحسين لمعاوية عن الخلافة، لصلاح أمر الأمة، وحقن دمائها[1]، لم تهدأ الخوارج وإنما ثارت ضد معاوية، وذلك في ربيع الأول من عام ٤١ هـ حيث كانت الخوارج الحرورية[2] وهم خمسمائة[3] بقيادة عَروة بن نوفل الأشجعي فدخلوا الكوفة، ثم تسلم قيادتهم عبد الله بن أبي الحوساء الطائي، بعد أن اعتزل مَروة ودخل الكوفة. فوجه لهم معاوية قوة من أهل الشام لحربهم، إلا أن الحرورية استطاعوا دحرهم. فقال معاوية لسادة الكوفة وأمرائها: لا إمارة لكم عندي حتى تكفوني هؤلاء.

واستجاب أهل الكوفة لمعاوية، فخرجوا إلى الخوارج، وهم أكثر عدداً وعدة بقيادة خالد بن عرفطة العذرى فتمكنوا منهم، وقتلوا قائدهم ابن أبي الحوساء.[4]

---

(١) - البلاذري - أنساب الاشراف - ج ١ - قسم رابع - ص: ١٦٣.

(٢) - الحرورية: نسبة لقرية يقال لها حروراء، أما الخوارج فمعناها: خرج للقتال غضب وثار، ومعناها هنا الخروج عن الجماعة.

(٣) - كانوا ممن اعتزل الحرب ضد علي - (الطبري - ج٥ - ص: ١٦٦).

(٤) - كانت قد جرت اتصالات بين الكوفيين والخوارج للتعاضد والتعاون معاً على حرب معاوية الطبري - ج ٥ - ص: ١٦٦.

وبعد مقتل ابن أبي الحوساء اجتمعت الخوارج، وولوا أمرهم جويرة بن وداع بن مسعود الأسدي، فاجتمع معه مائة وخمسون[1]، وتوجه بهم إلى النخلية وعلم به معاوية فوجه إليه عبد الله بن عوف بن أحمد في ألفين من الرجال في جمادي الآخرة من عام ٤١ هـ، حيث جرت مبارزة بين عبد الله بن عوف وبين جويرة، فقتل الأخير، وقتل أكثر أصحابه، وفر ما تبقى منهم، ودخلوا الكوفة.

ثم إن معاوية توجه إلى الشام، بعد أن استعمل على الكوفة المغيرة بن شعبة الذي كان يحب العافية ويحسن السيرة، حتى أمنه الناس.

وتفرق الخوارج بين ثلاثة قادة هم: المستورد بن علقمة التميمي، وحيان بن ظبيان السلمي، ومعاذ بن جوين بن جصين الطائي.

وعندما بلغ حيان مقتل علي، دعا أصحابه إلى الرجوع للكوفة، وكان في الري، فلما تولى المغيرة الكوفة، اجتمع قادة[2] الخوارج وهم: سالم بن ربيعة المستورد بن عُلَّقمة التميمي، عتريس بن عرقوب، ومعهم حيان بن ظبيان وكان مقر اجتماعهم في بيت الأخير للتشاور، واتخاذ القرار حول من يتولى أمرهم، فبايعوا المستورد بن علقمة، بعد أن رفض كل من حيان بن ظبيان، ومعاذ بن جوين وذلك في جمادي الأولى من عام ٤٣ هـ وقررا الخروج ضد معاوية، وواليه المغيرة بن شعبة من نفس العام.

وعندما بلغ المغيرة خبرهم، وجه إليهم قوة، وكانوا قد علموا بها، فتفرقوا وأخفوا عدتهم، وآلة حربهم، فهاجمتهم شرطة المغيرة في بيت حيان، فلم يجدوا إلا سالم بن ربيعة، وحيان، ومعاذ، فأخذتهم الشرطة، ووضعهم المغيرة في السجن لمدة سنة[3].

أما المستورد فنزل في بني عبد القيس[4]، وعلم المغيرة به، وعلم الخوارج كذلك فقرروا التوجه إلى المدائن، وعددهم ثلاثمائة، فوجه إليهم المغيرة، معقل ابن قيس الرياحي في ثلاثة آلاف رجل.

---

(١) - الطبري - ج ٥ - ص: ١٧٤.

(٢) - البلاذري - أنساب الاشراف - ج ١ - قسم أربع - ص: ١٦٩.

(٣) - المرجع نفسه - ج ١ - قسم رابع - ص: ١٦٩.

(٤) - يذكر أنه نزل على سليم بن مجدوع، ويذكر غير ذلك، أي أنه نزل في قصر العدسيين بالحيرة مستتراً - ياقوت الحموي - ج ٤ - ص: ١١٦.

وتوجه المستورد إلى جرجرايا، ومنها إلى المذار بعد أن رفض عبيد بن سماك أن يدخله مدينة (بَهْرَسِير) وقطع عليه الجسر.

وقدم معقل وعلى مقدمته أبو الرُّوَاعِ الشاكري في ثلاثمائة، فالتقى بالخوارج وعلى رأسهم المستورد، فهزم، ولحق بمعقل الذي لحق المستورد إلى المذار.

أثناء ذلك وجه عبد الله بن عامر - وكان على البصرة - ثلاثة آلاف بقيادة شريك بن الأعور، فنزل بالقرب من المستورد الذي أصبح، بين عسكري الكوفة والبصرة، لذلك قرر الارتحال نحو المدائن.

عند ذلك، عاد عسكر البصرة. أما معقل فتبعهم وواقعهم في جرجرايا، وقاتلهم أشد قتال، ثم إن الخوارج ناوروا في المكان إلى أن وصلوا إلى ساباط - بينما انتقل معقل مناوراً إلى ديلمايا(١)، فأقام بها يومين، ثم جرت مبارزة، بين معقل والمستورد قتل فيها الإثنان. فتسلم راية معقل عمرو بن محرز بن شهاب المنقري، الذي أخذ يقتل الخوارج ويفتك بهم، حيث يروي البلاذري أنه لم يبق منهم إلا خمسة، وتم ذلك في شعبان من سنة ٤٣ هـ.

ذكرنا سابقاً أن المغيرة كان قد وضع معاذ بن جوين، وحيان بن ظبيان، في السجن لمدة سنة، وعندما خرج الإثنان، أشار حيان على معاذ الخروج للقتال فخرجا في ثلاثمائة إلى مكان يقال له (بانقيا) في حدود الكوفة، فوجه إليهم المغيرة أبا الرّواع الهمداني، ومعه الشاكري، وعمرو بن محرز بن شهاب المنقري ومعهم ألف وثلاثمائة رجل، ونتيجة ذلك قتل معاذ وأصحابه.

وعندما اغتال ابن ملجم علي بن طالب كرم الله وجهه، كان معه شبيب ابن ابجر الأشجعي(٢) حيث هرب هذا الأخير إلى معاوية، وبقي في الكوفة متقرباً منه، إلا أن معاوية أبعده، فأخذ شبيب يقتل من يصادفه. واستفحل أمره، وخرج على المغيرة. وكان في مكان يقال له (القف)(٣) فوجه إليه المغيرة بعض جنده عليهم خالد بن عرفطة(٤) فقتله وأصحابه.

---

(١) - الطبري - ج٥ - ص: ٢٠٤

(٢) - ابن ألاثير - ج ٣ - ص: ٣٤٦، وابن تغرى - بردى - ج ١ - ص: ١٣٨ - ١٥٤.

(٣) - القف: مكان بالقرب من الكوفة.

(٤) - يقال أن المغيرة وجه له معقل بن قيس.

وكان المغيرة قد علم أن أحد الخوارج واسمه معين بن عبد المحاربي[1] يريد الخروج عليه، فوجه إليه بعض شرطته، في الوقت الذي كان فيه معين مجتمعاً مع بعض أصحابه. فتفرقوا جميعهم إلا هو، فاقتيد إلى المغيرة ومعه رجل من بني سليم، حيث وضعهم المغيرة في السجن.

وأرسل المغيرة الى معاوية يستشيره فيهما، فأخبره معاوية: (إن شهد هذا الخارجي أن معاوية خليفة، فخل سبيله، وخذ منه العهد على أن لا يظلم أحداً) إلا أن معين رفض طلب معاوية، فقتل. بينما أخرج الآخر بعد أن شهدت بنو تميم أنه مجنون، لأن المجنون لا يجوز عليه الحق في العقيدة الإسلامية.

وخرج على الأمويين في ولاية المغيرة أيضاً مولى بني الحارث بن كعب، رجلاً يقال له أبو مريم[2] ومعه امرأتان، قطام وكحيلة[3]، فعاب عليه أصحابه ذلك وكان أول من أخرج معه النساء، فردهم، ووجه إليه المغيرة، جابر البجيلي الجعفي، فاصطدم معهم في بَادورَيا، فقتلهم. كما خرج موسى بن الحارث ويكنى أبا ليلى[4]، فوجه المغيرة إليه معقل بن قيس الرياحي ومعه بعض شرطته سنة ٤٢ هـ، فتمكن منه وقتله.

زياد بن أبيه والخوارج:

تعددت الروايات حول نسبة زياد بن أبيه، فهو يكنى أبا المغيرة، واسم أمه سمية.

كانت سمية قد ذهبت إلى الحارث بن كلدة بن عمرو بن علاج، من بني ثقيف بالطائف، وكانت لرجل من بني يشكر، حيث مرض هذا الرجل فعالجه الحارث فوهبت له سمية.

ثم إن الحارث وقع عليها فولدت له نافع بن الحارث، ثم ولدت له نَفيعاً (أبو بكرة) لكن الحارث أنكر الأخير ونسبه إلى غلام يقال له مسروح، ثم زوج الحارث سمية عبداً لزوجته يقال له عبيد، فولدت له زياداً.

---

(١) - يذكر ابن الأثير: معين بن عبد الله المحاربي - ابن الأثير - ج ٣ - ص: ٣٤٦.

(٢) - اليعقوبي - ج ٢ - ص: ٢٦٢ - ابن الأثير - ج ٣ - ص: ٣٤٧.

(٣) - البيان والتبيين - ج ١ - ص: ٢٨٣.

(٤) - ابن الأثير - ج ٣ - ص: ٣٤٧.

وكان زياد ذا فهم وفطنة وذكاء، كان خطيباً بارعاً، حيث كان كاتباً لعتبة بن غزوان ثم للمغيرة بن شعبة عندما كان والياً على البصرة، من قبل الخليفة الراشدي الثاني. واستكتبه أيضاً أبو موسى الأشعري، عندما كان والياً على البصرة ثم إن أبا موسى ولاه البصرة عندما خرج للغزو. وعلم الخليفة عمر بن الخطاب بفطنته فاستدعاه وأعطاه وأجزل في عطائه.

واستكتب عبد الله بن عباس زياداً عندما كان على البصرة، واستخلفه عليها عندما توجه إلى مكة، حيث كتب له معاوية يتوعده ويتهدده، فخطب زياد في الناس رداً على معاوية، وقال:

أيها الناس، كتب إلي ابن آكلة الأكباد، وكهف النفاق، وبقية الأحزاب يتوعدني... أما والله لئن وصل هذا الأمر إليه ليجدني ضرابا بالسيف[1].

ثم إن معاوية أمر بشر بن أبي أرطأة، عندما وجهه إلى البصرة، أن يقتل كل من يخالفه، ابتداء بأبناء زياد. إلا أن بشراً هذا تخلى عنهم بأمر من معاوية بعد أن كلمه أبو بكرة، وهو أخو زياد من أمه كما ذكرنا. وبعد فترة قال المغيرة لمعاوية: أتأذن لي في استقدامه أي استقدام زياد فوافقه معاوية، حيث توجه المغيرة إلى زياد، وقال له: أرى أن تصل حبلك بحبل معاوية، وتشخص إليه.

ثم إن معاوية نسب زياداً بن سمية إلى أبي سفيان[2]، بعد أن شهد على ذلك كثير من الناس، بأن زياداً هو ابن أبي سميان.

ثم تولى زياد البصرة وتولى العراق بعد موت المغيرة، وهو أول من جمعت له أهم أعماله إحداث ديوان خاتم، وهو أول من عرف العُرفاء ونكب المناكب، وحبس بالظنة، وأخذ الجار بالجار[3].

وبعد أن تولى عبد الله بن عامر البصرة خرج عليه سهم بن غالب وهو خارجي في سبعين خارجياً، منهم الخطيم الباهلي، فنزلوا بين الجسرين في البصرة فأفسدوا وقتلوا بعض

---

(١) - البلاذري - أنساب الأشراف - ج ١ - قسم رابع - ص: ١٨٩.

(٢) - البلاذري - أنساب الأشراف - ج ١ - قسم ٤ -.ص: ١٩٢.

(٣) - البلاذري - فتوح البلدان - ص: ٤٦٤ - ابن عبد ربه - ج ٥ ص: ٨ البلاذري أنساب الأشراف - ج ١ - قسم ٤ ص: ٢٠٢.

المسلمين(١)، فلما علم بهم ابن عامر تبعهم بنفسه وقتل بعضهم، بينما لجأ بعضهم الآخر إلى أجمة، وفيهم سهم والخطيم، فطلب منهم ابن عامر أن يتركوا ما هم عليه، فقبلوا ورجعوا، وأمنهم ووصلت أخبارهم إلى معاوية الذي كتب إلى ابن عامر يأمره بقتلهم، فأخبره أنه امنهم.

ولما كانت سنة ٤٥ هـ، وبعد أن تولى زياد البصرة، خاف سهم بن غالب والخطيم الباهلي أن لا يقبل زياد أمان سلفه ابن عامر، فهربا إلى الأهواز فتبعهم بعض أهاليها. ثم قدم سهم البصرة، وهناك تخلى عنه بعض أصحابه فاختفى في البصرة، وبعث إلى زياد بأمان ابن عامر، فرفضه زياد، وطلبه فقتله وصلبه في داره، ثم قتل زياد الخطيم بعد أن عاد إلى البصرة من البحرين، وخالف أوامر زياد(٢).

ثم خرج في العراق حارثه بن صخر القيني، بعد أن سيره معاوية إلى مصر، علم زياد بأمره، هرب حارثه، فبعث زياد في طلبه شعيب بن زيد بن السائب فدخل حارثه بن حجر بلاد قضاعة، فمنعوه، ثم كلم معاوية فيه، وكتب إلى زياد، والذي كف عنه، فتوجه حارثه إلى المدينة، حيث قتل يوم الحرة.

كما خرج على زياد في العراق، قريب بن مرة الأزدي، وزحاف بن زهير الطائي(٣) وكانا في سبعين رجلا(٤)، فاختلفوا فيمن يولوه أمرهم، فلما وصل خبرهم إلى زياد وجه إليهم شرطته، فاتفق رأيهم على أن يكون زحاف قائدهم ثم أخذوا يسيئون سيرتهم بين الناس بالقتل والنهب وغير ذلك(٥).

وفي مكان خروجهم ناحية جبانة بني يشكر، عندما قدمتهم الشرطة، وعددهم خمسمائة قاتلوهم حتى حاصروهم في دار، فقتلوهم. وصلب قريب وزحاف، كما صلبت بعض

---

(١) - قوم دون الفرقاء - النهاية - ج ٤ - ص: ١٧٤ - والبلاذري أنساب الأشراف - ج ١ - قسم رابع - ٢٠٢.

(٢) الطبري - ج ٤ - ص: ٨٣

(٣) - ابن الأثير - ج ٣ - ص: ٣٨٥ - واليعقوبي - ج ٢ - ص: ٢٧٥.

(٤) - يذكر أنهم كانوا في ثمانين رجلا، ويذكر أنهم كانوا في ستين.

(٥) - قتلوا رجلا من بني صبيعة يقال له مكاك، وضربوا رجلا من بني قطيعة، وأتوا مسجدهم فأخذوا بأبوابه، حتى هرب الناس، فصرعوا حجار ابن أبجر وغيرهم.

النساء عاريات[1] إرهاباً وتخويفاً، لذلك خافت النساء من الخروج مع الخوارج، خيفة أن يتعرين ويصلبن.

وخرج على زياد في الكوفة أيضاً زياد بن خراش العجلي سنة ٥٢ هـ، فوجه زياد شرطته إليهم لإبادتهم[2].

وخرج أيضاً معاذ الطائي الثاني في ثلاثين رجلا سنة ٥٢ هـ، فقصدهم زياد وحبسهم وأمر بعضهم أن يقتل بعضهم الآخر، فقتل منهم اثنا عشر رجلا وكان ممن اشترك في القتل طواف بن علاق[3]، وأوس بن كعب.

وعندما علم عقبة بن الورد الباهلي - وكان ممن يرى رأي الخوارج - أخذ سيفه وقتل حجير الباهلي، ثم إن طوافاً ندم على عمله، ودعا أصحابه للخروج والفتك بابن زياد، فبايعه الخوارج سنة ٥٨ هـ، وخرجوا إلى الجلحاء، وعندما علم بهم زياد بعث إليهم الشرطة، حيث أتتهم في موقعهم، إلا أن الشرطة هربت منهم، واجتمعت مرة ثانية، وعاودوا قتالهم، فانتصروا على الخوارج، وقتل طواف عندما حاول الهرب ثم صلب.

وعندما ألح زياد في طلب الخوارج، وزج بهم في السجن، وبينهم أبو بلال[4] بن مرداس، فقتل زياد بعضهم وكلّم في بعض الآخر، ونتيجة هجومه عليهم، قرر أبو بلال الخروج، فدعا قومه لذلك فأجابوه من البصرة في ثلاثين رجلا، وأتوا الأهواز، فانضم إليهم عشرة، فأصبحوا أربعين.

---

(١) - البلاذري - أنساب الأشراف - ج ١ - قسم رابع - ص: ١٧٧.

(٢) - يذكر أنه استأمن فحل لواءه، فأمنه زياد.

(٣) - ابن الأثير - ج ٣ - ص: ٤٢٧.

(٤) - كان عابداً مجتهداً، جليل القدر عند الخوارج، شهد مع علي صفين وأنكر التحكيم وشهد النهروان مع الخوارج كما كانت الخوارج تتولاه كلها وهو الذي رد على زياد عندما قال أنه سيأخذ البريء بالسقيم والجار بالجار، فرد عليه أبو بلال (يازياد، إن الله يقول ﴿ولا تزرو وازرة وزر أخرى﴾ - الأنعام ٦ فحكم الله خيراً في حكمك.

البلاذري - أنساب الأشراف - ج ١ - قسم ٤ - ص: ١٨٠.

وكان أبو بلال لايدين بالاستعراض، ويحرم خروج النساء للقتال. وكان لا يقاتل إلا من يقاتله ويقول: لانجبي إلا ما حمينا.

وعندما علم زياد بخبرهم وجه إليهم أسلم بن زرعة الكلابي، فالتقوا مع الخوارج، فهزمهم الخوارج، وغضب زياد لذلك، ووجه إليهم عباد بن أخضر المازني في أربعة آلاف. فلقيهم في ناحيـة دَرابَجِرْدَ في فارس، فقاتلهم حتى وقت العصر، فطلب الخوارج الموادعة، حتى انتهاء وقت الصلاة فأجابهم عباد لذلك، وعجل في الصلاة ثم هاجمهم مع أصحابه وهم في صلاتهم، فقتلوا جميعاً، وبذلك يكون قد قضى على آخر الخوارج في عهد معاوية وأمرائه على العراق.

عبد الله بن الزبير والخوارج:

بعد مقتل أبي بلال أخذ زياد لا يكف عن الخوارج، لذلك اجتمعت الخوارج حين ثار ابن الزبير بمكة وتوجه إليه أهل الشام، فقدم الخوراج على ابن الزبير، فأخبرهم أنه على رأيهم(١). وكان الخوارج معه حتى مات يزيد بن معاوية، وانصراف أهل الشام.

وطلب الخوارج من ابن الزبير مرة أخرى، رأيه في الخليفة عثمان بن عفان فقال ابن الزبير:

إني ولي لابن عفان في الدنيا والآخرة، وولي أوليائه، وعدو أعدائه فقالوا له: برىء الله منك يا عدو الله فرد عليهم: برىء الله منكم يا أعداء الله. ثم إن الخوارج تفرقوا، فأقبل نافع بن الأزرق الحنظلي، وعبد الله بن صفار السعدي، وعبد الله بن أباض، وحنظلة بن بيهس، وبنو الماحوز: (عبد الله - عبيد الله الزبير) فأتوا البصرة، وهم مجمعون على رأي أبي بلال. كما قدم إلى اليمامة كل من: عبد الله بن ثور، أبو فديك، وعطية بن الأسود اليشكري. أثناء ذلك كان يدور صراع في البصرة ما بين الأزد وربيعة مع بني تميم وقيس، وكان ذلك الصراع عاملا مساعداً للخوارج، حيث اجتمعوا وتبعوا ابن الأزرق، ما عدا عبد الله بن صفار، وعبد الله بن أباض، ورجال معهم كانوا على رأيهم، وبذلك حدثت فرقة بين الأزارقة.

ثم إن الأزارقة كثر عددهم، فأقبلوا نحو البصرة، فوجه لهم واليها من قبل ابن الزبير، عبد الله بن الحارث، فهزمهم ابن الأزرق، ثم أقبل نحو الأهواز إلى منطقة يقال لها دولاب، وهناك عبأ كل طرف قواته ورتبها، فجعل نافع على ميمنته عبيدة بن هلال اليشكري،

---

(١) - الطبري - ج ٥ - ص: ٥٦٤.

وعلى ميسرته الزبير بن الماحوز: أما أهل البصرة، فكان عليهم مسلم بن عيسى، الذي جعل على ميمنته الحجاج بن باب الحميري وعلى ميسرته حارثة بن بدر التميمي، واقتتل الطرفان فقتل مسلم صاحب أهل البصرة، كما قتل نافع بن الأزرق.

فأمرت الخوارج عليهم عبد الله بن الماحوز، وأمر أهل البصرة الحجاج بن باب الحميري، فقتل الإثنان:

فأمرت الأزارقة عليهم عبيد الله بن الماحوز، وأمر أهل البصرة عليهم ربيعة الأجزم التميمي فقتل ربيعة، فأمر أهل البصرة حارثة بن بدر، ثم أقبلت الخوارج نحو البصرة:

المهلب والخوارج:

وتولى المهلب قتال الخوارج، وكان ابن الزبير قد ولاه خراسان، فالتقى مع الخوارج في أرض يقال لها سلي وسلبري من منطقة الأهواز، حينذاك قتل عبيد الله بن الماحوز، وقتل أكثرهم، فهربوا إلى كرمان جانب أصفهان بينما بقي المهلب في الأهواز، بعد أن أوقع بالأزارقة، واتجه الخوارج نحو بلاد فارس وكرمان ونواحي أصفهان.

وكان مصعب بن الزبير قد جعل عمر بن عبيد الله بن معمر على فارس أميراً، بينما بعث إلى الموصل ونواحيها عاملاً عليها:

وتوجهت الأزارقة مع الزبير بن الماحوز، وكان قد ولي على أمرهم، إلى فارس فقاتلهم أميرها، ثم اجتازوا بلاد فارس إلى سابور، نحو البصرة: لذلك خشي عمر بن عبيد الله بن معمر، وهو على فارس، أن يعلم مصعب بن الزبير بذلك فتوجه بجندة نحوهم:

وعندما علم مصعب بن الزبير، بواسطة عيونه وجواسيسه، أن أمير فارس عمر بن عبيد هو في أثرهم، خرج من البصرة إليهم:

وأقبلت الخوارج وعليهم الزبير بن الماحوز، فنزلوا الأهواز، وعلموا أنهم أصبحوا بين نارين، لذلك قرر ابن الماحوز مواجهتهم من جهة واحدة:

وسار بجيشه ولزم شاطىء دجلة، حتى قدم المدائن، ثم توجه إلى ساباط: وأخذوا يقتلون النساء، وكانت منهن بنانة بنت أبي يزيد بن عاصم الأزدي، ثم أقبلوا على الكوفة:

بعد مقتل الزبير بن الماحوز انحازت الخوارج إلى قطري بن الفجاءة، وبايعوه فخرج بهم حتى أتوا ناحية كرمان: وهناك أقام قطري حتى قوي أمره ثم توجه إلى الأهواز، علماً أن عامل مصعب بن الزبير على البصرة الحارث بن ربيعة، بينما كان المهلب على الموصل،

فكتب الحارث إلى مصعب يخبره أن الخوارج قد تركت الأهواز، وأن المهلب هو الذي يكفيه أمرهم. ثم كتب مصعب إلى المهلب يأمره بقتال الخوارج، بينما وجه الى عمله إبراهيم ابن الأشتر، وقدم المهلب إلى البصرة ثم توجه بمن معه إلى الخوارج، فالتقوا بمنطقة يقال لها سولاف، فاقتتلوا لمدة ثمانية أشهر[1].

واستمر حال الخوارج حتى كانت سنة ٧٢هجرية حيث خرج أبو فديك الخارجي وغلب على البحرين، وقتل نجدة بن عامر الحنفي.

أما قطري فتملك الأهواز، حيث كان خالد بن عبد الله قد كتب إلى عبد الملك بن مروان يخبره خبر الأزارقة، فما كان من عبد الملك (٧٣)هـ إلا أن ولى المهلب حرب الأزارقة[2].

وقد كلف عبد الملك بن مروان المهلب بحربهم برسالة وجهها إلى بشر بن مروان حيث أمر عبد الملك بشر أن يوجه المهلب لحربهم بعد أن ينتخب من أهل البصرة، وجوههم وفرسانهم، وأولي الفضل منهم.

ثم إن بشراً دعى عبد الرحمن بن مخنف، وبعثه إلى أهل الكوفة[3] وأمره أن ينتخب فرسان الناس ووجوههم.

ثم قال له أن يخالف المهلب، وأن يستبد عليه بالأمر، وألا يقبل له مشورة ولا رأياً.

خرج المهلب بأهل البصرة حتى نزل رام مهرمز، فلقي بها الخوارج، ثم أقبل عبد الرحمن بن مخنف بأهل الكوفة ومعه بشر بن جرير، محمد بن عبد الرحمن بن سعيد بن قيس، إسحاق بن محمد بن الأشعث، زحر بن قيس.

ونزل عبد الرحمن بالقرب من المهلب، وتوفي بشر بن مروان في البصرة، فانصرف أهل الكوفة من الجيش، كما انصرف كل من زحر بن قيس، وإسحق بن محمد بن الأشعث ومحمد ابن عبد الرحمن. وعندما بلغ خالد بن عبد الله ذلك بعث رسولا يضرب وجوه الناس،

---

(١) = الطبري - ج ٦ = ص: ١٣٧.

(٢) = الطبري = ص: ١٩٦:

(٣) - كان بشر قد أوغرت صدره، عندما أمر عبد الملك بن مروان المهلب لحرب الأزارقة الطبري = ج ٦ = ص: ١٩٦.

ويردهم كما أرسل رسولا بكتاب يقرأ على الناس فلما قرأه لم يستجب أحد له.

واستمر هؤلاء حتى نزلوا قرية لآل الأشعث الى جانب الكوفة، ومن هناك طلبوا من الأمير أن يأذن لهم بالدخول الى المدينة، وبقوا هناك حتى قدم الحجاج بن يوسف.

ثم إن المهلب وابن مخنف قاتلوا الأزارقة عندما آمرهم الحجاج بذلك بعد توليه على الكوفة، وأخرجوهم عن رامهرمز، حيث توجهوا إلى سابور، فلحقهم المهلب، وخندق عليه بينما لم يفعل عبد الرحمن بن مخنف.

وزحف الخوارج ليلاً نحو المهلب، فلم يقدروا عليه لأنه خندق على نفسه فتوجهوا إلى عبد الرحمن وهو مكشوف، فهزم وقتل.

وكتب المهلب إلى الحجاج يخبره بذلك، فبعث الحجاج إلى عسكر الكوفة عتاب بن ورقاء، وأمر عتابا أن يكون تحت لواء المهلب، إذا اجتمع الإثنان فشق ذلك على عتاب.

الحجاج والخوارج:

ثم استدعى الحجاج عتابا وترك أمر ذلك الجيش الى المهلب، الذي كلف بقيادته ابنه حبيب بن المهلب واستمر المهلب بحرب الخوارج في منطقة سابور سنة[1] واحدة. اختلف الخوارج حول مقتل أحدهم، فانقسموا على قطري بن الفجاءة وولوا عليهم عبد ربه، وكانوا الأكثرية، بينما بقي ما يقارب من ربعهم مع قطري. وأخذوا يقاتلون حوالي الشهر، ثم إن قطريا خرج بمن معه لحو طبرستان، فوجه المهلب إليهم وهم على حالة سيئة فقاتلهم وانتصر عليهم وأخذ عسكرهم ولم ينج منهم إلا قليل.

وعندما علم الحجاج بأمر قطري وجه إليه سفيان بن الأبرد ومعه جيش من أهل الشام، كما كان الحجاج قد كتب إلى اسحق بن محمد بن الأشعث، وكان على رأس جيش من الكوفة في منطقة طبرستان، يأمره أن يتوجه نحو سفيان والانقياد له. فلما وصلوا إلى أحد شعاب طبرستان قاتلوا قطريا، فقتلوه وهزموا جنده سنة ٧٧ هـ، وبذلك يكون أمر الخوارج قد اختل.

كان أصحاب صالح بن مسرح (وهو أحد قادة الخوارج) يختلفون إليه، وكانوا

---

(١) - الطبري - ج ٦ - ص: ٢١٥.

يتراسلون ويتلاقون فيما بينهم. وفي تلك الأثناء، قدم إلى صالح كتاب من شبيب[1]، وهذا الكتاب كان نتيجة اتفاق الطرفين، حيث خرج شبيب حتى قدم على صالح بن مسرح بدارا. ثم حددوا يوم خروجهم، حيث يذكر أنهم كانوا في مائة وعشرين، أو مائة وعشرة. ولما علم محمد بن مروان، بخروجهم، وكان أمير الجزيرة قد بعث إليهم عدي بن عدي بن عميرة بن الحارث بن معاوية بن ثور، في خمسمائة فطلب عدي من محمد بن مروان، زيادة هذه القوة، فوافق وأرسله في ألف رجل، وكان أول من وجه لصالح، فنزل عدي في دوغان.

ثم وجه عدي إلى صالح رجلا في السر ليقول له، أن يفارقه إلى بلد آخر، فهو كاره للقائه وقتاله.

ثم خرج بأصحابه، ففاجأ عدياً وهو يعبىء أصحابه، فهزموا دون قتال، فلما علم محمد بن مروان بذلك غضب، ثم دعا خالد بن جزء السلمي، فبعثه في ألف وخمسمائة، كما دعا الحارث بن جعونة، وبعثه في ألف وخمسمائة. أما صالح بن مسرح فقسم جيشه قسمين، قسم بقيادة شبيب ووجهه إلى الحارث بن جعونة، بينما توجه هو نحو خالد بن بقي معه.

وبدأ القتال بينهما، حتى حال الليل دون القتال. أثناء الليل عقد صالح مجلس حرب مع أصحابه، وعلى رأسهم شبيب وقرروا الخروج والتخلي عن مسرح الحرب، ومشوا حتى قطعوا أرض الجزيرة، ثم دخلوا الموصل فاجتازوا الدسكرة ولما علم الحجاج بذلك، وجه إليهم الحارث بن عميرة في ثلاثة آلاف رجل من أهل الكوفة، حيث توجه إلى الدسكرة، والخوارج بها. أما صالح بن مسرح فخرج نحو جلولاء وخانقين، فتبعه الحارث حتى وصل إلى قرية المدبّج[2]، فهاجم صالحاً الذي عبأ قوته في ثلاثة كراديس، في كل كردوس ثلاثون مقاتلا.

وقتل صالح في نهاية المعركة، ثم تسلم قيادتهم شبيب، وأمرهم أن يدخلوا حصناً بالقرب من مسرح القتال، ليأمنوا على أنفسهم.

وفي الليل خرج شبيب وأصحابه، وهاجموا الحارث بن عميرة، فقتلوه وهزموه وأصحابه. ثم إن شبيباً توجه إلى أرض الموصل، فلقي بها سلامة بن سيار، فخرج معه ثم

---

(١) - يحمله المحلل بن وائل اليشكري.

(٢) - بين الموصل وأرض جوخى.

قدم شبيب المدائن، ومنها إلى وادي الموصل، تخوم أرض جوخى ثم ارتفع إلى أذربيجان وكان الحجاج قد كلف سفيان بن أبي العالية، بقتال الخوارج وحدد له الدسكرة أن يقيم بها، حتى يقدم عليه جيش الحارث بن عميرة، الذي قتل صالحاً وكان عليهم سورة بن أبجر التميمي.

أما سفيان فقد توجه إلى شبيب، فلحقه بخانقين، وكان شبيب قد كمن بنصف من معه، بقيادة أخيه مصاد، ثم توجه شبيب وكأنه يكره لقاء سفيان.

فلما رأى شبيب أن سفيان وأصحابه قد تجاوزوا الكمين التف عليهم وانقض الكمين خلفهم، فهزموهم، وأقبل سفيان حتى وصل الى بابل مهروز وقد جرح ومن هناك كتب إلى الحجاج يعلمه بحاله. فكتب الحجاج إلى سورة بن أبجر، يأمره بقتال الخوارج.

وكان شبيب قد وصل المدائن، ثم توجه نحو النهروان، أما سورة بن أبجر فتوجه في ثلاثمائة فارس منهم، بعد أن استعمل على جيشه حازم بن قدامة، حتى وصل النهروان، فلقيه شبيب، وهزمه مع عسكره وطردهم من المدائن ثم إن شبيباً خرج من المدائن وسار في أرض جوخى واتجه نحو تكريت. وفي المدائن، خاف عسكر الحجاج من شبيب ولحقوا الكوفة فعلم الحجاج بذلك فوجه الجزل بن سعيد، وأخرج معه أربعة آلاف مقاتل، وخرج حتى أتى المدائن ثم توجه نحو شبيب.

قرر شبيب أن يخرج من مكان لآخر مناوراً، عله يفرق أصحاب خصمه الجزل، حتى كان يدير بيرما ومعه مائة وستون رجلا، وهناك وزع قواته إلى أربع فرق في كل فرقة أربعون رجلا.

ثم أمر أخاه – وكان على أحد هذه الفرق – أن يأتيهم من الخلف فيحقق المفاجأة وأمر فرقة أخرى أن تأتيهم من يمينهم، وأخرى عن شمالهم، وبقي هو في مواجهتهم. وكان وقت تنفيذ الخطة ليلاً، إلا أن شبيباً لم يحقق أي انتصار، لذلك تركوهم وتوجهوا إلى براز الروز ومنها إلى جرجرايا. ثم إن الحجاج وجه سعيد بن المجالد، وكان الجزل مع جماعته قد دخلوا مدينة قطيطيا، وأغلقوا عليها أبوابها، إلا أنه خرج بعد أن استعاد قوته ومقدرته العسكرية، وتقابل مع سعيد بن المجالد فقتله وجرح الجزل، وهزم الجيش الى الكوفة. فوجه الحجاج بشر بن غالب الأسدي في ألفي رجل، وزائد بن قدامة في ألف رجل وأبا الضريس مولى بني تميم في ألف رجل، وأعين مولى بشر بن مروان في ألفي رجل، ثم وجه محمد بن موسى في ألفين، وكان عبد الملك بن مروان قد ولاه سجستان.

وأمره الحجاج أن يقاتل الخوارج؛ ثم يذهب لولايته ووجه زجر بن قيس في جريدة قوامها (١٨٠٠) فارس إلى السيلحين.

أما شبيب فخرج من الكوفة الى الردمة، حيث اجتمعت قوات الحجاج في أسفل الفرات، وتوجه نحو زحر بن قيس، فهزمه وجرحه. إلا أن زجر شفي من جرحه وتوجه إلى الحجاج.

وجه الحجاج رسولاً إلى الأمراء يحذرهم بأن الخوارج تسير إليهم، وأن أميرهم - إذا اجتمعوا - زائدة بن قدامة، وتقابل شبيب مع زائدة فقتل زائدة، كما قتل محمد بن موسى ابن طلحة في معركة ثانية.

ثم توجه شبيب نحو خانيجار، فأقام بها.

ودعا الحجاج عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، في ست آلاف رجل، ووجهه لحرب الخوارج، حيث مر بالمدائن.

أما شبيب فقد فارقه إلى دقوقا وشهرزور، حيث أخذ يناور في المكان حتى يضيق على عبد الرحمن، ويشله وينهك قواه ومن معه؛ ثم تحاجز في منطقة نهر حولايا. أثناء ذلك علم الحجاج بماطلة عبد الرحمن في القتال، فبعث عثمان بن قطن قائداً للجيش فاتجه نحو المدائن، وقد كثر جمعه وبلغ ثمانمائة مقاتل.

ونتيجة فشل الحجاج في القضاء على الخوارج، كما ورد كتب إلى عبد الملك بن مروان يشير عليه أن يبعث أهل الشام لقتال الخوارج.

فاستجاب له عبد الملك وبعث سفيان بن الأبرد في أربعة آلاف، كما بعث حبيب بن عبد الرحمن في ألفين. في نفس الوقت أمر الحجاج أهل الكوفة أن يتأهبوا لقتال الخوارج، حيث كان عليهم عتاب بن ورقاء، ومعه زهرة بن حوية، وكان يأخذ برأيه، وكان معه خمسون ألفاً[1].

ونزل شبيب مدينة بهرسير، وتوجه لمقابلة عتاب، فهزمه وقتله وقتل زهرة بن حوية، ثم نزل شبيب موضع حمام أعين.

وعلم الحجاج بذلك فوجه الحارث بن معاوية في نحو ألف من مقاتليه فنزلوا زرارة وبلغ

---

(١) - الطبري - ج ٦ - ص: ٢٦٣.

ذلك شبيب، فعاجله، فقتله، وهزم أصحابه، ثم إن شبيباً بنى مسجداً في - أقصى السبخة، واتخذه مقراً له.

قرر الحجاج أن يخرج بنفسه للقتال، وتوجه نحو السبخة، فتقابل مع شبيب حتى تمكن الحجاج من مسجد السبخة، وكان هذا أول نصر له، ثم هزم شبيب، فوقعت به فرسه، فغرق في نهر، فقتل وقتل أخوه مصاد، وتفرق جنده.

ذكرنا أن الحجاج صرف عتاب بن ورقاء عن حرب الأزارقة، وبقي المهلب بسابور يقاتلهم نحواً من سنة، ثم هاجمهم المهلب، حيث كانت فارس في يده، وكانت كرمان في أيدي الخوارج، فطبق عليهم المهلب، فخرجوا حتى أتوا كرمان، وكان المهلب في أثرهم، حتى كان في مدينة جيرفت، فقاتلهم بها سنة، حتى تمكن المهلب من جميع فارس.

وحاول الحجاج عزل المهلب عن فارس، إلا أن عبد الملك بن مروان ثبته عليها، واستمر يقاتلهم ثماني عشرة سنة[١].

بقية الخلفاء الأمويين والخوارج:

ثم إن شوذب الخارجي خرج بجوخي، ومعه ثمانون فارساً، في عهد عمر بن عبد العزيز فكتب إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن، وهو على العراق، ألا يتدخل في أمورهم، إلا إذا أفسدوا في الأرض.

وجه إليهم عبد الحميد، محمد بن جرير بن عبد الله البجلي، في ألفين وأبلغه أمر عمر ابن عبد العزيز.

ثم إن عمر بن عبد العزيز كتب إلى شوذب يستعلم منه سبب خروجه، ويطلب منه إرسال من يريد لمناظرته، فبعث إليه شوذب، رجلين من عنده. فناقشاه في توليه يزيد، ولماذا أبقاه، فرد عليهم عمر: لقد صيره غيري.

وانتهت المناظرة بخروج عمر بن عبد العزيز، طالباً منهما أن يتركاه ثلاثة أيام. فخرجا من عنده. ثم إن بني مروان خافوا على ما في أيديهم (السلطة) وأن يقتنع عمر، فدسوا له السم، واغتالوه، وتسلم يزيد بن عبد الملك السلطة.

أراد عبد الحميد أن ينال ثقة السلطة الجديدة، لذلك كتب إلى محمد بن جرير، يأمره

(١) - الطبري - ج ٦ - ص: ٣٠٣.

بمحاربة شوذب وأصحابه، علماً أن شوذب لم يعلم بما حدث من اغتيال عمر بن عبد العزيز، زد على ذلك أن وفده إليه لم يعد بعد.

وتقابل الطرفان، فهزم محمد بن جرير، وقد جرح. ثم قدم على شوذب وفدة إلى عمر ابن عبد العزيز فأخبره بما حدث، فتوجه شوذب إلى تميم بن الحباب، في ألفين، فهزمهم شوذب وقتل تميم، فوجه إليهم نجدة بن الحكم الأزدي، فقتلوه أيضاً، وصرفوا أصحابه فتوجه إلى الشحّاج بن وداع في ألفين، فقتلوه، وهزموا أصحابه واستمر حال شوذب، حتى دخل مسلمة الكوفة، وقد علم بأمر شوذب وما هو عليه. فوجه إليه جيشاً قوامه عشرة آلاف مقاتل، بقيادة سعيد بن عمر والحرشي فتقابل مع شوذب، وتمكن منه وقتله هو وأصحابه.

وعندما اغتيل الوليد، خرج سعيد بن بجدل الشيباني، ومعه بعض أصحابه ومنهم الضحاك بن قيس الشيباني في أرض كفر توقا.

في ذلك الوقت خرج بسطام البيهسي مفارقاً لرأي سعيد، وكل منهم في مائتين، فاقتتلا، حيث قتل بسطام وأكثر اتباعه، إلا أربعة عشر منهم. ثم توجه سعيد بن بجدل نحو العراق، عندما علم اختلاف أهل الشام حول السلطة سنة ١٢٧ هـ.

ثم إن سعيد بن بجدل مات بطاعون أصابه، وكان قبل ذلك قد استخلف الضحاك بن قيس. اجتمع مع الضحاك نحو ألف رجل، ثم توجه إلى الكوفة، مروراً بأرض الموصل، فتبعه نحوا من ثلاثة آلاف رجل، علماً أنه كان في الكوفة، النضر بن سعيد الحرشي ومعه المضرية، وكان بالحيرة عبد الله بن عمر، ومعه اليمانية. فلما قاربهم الضحاك اجتمع أمرهم على قتاله.

إلا أن الضحاك تمكن من السيطرة على الكوفة وأرضها، واستخلف عليها أحد أتباعه في مائتي فارس، وتوجه إلى عبد الله بن عمر، وهو على رأس أصحابه بواسط بينما توجه الحرشي إلى مروان.

واتفق الضحاك وعبد الله بن عمر على أن يدخل الأخير في طاعته، ثم توجه إلى الكوفة فدخلها. وكاتبه أهل الموصل، ودعوه أن يقدم إليهم، فتوجه إليها الضحاك وعليها عامل بن مروان، فاستولى عليها وعلى كورها.

وعندما علم مروان بذلك، وكان محاصراً بحمص، كتب لابنه وهو عامله على الجزيرة

يأمره أن يسير بمن معه إلى نصيبين، ليشغل الضحاك، فتحرك ابن مروان في سبعة آلاف أو أكثر.

أما الضحاك فتوجه من الموصل إلى عبد الله بن مروان في مائة وعشرين ألف[1] رجل فقاتله في نصيبين. ثم إن الضحاك وجه بعض جنده نحو الرقة، فقاتلهم عامل مروان بها ثم إن مروان - عندما بلغه ذلك - وجه إلى الرقة قوة بقيادة أحد أتباعه واسمه صاعد، وعندما وصلوها، كان أصحاب الضحاك قد تركوها. فلحقهم صاعد بمن معه، ثم توجه صاعد إلى الضحاك، فقابله بموضع يقال له الغز من أرض كفرتوثا، فتمكن جند مروان من الضحاك وقتلوه، كما قتلوا بعض أصحابه، وتفرق جنده.

وبعد مقتل الضحاك، بايع الخوارج الخيبري، حيث توجه مروان بنفسه إليه فتقابلا، فهزم مروان واحتل معسكرهم، ثم إن عبيداً، وعسكر مروان تجمعوا عندما رأوا قلة عدد أصحاب الخيبري، فهاجموهم وقتلوا الخيبري وهزموهم، علماً أن مروان كان مهزوماً، فلما علم بذلك، أعاد تجميع قواته وهاجم الخوارج بالكراديس وأبطل منذ ذلك الحين الصف[2].

بعد مقتل الخيبري: ولي الخوارج عليهم شيبان بن عبد العزيز الحروري فقاتلوا مروان فهزمهم، ثم توجهوا نحو الموصل برأي من سليمان بن هشام بن عبد الملك وكان معهم، فلحقهم مروان، واقتتلوا تسعة أشهر.

ثم إن مروان أمر يزيد بن عمر بن هبيرة وكان بقرقيسيا، ومعه جند من أهل الشام، وأهل الجزيرة، أن يتوجه إلى الكوفة، وكان عليها آنذاك، المثنى بن عمران وهو من الخوارج، فقاتل الخوارج فيها وقتلهم، وتمكن من العراق. أما مروان فبقي يقاتل الخوارج تسعة أشهر، حيث كتب إلى عمر بن هبيرة يأمره أن يمده بعامر بن ضبارة المري، فوجهه في ستة آلاف مقاتل، ولما علم شيبان بذلك، وجه إليه قوة من جنده قوامها أربعة آلاف. فلحقوا بابن ضبارة في منطقة يقال لها السنّ دون الموصل، فهزمهم ابن ضبارة، ثم ارتحل الخوارج من الموصل، فطاردهم مروان إلى حلوان ثم الأهواز، ففارس.

ثم إن مروان وجه إلى ضبارة ثلاثة نفر من قواده في ثلاثين ألف من جنده وأمره أن

(1) - الطبري - ج ٧ - ص: ٣٤٦.
(2) - الطبري - ج ٧ - ص: ٣٤٧.

يتبعهم. فأخذ ابن ضبارة يتبعهم، حتى قدموا فارس، وخرجوا منها فتفرقوا، فأخذ شيبان فرقته إلى البحرين حيث قتل بها.

وبذلك ينتهي دور حزب الخوارج في العهد الأموي، إلا أنهم لم ينتهوا نهائياً، حيث إستمروا في العصر العباسي.

فرق الخوارج - الأزارقة:

هم أصحاب أبي راشد نافع بن الأزرق، الذي خرج من البصرة إلى الأهواز، حيث استولوا عليها، وعلى كورها، وما وراءها من بلدان فارس وكرمان، أيام عبد الله بن الزبير. وكان نافع هذا في زهاء ثلاثين ألف فارس، ممن يرون رأيه حيث أرسل إليهم عبيد الله بن الحرث بن نوفل، وكان على البصرة، صاحبُ جيشه مسلم بن عيسى، ثم وجه إليهم المهلب بن أبي صفرة، وبعد مقتل نافع بن الأزرق بايع الخوارج قطري بن الفجاءة وسموه أمير المؤمنين.

ومن بدعهم أنهم كفروا علياً، واعتبروا عمل ابن ملجم صواباً. كما كفروا عثمان بن عفان وطلحة والزبير وعائشة وعبد الله بن عباس، كما كفروا سائر المسلمين. وكفروا القاعدين منهم عن القتال ضد أعدائهم، وأباحوا قتل أطفال الذين يخالفونهم.

وأسقطوا الرجم عن الزاني، إذ ليس في القرآن أي ذكر، حسب رأيهم لذلك. كذلك أسقطوا حق القذف، عمن قذف المحصنين من الرجال، مع وجوب الحد على قاذف المحصنات من النساء.

وكان رأيهم أن أطفال أعدائهم، هم في النار مع آبائهم. والتقية غير جائزة لا قولاً ولا عملاً.

ومن بدعهم أيضاً، تجويزهم أن يبعث الله نبياً، قد يكفر بعد نبوته، أو كان كافراً قبل بعثه. ومن ارتكب كبيرة من الكبائر كفر.

الأباضية:

وهم أصحاب عبد الله بن أباض، حيث خرج في أيام مروان بن محمد، وكان رأيهم أن مخالفيهم من أهل القبلة هم كفار غير مشركين.

وتفرقت الأباضية إلى أربع فرق هي: فرقة الحفصية، والحارثية، واليزيدية، وأصحاب طاعة لا يراد الله.

الصفرية:

وقد خالفوا الأزارقة والنجدات والأباضية في:

أنهم لم يكفروا القعدة عن القتال، ولم يسقطوا الرجم، ولم يجيزوا قتل أطفال المشركين، وقالوا إن التقية جائزة في العقل دون العمل.

النجدات العاذرية:

هم أصحاب نجدة بن عامر الحنفي حيث خالفوا ابن الأزرق، وبايعوا نجدة المذكور، إلا أنهم اختلفوا عليه فيا بينهم.

وقد اختلفوا على العذر بالجهالة، وكان رأيهم أن الدين أمران:

الأول - أحدهما معرفة الله تعالى، ومعرفة رسله عليهم السلام، وتحريم دماء المسلمين أي الإقرار بما جاء من عند الله، والجهل به، لا يعذر.

الثاني - وما سوى ذلك، فالناس معذرون إلى أن تقوم الحجة في الحلال والحرام.

وكان ذلك في عهد عبد الملك بن مروان، حيث أرسل معمر بن عبد الله بن معمر فحارب أبا فديك وقتله[1].

ويقال إن النجدات العاذرية، عذروا بالجهالات في أحكام الفروع، وأن التقية جائزة في القول والعمل كله، حتى في قتل النفس. كما أجمعت هذه الفرقة أنه لا حاجة للناس إلى إمام. وقالوا إن القعود جائز، والجهاد أفضل إن أمكن.

البيهسية:

هم أصحاب ابن بيهس الهيثم بن جابر، الذي عاش أيام الحجاج بن يوسف حيث طلبه الحجاج فهرب الى المدينة، فلاحقه واليها وحبسه، إلى أن أتاه كتاب الوليد يأمره فيه بقطع يديه ورجليه ثم قتله. ففعل ذلك به والي المدينة. ومن آرائه: أنه لا يسلم أحد حتى يقر بمعرفة الله، وحق رسله، وما جاء به النبي والولاية لأوليائه، والبراءة من أعداء الله. والإيمان هو الإقرار والعلم معاً.

---

(١) - الشهرستاني - ج ١ - ص: ١٦٧.

وقد انقسمت هذه الفرقة إلى فرقتين، إلا أنهما اجتمعتا على قول: إن - الإمام إذا كفر، كفرت الرعية، الغائب منهم والشاهد.

كما قالوا إن أطفال المؤمنين مؤمنون، وأطفال الكافرين كافرون، كما قالوا إن السكر إذا كان من شراب حلال، فلا يؤاخذ فيه صاحبه بما قال وفعل.

العجاردة:

هم أصحاب عبد الكريم بن عجرد. وقد وافقت العجاردة فرقة النجدات في بدعهم، علماً أن العجاردة انقسمت أيضاً إلى عشر فرق، ولكل قسم منهم طرقه الخاصة، إلا أنه يجمعها القول: بأن الطفل يدعى إذا بلغ، وتجب البراءة منه قبل ذلك، حتى يدعى إلى الإسلام.

واختلفت العجاردة مع الأزارقة في قضية، وهي أن الأزارقة استحلوا أموال مخالفيهم بكل حال، إلا أن العجاردة لم تجز ذلك.

الصلتية:

هم أصحاب صلت بن عثمان بن أبي الصلت، وقد اختلفوا مع العجاردة حول أطفال المسلم، حيث يتولوه ويتبرأون من أطفاله، حتى يدركوا، فيقبلوا الإسلام.

الميمونية:

هم أصحاب ميمون بن خالد، وكان من العجاردة أيضاً، إلا أنه خالفهم بالإرادة والقدر والاستطاعة، حيث قال إن القدر خيره وشره من العبد، وإثبات العقل للعبد خلقاً وإبداعاً.

كما زاد على العذرية وعلى الخوارج(١) بدعة جديدة وهي أنه أباح نكاح بنات الأولاد من الأجداد، وبنات أولاد الأخوة والأخوات، وقد أنكر أصحابه أن تكون سورة يوسف من القرآن.

الحمزية:(٢)

وهم أصحاب حمزة بن ادرك وقد وافقوا الميمونيه في القدرية، وخالفوهم في أطفال

---

(١) - البغدادي - ص: ٢٦٤.

(٢) - يذكره البغدادي أكرك.

مخالفيهم والمشركين: يذكر البغدادي أنهم في الأصل من العجاردة الحازمية خالفوهم في باب القدر والإستطاعة.

وزعم حمزة أن أطفال المشركين في النار، كما والى القعدة من الخوارج، وكفر من لا يوافقه على قتال مخالفيه: وكان ظهوره أيام هارون الرشيد سنة ١٧٩ هـ:

الشعيبية:

إحدى فرق العجاردة، وهم أصحاب شعيب بن محمد، وكان مع ميمون، وكان مع العجاردة في الرأي، إلا أنه خالفهم حين أظهر القول بالقدر.

الحازمية:

إحدى فرق العجاردة وهم أصحاب حازم بن علي، وكانوا على رأي الشعيبية وهم أكثر عجاردة سجستان. وقالوا في باب القدر والاستطاعة والمشيئة وخالفوا أكثر الخوارج في الولاية والعداوة.

الثعالبة:

أصحاب ثعلبة بن عامر[1]، وقد اختلف مع العجاردة في أمر الأطفال، حتى قالوا إنهم على ولايتهم صغاراً أو كباراً، حتى يظهر منهم إنكار للحق.

ويذكر البغدادي أن الثعالبة أصبحت ست فرق هي: فرقة المعبدية، وفرقة الشيبانية، وفرقة الأخنسية، وفرقة الرشيدية، وفرقة المكرمية وفرقة قالت بإمامة ثعلبة.

المكرمة:

إحدى فرق الثعالبة - كما ذكرنا من قبل - وهم أصحاب مكرم بن عبد الله العجلي، وقد اختلفوا مع الثعالبة، بأن تارك الصلاة كافر، ليس من أجل تركه الصلاة ولكن لجهله بالله تعالى.

الحفصية:

إحدى فرق الأباضية، وهم أصحاب حفص بن أبي المقدام، حيث أمره عليهم: ومن

---

(١) - يذكر البغدادي أنهم أصحاب ثعلبة بن مكان. وهم يدعون إمامته بعد عبد الكريم بن عجرد.

آرائهم قولهم إن بين الشرك والإيمان خصلة واحدة هي معرفة الله. وقالوا أيضاً إن الإيمان بالكتب والرسل متصل بتوحيد الله:

الحارثية:

إحدى فرق الأباضية أيضاً، وهم أصحاب الحارث بن مزيد الأباضي الذي خالف الأباضية. قالوا في باب القدر بمثل قول المعتزلة، وزعموا أن الاستطاعة قبل الفعل: كما زعموا أنه لم يكن لهم إمام بعد المحكمة الأولى إلا عبد بن اباض، وبعده حارث بن مزيد[1].

اليزيدية:

إحدى فرق الأباضية أيضاً، وهم أصحاب يزيد بن أبي أنيس الخارجي، وهو من البصرة ثم انتقل إلى فارس، وكان على رأس الأباضية، وكان يقول: إن الله عز وجل يبعث رسولا من العجم، وينزل عليه كتاباً من السماء وينسخ بشرعة شريعة محمد صلى الله عليه وآله وسلم كما زعم أن أتباع ذلك النبي المنتظر هم الصابئون المذكورون في القرآن الكريم[2].

---

(1) - البغدادي - ص: ٨٤.

(2) - البغدادي - ص: ٤٦٣:

يذكر البغدادي أن أهل واسط وحران ما هم الصابئون المذكورون في القرآن الكريم.

الباب الخامس

الحالة السياسية والإجتماعية والإقتصادية

الفصل الأول: الحالة السياسية

الفصل الثاني: الحالة الاقتصادية والاجتماعية

الفصل الثالث: الحالة العقلية في بلاد الشام

الفصل الأول

الحالة السياسية

الفصل الأول

الحالة السياسية في بلاد الشام

قبل الإسلام:

اتجهت روما إلى إقامة سلسلة من الحصون على طرف الصحراء المطلة على الفرات، للمحافظة على الحدود مع الاستعانة بهذه القبائل في أعمال الحراسة والدفاع، وأخذت بيزنطة فيما بعد تدعم سلسلة الحصون في الصحراء الشامية، ثم نظمت ولايتها الشرقية بأن جعلت سورية وفلسطين، ولاية واحدة عرفت باسم الولاية الشرقية.

فكانت هذه الحصون أشبه بمعسكرات تقيم بها فرق الجيش التي عهد إليها مهمة حراسة الحدود، والطرق التجارية التي تجتاز الصحراء. فكان في بصرى معسكر رئيسي يتبعه عدة مراكز أخرى لحاميات انتشرت في بعض مناطق ذات أهمية حربية وتجارية. ومن ذلك حصن تمارا الذي تحكم في منطقة حوران (وكان كل حصن من هذه الحصون عبارة عن بناء مستطيل الشكل على جانبيه الأبراج ويحيط به جدار سميك).

كما اتخذت الأمبراطورية البيزنطية بالاضافة للحصون على الإمارات العربية التي قامت في صحراء الشام بالدفاع عن أراضيها ضد الفرس، كحاجز تنفيذ سياستها في الحد من الخطر الفارسي. ومن وسائلها لاكتسابهم كان المال، وإغداق الألقاب على رؤسائهم.

ومن أقدم هذه الإمارات مملكة الأنباط، حيث امتدت من عاصمتها البتراء إلى دمشق شمالاً، وإلى مدائن صالح، والحجر جنوباً، إلى الفرات شرقاً التي اتخذها الرومان حاجزاً ضد عدوهم في الشرق. لكن الأمبراطور الروماني قضى على هذه الإمارة سنة

(١٠٦ م) تطبيقاً لسياسة بيزنطة في القضاء على الإمارات العربية إذا غدا استقلالها خطر على سلامة بيزنطة.

وتجلت هذه السياسة أيضاً مع إمارة تدمر التي خلفت روما، ونفذت سياستها ضد الفرس إلا أن الأمبراطور أورليان قضى على عاصمتها تدمر سنة (٢٧٣ م)، وكان القضاء على تدمر قد مهد، لظهور مملكة الغساسنة التي نجحت في إقامة حكم لها في المنطقة الواقعة إلى الجنوب الشرقي من دمشق، إلا أن بيزنطة تنكرت للغساسنة وأجبرتهم على التبعية[١].

لقد فشل الغساسنة في كبح جماح القبائل العربية، والسبب في ذلك يعود، لكونهم كانوا يحاربون في جبهة أخرى بمهاجمة الأراضي البيزنطية، حيث نجحوا مؤقتاً إلا أنهم لم يتركوا أي أثر يؤكد إلى سيطرتهم على أي مكان محصن، أو مدينة اتخذها الجيش البيزنطي مركزاً له داخل نطاق أرضهم مثل دمشق وبصرى، تدمر التي أعاد تحصينها الامبراطور جستنيان[٢].

ثم إن الرعايا الغسانيين انقسموا فيما بعد موت النعمان إلى خمس عشرة فرقة (خمس عشرة قبيلة) لكل منها رئيس، فأدى ذلك إلى ذكر قبائل عربية أخرى إلى جانب الغساسنة، حيث راح الغساسنة يشنون غارات على أراضي الحجاز، فكان ذلك من عوامل نجاح بعض القبائل في الهجرة إلى الشام في تلك الفترة ومن انهيار قوة الغساسنة من جهة، أخرى، إلا أن أثره كان في اتجاه مغاير عندما ضيقت هذه القبائل على دفة الأمور في الشام.

ومن أشهر هذه القبائل قبيلة بني كلب، وكانت قبل الإسلام، قد نزلت بدومة الجندل وتبوك، وأطراف الشام، ووادي القرى، حيث سيطرت هذه القبيلة على الينابيع، والواحات شرق حوران وجنوبها لا سيا دومة الجندل فورثت هذه القبيلة مجد الغساسنة، وحلت مكانهم في الزعامة على سكان إقليم بلاد الشام زمن الأمويين، وأصبحت العمود الفقري لسياسة خلفاء بني أمية ابتداءً من معاوية.

كما استقرت قبائل أخرى بالشام إلى جانب قبيلة كلب في نهاية القرن السادس، وأوائل القرن السابع الميلادي.

---

(١) نولدكه – ص:٣١-٣٢.

(٢) المرجع نفسه – ص:١٦-١٧.

أما قبيلة كلب فقد استقرت في بادية السماوة، حيث لم يخالطها هناك أية بطون أخرى، واستوطن بنو جمح من قريش منطقة اذرعات، واقامت لخم بين الرملة ومصروان وكان قد نزل بعضها حوران، كما أقامت جذام بين مدين وتبوك، بينما تركت منها فخذ فيما يلي طبرية من أرض الأردن[1].

لقد استفادت هذه القبائل من الحضارة البيزنطية، بحيث مهدت السبيل، فيما بعد لبني أمية أن ينعموا بتراث القبائل العربية التي استوطنت الشام زمن الجاهلية، وكان ميدانها التجارة. أي أن قبائل العرب في بلاد الشام كانت خير وسيط ساعد على انتقال القوافل وطرقها التي كانت تصل بلاد الشام بغيره. وساعدها مركزها التجاري الاتصال بأبناء البيت الأموي الذين سيطروا على تجارة الحجاز. كما استطاع بنو أمية أن يدعموا علاقاتهم مع هذه القبائل في بلاد الشام فأدركوا مقوماتها، وطرق كسب ودها، وصداقتها، ثم لجأوا إلى رحابها باقليم الشام.

إذن استطاعت هذه القبائل التي استقرت في بلاد الشام أن تسيطر على النشاط التجاري. حيث أقامت في بقاع تنتهي عندها طرق القوافل الآتية من بلاد اليمن، وكان هذا الطريق طريق اليمن الشام أهم الشرايين التي حملت منتجات الشرق إلى الغرب، وكان له مجريان أحدهما يتجه إلى ايله (العقبة)، والآخر يبدأ من صنعاء، ثم يسير شمالاً مخترقاً الحجاز ماراً بمكة.

وهكذا أصبح الطريق البري بين الشام واليمن المسلك الحيوي، منذ مطلع القرن السادس الميلادي، وحكر على عرب الحجاز وحدهم. وهكذا ألقى زمام التجارة الشرقية في أيدي عرب الحجاز عامة إلا أنه تركّز بأيدي أبناء مكة، التي استقل قسماً منها بنقل التجارة جنوباً إلى اليمن، وبعضهم الآخر شمالاً إلى الشام. ولا يستغرب في ذلك فيذكر أن قصي كان قد قضى أيام نشأته الأولى بين إخوته لأمه من بني عذره النازلين على حدود الشام.

بعد وفاة قصي سنة (٤٨٠ م) آلت السلطة إلى أبنائه، وأحفاده من بعده، لكن التنافس على رئاسة إدارة مكة أدى إلى انقسامهم إلى معسكرين أحدهما تزعمه بنو عبد الدار،

---

(١) القلقشندي - صبح الأعشى - ج١ - ص:٣٢٣.

والآخر بنو عبد مناف إلا أن انقساماً تم بينهما على أن تكون الحجابة والندوة واللواء في أيدي عبد الدار، بينما آلت السقاية والرفادة إلى عبد شمس بن عبد مناف.

إلا أن عبد شمس لم يستطع أن ينهض بأعبائها لفقره، وكثرة أسفاره، فتنازل عما بيده من سلطات إلى أخيه هاشم الذي كان أكثر منه ثراءً وقدرة، وقد كان هاشم يستمد غناه من نشاطه التجاري في الشام، هذا ويعتبر هاشم المؤسس الحقيقي لمجد مكة التجاري، وواضع أساس نشاط قريش التجازي في بلاد الشام(١). أي أنه أول من سن لقريش رحلة الشتاء إلى بلاد اليمن، ورحلة الصيف إلى بلاد الشام(٢). فعقد مع الدول والممالك المجاورة لهم معاهدات ومحالفات فعقد بنفسه معاهدات مع بيزنطة، وأمراء غسان أصبح بموجبها لقريش حق التجوال في بلاد الشام(٣).

ومنذ ذلك الحين بدأ نشاط الأمويين التجاري، وذلك عندما تجلت كوامن الغيرة في نفس أمية بن عبد شمس لما ناله عمه هاشم من مكان رفيع في مكة، وطمع في انتزاع هذا الشرف إلا أنه عجز عن مناهضة هاشم.

فغضب ونافر هاشم على خمسين ناقة سود الحدق تنحر بمكة، وجلاء عشر سنين لمن يكسب الموقف. فخسر أمية، وخرج إلى بلاد الشام، وأقام بها عشر سنوات(٤)، وكان هذا أول النزاع بين بني هاشم وبني أمية. وكان أيضاً حجر الزاوية في سياسة بني أمية التجارية، وذلك بالسيطرة على أزمة النشاط التجاري إلى الشام للوصول إلى مركز الرئاسة بمكة.

لقد كانت لإقامة أمية في الشام عشر سنوات قد جذبهم إلى هذا الأقليم. وبموت هاشم في إحدى رحلاته التجارية إلى بلاد الشام سنة (٥١٠ م) كان قد خلا الجو لبني أمية، ورأوا الوقت مواتياً لممارسة نشاطهم التجاري على بلاد الشام ويعود نجاحهم كون أبناء هاشم قد كرسوا جهودهم للإشراف على إدارة مكة. وتدبير شؤونها الدينية أكثر من عنايتهم بالناحية التجارية.

---

(١) ابراهيم أحمد العدوي - الأمويون والبيزنطيين - طبعة مصر ١٩٦٣- ص:٢٣.
(٢) الطبري - ج ٢ - ص:١٨٠.
(٣) المرجع نفسه - ج ٢- ص:١٨٠.
(٤) المقريزي - النزاع والتخاصم - ص:٨-١٠.

كان ما آلت إليه الأمور أن أخذ بنو أمية مقاليد اعداد الرحلات التجارية، والخروج على رأس القوافل إلى الشام.

ثم إن تبدلاً جوهرياً كان قد حدث فيما بعد. عندما كشف عبد المطلب عن بئر زمزم في القرن السادس الميلادي، إذ وزعت الاختصاصات الإدارية بين أحفاد قصي البارزين، وأصبحت مناصبهم تنقل وراثياً إلى أكبر أبنائهم، فاقتصر بنو هاشم بالشؤون الدينية من هذه الإدارة، فعهد إليهم الأشراف على بئر زمزم وسقاية الحجاج، ونال بنو أمية اللواء، فتوارثوه حتى نهض به الأيام الأولى من فجر الإسلام أبوسفيان بن حرب، والد معاوية مؤسس الدولة الأموية.

كان ما ورد أن بقي بنو أمية بفضل زعامتهم التجارية على إعداد رحلة الصيف. فاشتهروا بالخبرة الواسعة في ميدان المال، وكان يعهد إليهم أيضاً قيادة القافلة وإعدادها، حيث اشترك فيها الغني والفقير لا سيما النساء بصفة خاصة. إذن كانت حياة أهل مكة متوقفة على هذه القوافل الذاهبة إلى الشام.

لقد كان إعداد القافلة وتمويلها في أكثرها يقع على عاتق بني أمية، وكانت مهمة اختيار قائد هذه القافلة لا يقل أهمية عن إعداد الرحلة ذاتها، فعلى شخصيته وهيبته وحدها تتوقف سلامة هذه الرحلة. ولذا كان إسناد هذه القافلة إلى أبي سفيان يوحي بما تتمتع به شخصية هذا الرجل من مكانة وهيبة.

إذن استطاع بنو أمية بفضل نشاطهم التجاري أن يكونوا أصحاب الحركة الأولى في قريش قبل الإسلام. والمسيطرين على حالته الاقتصادية، كما كسب الأمويون مكانة هامة في إقليم بلاد الشام، ولا سيما عندما سعوا إلى امتلاك العقارات والأملاك. فأبو سفيان اشترى ضيعة في البلقاء[1] فأصبح الأمويون بذلك العمود الفقري في النشاط التجاري بين الشام والحجاز.

أدت سياسة بيزنطة في إضعاف الغساسنة، والقبض على سادتهم وغروب شمسهم. وتابعت بيزنطة سياستها فرق تسد، فأخذوا يوقعون الشقاق بين قبائل الغساسنة، كما أخذوا يغرون القبائل العربية الأخرى على التحرش بهم.

---

(١) البلاذري – فتوح البلدان – ص:١٣٥.

اتجه البيزنطيون للاتصال بقبيلة قريش، فانتدبت هذه القبيلة أحد زعمائها وأوسعهم تجارة وهو عثمان بن عفان لمفاوضة بيزنطة.

ذهب عثمان بن عفان إلى عمال بيزنطة المقيمين في بصرى، وفاوضهم على الدور الذي يمكن أن يلعبه العرب مع البيزنطيين في حروبهم ضد الفرس. انتهز البيزنطيون هذه السفارة، وأغدقوا على عثمان بن عفان لقب فيلارخ بينما راوغوا في الكف عن منازعة قريش سيادتها.

عندما عاد عثمان بن عفان إلى مكة أدرك ما ترمي إليه بيزنطة من تفريق القبائل العربية والصراع فيما بينها. وجاءت الأحداث فغزا الفرس بلاد الشام (٦١٣-٦١٤م)، ثم إن هرقل لم ينعم باسترداد بلاد الشام حتى ظهر نور الإسلام، وحمل لواءه إلى الشام وأزال البيزنطيين نهائياً وإلى الأبد.

بعد الإسلام في العهد الأموي استعان الرسول ﷺ بالأمويين ومن عرف عندهم بالحظوة، ومن الذين دخلوا في دائرة نفوذهم. أي أن سياسته كانت تهدف إلى استخدام نفوذ الأمويين بين القبائل العربية في جنوب بلاد الشام لنشر الدين الإسلامي. كما استخدم مشاهير العرب الدائرين في فلكهم على بعض السرايا التي بعثها لقبائل الشام. حيث جعل عمرو بن سعيد بن العاص بن أمية على تيماء .وخيبر وتبوك وفدك[١] كما بعث عمرو بن العاص[٢] إلى أرض عمان بالقرب من الشام اعتماداً على صلة القربى بينه وبين أخوال أبيه في أرض بلي[٣].

بعد الرسول كشف الأمويون عن أطماعهم السياسية في إقليم بلاد الشام، فرفض بعضهم البقاء على عمالتهم في تبوك وفدك وغيرها ورفضوا طلب الخليفة الراشدي الأول الدخول في ادارته، وقالوا: نحن أبناء أبي أحيمه لا نعمل لأحد بعد رسول الله ﷺ أبداً[٤].

استمر نشاط بني أمية نحو اقليم بلاد الشام، ورفضوا القيام بالأعمال خارجه إذ أدركوا أن الشام هي المسرح الذي يناسبهم لاظهار مواهبهم. حيث اشتركوا في مغازي الشام وقتل

---

(١) المقريزي – النزاع والتخاصم – ص:٣٢.

(٢) وجهه الرسول إلى تخوم الشام التي نزلت بها أقوام بلى وعذرة حيث تربطه صلة القربى بأولئك العرب. فكانت أم العاص بني وائل امرأة من بلى.

(٣) الطبري – ج ٣ – ص:١٠٤.

(٤) المقريزي – النزاع والتخاصم – ص:٣٢.

منهم الكثير حتى قيل « ما فتحت بالشام كورة من كور الشام إلا وجد عندها رجل من بني سعيد بن العاص ميتاً »[٢].

إذن لقد خضب الأمويون بدمائهم أرض الشام، حيث تجلىٰ اقبال الأمويين على الشام بعد انتهاء الخليفة الراشدي الأول من حروب الردة، واتجاهه إلى إعداد الجيوش لفتح هذا الأقليم، فكان نصيبهم الأوفر في المساهمة في العمليات الحربية من حيث قيادة الجيوش وعدد الجند الذين وضعوا تحت تصرفهم وكان للنسوة من البيت الأموي نصيب ملحوظ في العمليات الحربية التي قامت بها جيوش المسلمين، فضلاً عن دورها في تشجيع الجند على مواصلة القتال.

وعرف الأمويون كيف ينعمون بثمار جهودهم في فتوحات الشام في عهد الخليفتين الأول والثاني إذ استطاعوا أن يكسبوا ثقة هذين الخليفتين، وأن يحتفظوا بمركزهم في إدارة أقليم الشام، وأن يوسعوا سلطاتهم فيه. وخاصة بعد عزل خالد بن الوليد، وبعد محاسبة الخليفة عمر لعمرو بن العاص، حيث لم يدع له فرصة يدعم فيها نفوذه في مصر. بالمقابل أبناء البيت الأموي في اقليم الشام يسيرون قدماً في تدعيم قبضتهم على شؤونه يساعدهم على ذلك سياسة الخليفة عمر تجاههم وتمييزه لهم على سواهم.

حيث تجلت هذه السياسة من الخليفة عقب وفاة يزيد عندما عهد إلى معاوية بن أبي سفيان في إدارة ما كان خاضعاً لأخيه يزيد في الشام بالاضافة لتوسيع سلطات معاوية في هذا الأقليم، حيث عبر الخليفة عن ذلك عند عزل شرحبيل بن حسنة عن الأردن، وأعطاه لمعاوية[٢] بذلك كان معاوية يتولى الأردن وفلسطين عندما توفي الخليفة عمر. بالمقابل اعتمد الأمويون سياسة مرسومة تهدف إلى تجنب إثارة شكوك الخليفة عمر نحوهم[٣].

بعد وفاة الخليفة عمر بن الخطاب تابع بنو أمية سيرهم في خطى وئيدة حازمة، حيث تولى زعامة بني أمية في هذه المرحلة من العمل والبناء معاوية بن أبي سفيان.

فلما ولي الخلافة عثمان بن عفان انطلقت مطامح أقربائه من بني أمية، وعمدوا إلى استغلال صلة القربى بينهم، وبين هذا الخليفة لتحقيق أمانيهم. حيث لم يستطيعوا اخفاء

---

(١) المرجع نفسه – ص:٣٢.
(٢) الطبري – ج ٤ – ص:٢٠٣.
(٣) ابن عبد ربه – ج ١ – ص:١٤–١٥.

شعورهم يؤكده قول أبو سفيان في أحد مجالسهم بعد أن سألهم وهو أعمى أفيكم أحد غيركم فنفوا فقال: «يا بني أمية تلقفوها تلقف الكرة فوا الذي يحلف به أبو سفيان ما زلت أرجوها لكم ولتصيرن إلى صبيانكم وراثة».

لقد أدرك معاوية أهمية اقليم بلاد الشام ودوره للاحتفاظ بالخلافة في بني أمية ووضح ذلك عندما أطلق عثمان بن عفان لمعاوية ولغيره من بني أمية الحرية في إدارة الولايات الإسلامية. فدعم معاوية نفوذه في اقليم بلاد الشام بعد أن أصبح والياً عليه كله.

لقد أثار تصرف عثمان بن عفان إلى تغيير طرأ على مجتمع الحجاز، حيث خرج بعض الصحابة يثيروا الناس ضد عثمان وعماله، كأبي ذر الغفاري الذي كان ينتقل بين مكة والمدينة ودمشق محارباً اكتناز المال. رغم ذلك ظهرت المعارضة في البلاد الإسلامية بشكل خطير فلم يكن من معاوية من دون ولاة عثمان على الأقاليم إلا أن أخذ يدافع عن عثمان وعن تصرفه معتمداً مقدرات بلاد الشام. ففكر في نقل مقر الخلافة إلى الشام، وأوضح ذلك عندما دعا عثمان بن عفان ولاته سنة (٣٤ هـ) إلى مجلس للتشاور في القلاقل والفتن، وبعد أن إنتهى المؤتمر كشف معاوية عن أطماعه في بقاء الخلافة في بني أمية.

انتهت الصراعات إلى قتل الخليفة عثمان بن عفان ودفنته زوجته وأرسلت بقميصه، وعليه الدم، وأصابعها التي قطعت إلى معاوية، لتحرضه وأهلها من قبيلة كلب بالشام على الأخذ بالثأر.

كان مقتل عثمان بن عفان سبباً رئيساً لدخول الأمويين مسرح السياسة، والعمل على نقل الخلافة إلى أسرتهم.

وبعد مبايعة الإمام علي بالخلافة، وقف الأمويون موقف المنتظر المتربص دون أن يكشفوا عن نواياهم أو أن يقحموا أنفسهم في ذلك. ولم يطل انتظارهم، حتى وقع حادث مفاجىء كان لصالحهم هو أن طلحة والزبير كانا قد توجها من المدينة إلى مكة يضاف إليهما موقف عائشة ومناداتها بضرورة القصاص من قتلة عثمان وأخذ هذا الحلف على أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب الخليفة الجديد أنه أبطأ في عقاب قتلة عثمان، فاتجهوا إلى البصرة. لقد كانت مطالب هذا الحلف الجديد القصاص من قتلة عثمان ستاراً يخفون وراءه أهدافهم في الحكم والسيادة.

وكانت وقعة الجمل حيث خسر التحالف وانتصر علي. بعد موقعة الجمل اتجه علي نحو معاوية بعد أن قرر عزل كافة عمال عثمان بن عفان، ومن بينهم معاوية، حيث اختار

مجموعة من العمال، وبعث بهم على الولايات الإسلامية، وكان الذي أرسله علي إلى أقليم بلاد الشام هو سهل بن حنيف، حيث عجز عن دخول هذا الاقليم، لأن جند معاوية كانوا قد تصدوا له عند تبوك، فكان ذلك أن فرض القتال بين علي بن أبي طالب، وبين معاوية ابن أبي سفيان، واستعد الطرفان للحرب استعداداً واسعاً.

سياسة الأمويين الخارجية:

كان اللقاء بين الأمويين والبيزنطيين بعد بدء الفتوحات تتجلى من خلال هذه الفتوحات إذ اضطلع معاوية بمهمة فتح المدن الساحلية لبلاد الشام، فأدرك من العمليات الحربية بينه، وبين البيزنطيين كما أدرك خصمه وعناده.

فالمعارك التي دارت رحاها بين العرب والبيزنطيين في بلاد الشام، كانت في اتجاهات حددتها جغرافية بلاد الشام، كما ورتبت أحداث الوقائع حسب مسرحها الطبيعي.

كانت المنطقة الساحلية موضع اهتمام البيزنطيين ورعايتهم، حيث أقاموا في مدنها المعاقل للدفاع عنها، وخصصوا حاميات كبيرة لشد أزرها منها حاميات قيصرية، وعسقلان، وغزة، ويافا.

ولقد أدرك العرب، خطورة بقاء المدن الساحلية لا سيا صور وعكا في أيدي البيزنطيين، وذلك عند الفتوحات وخاصة جنوب سورية لأن هذه المنطقة كانت تأتي منها الامدادات بمختلف أنواعها، معرقلة تقدم عمرو بن العاص، فطلب عمرو بن العاص من أبو عبيدة كونه القائد العام لجيش المسلمين أن يمده، فطلب أبو عبيدة من يزيد بن أبي سفيان أن يسير من دمشق لمعاونة عمرو بن العاص، فلبى يزيد الدعوة، وتوجه إلى السواحل، وعلى مقدمته أخوه معاوية[1] حيث أدرك معاوية منذ ذلك الحين أن هذه المنطقة هي مفتاح لبلاد الشام، وأن السيطرة عليها تؤدي لحماية بلاد الشام.

ولقد أظهر معاوية في فتح هذه المنطقة عبقرية مبتكرة[2] عندما ترك يزيد لمعاوية مهمة إخضاع هذه المدن، وعاد هو إلى دمشق.

كانت الأحداث في بلاد الشام في ذلك الوقت تسير بما يزيد في قوة معاوية، ويجعله ينعم

---

(١) البلاذري - فتوح البلدان - ص:١٢٢.
(٢) البلاذري - فتوح البلدان - ص:١٢٣.

بانتصاراته. فانتقال عمرو بن العاص إلى مصر، ثم وفاة أخيه يزيد، كان قد مهد له الجو للانفراد بإدارة شؤون الشام واستكمال فتوحاته.

لقد أتت سياسة معاوية في تحصين المدن الساحلية ثمارها، حين جدد البيزنطيون إغارتهم عليها بشكل عنيف. ثم إن معاوية وضع في هذه المدن جنداً جديداً ومما ساعد معاوية على مقاومة البيزنطيين، واستمراره في فتح بلاد الشام، وخاصة ساحله وموافقة عمر ابن الخطاب ليزيد، على ذلك ومتابعة عثمان بن عفان سلفه في الموافقة لمعاوية بفتح ما تبقى من مدن الساحل.

لقد أدرك معاوية أن الحرب ضد البيزنطيين تتطلب إعداد طاقات البلد الذي يديره، فعمل للقضاء على المعارضة، وسعى لاستقرار البلد، ثم توجه لانتقاء القادة الذين يعرفون كيف ينفذون خططه وأهدافه. وكيف يقودون الأساطيل عبر المياه بنفس المهارة والبراعة التي يعمل بها عدوهم.

وجد معاوية في القبائل اليمنية في بلاد الشام ضالته لتحقيق ذلك وهم في البلاد منذ ما قبل الإسلام (وعرف عرب الجنوب باليمنيون ثم عرب الشمال بالمضريين).

استطاع معاوية أن يتقرب إلى القبائل اليمنية في الشام، حتى استطاع أن يكسبهم، وعلى الأخص قبيلة كلب عندما استطاع أن يضمها إلى دائرة نفوذه، حيث تعتبر أهم وأقوى القبائل اليمنية في الشام.

كانت هذه القبيلة وريثة مجد الغساسنة، وكانت عظمتهم تستند إلى أسس اقتصادية فهم كانوا يملكون غوطة دمشق، ومنطقة جنوب جبل حوران، وواحة دومة الجندل وتبوك.

أخذ معاوية يعمل على تنظيم هذه القبائل حتى غدا اليمنيون غالبية الجيش الشامي، وعدته ضد البيزنطيين. وكان شعارهم مشيئة معاوية وطوع ارادته، وقد كان لهم دورهم الرائع في الحملات البحرية حيث اعتمدهم معاوية في الميدان البحري، وتعبئة أساطيله منهم لما تتطلب هذه المهنة من اخلاص تام، حيث أثبتوا ثقتهم[1] في حملاتهم البحرية لما امتازت بالعنف والشدة. وكان رد معاوية على ذلك أن أجزل لهم العطاء، وكانت قبيلة الكلبيين من اليمانيين يأتون في المرتبة التالية للسقيانيين في العطاء، فقد نال ألفان منهم شرف

(١) كارل بروكلمان – تاريخ الشعوب الإسلامية – طبعة بيروت ١٩٧٤ – ص:١٢٥-١٢٦.

العطاء لكل منهم ألف درهم. كما منحهم معاوية حق تنظيم شؤونهم المحلية دون تدخل من الحكومة المركزية[1].

عمل معاوية على إعداد هيئة مباشرة تقوم بتنفيذ مشاريعه الحربية ضد بيزنطة وكانت هذه الهيئة مختارة من المقربين المخلصين، حيث ظهر منهم في ميدان العمليات الحربية ضد بيزنطة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، حبيب بن مسلمة، بيشر بن أبي أرطأة، الضحاك ابن قيس، الأعور السمي، شرحبيل بن الصامت الكندي.

لقد اعتمد معاوية سياسة اختيار ذوي التجارب الواسعة، أو ممن لهم مطامح يمكن استغلالهم عن طريقها، لتدعم نفوذه في الشام، ثم متابعة مشاريعه ضد بيزنطة، حيث تفانى أولئك القادة في الدفاع عن أرض الإسلام ضد هجمات البيزنطيين.

ومن أهم هؤلاء القادة الذين تفانوا في محاربة البيزنطيين شخصية أمير البحر في عهد معاوية عبد الله بن قيس الحارثي من بني فزاره، ذلك القائد الذي قام بخمسين غزوة بحرية صيفاً وشتاءً ودفع حياته آخر الأمر حينما خرج في أحد قوارب الاستطلاع، لدراسة أحد موانىء بيزنطة، وكان مختفياً في زي أحد التجار حيث قتل[2].

كانت الدولة البيزنطية تشهد فترة مماثلة إذ حاولت السلطات فيها أن تلم شتاتها، وتضم صفوفها، وتنهض من عثرتها التي أوقعتها فيها الفتوحات الإسلامية.

لقد خرجت الأمبراطوية الرومانية بعد اصطدامها مع معاوية بدرس جديد جعلها تتخلى عن مشاريعها، وأحلامها القديمة في استرداد بلاد الشام، لكن الزمن قد تغير لصالح معاوية عندما وصلت حملاته إلى أسوار القسطنطينية التي تمكنت بعد الاستماته في المحافظة عليها أن تضمن لنفسها البقاء.

لم تكن العزلة صفة العلاقات بين بلاد الشام، والبيزنطيين زمن الأمويين - فصلة الجوار من جهة، وقيام الحروب بينهما أدى بالضرورة إلى ظهور نوع من العلاقات الدبلوماسية غايتها حل المشاكل بينها. إلا أن التمثيل الدبلوماسي بينهما، لم يؤد إلى قيام ممثلين دائمين في كل منهما، وإنما كان التمثيل يقتصر على إرسال السفراء عندما تقتضي الضرورة، ثم تنتهي مهمتهم بانتهاء المهمة أو المناسبة.

---

(١) كارل بروكلمان - ص:١٤٩.

(٢) الطبري - ج ٥ - ص:٥٣.

ولتحقيق ذلك اتبع الطرفان جملة من البروتوكولات الدبلوماسية، كان منها تزويد السفير بخطاب يحمل تعريفاً بشخصيته، والغرض من رسالته، وتخويله حق التحدث رسمياً باسم دولته. ولتحقيق ذلك كان كلا الطرفان يعملان على أن يتحلى السفير بالحصانة الدبلوماسية انطلاقاً من اعتباره وفداً للدولة وله كافة الحقوق التي يحملها رئيس الدولة.

واعتمد الطرفان مبدأ الحفاوة والتكريم بالسفراء حيث اعتمد كل منهما أثناء قيام أحدهما بإرسال سفراء إلى الطرف الآخر إلى إظهار مقدراته وحالته القصد ترك أثر طيب في نفسه من جهة، وتصفية الأحقاد بينهما من جهة أخرى. علماً أن كلا الطرفين كان يخصص مبالغ كبيرة من ميزانيته لمثل ذلك.

فمن ذلك ما حدث بعد انتهاء حصار القسطنطينية المعروف بحرب السنوات السبع عندما أرسلت بيزنطة إلى دمشق، وكان معروفاً عنها حسن انتقاء سفرائها إلى دمشق عندما أرسلت سفيراً مسناً حكيماً اسمه يوحنا. حيث استطاع عقد صلح مع دمشق مداه ثلاثون سنة. وعاد إلى بلاده مزوداً بنقل الأخبار عن قدرة السلطة الأموية، وكان أيضاً يحرص أن يكون السفراء عنواناً للخلق الرفيع مزودين بتعليمات مكتوبة تحضهم على التمسك بمكارم الأخلاق، وأداء أمانتهم بصدق، حيث كان يتوقف عليهم إلى حد كبير تنفيذ أغراض الدولة ورفع شأنها

وفي هذا المجال يذكر لنا ابن طباطبا[1] حديث سفير معاوية إلى القسطنطينية لإبرام هدنة معها، وكان هذا السفير مزوداً بتعليمات تنص على أن لا يخفف من شروط الهدنة إذ أن هذا السفير كان أضعف من أن يمثل معاوية، حيث لم يستطع تنفيذ وصيته. وتهاون في عقد الهدنة حتى كانت نتائجها في صالح عدوه.

أما ابن الفراء فيذكرنا بسفارة عامر بن شرحبيل الشعبي عندما أوفده عبد الملك بن مروان إلى أمبراطور بيزنطة في رسالة خاصة[2]، حيث دخل في مناقشات جعلته موضع احترام واجلال، عندما استطاع إثبات وجوده في ميدان السياسة.

لقد تعددت المهام التي نفذها السفراء بين دمشق وبيزنطة. إلا أن أبرزها كان: أنها

---

(١) ابن طباطبا الفخري – ص: ٦١-٦٢.

(٢) ابن الفراء – أبي علي الحسين بن محمد المعروف بابن الفراء رسائل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة. طبعة بيروت ١٩٧٢ ص ١٠

مسألة حرب، أو الابقاء على فترات السلم أطول مدة ممكنة. إلا أن الفداء والسفارة من أجله فقد اقتصر على حالات فردية[1].

لقد كان كلا الطرفين يعملان على وضع برنامج خاص لضيافة السفراء، فخصصت لهم دور في العاصمة يقيمون بها طوال فترة وجودهم وقيامهم بمهامهم. كما كان الأمويون يحرصون على عرض حضارتهم العمرانية على السفراء الموفدين للقيام بمهام عندهم، وبالعكس، فقد فعل البيزنطيون مثل ذلك من عرض لحضارتهم، حيث كانت تقام ألعاب يقيمونها في الملاعب، وغير ذلك من مظاهر الحفاوة والاحترام والتقدير.

في العصر الأموي:

استطاع الأمويين أن يجعلوا من بلاد الشام وحدة سياسية واقتصادية طوال فترة وجودهم، فالخليفة كان صاحب السلطة المطلقة[2]، إلا أنه كان يحيط به جو من الخوف والعنف[3]، لأنه كان معرضاً في كل وقت إلى أن يقضى عليه بنفس الوسائل التي قضى على خصومه وارتقى العرش بها.

وهو ذاته كان يخرج إلى الحرب على رأس جيش[4] مؤلف من خليط من المقاتلين مسلحين بالقسي والسهام والحراب والسيوف والدروع، وبعض الأسلحة الثقيلة الأخرى، والمنجنيق والدبابة وغيرها.

علماً أن الحروب الخارجية كانت تنشب لأسباب اقتصادية أهمها: السيطرة على طرق التجارة، والاستحواذ على السلع التجارية، كما كانت تنشب لأسباب سياسية غايتها الغلبة

---

(1) المقريزي - الخطط - ص:191.

(2) محمد أديب آل تقي الدين الحصني - منتخبات التواريخ لدمشق - طبعة بيروت 1979 - ج 1 - ص:113.

(3) رأينا كيف وصل معاوية إلى السلطة ورأينا أيضاً كيف انتقلت إلى المروانيين أثناء بروز عبد الله بن الزبير وغير ذلك (عبد المنعم ماجد - التاريخ السياسي - ص:21).

(4) موقعة صفين كان الخليفة أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب رأس جيشه وكان معاوية على رأس جيشه وكان الضحاك خصمه مع ابن الزبير على رأس جيشه كما توجه عبد الملك بن مروان إلى العراق على رأس جيش للقضاء على الفتن فيها وقتال مصعب بن الزبير وغير ذلك. كما كان آخر خلفاء بني أمية مروان على رأس جيشه في صراعه مع خصومه.

والسيطرة، وما أكثرها في الحروب الأموية[١]. والغالبون في بعض الأحيان، وعلى الأخص في الحروب الخارجية كانوا يبيعون المغلوبين ليكونوا عبيداً[٢].

كانت النزعة الانفصالية تسود الدولة التي سيطر عليها الأمويين، فكان ذلك باعثاً على الضعف في بعض المراحل، وعلى الفتن والثورات والنزاعات الداخلية[٣].

كان نظام الاقطاع إحدى الوسائل لحفظ النظام الاجتاعي، فقد زرع الأمويون أفراد بيتهم، والمخلصين لهم فأعطوهم مساحات واسعة من الأرض، فكان واجب كل منهم المحافظة على اقطاعيته، كما كان واجبه تقديم حاجة الخليفة من الجند والعتاد عند إعلان التعبئة العامة.

أما موارد الدولة، فكانت تتكون من ضرائب تجبى وتختزن في مخازن الدولة، حيث يقدم منها مرتبات موظفي الدولة وعمالها. وكان يقوم إلى جانب قانون النظام الملكي المحدث طائفة من القوانين تستند إلى قوانين من صدر الإسلام (عهد الرسول والخلفاء الراشدين).

أما المحاكم في العصر الأموي، فكانت تعقد جلساتها في أوقات معينة، ومعظم القضاة كانوا يعينون من رجال الدين وبعضهم الآخر كانوا من الفنيين المختصين وقد يكون الخليفة الأموي أحياناً هو المحكمة العليا.

كانت الحكومة في بلاد الشام تعتبر من أحسن الحكومات نظاماً في العصر[٤] الأموي ومن إدارتها في دمشق الولاة، وقاضي القضاة، ورئيس بيت المال وغيرهم.

كان يقف على خدمة الخليفة الأموي في دمشق عدد كبير من مختلف الوظائف، وكانت سياستهم تبرر اخضاع كثير من الدول طوعاً أو اكراهاً لسلطان حكومتهم في دمشق[٥].

---

(١) كصراع الأمويين مع البيزنطيين.

(٢) كما حدث في فتح الأندلس في الغرب والهند وغيرها في الشرق.

(٣) عبد المنعم ماجد - التاريخ السياسي للدولة العربية - عصر الخلفاء الأمويين - طبعة مصر ١٩٥٧ - ج ٢ - ص:٦٦.

(٤) ظافر القاسمي - نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي (السلطة القضائية - طبعة بيروت ١٩٧٨ - ص:٥٦ وما بعدها).

(٥) السيوطي - تاريخ الخلفاء - ص:٢٣١.

فالدولة الأموية ذات الأمبراطورية الواسعة كانت تتمتع بقسط من الحرية، حيث احتفظت بعض أقاليمها الكبرى بحظ وافر من الحكم الذاتي المحلي. مصر وعليها عمرو بن العاص في عهد معاوية[1]، العراق وعليها زياد بن أبيه، وابنه عبد الله بن زياد في عهد معاوية وابنه يزيد، كما تمتعت أيضاً نفسها (العراق)، وعليها الحجاج في عهد عبد الملك[2] وغيرهم.

وكان من شأن ذلك أن يؤدي إلى التراخي في السلطة المركزية وإلى قيام ثورات محلية[3]، فكان ذلك من عوامل، أو من دواعي اعادة الفتح للبلاد واحدة بعد الأخرى[4].

والرد من السلطة الأموية على هذه التحولات كان الجيش دعامة للدولة، وأهم مقوماتها، والقوة الثابتة التي كان يعتمدها الأمويون هي قوة الدين.

كان الاسراف من السلطة الأموية في العنف[5] من أكبر الأسباب في ضعف الدولة. فالثورات المتكررة لم تكن مقصورة على أهل الأقاليم، وإنما كان بعضها يأتي من قبل أسر الخليفة الأموي ومن داخل قصره[6].

فنظام الوراثة سبب قيام ثورات كبيرة من الداخل والخارج، كما سنرى، فبعض الأقاليم كانت تنتهز فرصة من الفتن الداخلية من فوضى واضطراب، لكي تعلن غضبتها وانفصالها.

لقد كانت حياة الناس في عهد الدولة الأموية سياسية وحربية أكثر من اقتصادية، وعماد ثرواتها القوة لا الصناعة فسلطة الخليفة الأموي مطلقة، وقانون الدولة كانت إرادة هذا الخليفة وقوة جيشه.

قسمت الدولة الأموية إلى أربعة عشر اقليماً وهي مؤلفة من ثلاث وثمانين ولاية الغاية

---

(١) ابن سعد – ج ٤ – ص:٢٥٨.

(٢) الطبري – ج ٦ – ص:٢٠٢ – وما بعدها.

(٣) ثورة الحسين بن علي – ثورة عبد الله بن الزبير – ثورة العباسيين.

(٤) كما حدث عندما عاد الأمويين فتح شمال أفريقيا في الغرب – وحدث مثل ذلك أيضاً مثل ذلك إعادة للفتوحات. (التاريخ السياسي – عبد المنعم ماجد – ج ٢ – ص:١٧٦.

(٥) البلاذري – قسم رابع – جزء أول – طبعة بيروت ١٩٧٩ – ص:٣٦٢.

(٦) ابن الأثير – ج ٦ – ص:٢٨١.

من هذا التقسيم سهولة إدارتها، وجباية خراجها وفي كل ولاية يعين وال، وقد يجمع الواحد منهم أكثر من ولاية[1] حيث كان يشمل أحياناً اقليماً كاملاً.

فكانت نفقات الجيش تستنفذ الجزء الأكبر من مصروفات الدولة، فمعاوية بعد استلامه السلطة، أخذ يعد العدة لحصر الخلافة في البيت الأموي، وجعلها وراثية[2].

فقوي عزمه على البيعة لابنه يزيد، وأخذ يمهد للبيعة، وذلك بإظهار يزيد بمظهر المجاهد، ولكي يمحي عنه من ذاكرة المسلمين ما عرف عنه من خلاعة ومجون، وعكوفة على الشراب، وذلك بأن أرسله لغزو القسطنطينية[3].

ثم أرسل بعد ذلك إلى بعض ولاته[4] يأمرهم باعداد الناس نفسياً لقبول مبدأ مبايعة يزيد، مغيراً بذلك نظام الشورى إلى نظام وراثي، كما استعمل بعض ولاته، وخاصة واليه على المدينة سعيد بن العاص[5] العنف والغلظة لمن يعارضه في قراره هذا.

كان معاوية يقول عن نفسه أنا أول الملوك[6]، علماً أن الوسائل الملتوية التي اتبعها للوصول إلى السلطة، كانت من اصطناع الخديعة والمكر والدس والرشوة، لتأليب الناس على علي بن أبي طالب، فكان بذلك يبتعد عن المثل العليا التي اتبعها الخلفاء الذين سبقوه[7].

اتخذ معاوية مدينة دمشق عاصمة للدولة، ومركزاً للخلافة، كما أحاط نفسه بأبهة لم يشهدها العرب من قبل، وهو أول من أدخل المقصورة في المسجد[8]، وهو أيضاً أول من استحدث المئذنة[9]، وإليه يعود الفضل في بناء البحرية العربية الإسلامية[10].

---

(1) كما حدث للحجاج عندما جمع له عبد الملك بن مروان العراق والمشرق كله - وفعل معاوية مع عمرو بن العاص عندما جمع له مصر وشمال أفريقيا.
(2) عبد العزيز سالم - تاريخ الدولة العربية - طبعة بيروت ١٩٧١ - ص:٦١١.
(3) اليعقوبي - ج ٢ - ص:٢٢٩.
(4) عبد العزيز سالم - تاريخ الدولة العربية - ص:٦١٣.
(5) اليعقوبي - ج ٢ - ص:٢٣٢.
(6) عبد العزيز سالم - تاريخ الدولة العربية - ص:٦١٤.
(7) المرجع نفسه - ص:٦١٨.
(8) عبد العزيز سالم - تاريخ الدولة العربية - ص:٦١٨.
(9) إبراهيم أحمد العدوي - ص:٨٢.
(10) المسعودي - مروج الذهب - ج ٢ - ص:١٥٤.

. إن سعة الصدر التي تمتع بها معاوية جعلته يبتعد عن الانتقام من خصومه لا بل كان يبذل لهم الأموال ويقربهم[1]، وإذا لم يكفِ الحلم عمد إلى المخادعة أو البذل، حيث كان لا يلتقي به واحد ممن يأمن بطشهم إلا رجع راضياً، وكان معاوية يقول عن خصومه يقولون فنسمع ويخادعوننا فنخدع. كما كان معاوية يحتمل الطعن والنقد من رؤساء القبائل، وأهل البيوتات، وزعماء الأحزاب ولو أطلقوا عليه ألسنتهم[2].

وكان إذا خاف عدواً لا يقدر عليه بالسيف، ولا يستطيع اخضاعه بالمال احتال عليه، فقتله غيلة بالسم كما فعل مع الحسن بن علي[3]، ومع عبد الرحمن بن خالد بن الوليد[4]، وكما فعل مع ابن الأشتر عندما ولي مصر.

تمكن معاوية بالدهاء من نيل الخلافة، وتوريثها لابنه، ثم صارت في بني مروان (ابن طريد – رسول الله) إلا أنه لم يتمكن من إنهاء المقاومة ضده من طلاب الخلافة.

فثار خصومه في الحجاز[5]، عبد الله بن الزبير، المختار في العراق[6] وغيره، حيث اجتمع سنة (٦٨ هـ). أربعة ألوية في عرفات، كل منها لأمير يطلب الخلافة لنفسه، أحدها لبني أمية، والآخر لمحمد بن الحنفية وصاحبه المختار، والثالث لعبد الله بن الزبير، والرابع لنجدة بن عامر الحروري من الخوارج.[7]

لقد كان العطاء من أكبر العوامل التي ساعدت بني أمية في اصطناع الرجال[8]، وكسر شوكة أعدائهم. كما كان يلجأ الأمويون للعطاء لمن يشهد الوقائع الهامة معهم ونصرهم، كموقعة صفين، وقتالهم عبد الله بن الزبير، وصراعهم مع الحسن والحسين ابنيّ عليّ. حيث

---

(١) ابن خلكان – ج ١ – ص:٣٣٠.
(٢) المقريزي – النزاع والتخاصم – ص:١٣.
(٣) ابن الأثير – ج ٣ – المرجع نفسه ص١٣.
(٤) المرجع نفسه – ج ٢ – ص:١٧٩.
(٥) ابن عساكر – أبي القاسم علي بن الحسين بن هبة الله بن عبد الله الشافعي – المعروف بابن عساكر – مدينة دمشق (تراجم حرف العين عبد الله بن جابر – عبد الله بن الزبير) طبعة دمشق ١٩٨١ – ص:٤٦٣ وما بعدها.
(٦) البلاذري – أنساب الأشراف ج٥ ص١٨٨.
(٧) جرجي زيدان – ج ٤ – ص:٨١.
(٨) المسعودي – مروج الذهب – ج ٢ – ص:١٥٧ – ابن الأثير – ج ٣ – ص:١٥٠.

زادوا العطاء لأصحابهم[1]، فاستمر الأمويين على خط معاوية في هذا المجال، فأعطوا أحزابهم حتى فرضوا للشعراء خوفاً من ألسنتهم.

لذلك لا عجب إذا اضطر الناس إلى مسايرتهم، والإذعان لهم، وهم يعلمون أنهم يخالفون الحق بإذعانهم.ومما ساعدهم على اصطناع الرجال بالأموال أن خصومهم كانوا قليلي العطاء، حيث قيل: ما روي من الناس أبخل من عبد الله بن الزبير ومن أمثلة بخله الذي أفسد عليه أمره.

لما قتل أخوه مصعب بن الزبير المختار في العراق جاءه ومعه وجوه أهل العراق وطلب منه العطاء فقال له عبد الله بن الزبير: جئتني بعبيد أهل العراق لأعطيهم مال الله، والله ما فعلت فلما علموا بذلك انصرفوا من عنده وكاتبوا عبد الملك بن مروان، وغدروا بمصعب[2].

لقد أدى بذل الأموال لاصطناع الأحزاب من قبل بني أمية إلى خرق كثير من القواعد التي وضعها الخلفاء الراشدون . وعندما اضطر بنو أمية إلى اصطناع الرجال، وجمع الأحزاب، واسترضاء القبائل، حيث توفقوا إلى عمال أشداء لا يبالون بالدين، ولا بأحكامه في سبيل أغراضهم منهم زياد بن أبيه، وابنه عبيد الله، والمغيرة بن شعبة، وعمرو بن العاص، وغيرهم في عهد معاوية وفي عهد ابنه يزيد، الحجاج بن يوسف في عهد عبد الملك بن مروان، خالد القسري عامل هشام بن عبد الملك وغيرهم.

كان الخلفاء الأمويين يكتبون لعمالهم بجمع الأموال والعمال لا يبالون كيف يجمعونها، وكل الطرق مشروعة لديهم كالقهر، والظلم، والقسوة، والعنف. وكان العمال الأمويين يختزنون لأنفسهم الأموال الطائلة، حيث بلغت غلة أحدهم عشرة ملايين درهم في السنة، وزادت ثروته على مائة مليون درهم في السنة.

ذكرنا أن العمال كانوا يجمعون المال بأية وسيلة ومصادر جمعه كانت الجزية والخراج والزكاة والصدقة والعشور فكان عمال بني أمية يشددون في تحصيلها.

وأول من فعل ذلك الحجاج بن يوسف[3]، واقتدى به غيره من عمالهم في بقية أقاليم

---

(1) المرجع نفسه - ج ٣ - ص:١٠٧.
(2) ابن عبد ربه - ج ١ - ص:٢٨.
(3) جرجي زيدان - تاريخ التمدن الإسلامي - ج ٤ - ص:٨٨.

الدولة، عداك عما ارتكبه بنو أمية من زيادة الخراج، وفرض الضرائب[2]، والاستئثار بالفيء.

اضطر بنو أمية حتى للاستكثار من الأموال، فمدوا أيديهم إلى أموال الصدقات (الزكاة) التي تؤخذ من الأغنياء، وتنفق على الفقراء، فكثيراً ما كان بنو أمية يعطون الشعراء، ونحوهم من أموال الصدقات، وكثيراً ما كانوا يعمدون عندما يحتاجون للأموال إلى بيع الولايات بالرشوة، وخصوصاً في عهد ضعفهم، وفساد دولتهم.

لقد كان الوليد بن يزيد مثلاً يزيد الأعطيات ترغيباً في طاعته فلم يجد مالاً يكفيه فكان ما عمله أن باع ولاية خراسان وأعمالها ليوسف بن عمر[2].

كما أعطى معاوية عمرو بن العاص عامل مصر مكافأة لنصرته على عليّ بن أبي طالب.

ولقد زاد الأمويون الجزية والخراج وشددوا في تحصيلها، كما ضيقوا على الناس حتى، أخذوا الجزية ممن أسلم، وأما من لم يسلم، وبقي على دينه، كانوا يسومونهم سوء العذاب، ويحتقرونهم لأنهم ليسوا عرباً وليسوا مسلمين.

كما عمل الأمويون عندما طلبوا الخلافة، بمبدأ الاستخفاف بالدين يؤكد ذلك قول عبد الملك بن مروان، عندما أنهى عن المعروف[3] وكان أول من فعل ذلك.

وكان بعض الأمويين يرى الشدة، ويجاهر بطلب التغلب بالقوة والعنف، ولو خالف أحكام الدين، أكد ذلك عبد الملك بن مروان عندما صرح باستهانته بالدين[4]، يؤكد ذلك قوله عندما بلغه خبر تولية الخلافة، وكان يقرأ القرآن حيث قال: هذا فراق بيني وبينك، كما أباح لعامله الحجاج بن يوسف أن يضرب الكعبة بالمنجنيق، وأن يقتل خصومه دون رأفة ولا رحمة، وأن يحز رؤوسهم[5]، ويطوف بها في الأسواق. ثم هدمه الكعبة ووقده النيران[6] وقتلهم.

---

(1) المرجع نفسه - ج ٤ - ص:٨٨.
(2) ابن الأثير - ج ٥ - ص:١٢٥-١٢٦-١٣٢.
(3) المقريزي - ج ١ - ص:٥٠.
(4) المختصر - ج ١ - ص:٢٠٥.
(5) المرجع نفسه - ج ١ - ص:٢٠٥.
(6) ابن عبد ربه - ج ٢ - ص:٢٥٦.

لقد[1] وفق الأمويون إلى عمال أشداء زادوهم استبداداً وشدة، كما أن ولاتهم قد عظموا الخلافة الأموية، وأول من فعل ذلك الحجاج بن يوسف، حيث فضلها على النبوة بقوله:

«إن الخليفة عند الله أفضل من الملائكة المقربين والأنبياء المرسلين[2]».

ومن الأعمال الأخرى التي تؤكد أهمية أعمال بني أمية ما فعله المغيرة بن شعبة. عندما عين قائداً، لموكب الحجاج إلى الحجاز، فعمل أثناء ذلك لضرب أحزاب المعارضة للسلطة الأموية بعضها مع بعض[3].

وما فعله الحجاج وغيره من استخفاف، بالدين يجعلنا نقبل ما فعله الوليد بن يزيد. عندما رمى القرآن الكريم، بالنشاب وهو في سكره.

يقول في ذلك عن نفسه:

أتوعـــد كــل جبــار عنيــد فهـــا أنـــا ذاك جبـــار عنيـــد
إذا لاقيـــت ربـــك يوم حشر فقـــل لله مزقـــني الوليـــد[4]

إذن لم يكن هم بني أمية نشر الإسلام، بقدر ما كان همهم الفتح والتغلب على الخصوم، وجمع الأموال وما شابه ذلك.

لقد كان بنو أمية أول من وضع السجن، وعلى الأخص معاوية، وهو أيضاً أول من وضع الحرس، وعندما استلم السلطة سلم أعماله إلى عمال دهاة في العراق وفارس ومصر.

فأول عمال بني أمية الذين توخوا الشدة، والعنف زياد بن أبيه عامل معاوية في العراق، فكان الذين أكدوا السلطة لمعاوية، فأخذ بالظنة، وعاقب على الشبهة[5]، ثم عبيد الله بن زياد في خلافة يزيد، عندما قتل الحسين بن عليّ، وأتباعه وبنيه وبناته وأهل بيته[6].

---

(١) ابن الأثير – ج ٥ – ص:٣٦.
(٢) ابن عبد ربه – ج ٣ – ص:٦٨.
(٣) فيليب حتي – تاريخ سوريا ولبنان – ج ٢ – ص:٣٧.
(٤) أبو الفرج الأصفهاني – الأغاني – ج ٦٦ – ص:١٢٥. المسعودي – مروج الذهب – ج ٢ – ص:١٣٤.
(٥) ابن الأثير – ج ٣ – ص:٢٢٨.
(٦) المقريزي – النزاع والتخاصم – ص:١٣.

ثم الحجاج الذي أراد التشبه بسيرة زياد وابنه في الشدة والقسوة فبالغ في ذلك حتى أهلك[1] ودمر حيث لم يزجره أي رادع وإنما كان يشجعه ويعينه شدة عبد الملك بن مروان فكان ذلك من عوامل نقمة الشعب على الدولة وكثرة الخارجين عليها.

إذن كانت سياسة بني أمية مبنية على الشدة، من جهة، والحزم من جهة أخرى إلا أنهم تجاوزوا الحدود، وأطلقوا أيدي عمالهم في الأحكام يقتلون ويدمرون دون مشورة الخليفة في أكثر الأحيان، وتأكيداً على ذلك كان معاوية قد أرسل بعد التحكيم بشر بن أبي أرطأة، وأرسل معه جيشاً وأوصاه أن يسيروا في الأرض ويقتلوا كل من وجدوه من شيعة عليّ، وأوصاهم أن لا يكفوا أيديهم عن النساء والصبيان.

بعد هذا هل يستغرب أحد الحجاج، وكثرة من قتلهم صبراً حتى بلغ عددهم ١٢٠,٠٠٠.

هذا ويذكر عندما بلغته منيته أنه كان في حبسه ٥٠,٠٠٠ رجل و ٣٠,٠٠٠ امرأة[2] علماً أن عبد الملك كان أشد منه بطشاً، وغدراً في الإسلام، حيث وصف أنه أول من غدر بالإسلام بعد أن أعطى الأمان، كما فعل بعمرو بن سعيد بن الأشدق أحد أمرائه سنة (٦٩ هـ) عندما خرج عليه[3]، ومن أعمال بني أمية التي ساءت لهم في سياستهم:

أنهم كانوا يقتلون الخارجين عليهم، ويمثلون بهم إرهاباً وتخويفاً للأحزاب المعارضة، فكانوا يقطعون رأس الرجل، ويطوفون به من بلد إلى آخر ثم يصلبون الجثة في أماكن تجمع الناس، فكان أول رأس حمل من بلد إلى آخر رأس عمر بن الحمق الخوقي[4] أحد قتلة عثمان، وأول رأس طيف به في الأسواق هو رأس محمد بن أبي بكر دون[5] تقدير للخليفة الراشدي الأول ودوره التاريخي الفعال.

وأول رأس حمل إلى الخلفاء رأس هانيء بن عروة، وابن عقيل ثم رأس الحسين بن عليّ. وأرسلهم ابن زياد من الكوفة إلى يزيد بدمشق.

---

(١) ابن الأثير - ج ٤ - ص:٦٨.
(٢) المسعودي - مروج الذهب - ج ٢ - ص:١١٣.
(٣) ابن الأثير - ج ٤ - ص:١٤٦.
(٤) ابن قتيبة - المعارف - ص:١٨٧.
(٥) ابن عبد ربه - ج ١ - ص:٣٩.

كذلك فعل المختار برؤوس قتلة الحسين، عندما أرسلها إلى محمد بن الحنفية[1]، وفعل مثل ذلك الحجاج. عندما بعث برأس عبد الله بن الزبير ورؤوس أصحابه إلى عبد الملك ابن مروان. عندما أرسلها من مكة إلى دمشق أيضاً، وفعل ذلك أيضاً عبد الملك بن مروان برأس مصعب بن الزبير عندما قتله ووجه برأسه إلى دمشق من العراق[2].

إذن أصبحت عملية قطع الرؤوس والطواف بها، والتمثيل بها عبارة عن سنة اتبعها من جاء بعدهم، فلقد أصبح للرؤوس في دار الخلافة خزانة يضعونها[3] فيها، كما جرت العادة بصلب الجثث أو الرؤوس[4].

ومن ضروب التعذيب التي اتبعها الأمويون خلال سلطتهم أنه كان يأتى بالقصب الفارسي فيشق، ويشد على الرجل، وهو عار، ثم يسل قصبة قصبة، حتى يقطع جسده ثم يصب عليه الخل والملح حتى يموت[5].

أما الرقيق فقد كثر في العهد الأموي لأن عمالهم كانوا يرسلون بمئات أو ألوف منهم الأبيض، ومنهم الأسود للخلفاء كهدية، أو بدلاً عن الخراج أو نحوه[6].

وكان الخليفة بدوره يوزع ذلك في أهله أو قواده، فازداد عددهم بشكل مطرد، حيث تم استخدامهم من قبل العرب في مصالح صناعية أو زراعية أو حتى دينية وغيرها.

أما الموالي فقد تزايد أيضاً عددهم في العصر الأموي، حتى زاد على عدد الأحرار، ومع ذلك كان بنو أمية يحتقرون الموالي، وهم يعبرون عن هذا الاحتقار، حتى أصبح عددهم، كما ذكرنا كبيراً، فعظم هذا الاحتقار على الموالي، ونفرت قلوبهم منهم، وأصبحوا عوناً لكل من خرج عن الطاعة أو طلب الخلافة.

وأشهر من حاربهم بالموالي، والعبيد المختار بن أبي عبيد[7] فكان المختار بذلك أول من جندهم وفاز بهم (كان الموالي أعداء الدولة).

---

(١) ابن الأثير - ج ٤ - ص:١١٩.
(٢) المرجع نفسه - ج ١ - ص:١٦٢.
(٣) ابن طباطبا - ص:٢٤٨.
(٤) ابن عبد ربه - ص:٢٧٢.
(٥) ابن قتيبة - المعارف - ص:١١٥.
(٦) المسعودي - مروج الذهب - ج ٢ - ص:٣٥٤.
(٧) ابن الأثير - ج ٤ - ص:١٢١.

الفصل الثاني

الحالة الاقتصادية والإجتماعية

الفصل الثاني

الحالة الاقتصادية والإجتماعية

المظاهر الإجتماعية والإقتصادية:

حقق الأمويون لبلاد الشام، وللعالم الإسلامي حضارة متطورة من جهة، ووحدة سياسية من جهة ثانية. وفكرة المساواة في الحقوق، التي كانت سائدة فيما يتعلق بالأخلاق والمثل، حل محلها في العصر الأموي، مبدأ السلطة المركزية الواحدة، بالرغم مما باعد بين أقاليم هذه الدولة من انقسامات وخصومات وأحياناً منافسات.

إن النزعة التي جاشت في ضمائر الأمويين، بإنشاء أمبراطورية واسعة، كانت قد تبنت حركة الفتوحات، بعد القضاء على المنازعات الداخلية، كما استطاعت أن تفرض سياسة أساسها التوازن النسبي، بعد أن فرضت السلطة المطلقة، لحكم واحد وإدارة واحدة.

أما ولايات الدولة، فقد تحولت في العهد الأموي إلى دول شبه متصلبة مستقلة من كل تبعية، إلا من تبعيتها للسلطة المركزية في العاصمة دمشق، أو في أي رابطة تجاه غيرها على أساس من التوازن القوي فيما بينها.

كانت بلاد الشام أبان السيطرة الأموية رغم بطء المواصلات، وكثافة السكان، حيث تبدو شاسعة، واسعة تتكون من مناطق خصبة تفصل بينها مساحات شبه صحراوية، وغابات وجبال، ومدن مكتظة بالسكان، ومدن متفرقة.

إن هذه الجغرافيا السياسية التي جاءت حتمية، لتاريخ بلاد الشام في العصر الأموي، حيث وجدت في هذه البلاد نزعة تتفاوت قدراً، ونسبة نحو الاندماج والانصهار، وإن

بدت غامضة في بعض الأحيان، حيث انصهرت منذ بداية الأمويين مع السلطة، واعترفت بمبدأ الولاية والتبعية للسلطة، وقد جاء ذلك وفقاً، لعهود نصت من جهة السلطة على احترام أعراف وتقاليد، وعادات بلاد الشام المرعية، وعلى حقها بأن يتولى الإدارة فيها موظفون محليون من سكانها.

لقد استطاعت بلاد الشام بما تم لها من اتساع الرقعة، وانبساطها، وتوزع السكان في المدن بنسب متفاوته أن تتحمل أي صدمة حربية تتعرض لها، دون أن تحسب حساباً لأي احتمال تصدع أو تفكك، بعد أن أمن الأمويون فيها ما هم بحاجة إليه من العدة والعتاد، ومن موارد تفي بأود الحرب، ونفقاتها المرهقة.

لقد اتجهت الدولة في بلاد الشام وخارجه في تطورها، وتطلعها إلى التكامل نحو الملكية المطلقة (الحكم الاستبدادي)[1] وتجلى ذلك عندما جسم الخلفاء الأمويون في شخصيتهم المثل الوطنية وتمتعهم بقانون يمنحهم كل مؤهلات السلطة العليا ومقوماتها وصلاحياتها، كحق التشريع، وسن القوانين، وحق إقامة العدل، وإشاعته بين الناس، وفرض الضرائب وجبايتها، وتجييش الجيوش وتكتيب الكتائب، وتعيين العمال، وإنزال القصاص الصارم بمن يتطاولون على مصلحة الدولة لا سيما من يتعرض منهم للسلطة الملكية، وذلك بفضل ما تتمتع به السلطة من صلاحيات مطلقة.

لقد امتاز حكام بلاد الشام بحب الوطن الذي كان يبعث الحيوية والنشاط، ويحملها على تحقيق وحدة هذه البلاد، وكان مصدر هذا الحب التعلق بأقليم الشام، وبسكانه الذين يحملون الولاء للسلطة التي تشحذ الروح الوطنية في النفس، والجهاد ضد العدو خارجياً كان أم داخلياً.

إذن فالسلطة كانت تعمل على ايقاظ النفوس، والاهتمام بالمصالح العامة المشتركة لهذا الأقليم، بحيث تبعث الحرية التي كانت تصدر عن أعماق النفس.

لقد كان سكان بلاد الشام ينعمون بالوحدة والاستقلال المرتبط بالسلطة المركزية مباشرة، والتي يمثلها الخليفة الأموي الذي كان يعتبر بطلاً قومياً نظراً لحاجة الشعب له في البلاد، لأن مثل ذلك يعتبر من المتطلبات التي يقتضيها صراع الأمم.

---

(١) الحصني - ص:١١٣.

إن بروز الأمويين على رأس دولة كبيرة جعل لها من القوة، والبطش ما يجعلهم يسيطرون على المنازعات الداخلية، ويحزمون أمرهم، لبسط سيطرتهم على الخارج.

لقد انطلقت حروب داخلية واسعة الانتشار، طويلة الأمد ابتدأت مع وجود الدولة، وانتهت بزوالها، حيث كان معظمها في سبيل توطيد تفوق الدولة ووحدتها الاقتصادية والسياسية.

فالحرب تتطلب تقوية السلطة وتعزيزها، كما تتطلب حكومة قوية تتخذ بمنتهى السرعة، قرارات تسهر على تنفيذها مهما كانت الظروف.

أدرك الأمويون أن قيام سلطة قوية، كان من مقتضيات الأمم ومتطلبات كيانها، لذلك أدركوا أنه كان لا بد من أن يكون جانب السلطة قوياً، ليقضي في اختلافاتها، حيث كان شعاره استمرارسلطتهم لذلك كانت السلطة تعمل، بحيث تؤمن الانسجام التام بين أعمالها وتصرفاتها، لما فيه الخير الذي يعم الجميع.

لقد لاحظنا المنافسات التي نشأت بين ممثلي البيوتات الكبيرة في قريش على السلطة، وتكوينهم أحزاب معارضة في أماكن مختلفة، حيث اتبع الأمويون في القضاء عليها كل أساليب الغدر والخديعة.

لقد كانت هذه الأسر، ترتبط مع بعضها البعض، بوشائج الدم، وأواصر التبعية، وروابط المصاهرات والتزاوج إلا أن ذلك لم يمنع من حدة المنافسة بين هذه الأسر رغم متانة الروابط التي جمعت بينها.

لقد تمكن الأمويون من أن يجدوا في بطانتهم ولاة، كانوا يسعون لنصرة السلطة، فكانوا يعتبرون أنصاراً ومريدين، وكانوا على أتم استعداد لشد أزر السلطة إذا ما تعرضت للعصيان والتمرد والتآمر. علماً أن السلطة الأموية كانت واثقة من قدرتها على التغلب على خصومها، بما تملكه من مقدرات.

أدرك الأمويون أن تمتين حكمهم الاستبدادي، يجب العمل على ترسيخه في القلوب والنفوس انطلاقاً من سكان بلاد الشام، فعملوا على خلق الصراع الطبقي في البلاد من جهة، والصراع القبلي مع خلق توازن نسبي، بما يكفل لهم تحقيق ما يرغبون، فالسلطة الأموية كانت تسعى، لخلق طبقة برجوازية، تسلم إليها مقاليد الأمور في أقليم الدولة، نتيجة شعورها بالحاجة لمثل ذلك، كونها تقدم للإدارة الملكية الموظفين، وعمال وأموال طائلة، بالإضافة لموقفها المعارض للأحزاب بالعنف والاضطهاد.

لقد كان من السهل على السلطة الأموية، تأمين ولاء هذه الطبقة من العمال ومساندتها، لأنها ساعدت على خلقها، كما ساعدت على انماء الثروة لديهم بما عهدت إليهم من تكليف لجباية الرسوم، وبما أولتهم أيضاً من حقوق فرض الاحتكارات، وحمايتهم من مفعول القوانين، ووقوفها إلى جانبهم ضد العراقيل، والمصاعب التي قد تثار ضدهم.

كل ذلك كان من العوامل التي هيأت لهم الظروف التي تساعدهم على الاثراء، وأن يحققوا ما حلموا به. لقد أدركت هذه الطبقة من العمال، أن السلطة المركزية هي وحدها التي تستطيع أن تحقق لهم مثل ذلك الشرف. كان هذا التصرف سبباً في خلق طبقة موالية للسلطة، كانت بعضها مكان أمر قديمة، لها نسبها وقدمها في مجتمعها.

لقد كانت هذه الطبقة حديثة العهد، ووصولهم إلى ما هم عليه كان بعد جهود مريرة، أي بعد أن احترف بعضهم مهنة السلاح والحرب، وبعضها الآخر السعي لكسب السلطة عن طريق الحرب والولاء ويغريها لذلك العيش بحياة البزخ التي كانت تسعى إليها، وحول هذه الطبقة حشد من الخدم، وفي بيوتهم الحفلات الرائعة التي كانت تقام بمناسبة الأعراس تلك الحالة التي فتحت المجال واسعاً للغناء والرقص.

كل ذلك كان من الأمور التي جعلت، هذا الأمير أو غيره في خدمة السلطة وتحت تأثيرها.

لقد وضع الأمويون حدوداً لحريات الفرد والجماعات، وبين ما لها من حقوق وواجبات والتزامات وأعراف وعادات كان ذلك من عوامل الحد من سلطة الشعب، وزيادة في استبداد السلطة وقدرتها.

كان عدد الموالي عندما سيطر الأمويون في ازدياد، نتيجة الفتوحات التي أوجدت الرقيق عن طريق الأسر أو الاهداء. فالعمال كثيراً ما كانوا يبعثون بمئات أو ألوف من الرقيق الأبيض أو الأسود إلى بلاط الخليفة هدية، أو بدلاً من خراج أو نحوه[1].

أما الخليفة فكان يفرق ذلك في أهله وبطانته، أو قواده وكان هؤلاء أيضاً يفرقون الرقيق فيمن حولهم، أو يبيعونهم، فينتقل الرقيق إلى الناس على اختلاف طبقاتهم، ومن أعجب من أولئك الأرقاء أو أعتق صار مولى بالإضافة إلى أولئك الذين كانوا يدخلون في الولاء بالعقد وغيره.

---

(١) المسعودي - مروج الذهب - ج ٢ - ص: ٣٥٤.

نتيجة ما ورد تزايد عدد الموالي في العصر الأموي تزايداً لا حدود له، فاستخدمهم العرب في مصالحهم الصناعية، أو الزراعية أو العلمية، وبعضهم الآخر في الدينية، بينما استقل العرب بالرياسة والسياسة.

ونتيجة كثرتهم أصبح بعضهم من القراء والشعراء والمغنين والكتاب والحجاب. علماً أن طبقة الموالي لم يوضع لها قيود تحد من حريتها في ممارسة حياتها العادية، كما يمارسها العرب، فالبعض منهم كان يتمكن أن يبتاع العبيد ويعتقهم، فيصيرون منه وإليه، وهكذا الحال بالنسبة لعبد المولى، حيث يسمح القانون آنذاك أن يصبح مولى، وهكذا دواليك[1].

إلا أن الأمويين حدوا من حرية الموالي لكثرتهم، وتعدد جنسيتهم، فمنهم التركي والديلمي والرومي والبربري والخراساني والسندي، فسخرهم العرب آنذاك بما يحتاجون إليه من المهن والصناعات والآداب وغيرها.

يضاف لما ورد الموالي المحاربون، ففي بعض القبائل العربية كان منهم عدد كبير، فإذا خرجت القبيلة للحرب خرجوا معها، وحاربوا في سبيل نصرتها، أما نسبتهم إلى عدد السكان الأصليين، فكانت تختلف من عهد إلى آخر، ففي عهد علي كانت نسبة الموالي إلى الأحرار ممن يخرجون للحرب واحد إلى خمسة[2] من العرب الأحرار.

ثم تفاقم هذا العدد في العصر الأموي، حتى زاد عددهم على عدد الأحرار علماً أن بني أمية كانوا يحتقرونهم ويضطهدونهم، والموالي يعبرون على ذلك أو يفرون من سلطانهم إلى أطراف الدولة، ومن رفض الجور ميمون بن إبراهيم الموصلي المغني المشهور[3].

كثيراً ما يذكر عن تعصب الأمويين للعرب على سواهم، قد يكون هذا صحيحاً بالنسبة لشعب بلاد الشام على بقية الشعوب العربية، سواء في العراق، أو في الجزيرة العربية، أو في أي منطقة أخرى. وقد ترى تعصب الأمويين، لبعض القبائل في بلاد الشام على غيرها، كتعصبهم لليمانية وتفضيلهم إياها في العطاء على من سواها، حتى كادت تساوي الأمويين أنفسهم في العطاء، لماذا لأن هذه القبيلة كانت عماد سلطة الأمويين، وعليها جل اعتمادهم، مما ورد لا يمكن لنا أن نعمم ونقول التعصب للعرب، ولكل العرب دون تمييز، وكيف

---

(١) المعارف - ص:١٩٧.
(٢) ابن الأثير - ج ٣ - ص:١٧٣.
(٣) الأغاني - ج ٥ - ص:١٥٤.

نعتبره تعصب للعرب، والعصر الأموي يعتبر عصر الهموم العربي، نظراً لما حدث فيه من حروب داخلية، بدأت قبل بداية الدولة الأموية وانتهت بنهايتها. حيث لم تهدأ الثورات والحروب وغير ذلك منهم ضد هذه الثورات. ومن خلال ذلك أعتقد أن الأمويين لم يتعصبوا للعرب كل العرب، وإنما لبعض قبائل بلاد الشام على كل العرب، ولم يكن الموالي إلا كبقية العرب خارج بلاد الشام، وتأكيداً على ذلك توجيه طارق بن زياد وهو من الموالي على رأس جيش لفتح الأندلس، وغير ذلك من تفضيل الأمويين لأهل الذمة في مجالات مختلفة فهم عماد الإدارة الأموية قبل التعريب وبعده.

مهما يكن فلقد تعصب الأمويون لعرب بلاد الشام، ودافعهم لذلك استمرار سلطتهم لا لشيء سوى ذلك. وكان تعصبهم للعرب في بلاد الشام أن تفرقت قلوب بني أمية، وأصبح الموالي عوناً لكل من خلع الطاعة أو طلب الخلافة. أي أن كل من كان يقوم ضد الأمويين كان يستعين بهم وبالعبيد، وأشهر من حاربهم بالعبيد والموالي المختار ابن أبي عبيد في العراق، عندما ثار مطالباً بدم الحسين سنة (٦٦ هـ)، وطلبه الخلافة لمحمد بن الحنفية، فكان عدد الموالي في جنده أضعاف عدد الأحرار[١]، وكان دورهم فعال فاق في شدته الأحرار، لنقمتهم على أسيادهم، لذلك كان قتلاهم كما يذكر ابن الأثير أكثر بكثير من غيرهم.

لقد كان المختار أول من جند الموالي وفاز بهم، وكان ما فعله أن جعل الموالي يستخفون بالسلطة، وينصرون أعداءها، مما اضطر بني أمية لاسترضائهم بالعطاء ونحوه، فكان معاوية أول من فرض لهم العطاء[٢].

ومن جهة أخرى كان بعض الموالي ثقة عند سيده إذا أنس منه رضاه وعامله معاملة حسنة، حيث اضطر الخلفاء لما لهم من قوة إلى تقريب بعضهم، فكانوا يعهدون لهم بمهام، ويرفعون بعضهم الآخر منزلة، كما كانوا يستشيرونهم في بعض الأمور. علماً أن بعض الموالي قد يكون من أصل رفيع، حيث يرقى بعضهم إلى أعلى المراتب. ولنا من طارق بن زياد، وكان من الموالي مثال على ذلك عندما كلف بقيادة الجيش الذي فتح الأندلس.

---

(١) ابن الأثير - ج ٤ - ص:١٢١.

(٢) ابن عبد ربه - ج ٢ - ص:٢٤٩ - ابن الأثير - ج ٥ - ص:٢٤. ابن قتيبة - المعارف - ص:١١٥.

رغم ما ورد يمكن اعتبار الموالي أعداء للدولة الأموية يقومون من المعارضة، أينما كانت، انتقاماً، لما كانوا يقاسونه من الاحتقار والجور. ومن القوانين التي سنت عليهم آنذاك منعهم من الزواج بالعربيات(١) (الشاعر محمد بن بشير الخارجي)، وكان الموالي إذا أراد أن يخطب امرأة لنفسه. كان لا يستشير أباها وأهلها، وإنما كان يخطبها من سيدها، وقراره هو الحسم في ذلك(٢).

رغم ما ورد عن الموالي وزواجهم من العربيات، لم يكن محرماً في الدين، اقتداءً بما فعله الرسول ﷺ. عندما أعتق صفية بنت حي بن أخطب وتزوجها، وأعتق زيد بن حارثة، وزوجه بنت عمه زينب بنت جحش.

أما أهل الذمة فهم أصحاب الكتب المقدسة، والذمة تعني العهد والأمان والضمان. وأهل الذمة هم المستوطنون في بلاد الإسلام غير المسلمين، وسموا بذلك لأنهم دفعوا الجزية أماناً على أرواحهم وأعراضهم وأموالهم.

وفي التاريخ الإسلامي عهود كثيرة كتبت لأهل الذمة، عاهدهم فيها المسلمون بالحماية، وتسهيل أعمالهم مقابل ما يؤدونه من الجزية(٣).

أما الأمويون فقد ضيقوا على أهل الذمة من جهة الجزية، الغاية من ذلك جمع الأموال لاصطناع الأحزاب من جهة، والتمتع بمباهج الدنيا من جهة ثانية، وتحقيقاً لذلك، فقد رفعوا من قيمة الجزية والخراج، وشددوا في تحصيلها، وضيقوا عليهم حتى أخذوا الجزية ممن أسلم. حتى وضعها الأمويون على الرهبان لأن هؤلاء قبل الأمويين كانوا لا يدفعون جزية، حتى كان عهد عمر بن عبد العزيز(٤) فرفع عنهم ذلك، إلا أنه عاد بعده على ما كان عليهم.

ذكرنا أن الأمويين اهتموا بجمع الأموال، وأهل الذمة كانوا أقدر على مساعدتهم في

---

(١) المسعودي - ج ١ - ص:١٩٦. ابن قتيبة ص:١٦٧ - ابن عبد ربه - ج ٢ - ص:١٣٢-٢٣٢ - الأغاني - ج ١٢ - ص:١٥٠.

(٢) ابن عبد ربه - ج ٢ - ص:٧٣.

(٣) كتاب رسول الله ﷺ إلى صاحب ايله في العقبة (ابن هشام ج ٣ - ص:٤٠) وكتابه أيضاً إلى أهل أذرع أثناء غزوة تبوك السنة التاسعة للهجرة (فتوح - البلدان للبلاذري - ص:٦٠).

(٤) ابن عبد ربه - ج ٢ - ص:٢٦٣ - ابن الأثير - ج ٥ - ص:٣١.

جمعها، لاقتدارهم على الأعمال الإدارية وما شاكلها، بما يتناسب مع ذلك، فاستخدموهم في هذا السبيل يؤكد على ذلك تولية خالد القسري العراقيين. علماً أن أمه مسيحية رومية، فكان خالد هذا يولي أهل الذمة، ويطلق أيديهم.

لقد كان أهل الذمة رغم ذلك يدخلون المساجد، فلا يعترضهم أحد، والأخطل الشاعر كان يدخل على عبد الملك بن مروان بغير إذن(١).

إن الإدارة الأموية، وهيئاتها المنظمة بمؤسساتها كانت تقوم كلها تحت إشراف السلطة ورعايتها، فأتاح ذلك خلق أحزاب متباينة أصلاً وفعلاً وأوضاعاً، بحيث كانت هذه الإدارة، والقائمون عليها تقف من المعارضة موقف العنف والشدة، بحيث كانت تعتبر ذلك بالنسبة لها ولترفها مسألة موت أو حياة.

إذن كان الأمويون يقبضون على السلطة بيد من حديد، بحيث اعتبروها هبة من الله، وحق مكتسب لهم. حتى أن بعض الأمراء كالحجاج كان يفضل الخلفاء الأمويين على الأنبياء والملائكة. فالخليفة إذن كان مسؤولاً أمام الله وحده، يتمتع بكل السلطات العليا والصلاحيات، كحق إعلان الحرب، وعقد المعاهدات التي تعيد السلام لسلطتهم المطلقة، ويفرض إرادته على رعاياه، لأنه وحده الذي يملك سلطة التشريع؛ وإصدار القوانين، والحكم الذي يصدره لا يقبل المراجعة، وهو المتصرف بأموال الدولة يوزعها على هواه.

وكان عليه أن يحترم القسم الذي أداه أثناء توليته العهد هذا القسم الذي يلقي عليه مسؤولية ضخمة إلا أن أكثر هذه العهود كان يغدر بها، وتذهب أدراج الرياح، بحيث لا يكتب لها النجاح لذلك كنا نرى أنه ليس من حريات عامة أو خاصة كان في وسعها الوقوف بوجه السلطة أو الحد منها.

حاول الأمويون توجيه سياسة البلاد الإجتماعية والاقتصادية؛ بما يتناسب ومصلحتهم، كما حاولوا تطبيق سياسة الاكتفاء الذاتي في الاقتصاد، لكي تنعم كل طبقات الشعب بحياة اجتماعية أفضل.

لكن عدم توزيع الثروة القومية، كان غير عادل حتى في بلاد الشام، مما جعل طبقات الشعب تعمل لعدم توطيد نظام الحكم المستبد. رغم ما يميز الواحدة من هذه الطبقات عن

---

(١) الأغاني - ج ٧ - ص:٧٤-١٧٨ - ج ١٩ - ص:١٩ - ص:٥٩ - ج ١ - ص:٧٣.

غيرها. ورغم ما لبعضها من امتيازات أو المنافسات بعضها للبعض، وحتى الطبقة التي كانت تنعم بحياتها، وتقدم لها اعفاءات واستثناءات، وغير ذلك من روابط تشدها إلى السلطة بأوثق اواصر الولاء.

ووجود الدولة الأموية منذ البداية خلق حروب دينية دامية، أدت إلى تعزيز الحكم المطلق في البلاد. علماً أن مثل هذه الحروب، كانت قد حدت من تطور البلاد في مرافقها التجارية والصناعية وحتى التجارية. بعد أن عمها الخراب، إلا أن الحكومة الأموية، رغم ذلك استطاعت أن تمضي قدماً، في توجيه الحياة الاقتصادية عن طريق إدارتها، وخاصة في المناطق التي انكمش فيها ظل الخليفة الأموي محاولين بذلك مضاعفة نفوذهم.

ورغم الحروب فقد تاقت البلاد، بلء جوارحها إلى الهدوء والسلام، ولقيام سلطة تثبت وجودها، لأن هذه الحروب، بمختلفها ذهبت بزهرة القادة الشباب، وبخيرة الأشراف في البلاد.

فالطبقة الواصلة إلى إدارة الدولة حديثاً كانت مدانة للخليفة وحده، والشعور الوطني الذي خلفته هذه الحروب، والحقد الذي كنمته للأحزاب المعارضة، والخوف الذي شكلته هذه الأحزاب. كل ذلك كان مؤيداً للسلطة معززاً لها. لذلك يمكن اعتبار هذه الحروب، قد أثارت في البلاد جدل ومناقشات ومشاحنات، ترك فيها سكان البلاد الأمور السياسية، وأمور الحكم للسلطة كي تدير شؤونها، كما تريد، فكان ذلك من دوافع زيادة شعبية الأمويين في بلاد الشام، والتعلق بهم.

أما من الناحية التجارية، فلقد نهجت السلطة الأموية سياسة ناجحة، بحيث جعلتها هذه السياسة تتدخل بحياة البلاد الإقتصادية. ولما كانت الدولة في مواجهة الأمبراطورية البيزنطية، فقد أخذت تنمي مواردها العامة، ووسائل دفاعها، كالبحرية ومناعاتها.

لقد حلت على التجار روح الجشع، فأخذوا يطلبوا أثماناً وأجوراً غالية ما كانوا يطلبونها، لولا روح الخلخلة السياسية التي اجتاحت البلاد، من الحروب الدموية الطويلة الأمد.

أما الطرق والجسور، فكان يجري عليها عمليات إصلاح دائمة، لتأمين عملية التجارة. ونشاط التجارة شجع الدولة على بناء أساطيل بحرية، ربطت ساحل بلاد الشام، بغيره من الموانىء العالمية في الشرق والغرب.

لقد كانت أسواق بلاد الشام تعج بالمتاجر والمصانع، ويرجع هذا إلى موقعها الممتاز من جهة، وإلى تجارتها وتجارها وخدمتهم وحبهم للمقامرة، بحيث لم يكن ينافسهم في دهائهم التجاري أحد من غيرهم.

فكانت السفن التجارية تخترق البحار شرقاً وغرباً، يفرغون تجارتهم في الموانىء البحرية، وينقلون منها موارد جديدة بحركة تجارية ترد إلى هذه الموانىء، بحيث كانت تنقل براً أو بحراً إلى أسواق داخلية وخارجية. وبفضل حركة التجارة ونشاطها، ارتفعت أسواق بلاد الشام إلى أعلى درجات الثروة والغنى، محتفظة بمكانتها التجارية.

لقد كان تجار بلاد الشام، يتمتعون بثراء عظيم، وبمظاهر في الترف، قلما استمتع بها أمثالهم. فهم كانوا يقومون بمغامرات تجارية في أقطار نائية تتناسب أرباحهم مع ما كانت تتعرض له أسواقهم من الخطر.

وأهم وسائل النقل البري كان الإبل، والخيل، والبغال، والرجال إلا أن الحصان كان أثمن من أن يستخدم في حمل الأثقال. لقد كان الجمل سفينة الصحراء، يحمل معظم التجارة الداخلية، حيث كان التجار يقودون قوافل تخترق بلاد الشام إلى أنحاء العالم الإسلامي وخارجه، علماً أن التجارة كانت لها قيود (ترانزيت).

لقد كانت التجارة عملاً تخصصت به بلاد الشام، وكادت أن تحتكره في عهد الأمويين، فأحمالهم ونواقلهم وسفنهم كانت تجتاز الصحراء والجبال والبحار، حتى أصبحوا حلقة الاتصال التجاري في العالم الإسلامي، ويعينهم على النجاح مهارتهم، وقدرتهم على استيعابها في التعامل مع أمثالهم.

لقد تمكنت بلاد الشام في العهد الأموي من تطوير التجارة البحرية. عندما عمل العرب على إثبات سطوح السفن في المتوسط بمسامير[1] من حديد، وعملوا على طليها بالقطران منعاً لتسرب الماء إلى داخلها[2]. وفي هذا المجال يذكر أن سفن الحجاج بلغت جزيرة سيلان، حيث تعرضت في بعض الأحيان في المياه الشرقية، فيه لغارات القرصان الهنود[3].

---

(١) فيليب حتي - تاريخ سورية ولبنان وفلسطين - ج ٢ - ص:١٠٢-١٠٣.

(٢) البلاذري - ص:٤٣٥.

(٣) ابن خلدون - المقدمة - ص:٢١١.

وكان عبد الملك بن مروان قد أنشأ داراً لصناعة السفن[1] علماً أن معاوية كان قد سبقه إلى إنشاء مثل ذلك في عكا. ثم نقل ابنه هذا المركز إلى صور[2].

وكان الاصلاح النقدي، الذي أحدثه عبد الملك بن مروان، حينما عرب النقد في أطراف الدولة منطلقاً من تعريبها في بلاد الشام . قد أدى إلى ازدهار البلاد إقتصادياً وخاصة الناحية الزراعية.

لقد كان الاقتصاد، وخاصة الزراعة من المشروعات الفردية. علماً أن امتلاك الفلاحين للأراضي التي يقومون بزراعتها. كان هو القاعدة المعمول بها في الزراعة، وكثيراً من الزراع كانوا يضطرون للخضوع للأقطاعي، أو للولاة الذين أصبحوا بدورهم اقطاعيين، ومما يرغمهم على ذلك الجفاف، والعجز عن فلاحة الأرض والضرائب، والحروب، والتنافس بين الحركتين، وغير ذلك.

إذن لقد اهتم معاوية بالنواحي الإقتصادية، ودافعه لذلك الانفاق على مشاريعه الحربية ضد البيزنطيين، وكان ذلك موضع اهتمامه منذ أن انفرد بشؤون الشام.

أما الموارد المعدنية التي تحتويها باطن الأرض، فكانت ملكاً للدولة، إلا أن معظمها كانت تستعملها هيئات خاصة بعد أن تستأجرها من الحكومة.

ومعظم عمال الصناعة كان يرغمهم على العمل، عدم رغبتهم في الموت جوعاً. علماً أن الدولة كانت تنتج في مصانعها معظم ما يحتاجه الجيش والموظفون والحاشية من البضائع.

فصناعة الحرير كانت منتشرة بشكل واسع، كما كان انتشار صناعة بعض أنواع من المنسوجات بمختلف أنواعها. علماً أن بعضها لم يكن يسمح بارتدائه، وخاصة الحرير إلا لكبار الموظفين. علماً أن أغلاها وأفضلها. لم يكن يسمح بارتدائه إلا لبقية الأسرة الحاكمة.

فازدهرت دمشق بنسيج التيل الدمشقي[3]. كما اشتهرت أيضاً بالسيوف المصنوعة من

---

(1) فيليب حتي - ج ٢ - ص:١٠٣١.

(2) أمر عبد الملك بن مروان بضرب الدراهم سنة ست وسبعين، ثم أمر بعد ذلك بضرب الدنانير، وهو أول من ضربها في الإسلام، وإنما كانت الدراهم والدنانير قبل ذلك مما ضربت العجم (الأخبار الطوال - لأبي حنيفة الدنيوري - ص:٣١٦.

(3) ويل ديورانت - ج ١٣ - ص:١٠٨.

الصلب[1]. كما اشتهرت صيدا وصور بزجاجها الذي لا يدانيه زجاج في رقته وصفائه. كما اشتهرت الرقة بزيت الزيتون والصابون، حيث بلغت الدولة الإسلامية في العهد الأموي درجة من الرخاء الصناعي.

لقد اعتمدت السلطة الأموية مبدأ المركزية ضد الأحزاب المعارضة، والمطالب المحلية، وكان ذلك مما شجع السلطة في الرغبة الفردية في التحكم بهذه الأحزاب، وعلمت السلطة أن هذا لا يتم لها، ولا يمكن تحقيقه إلا على أيدي ولاة أقوياء الجانب شديدي الشكيمة.

وحكمهم المطلق زاد من المعارضة الإجتماعية. عندما حاولت المعارضة متمثلة بالأحزاب من تنظيم مرافقها الاقتصادية، بما يجيز لها ضد سلطة بني أمية، وقد تجلى ذلك منذ البداية في موقف الحسين بن علي، وفي موقف ابن الزبير عندما كون دولة لها مقوماتها الإقتصادية ثم في ثورة المختار، واستقلاله بالعراق، ومقوماتها الإقتصادية أيضاً.

إن أعمال الأمويين في معاملتهم لأحزاب المعارضة من أهل البلاد لا تمت بصلة لمصالح البلاد. بل كانت غايتهم من ذلك مصلحتهم الأولى، فأخذوا يحسنون وفادة الوافدين مهما كان لونهم أو دينهم.

والحروب الداخلية والخارجية أدت إلى ضعف الحالة الاقتصادية. علماً أن غايتها أي غاية المعارضة خلال العصر الأموي كان الانتقال بالبلاد، من حكم مطلق مستبد، إلى حكم ديمقراطي سليم.

لقد أخذت المعارضة تذيع على الناس نشرات تثير الشعب، وتذكي حقده ضد السلطة بعد أن رمتها بكل فردية، وما أخذت عليها من مؤاخذات في ما تم لها من ثراء وغنى لا يحد.

لقد كان صراع الأمويون مع أحزاب المعارضة ذا أثر على كلا الطرفين، فأنزلت الدمار بالبلاد من الناحية الإقتصادية، فكان ذلك أن زادت من شقة الخلاف بينهما، حتى تمكن العباسيون، كأسرة في شبه جزيرتهم، بدعوتهم الناجحة من السيطرة على الحكم، ونقل عاصمة الدولة من بلاد الشام إلى العراق.

لقد اتخذ الأمويون على مدى حدودهم مع بيزنطة سلسلة من القلاع، والحصون المحصنة حيث لم يكن اختيار المواقع الثغرية على أطراف بلاد الشام، أو بلاد المسلمين اختياراً

---

(١) المرجع نفسه - ج ٣ - ص:١٠٨.

عشوائياً بحتاً فالواقع أن اختيار هذه الأماكن فرضته ظروف كثيرة لعب العامل الإقتصادي فيها دوراً كبيراً. أما إقامة قوات تدافع عن مناطق الحدود، فكان لا بد لها من توفر موارد ثابته للإعاشة على الأقل سواء من ناحية المأكل، أو المشرب، أو التسلح. علماً أن غالبية القلاع الثغرية كانت تتمتع، بخصوبة عالية في تربتها، وبخضرة دائمة في أرضها، وبوفرة في مياهها سواء من الأنهار أو من الأمطار، وبعضها الآخر كان يعتبر مركزاً تجارياً هاماً كما هو الحال بالنسبة لثغر مرعش[1]. الذي كان منذ أقدم العصور، واحداً من أهم المراكز التجارية الهامة على أطراف سورية كذلك كان ثغر فلسطين، الذي كانت له أهمية تجارية كبيرة. بل إن الثغور الشامية عامة، كانت مراكز تجارية هامة في السهول الشرقية للمتوسط.

فثغر طرطوس كان كثير الخصب والغلات والكروم، وقد اشتهرت بصناعة النبيذ الفاخر، والأواني الخروطية[2]، وبها من الحمامات والخانات مما اشتهر لها بغناها الإقتصادي، ورواج التجارة فيها.

أما المصيصة، فكانت كثيرة الخضرة، وكثرت بها الماشية والكروم[3]، لوفرة المراعي، وكثرت بها البساتين التي تسقى من نهر جيحان[4]، وكثر بها الصناع.

كما اشتهرت مرعش والحدث بأنها كان لهما زروع وأشجار وفواكه، فقد اشتهرت مرعش بحدائقها.

وأما فلسطين، فاشتهرت كونها تقع في سهل خصيب غني بالخيرات من كل نوع، وبها يكثر القمح والقطن والفواكه، ومراعيها المشهورة.

لقد عمل الأمويون على توسيع الجيش وتقويته، بما يتناسب مع حجم المعارضة الداخلية، والمخاطر الخارجية، ولتحقيق ذلك كان لا بد من جباية الأموال، وعلى طرق غير مشروعة تأميناً لموارد طائلة تقتضيها طبيعة المرحلة.

---

(١) علي عبد السميع الجنزوري - الثغور البرية الإسلامية على حدود الدولة البيزنطية في العصور الوسطى (طبعة مصر ١٩٧٩) ص:١٦١.
(٢) ابن مسكويه - تجارب الأمم - ج ٢ - ص:٢١٢.
(٣) ابن حوقل - صورة الأرض - طبعة بيروت - مكتبة دار الحياة - ص:١٨٣-١٨٤.

(٤) ابن حوقل - ص:١٨٣.

لقد عرفت التجارة كما ذكرنا نشاطاً متزايداً، حيث توافد على البلاد مواكب التجار، ومعلموا المهن والحرف والصناع يدفعهم لذلك كون عاصمة الدولة الإسلامية هي عاصمة لبلاد الشام/دمشق.

لقد تمكن التجار من أن يتبادلوا، مع بعضهم البعض داخلياً وخارجياً، ومن أن يتقاضوا السلع، فزاد النقد في التداول، وإلى جانب الاتجار بأدوات البذخ والزينة، حيث أصبحت تجارة المحاصيل، والغلال الزراعية في اضطراد، ونمو مستمر.

لقد تمكن الأمويون من استغلال الاقتصاد لحل الأزمة السياسية، حتى وصل لمرحلة نضب فيها بيت المال في سبيل تأمين أود الجيش، عندها كان يفرض على الشعب ضرائب ورسوم تزيد على طاقته.

إن بعض الإصلاحات الأموية كشفت معارضة، وللرد من الأمويين على ذلك كان الجيش الأموي في بلاد الشام، وعلى الأخص في دمشق، كان الحرس الخاص الذي عهد إليه السهر على أمن وسلامة السلطة، وتصفية كل من تحدثه نفسه بالخيانة والغدر، كما وأوكلت لهم مهمة مراقبة كل من تحوم حولهم الظنون، فأوكل إليهم تصفية كثير من رجال المعارضة.

أخيراً إن الصراع الطبقي أعطى نتائج ومعطيات كانت، وما زالت منذ البداية الدولة فيه هي الحكم المطلق والسيد، لذلك كنا نرى الدولة تشد أحياناً من حدة هذا الصراع الطبقي، وأحياناً توازن بين هذه الطبقات، بما يحقق لها الأمن والاستقرار. إلا أن الأمويين هم المستفيدون نهائياً من هذا الصراع، إلا أنه كان في النهاية وبالاً عليهم، ومن عوامل ضعفهم، وقصر الفترة التي سيطروا فيها على الدولة، وساعد على قيام أسرة قرشية جديدة مكانها هي أسرة العباسيين.

الطعام:

أما طعام العرب قبل الإسلام فكان مقتصراً على الألبان، وما يستخرج منه كالسمن والزبد والجبن، ومن التمر والحبوب واللحوم. علماً أن أكثر ذبائحهم كانت من الإبل، حيث كانوا يصنعون منها أطعمة مركبة كالثريد(١)، ومنها ما يصنع من اللبن والدقيق كالرغيد والرهيدة والعصيدة، وبعضها الآخر كان يصنع من السمن والدقيق كالبقالة، وبعضها الآخر يصنع من الدقيق والعسل والسمن كالوقيعة. علماً أن هذا النوع من الأطعمة

(١) يصنع من اللحم واللبن والخبز.

كان أصحاب اليسر هم الذين يتناولونه أما الفقراء، فكان طعامهم لحم الإبل أو الضأن[1]، وفي هذا المجال يذكر الجاحظ[2] أن إنسان الجاهلية إذا عطش، ولم يجد ماءً شرب مصل دم الإبل.

لقد كان الترف بالطعام زمن بني أمية واضحاً، واقتدى به خلفاؤهم، وسائر الناس في بلاد الشام لا سيا بعد أن كثرت الأموال بين أيديهم، كما كان لهم دور فعال، فقد لبس بنو أمية الحرير على أنواعه، وتفننوا بأنواع الأوشحة، وأحبوا الوشي، وأكثروا من لبسه وحفاظاً على تقاليدهم بقوا يلبسون العمائم، ويعلقون السيوف على العوانق.

وكان أول من لبس الخز الأدكن من العرب، كان عبد الله بن عامر، وأول من لبس الدراريع السود المختار بن أبي عبيد.

أما الزواج فقد كان آفة، حيث تعدد الزوجات إلى أربع، كما كان الطلاق أحد هذه الآفات الإجتماعية عند العرب.

لقد بدلت المرأة من حالها أيام الأمويين، فالمرأة كانت في الجاهلية تجالس الرجال وتخاطبهم وتذاكرهم.

المظالم أيام بني أمية:

لم يكن أمر العمال مستقياً، وهذا يتفق مع الطبيعة الإنسانية، لذلك فقد فسد أمر العمال في عهد بني أمية، حيث لم نجد لمعاوية أي اهتمام بالمظالم. بل على عكس ذلك، وضع قاعدة خطيرة في ذلك هي «لا سبيل إلى القول من العمال» .

وفي هذا المجال يذكر أن عبد الملك بن مروان، كان أول من جلس للقضاء من الأمويين يؤيد ذلك السيوطي في كتابه تاريخ الخلفاء . أما عمر بن عبد العزيز، فقد أحدث سابقتين في القضاء الإداري وغير ذلك من أمور القضاء.

---

(١) ابن خلدون - ج ١ - ص:١٧٠.

(٢) الجاحظ - كتاب البخلاء - طبعة بيروت - ص:١٨٣.

الفصل الثالث

الحياة العقلية في بلاد الشام

الفصل الثالث

العلوم

الطب والكيمياء:

لقد سبقت بلاد الشام غيرها من الأقطار العربية في مجال العلوم العقلية كالاهتمام بالكيمياء[1] وكان يطلق عليها اسم علم الصنعة حيث ارتبط علم الصنعة بعالم أموي هو خالد بن يزيد بن معاوية - حيث يذكر ابن النديم[2] أن خالداً هذا هو أول من أدخل علم الصنعة إلى العالم الإسلامي.

لقد حاول بعضهم التقليل من قدر خالد واستطاعته في هذا العلم منهم محمد بن عمرو[3] وكذلك ابن خلدون حيث أنكر ما نسب إلى خالد بن يزيد من هذا العلم[4] رغم ذلك فلم تؤثر على ما قدمه خالد في هذا المجال لأن اسمه كثيراً ما كان مقترناً بعلم الكيمياء والطب معاً لأن العلمين كانا مرتبطين معاً لأن الكيميائي يمثل الصيدلي بالنسبة للطبيب حيث يحضر له بعض العقاقير التي يحتاجها. وقد ذكر ابن خلكان[5] عن خالد أنه كان من أعلم قريش في هذا العلم.

---

(١) كان هذا العلم علماً راقياً استعاض بن خالد بن يزيد عن الخلافة. يؤكد ذلك قول عمر بن عبد العزيز عنه ما ولدت أمية مثل خالد بن يزيد - العقد الفريد ج ٢ ص: ٢٣٢.

(٢) ابن النديم - الفهرست - طبعة بيروت ١٩٧٥ - ص: ٤٩٧ - ٤٩٨.

(٣) العقد الفريد - ج ١ - ص: ٢٤.

(٤) تاريخ ابن خلدون - ج ١ - ص: ٩٥٢.

(٥) ابن خالكان - ج ٢ - ص: ٤.

وله كلام في صنعة الكيمياء والطب وقد كان بصيراً بهذين العلمين متقناً لهما بالإضافة لخالد بن يزيد في بلاد الشام العالم مريانوس وهو رومي الأصل إلا أنه كان يعيش في بيت المقدس[1] قبل أن يقدم إلى حمص، واستقر مع خالد بن يزيد في قصر خالد.

ويذكر ابن النديم[2] أيضاً أن خالد بن يزيد قد أمر بإحضار جماعة من فلاسفة اليونان من الذين كانوا في مصر وأمرهم بنقل الكتب في الصنعة إلى العربية حيث يذكر أنه كان أول نقل أو ترجمة من لغة إلى لغة.

ولخالد بعض الرسائل والأشعار في الكيمياء. ومما يؤكد تقدم علم الكيمياء في بلاد الشام قول خالد «إن شئتم أعذبت لكم ماء البحر»[3].

أما علم الطب فقد اشتهر فيه عدد من الأطباء زمن الدولة الأموية حيث كان معاوية يستعين بهم في الأمور الطبية، منهم:

الحارث بن كلده[4]، وأبو الحكم الدمشقي، وابن آثال.

أما الحارث فهو من الطائف درس الطب في فارس من أهل جند نيسابور وعمل في الطب هناك. اعتبره القفطي طبيب العرب في وقته. أصله من ثقيف جاد في صناعة الطب في بلاد فارس وجمع هناك مالا ثم اشتاقت نفسه إلى بلاده فرجع الى الطائف ومعه جارية سماها سمية وهي أم زياد بن أبيه الذي ألحقه معاوية بنسبة مات الحارث في أول الإسلام إلا أنه بقي حتى زمن معاوية.

كان الحارث هذا قد تعلم ضرب العود وتعلمه كما يذكر في بلاد فارس.

أما أبو الحكم الدمشقي فكان معاوية بن أبي سفيان يعتمد عليه في تركيبات الأدوية لأغراض قصدها منه.

ويذكر أن بعثات الحج التي كانت تقام زمن معاوية بن أبي سفيان كانت ترافقها بعثة طبية حيث يذكر أن أبو الحكم الدمشقي هذا كان قد رافق يزيد بن معاوية في موسم الحج ولقد أدرك عبد الملك بن مروان حيث عالجه في مرضه الذي مات فيه.

---

(١) خليل داوود الزرو - الحياة العلمية في بلاد الشام في القرنين الأول والثاني للهجرة - طبعة بيروت ١٩٧١ - ص: ١٨٠.

(٢) ابن النديم - ص: ٣٣٩ - ٣٤٠.

(٣) القفطي - ١١٢ - ١١٣.

ومن أطباء بلاد الشام الذين خصهم معاوية بالاهتمام ابن أثال حيث جعله طبيبه الخاص.

فلما كان عمر بن العزيز تقدم الطب عندما أمر بنقل تدريس الطب من الإسكندرية الى انطاكية وحران ونقل إلى هذه المراكز عبد الملك إبجر الكناني.

العلوم التاريخية:

أما في مجال العلوم التاريخية(1)، فكان عالم الأخبار في الجاهلية بمثابة المؤرخ، وأغلب الأخبار في الجاهلية كان يتعلق بأيام العرب وحروبهم. وأيام العرب هذه كانت تقع بين القبائل، لذلك كان على عالم الأخبار أن يعرف الأنساب بالقبائل وبمفاخرها، ومن هؤلاء الأخباريين عبيد بن شرية الجرهمي، وقد استدعاه معاوية ليسأله عن أخبار الأمم، حيث يذكر ابن النديم أن معاوية سأله أسئلة تتعلق بالتاريخ، ثم أمر الكتبة أن يدونوا أقواله. بهذا يعتبر أول تدوين للتاريخ في الشام والعالم الإسلامي، عاش هذا الأخباري إلى عهد عبد الملك بن مروان، ومع ذلك يذكر عنه أنه لم يروي إلا عن حوادث الجاهلية وأخبارها.

وأخباري آخر هو علاقة بن كريم، ولقد كان أيضاً عالماً بأيام العرب، وهو من سمار يزيد بن معاوية.

أما موضوع جهاد النبي وسيرته، فكان مجال تخصص للصحابة وحدهم، لأنهم هم الذين حضروا وعاشوا هذه الأحداث، فمن ذلك أن عبادة بن الصامت روى خبر بيعة العقبة الأولى والثانية. إلا أن الصحابة لم يرووها على أنهم مؤرخين. لكنها نتيجة الحاج من التابعين كانوا يقومون بذلك، لمعرفة هذه الأخبار، بالتفصيل ومن هؤلاء التابعين من تخصص في الرواية كالزهري، وأبي أدريس الخولاني.

أما المشهورون في النسب من الصحابة، فكان دغفل بن حنظلة، وهو الذي استقدمه معاوية، وأمره أن يعلم ولده يزيد(2) وكان لاستقرار السلطة في بلاد الشام، والاهتمام بالأنساب والفتوحات ما جعل الشام مكاناً مهماً في أمر العلوم التاريخية.

---

(1) يمكن العودة الى كتب السير والمغازي وتاريخ الطبري وإلى كتاب السخاوي الإعلان بالتوريخ لمن ذم التاريخ.

(2) ابن بدران - تهذيب ابن عساكر - ج ٥ - ص: ٢٤٢.

ومن الرواة الشاميين الذين شهدوا الفتوح شرحبيل بن مرثد، ولم تكن كل الأخبار أخبار فتوحات أو غزوات بل حصلت حوادث أخرى منها ما رواه رجاء بن حويه عن قصة استخلاف عمر بن عبد العزيز[1] ومن رواة الأخبار الشاميين عبادة بن نسي الذي روى غزوة معاوية لعمورية[2].

ومن الذين كان لهم حظ أوفر من الناحية التاريخية من سيرة ومغازي وأنساب الزهري، حيث تجد اسمه موجوداً في كافة المراجع التاريخية.

لقد كان الرواة يرددون عن علماء مجهولين. أو عن محدثين ليسوا مشهورين، مما يؤثر على قيمة الرواية وإمكانية إثباتها.

ومن رواة الأخبار عبد الرحمن بن يزيد بن جابرة، ويونس بن يزيد عبد الرحمن بن جبير، ثم أبو اليقظان سحيم بن حفص، الذي روى بعض الأخبار عن عمر بن عبد العزيز والأبرش الكليمي الذي كان مصاحباً لهشام.

العلوم الدينية:

ومن العلوم الأخرى ذات الأثر الواضح العلوم الدينية منها القراءات[3]. وأطلق لفظ القراء على من كانوا يحفظون القرآن. إلا أن هذه اللفظة تطورت، وأخذت معنى أدق وأشمل، حيث شملت عدداً محدداً من الصحابة اشتهروا بقراءاتهم، ولكل منهم كان مصحف، وأخذت بلاد الشام عن أبي بن كعب، والمقداد بن الأسود. لأن الأمصار كانت قد بدأت تأخذ عن بعض هؤلاء الصحابة.

ومن الذين عملوا في القراءة في الشام من الصحابة أبو الدرداء، معاذ بن جبل، فضل ابن عبيد، وائل بن الأسقع والي أبي الدرداء، ومعاذ بن جبل يعود فضل جمع القرآن في عهد النبي[4] ﷺ.

---

(١) تاريخ الطبري – ج ٥ – ص: ٣٠٧.
(٢) البلاذري – فتوح البلدان – ص: ١٩٥.
(٣) من أراد التوسع في معرفة القراء يمكنه العودة الى غاية النهاية في طبقات القراء لابن الجزري – طبعة مصر ١٩٣٢.
(٤) تذكرة الحفاظ – ج ١ – ص: ٢٢.

إن التابعين الذين أحدثوا تأثيراً في القراءة في الشام، وكانت لهم قراءات مميزة عبد الله بن عامر اليحصبي، مقرىء أهل الشام وقاضيها في خلافة الوليد.

ومن العلوم الأخرى التفسير، حيث يذكر أن عبد الملك بن مروان أمر سعيد بن جبير الكوفي أن يكتب له تفسير القرآن(١).

ولقد طبع التفسير(٢) في الشام بميزتين كان الأول عدم التشدد في تفسير القرآن، كما كان يتشدد أهل المدينة، والميزة الثانية هي عدم الخوض في مسائل الكلام أو التفسير القائم على الجدل، أن العمل كان لديهم أهم من الجدل.

كتابة الحديث:

لم تكن السنة مرادفة للحديث وإنما كانت السنة أعم في مدلولها من الحديث وكتابته(٣).

علم الفقه:

ثم علم الفقه الذي يمتاز بظهور بعض المعارضة السياسية الناتجة عن الأحكام القرآنية، والأحاديث النبوية متمثلة بحركة أبي ذر الغفاري، وصراعه مع معاوية، ومعارضته له، حيث اتخذت هذه المعارضة طابعاً عميقاً من الاختلاف بالرأي، أو السنة إلى الإختلاف على أمور الحكم، والسياسة الاقتصادية للدولة.. مما أوشك أن يحدث ثورة على معاوية بالشام.

أما عمر بن عبد العزيز، فله أحكام هامة منها معاملة المساجين، وحال السجون، حيث أمر بتوفير العناية الكاملة بهم(٤). ومن اجتهادات زكاة السمك، وزكاة المعادن ثم إسقاط الجزية عمن أسلم.

---

(٢) الرازي كتاب الجرح والتعديل - ج ٣ - قسم. - ص: ٣٣٢.

(٢) يمكن العودة لمن أراد الاتساع في معرفة ذلك فعلية العودة الى كتب التفسير مثل تفسير القرطبي، تفسير ابن كثير - تفسير الطبري - وابن تيمة مقدمة في أصول التفسير وغير ذلك من السنن.

(٣) يمكن العودة الى مقدمة الجرح والتعديل الى الحاكم النيسابوري معرفة علوم الحديث وإلى الغزالي أحياء علوم الدين.

(٤) الخراج - ص: ١٠٠.

الخطابة:[1]

لا شك في ازدهار الخطابة في العهد الأموي، إذ يؤكد ذلك الجاحظ في كتابه البيان والتبيين[2]، حيث وضعهم في أعلى المراتب، وقدمهم على جميع الأمم.

والحقيقة التاريخية هي أن عوامل مختلفة، ساعدت الخطابة على أن تبلغ في هذا العصر دورها البارز. أهم هذه العوامل سياسية[3] حيث امتاز هذا العصر بظهور معارضة حادة للدولة[4]، بالإضافة، لنشاط واسع في مجالها. عندما جعل الإسلام الخطابة جزءاً من صلاة الجمعة والعيدين.

الشعر:

يذكر شوقي ضيف عن الشعر في بلاد الشام خلال العصر الأموي، بأنه لا يقاس بما نظم في خراسان والعراق والحجاز. ويعلل[5] ذلك بأن قبائل الشام كانت في أكثرها قبائل يمنية، وهي بدورها لا قدرة لها على نظم الشعر، ما للقبائل المضرية. علماً أن أهم الشعراء الشاميين كان عدي بن الرقاع، ويعتبر متأخراً خطوات عن شعراء العراق والحجاز.

ويذكر أيضاً أن أهم عشيرة بالشام اشتهرت بالشعر، هي أبناء العشيرة الأموية أنفسهم. علماً أن هذه الأسرة، كانت وافدة على بلاد الشام من الحجاز.

إذن كان الشعر في بلاد الشام خلال العصر الأموي محدود النشاط، وفي أكثره كان طارئاً مع قبائل قيس، ومع الوافدين على أبواب الخلافة، أو مع الأمويين أنفسهم، أو مع المجاهدين الذين كانوا في صراع دائم ومستمر مع الروم. أو مع المعارضة.

أما خليل مردم فيذكر أن الصنعة الشعرية، غلبت على أكثر الشعراء الشاميين قبل

(١) من أراد التعمق في ذلك فليعود الى طبقات المعتزلة الشهرستاني الملل والنحل - الفرق بين الفرق - للبغدادي ابن قيم الجوزية - شفاء العليل في مسائل القضاء - مقالات الإسلاميين للأشعري.

(٢) الجاحظ أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ - البيان والتبيين طبعة مصر ١٩٧٥ - ج ٢ - مجلد أول - ص. ٧.

(٣) شوقي ضيف - تاريخ الأدب العربي - العصر الإسلامي طبعة مصر ١٩٧٦ - ص: ٤١٠.

(٤) المرجع نفسه - ص: ٤٢٨.

(٥) المرجع نفسه - ص: ١٦٥.

الإسلام، حتى عرفوا بها، حتى أنهم كانوا يكرهون اللفظ الساقط، والتراكيب المهلهلة، ويذكر عنهم أيضاً بأنهم لا يرضون للمعنى الشريف إلا اللفظ الشريف.

ويجب أن يذكر في مجال الأدب أن جل الشعراء الشاميين في العصر الأموي، وما قبله ظل أكثرهم في حكم المنسي المجهول، ويعود ذلك إلى أمور كثيرة منها السياسي، كالتشويه الذي لقيه الأمويين فيما بعد، وقد سعى البعض لطمس آثارهم الفكرية والأدبية، بالإضافة لما أتت عليه الحروب والكوارث، من إحراق المكاتب العامة، وإلقاء الكثير من الكتب في مهب الرياح والنار والماء.

يضاف لما ورد الجهل الأسود الذي ساد بلاد الشام قروناً طويلة ابتعد الناس في البلاد عن العلم، حيث مدت الأيدي الجاهلة الى المكاتب الخاصة تعبث، بالمخطوطات جهلا بقيمتها، ومن الشعراء الشاميين الذين وجدوا في العصر الأموي عدي بن الرقاع.

عدي بن الرقاع:

ينتمي عدي بن الرقاع إلى بني عامله[1] الذين نزحوا عن اليمن إلى الشام. مع من نزح من اليمانيين قبل الإسلام، ولا يعرف بوجه التحديد أي سنة ولد، إلا أنه يعتقد أن مولده كان في حوالي العقد الرابع من القرن الهجري الأول.

سكن هذا الشاعر دمشق[2] عاصمة الأمويين، كما روي عنه وكانت ميوله السياسية معهم يمدح أحياءهم، ويرثي أمواتهم، يرى رأيهم ويقول بقولهم، ويتحمس لهم، ويذكر عنه أيضاً أنه حرب على من هاجمهم، ينصرهم بلسانه وسيفه. لا عن خوف ورهبة، بل عن رأي وعقيدة.

يؤكد ذلك عندما كان يشارك في جيش عبد الملك بن مروان، الذي ظفر بالحرب التي كانت بينه وبين مصعب بن الزبير، وانتهت بقتل الأخير، حيث قال يمدح الخليفة المرواني عبد الملك[3].

---

(١) ديار عامله مجاورة للأردن وجبل عامله مشرف على عكا من قبل البحر يليها ويطل على الأردن.

(٢) خليل مردم بك - الشعراء الشاميون - طبعة بيروت - دار صادر - ص: ١٦.

(٣) كانت هذه الوقعة بدير الجاثليق.

لعمري لقـــد أضمرت خليـنــا	بأكتــاف دجلـــة للمصعـــب
أعــين بنــا ونصرنــا بـــه	ومن ينصر الله لم يغلـــب
فـــداؤك أمي وأبناؤهـــا	وإن شئـــت زدت عليهــا أبي
فمن يــك منــا يبــت آمنــاً	ومن يــك من غيرنــا يهرب

قراءة دقيقة لهذه الأبيات تعطينا تصوراً عن صدق التزام هذا الشاعر مع الأمويين، وتعلقه بهم من جهة، والعنف السياسي ضد الثورات المضادة من جهة أخرى يؤكد، ذلك قوله: بما في معناه، في البيت الأخير. من يكن منا فليبت آمناً، أما غيرهم فما عليهم إلا الهرب خوفاً على أمنهم وسلامتهم.

استمر موقف هذا الشاعر الشديد للوليد بعد أبيه عبد الملك، الذي قربه وقدمه. وقد عمل هذا الشاعر بكل ما يملك من قوة الشعر على تخليد مجد الأمويين والإشادة بأعمالهم وخص منهم الوليد بن عبد الملك الذي تمنى الموت في حياته.

ونظراً لتعلقه ببني أمية، وعلى الأخص كما ذكرنا الوليد، فقد أثار هذا التعلق والحب والإخلاص الحسد من بعض الشعراء.

يوصف عدي بن الرقاع بأنه كان يفتخر كغيره من فتيان العرب، بالحب، والشجاعة، والفصاحة كما كان وفياً لأصدقائه في سرائهم وضرائهم، لا ينحرف عنهم بانحراف الزمان والسلطان[1].

كان عدي بن الرفاع حاضر الجواب سريعه، معجباً بنفسه يتباها بها. إلا أن ذلك الإعجاب لم يقوى على مصارعة جرير وتحديه، بل كان موقفه منه موقف الخائف المتردد. ويعتبر عدي من شعراء القصور، حيث يحسن القيام برسوم الخلفاء والأمراء ويمدحهم، وأكثر مدحه كان في بني أمية.

تجلى ذكر الشام ومدنها في شعر عدي، حيث وجد في بادية الشام مجالا لرياضة الشعر على النحو الجاهلي، بالإضافة لذلك ورد في شعره ذكر الأحداث السياسية التي وقعت

---

(١) يظهر ذلك واضحاً عندما عزل الوليد بن عبد الملك، عبيدة بن عبد الرحمن عن الأردن وضربه واهانته فأتاه عدي بن الرفاع متوجعاً واثني عليه وقال شعراً في ذلك (خليل مردم بك - ص: ٢٠).

بالشام كوقعة مرج راهط، وكانتصار مسلمة بن عبد الملك على الروم سنة ٨٧ هـ في طوانه وانتصار عبد الملك على مصعب، وغير ذلك من حوادث جرت في بلاد الشام خلال حياته.

الطرماح بن حكيم الطائي:

ولد بالشام ونسب إلى طيء من العرب القحطانية في جنوب الجزيرة العربية، خرجوا منها بعد سيل العرم، حيث نزلوا نجد والحجاز، وبعد التحرير الإسلامي لبلاد الشام تفرقوا في الأمصار، ولهم بطون كثيرة في الشام.

يعتبر الطرماح من فحول الشعراء الشاميين، يذكر عند بدون تحديد أنه ولد ومات في العصر الأموي، ويروى عنه أنه لا يعلم عن أحواله وهو بالشام شيئاً، بل يروى أن جميع أخباره كان بعد نزوحه عنها إلا أنه ظل يفخر بشاميته.

انتقل من الشام إلى الكوفة مع من وردها من جيوش أهل الشام، يذكر عنه أنه لم يتصل بأحد من خلفاء بني أمية أو مدحهم، إلا أنه مدح بعض أمراء العراق، كيزيد بن المهلب، وهو يرتبط معه في النسب القحطاني.

يفخر الطرماح بنسبه وبنفسه، ويتعصب لأصله، ويعتز بقبيلته وإسلاميته وشاميته، ويعتبر من الخطباء والفصحاء.

اختلف في مذهبه، فالبعض كالأصفهاني ينسبه للأزارقة في كتابه الأغاني، بينما يجعله الجاحظ من الصفرية، ومهما يكون فكلا الفرقتين خوارج، ولهم أصول واحدة.

يغلب على شعره الجزالة، ففي غزله الحنين لأن الغربة أرهفت عاطفته، أما فخره فيعتبر من أبواب شعره الجيد، كما زخر شعره بالهجاء.

الوليد بن يزيد:

ولد بدمشق حوالي تسعين للهجرة، بقصر أبيه يزيد بن عبد الملك، حدث خلاف بينه وبين عمه هشام بن عبد الملك، فترك الوليد دمشق، وتوجه إلى الأزرق على ماء يقال له الأغدن بالأردن، بعد أن خلف بدمشق كاتبه عياض بن مسلم عيناً على هشام يكاتبه بما يحدث.

بقي الوليد في الأردن حتى مات هشام، واستخلف حيث عاد وله أشعار الشماتة بهشام منها قوله:

ليـــت هشام عـــاش حـــتى يرى مليـــاً لـــه الأوفر قـــد طبعـــا

كان الوليد يحب اللهو واللذة والركوب للصيد، وشرب الخمر، وغير ذلك، كما كان شديد البطش، من مواصفاته أنه يتأنق بملابسه ينوع منها، ومن ألوانها، وأصنافها.

يعتبر الوليد من الخطباء والفصحاء. يروى عنه أنه كان يخطب الناس في الجامع الأموي في العيدين والجمع، وصف بالإلحاد والزندقة.

ويعتبر شعره وجداني يعبر عن شعور قائله. امتاز بالصدق والصراحة، لم يمدح أحداً، ولم يرثي إلا من أحب، حيث تراه عميقاً كثير الجزع، قليل الجلد.

أخيراً: - يمكننا القول إن الخلافة الأموية لم تكن من ناحية الإدارة حكومة عربية[1]، بقدر ما كانت وريثة للأمبراطورية البيزنطية والفارسية، والصراعات السياسية والإنقسامات داخل الدولة دفع إلى نقسام الحالة الأدبية، حسب التيارات السياسية التي كانت سائدة.

الحضارة العمرانية في بلاد الشام:

دلت المنشآت العمرانية الأموية على خلق الحياة في الصحراء، وعلى احتفاظ الخلفاء الأمويين بطابعهم العربي، فقد ظلوا يحنون الى البوادي، ويتشوقون إلى الحياة فيها.

كان بناء القصور جزءاً من البرنامج العمراني الذي رسمه الأمويون في عمران بلاد الشام.. ولم تكن العمارة العربية كما يصورها بعض مؤرخي الفن العربي، على أنه كان مزيجاً من عناصر متفرقة من فنون عالمية، بل على العكس، كانت هناك عمارة عربية قوية منظمة مترفة.

وكان قصر الخضراء أول أعمال الأمويين ابتداء من معاوية، وقصر الخضراء هو دار الإمارة ويقع في جنوب الجامع الأموي محاذياً الجدار الجنوبي. ثم قصر الحجاج بن عبد الملك ابن مروان، عندما كان والياً على دمشق، ثم قصر الخليفة الأموي هشام، وغيرهما من القصور في دمشق. والتي لم يبق لها أثر يذكر.

أما أعمالهم خارج دمشق فلا تزال آثارها باقية الى اليوم.

---

(١) النعمان القاضي - الفرق الإسلامية في الشعر الأموي - طبعة مصر ١٩٧٠ - ص: ٧٣.

وكان لمعاوية وأولاده منازل في منطقة طبرية[1]. ويذكر المسعودي أن ليزيد بن معاوية قصراً في حوارين، وأقام ابنه خالد قصر في البلقاء، أما مروان فيذكر ابن الأثير أن له قصر في الجابية[2].

أما عبد الملك بن مروان، فقد أقام مسجد قبة الصخرة الذي أتمه ابنه الوليد، كما جدد المسجد الأقصى على بعد يسير من قبة الصخرة، أما مكان إقامته فكان في دمشق، وبنى لنفسه قصراً في قنسرين، كما كان يقيم في بعلبك والجابية، بالإضافة لأبنية أخرى في فلسطين.

عندما تسلم الوليد الخلافة كانت السلطة، مستقرة، امتاز عهده بإقامة المنشآت، وكان ولعه بالبناء عظيماً، فوسع المسجد الحرام بمكة، ورمم مسجد المدينة، وبنى في الشام المدارس والجوامع، وأروع أعماله الجامع الكبير في دمشق.

ومن مخلفاته أيضاً: قصر عميرة في الأردن، قصر المنية قرب بحيرة النصارة في فلسطين، قصر الحران في الأردن الذي أنشيء لأغراض دفاعية، وقصر أسيس في جنوبي شرقي دمشق، وحمام الصرح الذي أنشيء، ليكون منطلقاً لرحلات الصيد الخاصة.

واهتم الوليد بالعمارة الدينية في بيت المقدس[3]، واهتم بإعادة بناء مسجد النبي ﷺ ومسجد الكعبة[4] وعمل على بناء البيمارستان.

ولعله أقام في قصر الحلابات، ثم خربة البيضاء أو القصر الأبيض، وإلى سليمان بن عبد الملك يرجع الفضل في إنشاء مدينة الرملة، عندما كان والياً على فلسطين، وأقام فيها داراً للصباغين[5]، ثم خطط المسجد، وشرع بناءه قبل خلافته، كما بنى قصراً له هناك.

أما عهد عمر بن عبد العزيز، فتذكر بعض المصادر أنه أقام في دير سمعان بينما يذكر محمد كردعلي أنه أقام في خناصرة[6]، وورث داره في دمشق من أبيه.

---

(1) عفيف بهنسي - القصور الشامية - مجلة الحوليات الأثرية السورية ج ٢٥ - ص: ١٤.

(2) ابن الأثير - ج ٤ - ص: ١١٦.

(3) عبد المنعم ماجد - ج ٤ - ص: ١٩٨.

(4) المرجع نفسه - ج ٢ - ص: ١٩٠.

(5) البلاذري - فتوح البلدان - ص: ١٤٤.

(6) خطط الشام - محمد مرد علي - ج - ص: ٢٨١.

وهكذا كان لا بد من الإشارة الى أن الخلفاء الأمويين، قد استهوتهم حياة الصحراء، وهذه صفة يزيد بن عبد الملك، حيث كان مقر إقامته في قصر الموقر الذي بناه لخليلته «حبابة»[1] ويقع في البلقاء جنوب شرق الأردن.

ويعتبر هشام بن عبد الملك من أكثرهم اهتماماً بالمنشآت العمرانية.. وأكثرهم حباً لإظهار دولته.. ويعتبر من أعظم الأباطرة[2] البنائين الذين كان لهم الباع الطويل في إنشاء الحضارة العمرانية العربية.

ومن أعماله العمرانية، أنه أمر حسان بن ماهويه الأنطاكي أن يبني المربض وحصن المنقب[3] كما أمر ببناء حصن موره، وحصن بوقا، من أعمال إنطاكية[4]. وبنى قصراً في القطيفة[5].

ويذكر محمد كرد علي[6] نقلا عن وصف لحماد الراوية دار هشام، بأنها كانت مفروشة بالرخام، وبين الرخام قضبان من ذهب، وحيطانه أيضاً كانت مرخمة، وبينهما أيضاً قضبان من الذهب.

وأهم المهندسين المعماريين، الذين اعتمدهم، كما يعتقد، هم: حسان بن ماهويه الانطاكي - سليمان بن عبيد - ثابت بن أبي ثابت.

قصر الحير الغربي:

يقع في منطقة التقاء طريقين مهمين، هما: طريق دمشق - تدمر التي تمر على القريتين، وطريق تجارية أخرى هي طريق حمص - الجوف.

تعود عملية اختيار موقع قصر الحير الى وجود قاعدة ساعدت على وجوده مثل سد

---

(١) الأغاني - ج١٣ - ص:١٦٥.
(٢) سليم عادل عبد الحق - مجلة الحوليات الأثرية السورية طبعة دمشق - ١٩٥١ - مجلد أول - ص:٧.
(٣) البلاذري - فتوح البلدان - ص: ١٦٩ - ١٧١.
(٤) المرجع نفسه - ص: ١٦٩ - ١٧١.
(٥) اليعقوبي - ص: ١١٢.
(٦) محمد كرد علي - خطط الشام - ج ٥ - ص: ٢٨.

حريقة[1] الذي يبعد ستة عشر كيلومتراً ونصف جنوبي قصر الحير.. وللسد ثلاث فتحات. ثم القناة بين السد، ومنطقة السكن، تصل هذه القناة بين السد، وبين منطقة قصر الحير الغربي، حيث تتجمع في محطة تبعد أربعة كيلومترات.

يتفرغ من هذه المحطة قناة صغرى تسير إلى الحمام والقصر. حيث ساعدت هذه المياه المتدفقة إلى القصر، لوجود أربعة أفران كانت توضع فيها قطع الآجر، والجص اللازم لأعمال بنائه.

بالإضافة لوجود بستان تنقل إليه المياه، لتغذيته، وله مدخلان. وفي طرقه برجان صغيران، كما ويوجد في البستان سد لتجميع المياه، ويحتوي قصر الحير على خان، وحمام يقع في شمال القصر[2].

قصر الحير الشرقي:

يقع في الصحراء السورية، يبعد عن تدمر (١٠٥) كم، أي بين تدمر والرصافة، وتم اكتشاف القصر الصغير والقصر الكبير، الذي يتألف من البناء الرسمي الذي يعتقد أنه كان دار الإمارة، الجامع، المنطقة الصناعية، وتحتوي حماماً صغيراً، وخزاناً للمياه في الحي الشمالي الغربي، السور... يتألف من قصر كبير مسور ومسجد ومعاصر للزيتون - وللسور الخارجي أربعة أبواب. تمتد منها شوارع تتقاطع وسط المدينة، وإلى جانب القصر الكبير، يوجد قصر صغير وخارجه حمام، ويحيط بهذه المنشآت بساتين ومزارع.

يزود هذا البناء بالمياه بواسطة قناة تجر المياه إليه من نبع الكوم الذي يبعد إلى الشمال الغربي مسافة ثلاثين كيلومتراً.

ومن أهم أعمال الوليد بن يزيد، بناؤه قصر الطوبة، وقصر المشتى في الأردن، وكان يقيم في قصور منها قصر القسطل، وقصر الأزرق في الأردن وأقام أيضاً في قصر الجابية، وقصر العنبرة، وقصر الأبيض. كانت هذه أهم المآثر الأموية التي تركت أثراً، يؤكد على تطور فن العمارة الإسلامية وتقدمها.

---

(١) سليم عبد الحق: مجلة الحوليات الأثرية السورية - ج ١ - ص: ١٢.

(٢) من أراد زيادة في الإيضاح، يرجع إلى مجلة الحوليات الأثرية، حيث مقال لسليم عبد الحق في المجلد الأول.

أخيراً، ساعد فن الهندسة المعمارية في ظهور علم الخط، للكتابة على المساجد وتزيينها، ومن الذين عملوا في مجال الهندسة من العرب زمن بني أمية، ووفد إلى بلاد الشام المهندس عمر الوادي.

النقود العربية:

تعتبر النقود من أقدم الأسس التي تسير الحالة الاقتصادية في تاريخ الحضارة العربية ويطلق لفظ السكة، على جميع النقود التي تعاملت بها الشعوب من دنانير ذهبية، ودراهم فضية، وفلوس وغيرها.

وتلك أصبحت وسيلة التعامل الرئيسية في العصور الوسطى، والعملة الإسلامية تعد من المصادر الأثرية لدراسة التاريخ. والعملة والعملات التي تناولها العرب في عصري الجاهلية والإسلام[1] هي:

الدينار: هو اسم وحدة من وحدات السكة الذهبية عند العرب، وهي عملة رومانية تعامل بها العرب قبل الإسلام وبعده، وهنالك أجزاء للدينار: نصف دينار - ثلث دينار - ربع دينار -.

الدراهم: عملة فضية، استخدمها العرب في معاملاتهم نقلا عن الفرس، لأن الفضة كانت النقد الرئيسي لهم - وللدراهم أجزاء: نصف درهم - الفلس. كانت قيمة الفلوس وأوزانها تختلف باختلاف الأقاليم التي ضربت فيها، لذا كان لها قوة شرائية متباينة.

لقد احتفظ العرب بعد تحرير بلاد الشام بالعملات، والنقد الموجود لديهم لاستخدامها في عملياتهم التجارية من جهة، والوفاء بالتزامهم من جهة أخرى.

ولم يفكر العرب في تبديل النقود التي تعاملوا بها، رغم إتساع سيطرتهم بشكل جذري؛ لأنهم رأوا أن الإبقاء عليها يساعد على استقرار البناء الاقتصادي للدولة... لكن هذا لا يعني أنهم لم يحاولوا ضرب النقود الخاصة بهم، بل على العكس، فقد جرت عدة محاولات منذ فجر الإسلام لتلك الغاية.

ففي عهد الرسول، أبقي على العملة المتواجدة[2]، ولم يحاول إلغاءها كذلك استمرت في

---

(١) سمير شما - النقود الإسلامية التي ضربت بفلسطين - مطبعة الجمهورية ١٩٨٠ - ٢٥.
(٢) حسن محمود الشافعي - العملة وتاريخها - طبعة مصر - ١٩٨٠ - ٨٥.

عهد أبي بكر، أما عمر بن الخطاب، فقد ضرب الفلوس على طراز عملة كسرى[١].

وظهر هذا النقد في قنسرين[٢]، كما ضرب دراهم، أي أن عمر بن الخطاب[٣] ضرب هذه العملات ولها الطابع البيزنطي أو الفارسي أو الحميري. لهذا يعتبر عمر بن الخطاب أول من ضرب النقود في الإسلام، إلا أن المؤرخين يذكرون أن خالد بن الوليد سبق عمر ابن الخطاب، بضرب النقود بطبريا سنة ١٥ هـ.

ثم إن عثمان بن عفان ضرب أيضاً نقوداً، ونقش عليها عبارة «الله أكبر» خلافاً لذلك، ويذكر أن علي بن أبي طالب هو أول من ضرب النقود بنقوش عربية في البصرة سنة(٤٠)هـ.

وضرب العملة أيضاً بعض الثوار والمطالبين بالخلافة، حيث ضربوا بأسمائهم عملات تعبيراً عن استقلالهم، منهم: قطري بن الفجاءة الخارجي، وعبد الله بن الزبير.

ويقال في هذا المجال أنه أول من ضرب الدراهم المستديرة[٤] مصعب بن الزبير، لقد كان ما ورد محاولات أولية لم تستكمل عناصرها من حيث تعريبها، وإصلاحها إلا في عهد عبد الملك بن مروان.

وبعد استقرار السلطة لعبد الملك بن مروان في جميع أطرافها، أدرك الحاجة لوضع نظام إداري، واقتصادي موحد للدولة، فبدأ بحركة تعريب السكة وتوحيدها. ففي سنة (٧٧) هـ ضرب الدراهم على طراز إسلامي خاص يحمل نصوصاً إسلامية نقشت عليها بالخط الكوفي ويعتبر عبد الملك بن مروان أول من ضرب النقود من الذهب[٥].

ووجود نقود تخالف في نقوشها النقود المركزية، كنقود الحجاج وهذا لا يعني استقلال

---

(١) محمد باقر الحسيني – تطور النقود العربية – ص: ٤١.

(٢) عبد الرحمن فهمي – صنج السكة في فجر الإسلام – ص: ٣٧.

(٣) حسن محمود الشافعي – العملة وتاريخها – طبعة مصر ١٩٨٠ – ص: ٤٥. انستاس متري الكرملي – النقود العربية وعلم النميات طبعة بيروت ١٩٣٩ – ص: ٩٢.

(٤) حسان علي الحلاق – تطور النقود في العصر الأموي – بيروت والقاهرة ١٩٧٨ – ص: ٢٥.

(٥) انستاس ماري الكرملي – البغدادي – النقود العربية وعلم النميات – طبعة بيروت ١٩٣٩ – ص: ٩٢.

الحجاج، وهنالك ولاة أيضاً ضربوا السكة على غرار السكة المركزية: عمر بن هبيرة[1] والي العراق ليزيد بن عبد الملك، وخالد بن عبد الله[2] والي العراق لهشام بن عبد الملك، ويوسف بن عمر[3] والي العراق للوليد بن يزيد، حيث عرفت النقود التي ضربوها بأسمائهم.

لقد دفعت حركة التعريب الدولة العربية خطى واسعة الى الأمام، وساعدتها الظروف السياسية المواتية على تحقيق هذا الغرض. لأن عبد الملك بن مروان كان يرى أن ضرب العملات ضرورة لازمة اقتضتها الظروف، لتدعيم البناء الاقتصادي والسياسي والقومي للدولة، ولتحقيق الاستقلال الاقتصادي للدولة.

أنشأ عبد الملك بن مروان داراً للضرب[4]، وهكذا استطاع أن يطبق حقاً من حقوق الدولة العربية تظهر فيه شخصيتها المستقلة وكانت رغبته في تعريب الإدارة، والدواوين يرتبط بتعريب النقود لإرساء قواعد الدولة على أسس متينة.

وعمل أخيراً عبد الملك بن مروان على تقوية الحكم العربي عندما عمل على تحويل كل شيء في جهاز الدولة الى العربية[5]، فعمل على ان تكون اللغة العربية وحدها هي لغة الدواوين جميعها[6]، ففي عهده نقل ديوان الشام من اليونانية الى العربية[7]، وحولها عن الرومية سليمان بن سعد، كما نقل الحجاج ديوان العراق عن الفارسية الى العربية، وحولها عن الفارسية صالح بن عبد الرحمن.

لم يقف الحجاج في عهد عبد الملك بن مروان على حفظ البلاد ضد الفتن، بل عمل على إصلاحها، حيث كانت قد أهملت منذ آخر عهد عثمان، بسبب الفتن المتتالية. إلا أن زياد بن أبيه أصلح في عهد معاوية، فعمل على حفر الأنهار[8]، إلا أنه دون الحجاج في ذلك.

---

(١) المرجع نفسه – ص: ٩٣.
(٢) المرجع نفسه – ص: ٩٢
(٣) المرجع نفسه – ص: ٩٣.
(٤) حسن محمود الشافعي – العملة وتاريخها – طبعة مصر ١٩٨٠ – ٣١.
(٥) عبد المنعم ماجد – ج ٢ – ص: ١٦٢.
(٦) ابن خلدون – المقدمة – ص: ١٩٢.
(٧) المقريزي – الخطط – ج ١ – ص: ١٣٩ – البلاذري – فتوح البلدان ص: ١٩٣ – الدنيوري ص: ٣٩٩.
(٨) فتوح البلدان – ص: ٣٥٨.

فالحجاج كان يستخدم الفلاحين غير العرب في إصلاح الأراضي[1]، كما عمل على إعادة توزيع أغلب أرض السواد، بسبب حرق الناس للديوان في الكوفة[2]، فهو الذي ثبت سلطة الفرع المرواني[3].

أما ديوان مصر، فتأخر نقله الى أوائل عهد الوليد[4]، كان من نتائج ذلك في مجال الإدارة أن أقبل الكتاب من غير العرب على تعلم العربية، لكي يستمروا في عملهم في الدواوين.

وفي ذلك الوقت، كانت اللغة العربية هي اللغة الرسمية في جميع أقاليم الدولة، كما أصبحت اللغة العربية لغة الدين.

إلا أن تعريب الدولة، كان ينقصه المنهجية في جميع الأقاليم، ثم توجيهه توجيهاً سلياً لأن عملية التعريب، كانت منذ بداية الدولة، وحتى نهايتها هي التي أحدثت هذا الإنقلاب الثوري في مختلف المجالات، ولم يأخذ أبعاده الوطنية والقومية كما يجب، ولو حدث مثل ذلك، لكان في ذلك وجه جديد، ومشرق للدولة العربية، ويبدو في هذا المجال أن ما عانته الدولة في سياستها الداخلية والخارجية كان من عوامل عدم الاهتمام بمثل ذلك. والمطلع على هذا الحدث يلاحظ أيضاً أن اتخاذ قرار التعريب سياسياً واقتصادياً كان موقفاً ارتجالياً، إلا أنه كان ينقصه بعد النظر في نتائجه الاجتماعية والفكرية وأبعادها.

من جانب آخر عمل عبد الملك بن مروان على ضبط ميزانية الدولة من الناحية الاقتصادية[5]، حيث يعتبر أول من جعل دولته تشرف على ضرب العملة[6]، ونقشها

---

(1) عبد المنعم ماجد – ج ٢ – ص: ١٦٢.
(2) المرجع نفسه – ص: ٢٧٣.
(3) عبد المنعم ماجد – ج ٢ – ص: ١٦٢.
(4) المقريزي – الخطط – ج ١ – ص: ١٥٨.
(5) يذكر أن سبب اتخاذ عبد الملك بن مروان مثل هذا الإجراء يعود لتهديد ملك الروم له (الكامل في التاريخ – ابن الأثير – ج ٤ – ص: ٥٣).
يمكن أن يكون عائداً لمصالح اقتصادية وسياسية حيث أصبحت من لوازم السيادة العربية (النقود الإسلامية – ص: ٩).
(6) ابن سعد – الطبقات – ج ٥ – ص: ١٧٠ – مقدمة ابن خلدون – ص: ٢٠٦ – ابن كثير – البداية والنهاية – ج ٩ – ص: ١٥ – فتوح البلدان – ص: ٤٦٨.

سنة ٧٥ هـ، وضربها الحجاج بالعراق[1] سنة ٧٦ هـ، ثم ضرب بقية الولاة على الأقاليم بتفويض[2] من الخليفة، وعرفت هذه العملة بالمملكة الإسلامية[3]، وعرفت العملة الأموية بالدنانير الدمشقية، وسكها عبد الملك بن مروان[4]، والدينار الأبيض، وأجودها ما كان في العراق، حيث عرفت بأسمائهم[5]، مثل الهبيرية والخالدية واليوسفية.

---

(١) البلاذري - فتوح البلدان - ص: ٤٦٨ - المعارف - ص: ١٨١.

(٢) المرجع نفسه - ص: ٤٦٨.

(٣) تعيين خاتم الحديد - الذي تطبع عليه العملة أو تضرب عليه بالمطرقة - ابن خلدون - المقدمة - ص: ٢٠٦ - ابن سعد - الطبقات - ص: ٢٧٦ - ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج ٢ - ص: ٥٤

(٤) فتوح البلدان - ص: ٤٦٦.

(٥) ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج ٤ - ص: ٥٤ - الهبيرية - نسبة إلى عمر بن هبيرة أيام يزيد بن عبد الملك.
الخالدية: نسبة إلى خالد بن عبد الله القسري.
اليوسفية: نسبة إلى يوسف بن عمر أيام هشام بن عبد الملك.

الدواوين في العصر الأموي

عندما أوجد الرسول العظيم الدولة العربية، اقتصر التنظيم الإداري في عهده على قيادته السياسية والعسكرية والاجتماعية.

لكن بعد اتساع رقعة الدولة، كان لا بد من وجود نظام إداري متكامل حيث استفاد العرب في ذلك من الدول المعاصرة، وأخذوا عنها نظام الدواوين.

استعمل العرب كلمة الديوان في نظامهم الإداري بعد أن عربت عن الفارسية، علماً أن الديوان، وجد منذ بداية الإسلام في عهد الرسول دون أن يتسمى بهذه التسمية ولتأكيد ذلك أنه كان له كتاباً وقراء من الصحابة، بلغ عددهم أكثر من اثنين وأربعين شخصاً. ويكفي هذا العدد لأن يؤلف ديواناً للكتابة والإدارة. علماً أن جميع هؤلاء كانوا يكتبون باللغة العربية، ومثال آخر أنه أي الرسول ﷺ أمر بإحصاء المسلمين فقال: «اكتبوا إليّ من تلفظ بالإسلام من الناس»، فكتبوا له خمسمائة رجل وألف[1]. كان هذا الإحصاء، الخطوة الأولى نحو الدواوين، واكتفى أبو بكر بما ساد في عهد الرسول ﷺ.

عندما تولى عمر بن الخطاب، عمل على تطوير الأنظمة السائدة، وأضاف إليها أساليب إدارية متبعة في الدول المعاصرة.

وأول ديوان وضع في الإسلام هو ديوان الجند[2] (ديوان العطاء) وغايته الحفاظ على الأموال الفائضة، الواردة لبيت المال (مثل الزكاة – الجزية) وتسجيل أسماء الجند، لصرف العطايا لهم.

---

(١) محمد كرد علي: الإدارة الإسلامية في عز العرب – طبعة مصر ١٩٣٤ – ص: ١٤.

(٢) يذكر أن أول ديوان وضع في الإسلام هو ديوان الإنشاء – محمد كرد علي – الإدارة السياسية في عز العرب – ص: ٤٥ – أخذ عن النويري – نهاية الأرب – وصبح الأعشى للقلقشندي.

عندما آلت السلطة الى معاوية خطت الإدارة في عهده خطوات سريعة إلى الأمام نظراً لاعتماده سياسة الانفتاح على العالم، ففي عهده تعددت الدواوين إلى أن أصبحت خمسة تدير شؤون الدولة.

لقد استعان معاوية بأشخاص غير عرب في إدارة الدولة، فعهد إلى سرجون بن منصور[1]، وابنه منصور بإدارة دواوين المال، ووجود الدواوين لم يقتصر على دمشق عاصمة الخلافة المركزية. بل أنشئت دواوين محلية في البلاد المفتوحة، وكان بعض الدواوين في البلد الواحد، يكتب باللغة العربية، وبعضها الآخر يكتب بلغات أخرى كالفارسية والرومية.

أخيراً كانت الدواوين في العصر الأموي خمسة:

ديوان الجند - ديوان الخراج - ديوان الرسائل - ديوان الخاتم - ديوان البريد.

ديوان الجند:

هو نفسه الذي وضعه عمر بن الخطاب، لتحديد العطاء[2] غير أنه مرتبط بتطورات عديدة في العهد الأموي، نتيجة ازدياد عدد الجند، واحتكاك المسلمين بحضارات أخرى من ذلك ما فعله هشام بن عبد الملك، عندما أبطل أحد الإجراءات، كما يذكرها فلهوزن.

وهي تقديم العطاء على أنها وسيلة للعيش، دون إيمان بما يقوم به الجندي من خدمة. فأمر هشام ألا يأخذ أحد العطاء، ولو كان أميراً أموياً[3]، ما لم يؤد الخدمة الحربية بنفسه، أو يرسل من ينوب عنه في أدائها.

ديوان الخراج:

يعتبر من الدواوين الهامة لا بل أهمها، وهو يشرف على شؤون الجبايات، حيث يتولى تسجيل ما يرد وما ينفق من الأموال، اقتبسه عمر بن الخطاب من الإدارة الفارسية، ويقابل ديوان الخراج في الإدارة الحالية (وزارة المالية).

---

(١) كان منصور والد سرجون على ديوان المال في الشام - منذ عهد هرقل قبل تحرير هذه البلاد من الرومان.

(٢) شوقي ضيف - تاريخ الأدب العربي - العصر الإسلامي - طبعة مصر ١٩٧٦ - ص: ٤٦٥ وما بعدها.

(٣) يوليوس ولهاوزن - تاريخ الدول العربية - طبعة القاهرة ١٩٥٨ - ص: ٣٤٨.

وفي الأقاليم كان يوجد ديوان للخراج[1]، يرسل الفائض منها إلى الديوان المركزي في العاصمة.

ديوان الرسائل:

أحدث الأمويون ديواناً خاصاً بالرسائل، لخدمة الإدارة المركزية، وفروعها المحلية، ومن أعمال هذا الديوان تنسيق العمل بين جميع هذه الدواوين. يتولى هذا الديوان مشرف عام، بحيث يشرف على الرسائل الواردة، والصادرة من الإدارة المركزية إلى الولايات.. ويختار لهذا المنصب أهل الثقة حتى لا تتسرب أسرار الدولة.

ديوان الخاتم:

ومن مهامه تسجيل ما يصدر عن الخليفة ثم يختم، وأول من رسم هذا الديوان معاوية، وكان بنو أمية يولون هذا الديوان أوثق الناس عندهم.

ديوان البريد:

بعد اتساع الدولة العربية في العصر الأموي، وضرورة الاتصال بين السلطة المركزية والأقاليم[2]. للوقوف على أحداثها وأمورها، وإعطاء الأوامر، وتبليغها أصبح من الضرورة نقل ذلك بسرعة.

وأول من وضع هذا الديوان هو معاوية. حيث كان في بدايته مختصاً بتصريف شؤون الدولة، ثم اتسع نطاق الاستفادة منه وفي عهد عبد الملك بن مروان تقدم نظام البريد، حيث أصبح نظاماً يستفاد منه في الحالات العسكرية والحربية والرحلات السريعة[3].

ويذكر مولوي حسني[4] أن يوسف بن عمرو والي العراق، قد بلغت تكاليف ديوان البريد، لهذه الولاية أربعة ملايين درهم في السنة.

---

(١) مولوي حسني – الإدارة العربية – طبعة مصر ١٩٥٨ – ص: ١٦٧.

(٢) عبد العزيز سالم – تاريخ الدولة العربية – ص: ٦٨٠

(٣) مولوي حسني – ص: ١٧١.

(٤) مولوي حسني ص: ١٧١.

الباب السادس

الجيش الأموي

الفصل الأول: القوات البرية
الفصل الثاني: البحرية
الفصل الثالث: الفتوحات.

الفصل الأول

القوات البرية

الجيش:

إن امتداد رقعة الدولة الأموية، وتباين أقوامها وامتداد أطرافها وقيام شعوب وقبائل مزعجة بجوارها، كل ذلك أدى إلى تشكيل الجيش، وقيام الجيش يترتب عليه مشكلات اقتصادية وسياسية واجتماعية، بالإضافة إلى تكتيب الفيالق وتعبئتها ومكان ترابطها وتواجدها، لهذه الأسباب مجتمعة، كان لابد من جيش محترف تضرس جنده ركوب الخطر والتدريب. وجيش من هذا النوع لا يمكن أن يقوم إلا على متطوعين قبلوا الجندية اختياراً، ثم يتدربون على فنون الحرب والجهاد يومياً، بتمارين رياضية وعسكرية مستمرة.

ووجود جيش لا بد للدولة من نفقات ومصاريف ترزح تحت كاهلها بالإضافة إلى الأعباء والمسؤوليات المترتبة عليه تأمين العيش لأفراد الجند ومدهم بما يلزم من عدة الحرب والسلاح. فالحرب لم تعد مورد رزق رابحة، وذلك لقلتها من جهة ولوقوعها في بلد غير ذي خصب ولا عطاء من جهة أخرى.

إلا أن مشوقات التطوع كالمرتبات والمكافآت العينية أو النقدية والحصول على الأرض التي يصار إلى توزيعها، ثم التعويضات التي تعطى لهم لدى التسريح من الجيش، والترقية إلى مرتبة اجتماعية أو قضائية أعلى عن طريق الجيش، هي الدافع لرغبة المواطنين بالانتساب للجيش.

لهذه الأسباب المذكورة، وبالإضافة إلى الجيش النظامي، راحت الدولة تدعو للخدمة في جيشها.

فبقاء الخليفة واستمراره في الحكم كان يرتبط أحياناً ببقاء الجيش والعكس صحيح كذلك. إلا أن الجيش الموزع على الحدود المرابط معظمه هناك، كان يتألف غالباً من عدة جيوش لكل منها قائد.

إن تنظيم الجيش الأموي ووحدته وكيفية تكوينه وما يحويه مأخوذ من الجيش الروماني. وكما أن القيادة المركزية في الجيش كانت مرتبطة برأس السلطة، حيث كان الخليفة يقود الجيوش وهو بمركزه يعين ويوجه ويولي ويبدل كما يشاء. كما أدخل الأمويون على الجيش عناصر غربية، ولو أنها اعتنقت الإسلام عملياً، كذلك استخدموا الخدم بكثرة.

تعتبر الدولة الأموية من أقوى دول العالم آنذاك، والفن الحربي يمثل فيها أعلى مرحلة في التطور.

أما تسليح الجيش لديها فكان الدبابة، المنجنيق، رأسها الكبش، وسلم الحصار، ويستخدم الخنادق بالإضافة إلى السيف والرمح والترس والخوذه والأسلحة الصغيرة الأخرى. مأخوذة عن الجيوش المعاصرة وبدون استثناء، حتى الخنادق وامكانية التحصين بها، لأن أول من استخدمها في الإسلام النبي ﷺ بمشورة سلمان الفارسي. وكان يترتب على الجيش إضافة لحماية الدولة ذات الحدود الواسعة، والدفاع عنها ضد كل خطر خارجي، أعباء المراقبة مراقبة الشؤون الإدارية.

رغم كل ذلك ونتيجة تعداد السكان والمساحة الواسعة فإن الجيش كان بحاجة إلى كل فرد من أفراده، حيث كان يتكون من وحدات وفرق.

إلا أن عدداً من الفرق والوحدات التي كانت تشبه إلى حد بعيد فرق الجيش الحديثة قد تضاعف وكانت موزعة على مختلف المناطق والولايات وفقاً لمتطلبات الحاجة العسكرية وضرورات الدفاع والمحافظة على الأرض. فكانت في معظمها جيوش تغطية وتوسع واحتلال.

لو عدنا إلى الجيش الأموي والقادة فيه، لرأينا لها ميزة هي أن المسلمين متساوون في الحقوق والواجبات، وبإمكان أي مقاتل مسلم أن يتسلم القيادة، كما رأينا عندما سلم موسى ابن نصير قيادة الجيش لفتح الأندلس إلى رجل كان على مقدمات جيشه هو طارق بن زياد

دون العودة إلى معرفة طبقة طارق ولا من أين انتمائه سوى أنه مقاتل بعقيدة شجاع يجاهد في سبيل الله.

أما عن تشكيل الجيش الأموي فكان يشكل عند السير من مقدمة - والقوة الرئيسة موزعة - المؤخرة، أما عند القتال فكان ميمنة وميسرة وقلب وكل منها موزعة إلى صفوف متساوية متراصة. أما في الولايات التابعة للدولة الأموية فكانت تقيم فيها ثغوراً وحامية للدفاع عنها عند الحاجة.

لو قرأنا تاريخ الأمويين، نراهم مقلدين للشعوب المعاصرة أكثر منهم مبتكرين. وفي مختلف المجالات فكيف نقارن المقلد بالمبتكر أو المخترع، يجب أن لا يتصور أحد أن خسارة البيزنطيين أرضاً في المنطقة لصالح الأمويين. هي أرضهم وهم فوقها وشعبها والمدافعون عن حقهم فيها. إنها نابعة عن قوى معنوية متمثلة بالفضيلة الحربية وبمواهب القادة وبالشعور الوطني.

وعن الجندي الأموي فهو اختصاصي، احترف مهنة الحرب بكفاءة ومقدرة، حسن العدة والعتاد، حيث تؤمنها له الدولة، إضافة للتسهيلات والمنافع التي تؤمنها له مصالح الجيش الفنية والهندسية نتيجة ذلك يكلف بحراسة القلاع والحصون، ويقوم بأعمال الدوريات بين مخفر وآخر وفي أوقات الفراغ كان يملأ وقتهم بإصلاح مناطق الحدود وتهيئتها وشق الطرق وتعبيدها، وبناء الجسور والعبارات وتشييد الأسوار حول مواقع الدفاع وتحصينها، وبناء المساكن والمعابد والمسارح والحمامات. وإيصال المياه للمعسكرات.

بدأ معاوية بعد أن استتب الأمر له يعمل على تصفية الموقف المعلق بين دولته والأمبراطورية البيزنطية الذي بدأ منذ فتح قيسارية[1] من قبله سنة (١٩ هـ) في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ومروراً بموقعة ذات الصواري[2] سنة (٣١ هـ) التي خسرتها بيزنطة مضطرة لتعديل مشاريعها التوسعية، والعدول عنها في مصر والشام.

أما معاوية فقد أدرك أن القسطنطينية هي العصب الحساس بالنسبة للساحل الشرقي للبحر المتوسط وجزره، كما كانت تعتبر القلب النابض للعالم الغربي ومفتاح[3] سيادته

---

(١) الطبري: جـ٢ - ص:١٠٢.
(٢) الطبري: جـ٤ - ص:٢٨٨.
(٣) الأمويون والبيزنطيون: ص:١٦٢.

وزعامته. لذلك رأى معاوية أن واجبه ضرب هذا القلب إذا أتيحت له الظروف، وجعل دمشق تحتل هذه المكانة المرموقة في العالم.

استهل معاوية جهاده ضد القسطنطينية بحملات متكررة، مؤكداً بذلك أنها ليست بعيدة المنال عن القوات الإسلامية. ورداًعلى هذه الحملات وجه الأمبراطور قسطنطين عناية خاصة لتقوية وسائل الدفاع عنها وعن الطريق الرئيسية المؤدية إليها، حيث كان كأبيه هرقل شديد الكراهية للمسلمين[1].

أخذ البيزنطيون بعد أن فقدوا الشام ومصر التي كانت أهم مورد تستمد منه الأمبراطورية الجند القادرين على القتال، والأموال اللازمة للنهوض بالبلاد والدفاع عنها، أخذوا ينفذون سياسة جديدة في أقليم آسيا الصغرى، فوضعوا للدفاع نظاماً حربياً[2] بدأ الاهتمام به في عهد هرقل حيث كان النظام الإداري الجديد ثورة على الأوضاع الإدارية القديمة التي تفصل بين السلطتين الحربية والمدنية وهذا النظام هو توزيع فيالق من الجيش على مناطق تعسكر فيها بصفة دائمة، حيث منح الأمبراطور الجند المقيمين هناك قطعاً من الأرض يستغلونها ويتمتعون بخيراتها، لترفيههم في الاستقرار وتشجيعهم على الاستماتة في الدفاع عنها. إلى جانب ذلك منح الأباطرة قائد كل فيلق سلطات مدنية وعسكرية واسعة، وأصبحت آسيا الصغرى مقسمة إلى أقاليم حربية يقيم بكل منها فيلق. حيث عرف هذا التقسيم الإداري الجديد باسم نظام الأجناد أو البنود، فنشأت في آسيا الصغرى في القرن السابع[3] أقسام عسكرية حملت فيها بعد اسم (بند) من أجل سد الطريق أمام أي خطر يأتي من الخارج.

وهذه الأقسام الحربية هي: بند أرمينية[4]- بند الأناضول[5] بند الإيسكيون. البند البحري[6]: وظهر في مطلع القرن الثامن بعد آخر حملة أموية كبرى على العاصمة

---

(1) الأمويون والبيزنطيون: ص:١٦٢.

(2) المرجع نفسه: ص:١٦٦.

(3) فتحي عثمان - الحدود الإسلامية البيزنطية بين الإحتكاك الحربي والإتصال الحضاري - طبعة مصر - ج ٣ - ص:٩٦.

(4) الحدود الإسلامية البيزنطية/ص:٩٧.

(5) المرجع نفسه ص:٩٦.

(6) المرجع نفسه: ص:٩٧.

البيزنطية. ويعتبر العرب والمسلمون أسبق من هرقل في اتخاذ الأجناد وعسكرهم[1] ووضع الثغور على الحدود الإسلامية، حيث استمرت في العصر الأموي بشكل أقوى وأفضل وإليك لمحة تاريخية مختصرة عنها عند الأمويين للمقارنة بينهم وبين نظام الأجناد عند بيزنطة.

لم يقتصر بنو أمية، عندما نقلوا مركز الدولة الإسلامية من العراق إلى الشام على تغيير العاصمة، بل شمل هذا التغيير اتجاه الدولة كله، فلما استقر لمعاوية الأمر في الشام حرص على أن يسيطر على الشواطىء الشرقية والجنوبية والغربية للمتوسط وعلى جانب كبير من جزره.

وفكر في تحويل هذا البحر من بحيرة داخلية في نطاق العالم اللاتيني، وجعله بحيرة إسلامية خالصة حيث واصل المسلمون هجومهم من بعد انتصاراتهم في موقعة ذات الصواري، واستعادوا قبرص، وبسطوا نفوذهم على البحر المتوسط بنجاح، واحتلوا رودس، وجاء حصارهم للقسطنطينية مؤكداً سيادتهم البحرية حيث أنزل معاوية في رودس قوماً من المسلمين[2] سنة (٥٢ هـ). وتعتبر رودس من أخصب الجزر،

كما فتح جناده بن أبي أمية الأزدي جزيرة أرواد[3] سنة (٥٤ هـ) وأسكنها معاوية للمسلمين. ثم ألح الأمويين على غزو القسطنطينية ثلاثة مرات، ووصلوا إلى جدرانها. الأولى[4] سنة (٤٩ هـ) بقيادة يزيد، والثانية في حرب السنوات السبع[5] سنة (٥٤ هـ)، والأخيرة[6] بقيادة مسلمة في خلافة سليمان سنة (٩٨ هـ).

ثم اتبعت الدولة الأموية سياسة اجتلاب جماعات شديدي البأس والسطوة ووضعتهم في المواقع الاستراتيجية عند السواحل والحدود. حيث كان من نتائج اهتمام الأمويين بمحاربة الدولة البيزنطية براً وبحراً أن اتجهوا إلى جعل قنسرين جنداً مستقلاً منفصلاً عن جند حمص.

---

(١) المرجع نفسه: ص:٢٨٥.
(٢) الطبري: ج ٢ - ص:٢٨٨.
(٣) الطبري: ج ٥ - ص:٢٩٣.
(٤) الطبري: ج ٥ - ص:٢٣٢.
(٥) الطبري: ج ٥ - ص:٢٣٢.
(٦) الطبري: ج ٥ - ص:٢٩٣.

أما الثغور فقد استمر بنو أمية على طريقة معاوية في الاهتمام بالثغور، وواصلوا التخطيط للمدن وتعميرها وتحصينها وإنزال الجنود فيها، وتوسيع السكن وإقامة المخازن والحظائر وأهم الثغور الأموية ما يلي:

المصيصة: بنى حصنها عبد الله بن عبد الملك بن مروان حيث غزا على الصائفة سنة (٨٤ هـ) ودخلها من درب انطاكية ووضع بها قوة من الجند تقدر بثلاثمائة[١] رجل[٢] من ذوي البأس والقوة.

وبنى هشام حصن المثقب على يد سرحان الأنطاكي، وحصن قطر عاش على يدي عبد العزيز بن حيان الأنطاكي، وحصن مورة على يد رجل من أهل أنطاكية، كما بنى هشام حصن بوقا. وأقام بها هشام مسلحة من خمسين رجل وبنى بها حصناً.

أما الثغور الجزرية فهي ملطية: وقد شحنها معاوية بجماعة من أهل الشام والجزيرة فكانت طريقاً للصوائف.

طرنده: غزاها عبد الله بن عبد الملك سنة (٨٣ هـ) فبنى فيها مساكن للجند.

مرعش: بناها معاوية وأسكنها جنداً. الحدث: كان معاوية يتعهد حصن الحدث. زبطرة: بنيت في أيام الوليد بن يزيد.

هذا من ناحية الأجناد والثغور، أما من ناحية الاقطاعات فلقد سار الأمويون على سياسة منح الإقطاعات للمحاربين حيث أقطع الوليد جند إنطاكية أرض سلوقية، كما كان لمسلمة بن عبد الملك أرض بغراس[٣].

في هذه المرحلة، مرحلة انتقال الأمبراطورية البيزنطية من عهد العظمة والتوسع إلى عهد الانكماش والانطواء، بدأت حرب السنوات السبع[٤] بحملة وجهها معاوية سنة (٦٧٣ م٥٤-٦٠ هـ) بقيادة عبد الرحمن بن خالد، إلا أن معاوية دخل في مفاوضات مع الدولة البيزنطية نظراً لدنو أجله وحنكته ومعرفته بأن الخلافة والمحافظة عليها من آل بيته

---

(١) الطبري: ج ٦ - ص: ٥٣٠.
(٢) الحدود الأموية البيزنطية: ص:٣٧٣.
(٣) الحدود الأموية البيزنطية ص:٢٧٥.
(٤) الأمويين والبيزنطيين: ص:١٧٢.

تحتم عليه وضع القوات تحت تصرف ابنه يزيد لمواجهة المصاعب، علماً أن ابنه يزيد شارك في الحملات على القسطنطينية وحصارها(١). ونجح معاوية بمفاوضاته مع مندوب بيزنطة يوحنا(٢) في عقد صلح بينهما مدته ثلاثون سنة.

يعتبر هذا النظام نظام الاقطاع الحربي المشار إليه سابقاً هو الأساس الذي أقيم عليه جيش وطني قوي. وهو الذي حرر الدولة من الجند المأجورين، حيث كان جيش بيزنطة مؤلف من فرق عسكرية مستمدة من جميع أنحاء الدولة، أضيف إليهم عدد كبير من الفلاحين الذين أحرزوا من الاقطاعات مقابل الالتزام بالخدمة العسكرية.

كما نقلت الحكومة عدداً كبيراً من المقاتلين إلى أطراف الدولة لأن واردات الجند بالوسائل الإقتصادية التي تكفل لهم سبل العيش كانت مؤمنة من الإقطاعات الأرضية الموزعة على الجند. إضافة للرواتب التي يتقاضونها بانتظام وعند دعوتهم للقتال يخرج كل منهم بسلاحه عندما تستدعي حاجة الحكومة للدفاع عن أراضيها.

وأفضل النتائج التي ترتبت على هذا النظام أن أصبح من اليسير تجنيد جيش من داخل الدولة بأقصر وقت، وما تنفقه الحكومة على الجيش والدفاع عن الدولة من أموال قد انخفض بسبب توزيع الأرض على الجند وهذا دفع الجند إلى الحرص الشديد للدفاع عن أملاكه التي يعتمد عليها في معيشته.

كانت قوة الجيش الأموي تقوم على فرسان الخيالة الثقيلة حيث كانوا يلبسون مغافر من الفولاذ ودرعاً من الزرد مع علامات فولاذية للضباط وصف الضباط، وكان سلاحهم السيف والخنجر والقوس والرمح كما كان المشاة في معظم الأمر النابلة الخفيفة، إلا أن بعض الولايات كانت تقدم بدلاً من ذلك رجالاً من حملة الحراب كما كان هناك فرق من المشاة الثقيلة يقفون على الممرات الجبلية يلبسون الدروع ويحملون البلط والرماح والسيوف والتروس.

أما سلاح الامداد والتموين فكان يتولاه غير المحاربين حيث كان لهم هيئة من

---

(١) المرجع نفسه: ص:١٧٤.
(٢) المرجع نفسه: ص:١٧٥.

المهندسين غير المحاربين كانت موجودة دائماً لإقامالمعسكراتلقضاء الليل، كما كان لهم هيئة طبية عالية الكفاءة. تحمل معها خدمة من الإسعاف.

أما الاسطول عند الأمويين فلم يكن بنفس الأهمية والغاية التي حظي بها الجيش، حيث كان سلاح الخدمة الممتازة لأن القوة البحرية زمن معاوية كانت تستلزم إجراءاً مضاداً من بيزنطة.

إن الحياة الأموية حياة حربية وسياسية أكثر منها اقتصادية فالنظام السياسي أمبراطوري على رأسه الملك من هذا نستدل على منشأ السلطة وطبقتها العسكرية، كما أن هناك طبقة من الأشراف يستشيرهم الملك في أكثر الأحيان تسمى مجلس الدولة، ومن ناحية أخرى كان الملك يهب الأشراف اقطاعات واسعة وهم بدورهم يمدون الملك بالرجال والعتاد إذا نفر إلى الحرب لأنهم كانوا يحتفظون بقوات مسلحة جاهزة للقتال في مقاطعاتهم.

مما ورد نلاحظ أن الجيش هو عماد الدولة انطلاقاً من مبدأ أن استمرارها يتعلق بوجوده الذي يحافظ على وجودها، لذلك كان يفرض على كل رجل تتوفر فيه الشروط التالية الإنضمام إلى القوات المسلحة كلما دقت ساعة الحرب:

- أن يكون صحيح الجسم.
- أن يكون عمره ما بين خمسة عشرة والخمسين.

وكان يرافق سير الجيش إلى القتال موسيقى حربية يرافقها هتاف الجماهير التي لا تدخل ضمن سير الجند، أما عن تنظيم القوات فقد كانت القوات الحربية تتألف من فرق تجند من جميع الشعوب التي سيطر عليها الأمويين، ولهذه الفرق ميزات أهمها:

- إنها تتكلم لغة شعبها.
- تقاتل بأسلحتها وبأساليبها وأعتدتها الخاصة.

أما الجيش العامل فكان قوامه من العرب ومنه كانت تؤخذ حاميات تقيم في نقاط استراتيجية هامة من الأمبراطورية. كما أن حامية هذه النقاط تكون تحت إمرة قادة شديدي الإخلاص للبلاط وهي بنفس الوقت أداة ترهيب بيد الملك كونه القائد العام للجيش ضد من تسول له نفسه الغدر بالدولة وقائدها، يضاف إلى ما ورد فرقة الحرس الملكي وظيفتهم حماية الملك وتعتبر هذه الفرقة أهم فرق الجيش قاطبة، دون استثناء.

أما القادة عند الإسلام فلم يجعل تعيينهم وفقاً على طبقة ولا على شخص - ولا لمجتمع دون غيره، إنما وضع لذلك حدود وشروط لمراعاتها وأهم هذه الشروط:

الإيمان بالعقيدة الإسلامية مبدأ وفكراً. والتقوى والشجاعة. القوة والفصاحة - القدرة على استعمال السيف والرمح والنشاب، رقة الشمائل. المهارة في ركوب الخيل - التجربة والخبرة.

وترتيب قتال المسلمين كان على النحو التالي:

إن سعد بن أبي وقاص دعا إلى اجتماع حرب ووزع القادة والجند بعد أن عبأهم بقادة أكفاء، وقدر قوتهم على الشكل التالي:

آمر أمراء الأجناد وعرف العرفاء فعرف على كل عشرة رجال آمراً على الرايات رجالاً من أهل المشافعة.

وعشر الناس وأمر على الأعشار رجالاً من الناس لهم معرفة وطرق في القتال.

أمر على الأعشار رجالاً قادة لهم سابقة في فن القتال وأصوله.

ويذكر الخبر الطبري موضحاً ذلك يقول:

(وولي الحروب رجالاً، فولى على مقدماتها ومجنباتها وساقاتها ومجرّداتها وطلائعها ورجلها وركباتها، فلم يفصل إلا على تعبئة).

أما أمراء التعبئة الذين شكلوا ترتيب القتال فهم كما يلي:

- مقدمة، عليها زهرة بن عبد الله بن قتادة.
- الميمنة، عليها عبد الله بن المعتم.
- الميسرة، عليها شرحبيل بن السمط الكندي.
- الساقة، عليها عاصم بن عمرو التميمي.
- الطلائع، عليها سواد بن مالك التميمي.
- المجردة، عليها سلمان بن ربيعة الباهلي.
- على الرّجل حمال بن مالك الأسدي.
- على الركبان عبد الله بن ذي السهمين.

من هذا نلاحظ تسلسل وتنظيم القيادة والقوات وترتيبها عند المسلمين على النحو التالي:

- القائد العام لجيوش المسلمين في المدينة مقر القيادة المركزية.

- قائد الجبهة الشرقية - سعد بن أبي وقاص.

- نائبه: خالد بن عرفطة.

- أمراء التعبئة:

- زهرة بن عبد الله - عبد الله بن المعثم - شرحبيل السمط. سلمان بن ربيعة - سواد ابن مالك - حمال بن مالك عبد الله بن ذي السهمين.

- رؤساء القوم (زعماء قبائلها تحت أمرتهم أمراء) يقود الواحد منهم مجموعة عرفاء.

- العرفاء، كل منهم يقود عشرة من الجند.

مما ورد نستنتج قيمة التعبئة العسكرية العربية الإسلامية.

إذن كان جيش العرب المسلمين بقلة عدده إذا ما قيس بعدد جيش العدو والتي لا تقدر نسبته إلا بربعه. ووجود الجيش العربي المسلم فوق أرض يسيطر عليها الفرس أي أنه مهاجم وبشكل مباشر.. حداثة عهده، وخبرته -وضعف إمكانياته الإقتصادية والمادية، ورغم كل ذلك استطاع أن يحقق انتصارات ساحقة ومتلاحقة.

وأخيراً لقد تمتع الجيش بمميزات أهمها:

- إن الجيش العربي الإسلامي بتعبئته الحسنة يقاتل من عقيدة راسخة مؤمناً بها فكراً ومبدأ، رفعت من معنويات المقاتل المسلم.

- إن العدل والمساواة في صفوف الجيش وملازمتها لكل مسلم زمن السلم يؤدي إلى أستمرارها زمن الحرب.

- الوحدة والألفة في صفوف الجيش كانت على عكس ما يوجد لدى العدو فيقلل ذلك من تعبئته، ويزيد من أهميتها عند العرب.

- التبدل المتجدد في التعبئة الإسلامية بما يتطلب والحاجة في مختلف الجبهات زاد أيضاً من أهمية التعبئة الإسلامية وتفوقها على التعبئة الفارسية.

- إن قوام الجيش المسلم العربي كان من عنصر واحد هو العربي صاحب عقيدة تجعل هذه الميزة منه مقاتلاً أفضل من الجيش الذي ينتمي إليه أقوام وأجناس شتى فيضعف ذلك من تعبئته.

- قدرة التعبئة الإسلامية في فن تحريك القوات والمناورة تفوق قدرة الجيش الفارسي المعادي.

- إن التعبئة العسكرية الإسلامية استولت على بلاد فارس وحررت العرب من بيزنطة مما ورد نؤكد أن الانتصارات التي حققها الجيش العربي الإسلامي وعلى كل الجبهات، تؤكد حسن تنظيمه وترتيبه وقدرة قيادته الحكيمة على خوض الأعمال القتالية.

بعد الحديث عن الجيش لا بد لنا من إلقاء نظرة سريعة على تكوين الديوان وتطوره. ولا بد من التذكر أن عمر بن الخطاب يعتبر في رأي المؤرخين أول من وضع[١] الديوان واختلف في سبب[٢] وضعه له، وقرر عمر بن الخطاب وضع الديوان بعد أن عقد اجتماعاً لرجال دولته حيثما قال: اكتبوا الناس على قدر منازلهم، ابدأوا بقرابة رسول الله الأقرب فالأقرب.

وعندما استقر ترتيب الناس في الدواين، على قدر النسب المتصل بالرسول ﷺ فضل بينهم في العطاء على قدر السابقة في الإسلام والقربى من رسول الله ﷺ.. ففرض لكل من شهد بدراً من الأنصار أربعة آلاف درهم، كما فرض لكل من هاجر قبل الفتح ثلاثة آلاف درهم ولمن أسلم بعد الفتح ألف درهم.

ثم فرض للناس على منازلهم وقراءتهم للقرآن وجهادهم، وفرض للواحد من أهل اليمن[٣] وقيس بالشام والعراق من ألفين إلى ألف إلى خمسمائة إلى ثلاثمائة.

روعي في التفضيل عند انقراض أهل السوابق التقدم في الشجاعة والبلاء في القتال وهذا حكم ديوان الجيش في ابتداء وضعه.

لعل خير مثال على تعبئة الجيش هو ما حدث عند موقعة صفين بين جيش عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه، وجيش معاوية في مطلع تأسيس الدولة الأموية... حيث تشكل

---

(١) الماوردي - علي بن محمد بن حبيب البصري الماودي - الأحكام السلطانية طبعة مصر ١٩٧٨ - ص:٢٢٦.

(٢) يذكر أن أبا هريرة، كان على البحرين، فقدم على عمر بن الخطاب بخمسمائة ألف درهم، فقصد المنبر ثم قال، قد جآنا مال كثير، فإن شئتم كلنا لكم كيلاً، وإن شئتم عددنا لكم عداً فقال له رجل: لقد رأيت الأعاجم يدونون ديواناً، فدون لنا أنت ديواناً، و ذكر غير ذلك في سبب وضعه. إن الهرمزان هو الذي فسر معنى الديوان لعمر بن الخطاب.

(٣) الماوردي: ص:٢٢٩.

الجيش من كتائب[1] تشكلت وحداتها من أفراد الجيش مجهزين بأسلحة القصد منها مهاجمة خصمه وذلك بزحزحة الصفوف والتأثير على معنوياتها وإضعافها.

كان معاوية قد كون جيشاً من جنود احترفوا الحرب واتخذوها مهنة لهم ومسلكاً حيث خضعوا لتدريب عسكري يدفع مرتباتهم لهم مقابل الولاء والطاعة.

وكانت اليمانية، القسم الأكبر منه، حيث شكلت عنصر القوة الاساسي في الجيش وكان من الطبيعي أن تكلف تعبئة الجيوش غالياً وهي نفقات لم يكن يتحملها لو لم يكن بإستطاعته أن يتصرف بموارد المقاطعات الواسعة الغنية التابعة له.

والحرب قد تمتد طويلاً، والجيش الذي يخوض هذه الحرب لا بد وأن تجرى تعبئته، يقسم إلى كتائب في ساحة الحرب حسب نوع أسلحتها، لتحتل مواقعها في الميمنة أو الميسرة أو القلب، أو المؤخرة أو الطليعة، وكان لا بد أيضاً من التوقف بعيداً حيث يمكن تعبئة الجيش.. وتعيين مواقع الكراديس قبل الشروع بالتقدم إلى الأمام ببطء واحتراز، محافظة على النظام من جهة وتحسباً لكل طارىء مفاجىء من جهة أخرى.

لقد كان من استراتيجية الأمويين في فتوحاتهم الاستيلاء على المدن الكبرى كما لاحظنا في فتح الأندلس وفي الجبهة الغربية في فتوحات قتيبة من الشرق.

بالإضافة للاستيلاء على أرضه وعلى تموينه واستباحة الريف وغزو وسلب القرى والمزارع لإرغام العدو على إلقاء سلاحه، ولتحقيق ذلك اعتمد الأمويون فرق الخيالة (الفرسان) حيث تعتبر فرق الخيالة هي التي تقرر المصير وذلك من خلال الهجوم المفاجىء الحاسم الجانبي.

والحرب الأموية ليست كلها اقتتال، وإنما كانت في بعض الأحيان حرب اقتصاد فبعد أن توفرت للدولة واردات طائلة من جباية الرسوم والضرائب المفروضة عمدت الدولة إلى تكوين جيوش جرارة لذلك كان الأمويون يحاولون ضرب اقتصاد العدو حينما يجابهونه لتضيق الخناق عليه.

والحروب لم تكن على جبهة واحدة، أي لم تكن محصورة بمنطقة واحدة، وإنما على العكس كانت عديدة وغايتها كانت تغطية الحدود من أطرافها.

---

(١) يذكر ذلك الطبري.

وكانت الحملات العسكرية حاسمة ولم يكن القصد منها إبادة الجيش المعادي والحصول على غاية الحرب، لذلك كانت الساحات الشاسعة وصعوبة تموين الجيش كان من عوامل الانكفاء أو التوقف.

لذلك كنا نرى دائماً قادة هذه الجيوش يخططون لهجوم صاعق يبلغ معه الجيش الأموي قلب البلاد والمراكز الحساسة، وغاية ذلك إنهاك المراكز الدفاعية ومستودعات التموين ومخازن الميره واحتلال الحصون،.

وكان غاية الجيش احتلال الثغور والحصون المعادية حيث تعتبر أبواباً ونوافذ تؤدي إلى قلب البلاد ومسالك طبيعية تؤدي إليها.

ومن المهام الرئيسة للجيش قطع طرق المواصلات المعادية التي سلكها وقطع موارد النقد وغير ذلك من الوسائل، وذلك كخطة حربية تكون نتيجتها الوصول إلى الصلح.

وكانت لأعمال الفروسية أهمية بارزة وكثيراً ما كان دورها بارزاً ومهماً فكثيراً ما نرى في الحروب الأموية زعماء لهم شهرتهم الواسعة يتبارزون علانية بمرأى الجيوش قبل بدء الحرب وأيام الهدن بينهما.

حيث أن المعركة وظروفها ومكانها تحدد تعبئة القوات وترتيب قتالها وبذلك يتجلى بوضوح وحدة الجيش، وتموينه، وترتيبه، وكيفية قتاله، ففي البداية كان القتال عند العرب المسلمين على شكل صفوف متوازية[1] وذلك بتقديم الرجالة وفي أيديهم الرماح.

وتنظيم الجيش بدأ منذ عهد الرسول ﷺ في ليلة العقبة الثانية، وعندما اجتمع واختار منهم إثني عشر نقيباً، وبالإضافة إلى أعمالهم الأساسية جعلهم يشرفون على العرفاء الذين يشرفون بدورهم على عشرة من الجند.

استمر العمل بذلك التنظيم حتى عهد الخليفة عمر بن الخطاب الذي قرر إحداث نظام جديد للجيش عندما أرسل كتاباً إلى سعد بن أبي وقاص قبل القادسية يحدد له فيه تنظيم القوات وتوزيعها. ويحدد له أن يوزع الناس إلى عشرات ويضع، على كل عشرة عريف، ثم يجمع مجموعة من العرفاء ويضع عليهم أميراً ثم يضم مجموعة من الأمراء تحت امرة رؤساء

---

(١) أحمد علي - التعبئة العسكرية في صدر الإسلام والعهد الأموي - طبعة بيروت ١٩٨٢. ص:١٠٦.

القوم ويضع الرايات مع قوات الجنبتين ويحدد للقائد موقعه في الوسط من قلب قواته.

بقي توزيع القوات على هذا الشكل وتنظيمها حتى كان خالد بن الوليد في معركة اليرموك عندما اجتمع ووحد قيادة القوات وقسم جيشه إلى كراديس وعلى كل كردوس أمير.

استمر تنظيم القوات عند الأمويين كما ذكرنا، ويصفها ابن خلدون على الشكل التالي:

العريف على عشرة/الخليفة على خمسين/القائد على مائة/أمير الكردوس على ألف، أمراء التعبئة (ميمنة) ميسرة، قلب، مقدمة، مؤخرة) أمراء الجيش وأخيراً قائد الجيش (القائد الأعلى للقوات).

وبذلك تصبح الوحدات كتلة صغيرة متراصة تسمى كردوساً، وبدلاً من تقسيم الجيش إلى فرق، تنسب كل منها إلى قبيلة، فقد رأى الأمويون تشكيل جيش نظامي يخدم أفراده وتنسب كل منها إلى قبيلة - يخدم برواتب معينة بأمرة قادة محترفين.

امتاز الجيش الأموي بنظامه وطاعته لقادته بالإضافة لمهارة القادة وحنكتهم حيث عرف جند الشام بطاعة السلطان، والطاعة أولى ميزات الجندي.

وعندما كان الجيش الأموي يصل لمرحلة تضعف فيه مقدراته وحسن استخدامه وكان الأمويون يرمونه برجل قوي الشكيمة، يكبح جماح افراده ويجمع قلوبهم على الطاعة كما حدث للحجاج وزياد بالعراق.

الأسرى:

أما عن معاملة الأسرى، فلقد عاملهم المسلمون معاملة اللطف والعدالة، كما حرص الإسلام على تحرير الأرقاء وفك الرقاب حيث جعل الإسلام العبد كالحر في المعاملات الإجتماعية والشهادة وغيرها.

إلا أن بعض الأمويين، كانت تلعب بهم الأهواء السياسية والنزعات النفسية حيث كانوا ينكلون بالاسرى ويخلفون بالوعد والأمان اللذين أوجب الإسلام احترامها. حتى عرف عن مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين أنه كان يقتل أسراه جميعاً إلا العبيد كما

---

(١) ابن الأثير - ج ٥ - ص:١٤٥-١٤٩.

كان المحاربون الأمويون يحصرون جهدهم على أخذ عدد كبير من أسرى الحرب، واتبعت عدة طرق في معاملتهم منها، أن يطلق سراحه مقابل فداء أو بدون فداء.

وأهم هذه الطرق الاسترقاق ويعني أن يقوم العبد بخدمة سيده ورعي ماشيته وغير ذلك من أعمال أخرى، ولسيده حق بيعه إذا دعت الضرورة لذلك، والطريق الأخير كان قتل الأسير، وخاصة إذا وجد منهم أذى وآثار الشغب ضد الدولة.

كان نظام المفاداة إحدى الطرق التي اتبعها الأمويون في حروبهم الخارجية، وعلى الأخص مع بيزنطة نظراً لكون الحروب بينهما دائمة، وكانت الدولتان أحياناً تتفقان على أن يفدى أسير أموي بأسير بيزنطي.

التجنيد:

كان لا بد للقيادة العربية الإسلامية بعد الفتوحات الواسعة من وضع حدود للتجنيد وتكوين جيش نظامي.. فمثلاً الخليفة عمر بن الخطاب بقي ثلاثة أيام يندب الناس مع المثنى للخروج إلى العراق فلم يجبه أحد، فكان لا بد من إيجاد طريقة يتمكن فيها من ترغيب الناس على الجهاد والقتال وكان ذلك عن طريق الاغراء عندما يقول «إن الحجاز ليست لكم بدار إلا على النجعة ولا يقوى عليه أهله إلا بذلك»[1].

واتبع أيضاً المثنى بن حارثة طريق الترغيب عندما تبين له الخوف من قوة الفرس، حيث أخذ يهون عليهم هذا الأمر ويحرك فيهم الرغبة في المال والحياة الأفضل بقوله: «أيها الناس، لا يعظمن عليكن هذا الوجه، فإنا قد تبجحنا ريف فارس وغلبناهم على خير شقيّ السواد، وشاطرناهم ونلنا منهم، واجترأ من قبلنا عليهم، ولها إن شاء الله ما بعدها»[2].

كان ما ورد يفرض على القيادة المركزية الوصول إلى نتيجة أن التجنيد يحتاج إلى شيء من الحزم[3] والتنظيم ثم أصبح التجنيد على صيغة أوامر الولاة.

---

(١) الطبري – ج ٣ – ص:٤٤٥

(٢) المرجع نفسه – ج ٣ – ص:٤٤٥.

(٣) المرجع نفسه – ج ٣ – ص:٤٧٨.

كان ما ورد من دوافع وضع الديوان بعد أن كثرت الأموال وأصبحت تأتي بيت المال تباعاً من أخماس الغنائم ومن الجزية والخراج.

وبدأ منذ وضع التجنيد الإلزامي بوضع ديوان خاص يصرف لهم عطاءهم من بيت المال فوق اسهمهم من الغنائم ومهمتهم كانت الحرب دون غيرها. وإلى جانب هؤلاء كان المتطوعون يجندون وقت الحرب ويسرحون وقت السلم.

بقي وضع التجنيد على حاله حيث أصبح المال أداة التجنيد وارتفع صوت المال فوق كل صوت أي أن عدد الجند كان حسب كثرة المال وقلته.

فاختل بذلك نظام التجنيد حيث أصبح يندمج في القتال من يرجو كسب الخراج ومن يرجو السلب من اللصوص[١].

وأصبح الخلفاء يسترضون الجند بدفع الأموال لهم[٢] مقدماً حتى وصل دورهم لعزل بعض الولاة للإبقاء على مودتهم[٣].

إن التجنيد اعتمد الشباب نتيجة قدرتهم وصبرهم على قساوة الحياة، وأحوالها ولم يحدثنا المؤرخون عن سن محددة للتجنيد. إلا أن البلوغ في الجزيرة العربية كان يأتي مبكراً لارتفاع درجة الحرارة، والحرارة تنشط الغدد، بالإضافة للهواء والغذاء، وكان ذلك من عوامل تحديد سن الخامسة عشرة واعتبارها سن البلوغ وسن التجنيد.

أما في بلاد الشام فقد زاد الأمويون في سن الخامسة عشرة، كون هذه البلاد تتمتع بمناخ مختلف ويمكن أن نقدر بأن سن التجنيد عند العرب في بلاد الشام كان محصوراً من سن السادسة عشرة إلى الثامنة عشرة ومن شروط التجنيد الأخرى - الحرية، الإسلام، السلامة من الأمراض المعيقة والمانعة من تأدية الخدمة في الجيش، كأن يكون مثلاً أعمى أو أخرس أو أصم... إلخ.

أي أنه إذ كان فارساً أثبت، وإن كان راجلاً لم يثبت، أخيراً الشجاعة والإقدام والمعرفة بالقتال وفنونه.

---

(١) ابن الأثير - ج ٣ - ص:١٥٩.
(٢) المرجع نفسه - ج ٤ - ص:٤٨.
(٣) كما فعل عبد الله بن الزبير عندما عزل ابه حزة عن البصرة - ابن الأثير - ج ٥ - ص:٢٩.

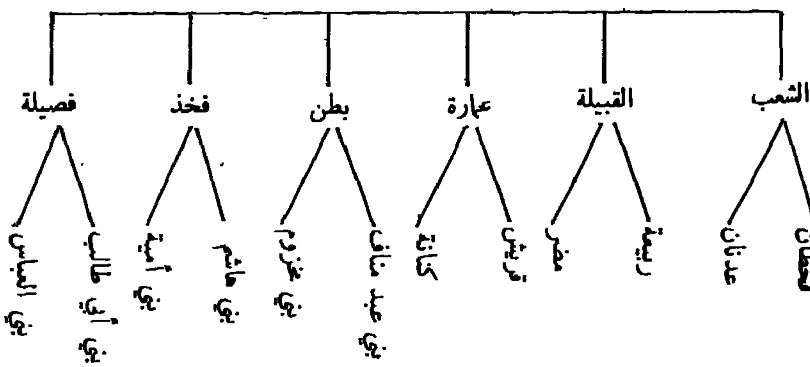
ومن تتوفر به هذه الشورط وأراد الانخراط في الجندية كان يقدم طلب انتساب إلى صاحب ديوان الجند، وعندما يقبل طلبه كان يدون اسمه في دفاتر الجيش، مع اسمه وطوله ولونه وملامحه وسائر ما يتميز به عن غيره.

علماً أن المتطوعين للجهاد ليس لهم شروط معينة ودافعهم الرغبة في الثواب.

أما ترتيبهم في الديوان، فهو عام ويقصد به ترتيب القبائل والاجناس حتى تتميز كل منها عن غيرها. وقد ترتبت أنساب العرب ست مراتب هي - الشعب وهو النسب الأبعد، ومنه تتشعب القبائل كقحطان وعدنان - القبيلة: وهي ما انقسمت فيها أنساب الشعب مثل ربيعة ومضر.

العمارة: وهي أيضاً ما انقسمت فيه أنساب القبائل مثل قريش وكنانة.
البطن: وهو ما انقسمت فيه أنساب العمارة مثل بني عبد مناف وبني مخزوم.
الفخذ: وهو ما انقسمت فيه أنساب البطن مثل بني هاشم وبني أمية.
الفصيلة: وهي ما انقسمت فيه أنساب الفخذ مثل: بني أبي طالب وبني العباس.

ترتيب أنساب العرب



أما الترتيب الخاص فهو ترتيب الواحد، ويرتب بالسابقة في الإسلام، أما العطاء فيقدر بالكفاية، وللكفاية ثلاثة وجوه ترتبط بعدد من يعوله والمكان الذي يوجد فيه،

والغلاء والرخص.. ويكون وقت العطاء معلوماً يتوقعه الجيش عند الاستحقاق وهذا مرتبط بدورة بالوقت الذي تستوفي فيه حقوق بيت المال[1].

وإذا تأخر عنهم العطاء عند استحقاق وكان متوفراً في بيت المال كان من حقهم المطالبة به كالديون المستحقة.

علماً أنه إذا أراد صاحب السلطة اسقاط بعض الجيش لعذر أو لضرورة فيحق له، ولا يحق له بذلك من دون سبب.

وإذا أراد بعض أفراد الجيش تسريح أنفسهم من الديوان في حالة الاستغناء عنهم، فيمكن، وعكس ذلك لا يجوز.

وإذا فقد أحدهم بعض سلاحه أو عتاده، فيعوض عنه، كما كان يعطى نفقات السفر إذا كلف بذلك.

كما أخذ بعين الاعتبار الذين يموتون، حيث كانوا يستحقون من عطائه لورثته حيث يعتبر دينا في بيت المال.

أما كاتب الديوان فيجب أن يتوفر في ولايته شرطان هما:

١ - العدالة: وهو شرط يجب توفره في كاتب الديوان لأنه مؤتمن على حق بيت المال والرعية.

٢ - الكفاية: وشروط توفرها في كاتب الديوان واجبة أهمها حفظ القوانين استيفاء الحقوق[2] - وإثبات الرقوع[3]، محاسبات العمال، إخراج الأموال[4]، تصفح الظلامات.

---

(١) فإن كانت تستوفي في وقت واحد من السنة، جعل العطاء في رأس كل سنة، وان كانت تستوفي في وقتين جعل العطاء في كل سنة مرتين، وإذا كانت تستوفي في كل شهر جعل العطاء في رأس كل شهر.

(٢) ويعني استيفاء الحقوق ممن وجب عليه من العاملين.. واستيفاؤها من القابضين لها من العمال.

(٣) وهو رفوع مساحة وعمل أو رفوع قبض واستيفاء، ورفوع خرج ونفقة.

(٤) ويعني استشهاد صاحب الديوان على ما ثبت فيه من قوانين وحقوق حيث أصبح كالشهادة.

المرتبات:

ذكرنا تعصب بني أمية للعرب، وسوء معاملتهم لغير العرب حيث اعتبروا أهل البلاد التي فتحوها وما يملكون رزقاً حلالاً لهم(١).

فكان ذلك ذريعة لهم للاستيلاء على ما شاؤوا من أموال الناس وقد ساعدهم على ذلك ما فعله معاوية عندما جعل بعض الأعمال طعمة لبعض عماله، بينما ضمن بعضهم الآخر ببعض المال ترغيباً لهم في تصرفه.

وكانت الحروب الحسم في الاستكثار من الأموال وطريق جمعها كان الخراج والجزية. فاستخدموا لذلك العمال الذين يثقون بهم وبمقدرتهم على جمع المال وأشدهم الحجاج بن يوسف عامل عبد الملك على العراق والمشرق، حيث استخدم مثل هؤلاء العمال العنف في تحصيل الأموال وكل الطرق مشروعة عندهم(٢).

اذاً كان عمال بني أمية يجورون على اصحاب الأرض في الحصول على المال علماً أن الخراج كان على المساحة، حيث يؤخذ على الأرض مال معين استخدمت أم لم تستخدم. كما كانت الضرائب على العرب المسلمين أنفسهم ولم تكن قاصرة على أهل الذمة والموالي. أكد ذلك ما فعله محمد بن يوسف عندما تولى اليمن(٣).

ومن أساليب بني أمية في جمع المال والاستكثار منه فرض الضرائب على الأرض الخراب، كما كانوا يفرضون على الأهالي هدية في بعض أعيادهم(٤) بلغت في عهد معاوية عشرة ملايين درهم(٥). كما فرضوا مالاً على من يتزوج وعلى من يكتب عرضاً(٦).

إن تطبيق القواعد الاساسية التي قام عليها الإسلام، اختلف باختلاف السلطة في العهد الأموي، فالخلفاء زادوا انغماساً في الترف منهم يزيد بن عبد الملك حيث أصبحت

---

(١) الأغاني - ج ١١ - ص:٣٠ - المقريزي - ج ١ - ص:٧٧.
(٢) ابن الأثير - ج ٥ - ص:١٠ - أبي يوسف - كتاب الخراج ص:٦٢.
(٣) أبي يوسف - الخراج - ص:٢٤.
(٤) كعيد النيروز.
(٥) اليعقوبي - ج ٢ - ص:٢٥٩.
(٦) جرجي زيدان - ج ٢ - ص:٣٧.

السلطة الجديدة لا تنظر إلى ما يؤيد سلطانها كما عملوا فيما بعد في انتقاء عمالهم.

تأكيداً على ذلك، كان بعضهم يولي بعضهم عملاً بإشارة من جارية أو مقابل هدية[1] فأصبح العمال في هذه الحالة لا همَّ لهم سوى حشد الأموال والاستكثار من الموالي والصنائع، فكثرت أموالهم واتسعت ثروتهم[2].

كان جل اعتماد معاوية بن أبي سفيان على حرب الشام وبخاصة اليمانية كما ذكرنا، ونظراً لدورهم البارز في نصر الأمويين، فقد استغلوا حاجة السلطة إليهم فاشترطوا عليها شروطاً قاسية وفرض لهم عطاء مضاعفاً.

وكان رجال السلطة الأموية يعملون على اشباع نهمهم المالي بالمنح والعطايا حيث يذكر المسعودي[3] أن معاوية جعلهم حكومة داخل حكومة بحيث كان لا يقطع أمراً من أمورهم إلا بعد مشورتهم وفرضوا عليه تلبية رغباتهم وشروطهم.

كان ما ورد من اليمانية مفروضاً على معاوية نظراً لتعدد الأحزاب والمطالبين بالخلافة بالإضافة لأخطار بيزنطة أي أن الأخطار الخارجية والداخلية كانت تفرض على الخلفاء الأمويين وابتداءً من معاوية كانت الحاجة العملية إلى تكوين جيش قوي ذي عدد وعدة ليقوم بهذه الأعباء. فاضطر إلى رفع مرتبات الجند إلى ألف درهم في العام، حيث بلغَ تعداد الجيش في عهده ستون ألفاً، لذلك كان عرب بلاد الشام وهم أهل ثقة فرضاً عليه. وكانوا عماد جيشه واستمر الخلفاء الأمويون على خط معاوية في الاعتماد على اليمانية وهذا واضح في اعتماد المروانيين أثناء انتقال السلطة إليهم في مرج راهط على اليمانية وسحق القيسية.

إن اعتماد السلطة الأموية عليهم جعلهم ينتهزون أية فرصة للمطالبة بزيادة أجورهم وإذا رفض أحدهم كانوا يهددونه بالتخلي[4] عنه حتى أصبح عطاؤهم ورواتبهم يأتي في

---

(١) ابن الأثير – ج ٥ – ص:٧٢ – أعلام الناس – ص:٣٥.

(٢) ابن خلدون – ج ٣ – ص:٩٦ – اليعقوبي – ج ٢ – ص:٣١٨ – ابن الأثير الكامل في التاريخ – ج ٥ – ص:١٠٤.

(٣) المسعودي – ج ٣ – ص:٩٥ – تاريخ التمدن الإسلامي – ج ١ – ص:١٤٤–٢٥.

(٤) المسعودي – ج ٣ – ص:٩٥.

المرتبة الثانية بعد أفراد السلطة الحاكمة، حيث بلغ مرتب أحدهم ألفا درهم أي ٨٠ جنيهاً.

ويأتي دور اليمانية واضحاً في أيام عبد الملك بن مروان أيضاً نظراً لوجود منافس له في الخلافة هو عبد الله بن الزبير واستمرار الخوارج في الصراع ضد الأمويين بالإضافة لوجود بيزنطة واستغلالها لمثل هذا الواقع مما اضطر عبد الملك لمصالحة الروم على جزية يدفعها لهم على أسابيع.. ولضخامة الجزية التي كان يدفعها للبيزنطيين وقعت خلخلة مالية في الدولة مما اضطر عبد الملك بن مروان إلى تأجيل مرتبات الجند مراراً عن أوقاتها(٢) ولإصلاح ذلك عرب النقود وأعاد عمال الزراعة إلى زراعتهم والتجار إلى تجارتهم والصناع إلى صناعتهم.. إلا أن هذه المحاولات باءت بالفشل وزادت من تذمر الناس وبخاصة أخذ الجزية ممن أسلم ومعاملته معاملة غير المسلم.. وتجدد تأخير المرتبات في عهد الوليد بن عبد الملك، حتى أن جند الشام كانوا يثيرون الشغب على الدولة الأموية حتى فرضوا على الوليد بن عبد الملك أن يعمل على جعل نسائه ينفضن الطيب من شعورهن فيباع لدفع ثمنه أعطياتهم(٢) أما عمر بن عبد العزيز فعمل على إصلاح الحالة الإقتصادية للدولة وخاصة المالية فعمل على ضم أطراف الجيوش المتناثرة وضغط النفقات وعدل عن استمرار الفتوحات فأمر بفك الحصار عن القسطنطينية وأمر بإخلاء بعض الثغور المتطرفة وإعادة الجنود منها. وأقبل على محاسبة الولاة والقادة على إسرافهم كما فعل مع يزيد بن المهلب(٣) إلا أن جهده وما فعله هشام بن عبد الملك لم يعالج الفساد بسبب الإقبال على جمع المال وجمعه بشتى الوسائل.

أمام ذلك الفساد كان لا بد للخلفاء الأمويين من الاستجابة لرغبة الجند - ومطامعهم المالية كما فعل الوليد بن يزيد عندما ولي الخلافة حيث أراد إشباع نهم الجند ليحصل على طاعتهم ويأمن من شغبهم فزادهم في العطاء عشرة دراهم وخص أهل الشام بعشرة فوق زيادة العشرة تلك(٤).

---

(١) فون كريمر - ص:٣١٩.
(٢) ابن قتيبة - عيون الأخبار - ج ١ - ص:١٧٠.
(٣) ابن الأثير - ج ٥ ص:١٤-٢٠.
(٤) المرجع نفسه - ج ٥ - ص:١٠٦.

كان ما وصلت إليه الإدارة من التفسخ والفساد من أهم عوامل ضعفها ونهايتها.

الفن العسكري:

كان عمر بن الخطاب أول من جعل الجند فئة مخصوصة وأنشأ ديواناً للاشراف وذلك بتسجيل أسمائهم وأوصافهم ومقدار أرزاقهم وإحصاء أعمالهم، علماً أن القتال في عهده كان يقوم على العاطفة الدينية والرغبة في نشر الدين، وإليه يرجع الفضل في إقامة الحصون والمعسكرات[1] الدائمة في مواقع استراتيجية لراحة الجنود في أثناء تحركاتهم.

يؤكد ذلك أوامره ببناء مدينة البصرة والكوفة على الجبهة الشرقية كمعسكرات دائمة للجند[2]. لأن عمر بن الخطاب كان قد وضع مبادىء لجنده منها ألا يقيموا داخل المدن التي يفتحونها وأن يظلوا في ضواحيها واستمرار بناء الحصون والمعسكرات.

مما ورد يتضح لنا وجود مراكز استراتيجية تحتوي الجند، وبشكل دائم تزجهم عند الحاجة، أما جند الشام، فتشكل من أهل الشام ومن العرب الذين استقروا بربوعه، ثم أضيف إليهم من اعتنق الإسلام من جميع الشعوب، علماً أن اليمانيين في بلاد الشام أكثرية الجيش الأموي.

أكمل الأمويون ما بدأه عمر في نظام الجندية الاجبارية، عندما تقاعس المسلمون عن الحرب وانصرفوا عن القتال وكان الجيش في العهد الأموي يتكون من الفرسان والرجالة، وسلاحهم الدروع والسيوف والرماح والقسي والسهام.

كان الفرسان يلبسون الدروع والخوذ المصنوعة من الصلب والحلاة بريش النسور ويرتدي الرجالة أقبية قصيرة متدلية إلى ما تحت الركبة وسراويل ونعالاً تشبه النعال التي يلبسها أهل بلاد الأفغان اليوم[3].

وكانت النساء يصحبن الجيش لاثارة الحماسة في نفوس الجند.. وطاعة الجند كانت واجبة لقائدهم لأنه نائب الخليفة في مكان وجوده يقود القوات، أما بعد الحرب فتصبح

---

(١) حسن إبراهيم حسن - طبعة مصر ١٩٦٤ - ج ١ - ص:٤٧٨.
(٢) عبد الرؤوف عون - الفن الحربي في صدر الإسلام - طبعة مصر ١٩٦١ - ص:٢٠٠. الطبري - ج ٤ - ص:٢٣٦.
(٣) حسن ابراهيم حسن - ج ١ - ص:٤٨٠.

مهمته مقصورة على النظر في تدريب الجند وتحسين مقدرتهم وأسلحتهم. وإلى بعض القواد العرب يعود الفضل في تنظيم القتال مثال: عمر بن الخطاب(١)، خالد بن الوليد(٢)، سعد بن أبي وقاص(٣)، وفي عهد الأمويين اختلط العرب بالفرس وأخذوا نظام التعبئة المتعارف عليه عالمياً آنذاك وهو تقسيم الجيش إلى خمسة أقسام على النحو التالي:

ميمنة - ميسرة - قلب - مؤخرة - مقدمة.. علماً أن كل قسم من الميمنة والميسرة والقلب كان يقسم إلى ثلاثة أقسام: مجنبتان وقلب لسهولة القيادة والمرونة في الحركة.

لقد اكتسب الفن العسكري في العصر الأموي ميزات جديدة مع تعاظم القوات الأموية في مختلف الأقاليم، والميل إلى تحقيق التعاون بين هذه القوات المختلفة، وتنسيق حركات المقاتلين أبان الأعمال الحربية، وتجلى ذلك نتيجة لحذاقة القادة الأمويين ومهارتهم في استخدام مثل هذه القوات.

كانت السلطة تضطر لارسال الجندي الشامي إلى خارج بلاد الشام كما رأينا عند حصار مكة الأول(٤) وفي الحصار الثاني(٥) ثم في طلب الحجاج لجند بلاد الشام من عبد الملك بن مروان للقضاء على الخوارج، وغير ذلك مما يؤكد الميزات الممتازة للفن العسكري لمثل هذا الجند وتطوره.

وحرص الأمويون على جند بلاد الشام وعلى الأخص اليمانية، بحيث أصبح المقاتل منهم رجل حرب كامل الصفات.

الحرس:

ومهما اختلف المؤرخون حول الحرس ومن أمر بوضعه، فإن معاوية بن أبي سفيان هو أول من وضع الحرس(٦) علماً أن معاوية نفسه كان القائد العام لكافة وحدات الجيش بعد

---

(١) اوامره لسعد قبل المعركة (القادسية) من مقر قيادته وندبه الناس قبلها وتوجيهه الجيوش.
(٢) قيادته لمعركة اليرموك - الكامل.
(٣) قيادته لمعركة القادسية - الطبري.
(٤) ابن الأثير ج ٤ ص ١١١.
(٥) الطبري ج ٦ ص ١٧٤ - ١٧٥.
(٦) اليعقوبي - تاريخ - ج ٢ - ص: ٢٢١.

أن أصبح رأس السلطة المطلقة في الدولة العربية الإسلامية، فالحرس وضعه معاوية بعد أن تعرض لمحاولة اغتيال وقلده فيا بعد من ولاته زياد حيث كان أول من أنشأ لنفسه من الولاة حرساً خاصاً قدر عدد أفراده بخمسمائة رجل. ويذكر أن زياد بن أبيه كان قد جعل عددهم أربعة آلاف وعليهم عبد الله بن حصن[1] حيث أسند قيادتهم كما يذكر البلاذري إلى شيبان بن عبد الله[2].

ومهمة الحرس حراسة الأمير بشكل خاص، كما كانوا يتولون دعوة أي شخص أو احضاره أمام الأمير أو الوالي[3]، ويصف ابن قتيبة[4] في كتابه عيون الأخبار الصفات المطلوبة في صاحب الشرطة وأهمها أن يكون شديد الصولة، قليل الغفلة، دائم العبوس، طويل الجلوس، سمين الأمانة، أعجف الخيانة[5].،

ويساعد صاحب الشرطة في أداء عمله، شرطة وحراس وعيس وأعوان للشرطة، إذن الشرطة هي الجند الذي كان الخليفة أو الوالي يعتمد عليها في استتباب الأمن وحفظ النظام والقبض على الجناة والمعتدين.

وكثيراً ما يُعَلَقْ على عملية تفضيل بعض القوات على غيرها كما كان عند الأمويين وغيرهم. فمثلاً تفضيل الأمويين لجند بلاد الشام كان ضرورة حتمية لهم، فهم يحملون عقيدة الأمويين السياسية التي رسخوها بواسطتهم ووصلوا عن طريقها إلى السلطة حتى أصبحت هذه العقيدة توجه إرادتهم كيفما أرادت السلطة الأموية كما نلاحظ في الوقت الحاضر الحاجة لوجود وحدات عقائدية مهمتها قمع الفتن ومظاهرها.

شروط القائد:

أما شروط الإمارة في تقليدها، فيوردها الماوردي وهي مقصورة على سياسة الجيش وتدبير الحروب.

---

(١) الطبري - ج ٥ - ص:٢٥٢.

(٢) البلاذري - أنساب الأشراف - ج ٤ - قسم ١ ص:١٦٢ - الطبري - ج ٥ - ص:٢٢٤.

(٣) خليفة بن خياط - ج ٢ - ص:٥٣٥.

(٤) ابن قتيبة - عيون الأخبار - ج ١ - ص:١٦ - ابن عبد ربه - العقد الفريد - ج ٥ - ص:١٩.

(٥) نجدة الخماش: الإدارة في العصر الأموي - طبعة بيروت ١٩٨٠ - ص:٣١٦.

ففي تسيير الجيوش يجب على القائد الرفق بالجند المقاتلين أثناء المسير حتى يقدر عليه أضعفهم ويحفظ لهم قدرتهم القتالية، كما ويجب على القائد أن لا يجد في المسير ومراعاة المقاتلين ونوعيتهم متطوعين أو إجباريين، أغنياء أو فقراء، رجالة أو فرسان، ذي عيال أو بدونهم، ومن واجبه أيضاً أن يتفقد الجيش ومن فيه، ليقف على أحوالهم وأوضاعهم في مختلف الاتجاهات والحالات.

كذلك لا بد من الصدق - في المعاملة بحيث لا يقدم أحد على الآخر إلا بمقدار قدرته وقوته ومعرفته بالحرب وسياستها.

أما في مجال تدبير الحروب فيجب على القائد شرح أهداف الحرب بإظهار تلك الاهداف في الحق والحجة على ذلك، وأن لا يجعل حربه ضد العاجزين عن القتال.

ومن واجبه أيضاً كقائد، حراسة قواته من غرة يظفر بها العدو واختيار مكان نزولهم للاستراحة واختيار مسرح القتال ضمن ميزاته المعروفة. أي أن يتوفر فيه رعي وماء محمي بتضاريس طبيعية قدر الإمكان بحيث لا يؤتى إلا من جهة واحدة، وإذا لم يتوفر. عليه حماية قواته بعوائق اصطناعية كما على القائد أن يعد للجيش كل ما يحتاجه من زاد ومؤونة.

وأن يعرف أخبار عدوه بدقة ليتخذ قراره صحيحاً وسليماً في ترتيب الجيش في مسرح الحرب ثم تفقد ترتيب القتال وزرع الثقة بالنصر في أنفسهم.

ويطلب منهم الصبر في الحرب والجدية فيه، وعند اتخاذه أي قرار عليه مشاورة أصحاب الرأي والتزام مبدأ المساواة بين المقاتلين في توزيع الأرزاق وغيرها... وأن لا يمكن المقاتلين من اتخاذ أي عمل آخر غير القتال والعمل على الوصول إلى النصر.

وأن يؤدي الأمانة فيما حازه من الغنائم بحيث لا يغفل أحداً من المقاتلين شيئاً، وأن لا يجامل أحداً من أعدائه حتى لو كان بينهم علاقة مهما كان نوعها.. أما حق القائد على مرؤوسيه فهو التزام طاعته وأن يفوضوا الأمر إلى رأيه وتدبيره يتحد قرارهم وتقوى كلمتهم. وأن يسارعوا إلى امتثال الأمر والوقوف عند نهيه وزجره، وأخيراً ألا ينازعوه في الغنائم إذا قسمها ويرضوا بتصرفه حيال ذلك.

ومن واجبات الأمير الصبر على قتال العدو مهما طال الزمن وزرع ذلك في نفوس المقاتلين انطلاقاً من أمور أهمها: الصبر على الجهاد في سبيل الدين والعقيدة.

والصبر في الجهاد يجب أن تكون نتائجه إما إسلام الخصم أو حربه، والانتصار عليه مع بقاء الخصم على عقيدته، عند ذلك يسبى وتغنم أموالهم ويقتل من لم يقع في الأسر منهم.

وواجبات القائد عند مقابلة العدو استخدام كل الاسلحة التي تمكنه من الوصول إلى هدفه السياسي وكل الطرق مشروعة لذلك.

البريد:

المقصود بالبريد مساحة معلومة مقدرة بإثني عشر ميلاً[1] علماً أن الفقهاء وعلماء المسالك والممالك قد قدروا البريد بأنه أربعة فراسخ[2]. ويذكر أيضاً أنه يطلق على الرسول اسم البريد - والبريد أصله فارسي جاء من كلمة (بريده - دم) وتعني مقصوص الذنب.

أما في الإسلام فيعتبر معاوية أول من وضع البريد[3] لتسرع إليه الأخبار من جميع أطراف البلاد.

ثم إن عبد الملك بن مروان أحكمه وعممه وكان صاحب البريد يدخل عليه ساعة يقدم ليلاً أو نهاراً فلا حجابة عليه كما انتفع فيه الوليد فيما يتصل بمنشآته العمرانية[4] وبنى عمر بن عبد العزيز الخانات للبريد على طريق خراسان[5]. والبريد في العهد الأموي كان نظاماً رسمياً حكومياً استخدمه الخلفاء أول الأمر لنقل الأخبار بسرعة من مقر خلافتهم إلى الولايات المختلفة.

وبالاضافة لذلك كان باستطاعة أي فرد أن يرسل إلى الخليفة مايريده عن طريق البريد[6] وكان يستخدم أيضاً في نقل القوات العسكرية على وجه السرعة والذي يقوم عليه

---

(١) أنور الرفاعي - الإسلام في حضارته ونظمه الإدارية والسياسية والأدبية والعلمية والإجتماعية والاقتصادية والفنية - طبعة دمشق ١٩٧٣ - ص:١٤١-١٤٧.

(٢) الفرسخ ثلاثة أميال - والميل ثلاثة آلاف ذراع بالهاشمي والذراع أربعة وعشرون أصبعاً وكل أصبع ست شعيرات معترضات ظهر احداها لبطن الأخرى والشعيرة سبع شعرات معترضات من ذنب بغل أو برزون - القلقشندي - صبح الأعشى - ج ٤ - ص:٣٦٦.

(٣) أبي هلال العسكري- الأوائل - طبعة دمشق ١٩٧٥ - قسم٢ - ص:٣٤٤.

(٤) هارتمان - دائرة المعارف الإسلامية - طبعة مصر ١٩٣٣ - ج ٣ - ص:٣٠٩.

(٥) هارتمان - دائرة المعارف الإسلامية - طبعة مصر ١٩٣٣ - تطوير ص:٦١٠.

(٦) الطبري - ج ٥ - ص:٣٣٥ - ابن عبد الحكم - سيرة عمر بن عبد العزيز ص:٥٦.

ويتولى أمره يسمى صاحب البريد.. والبريد يعني أن نضع خيلاً مضمرات في عدة أماكن بحيث إذا وصل صاحب الخبر المسرع إلى مكان منها وقد تعب فرسه ركب فرساً مستريحاً وبنفس الطريقة في مكان آخر حتى يصل بسرعة(١).

يحاول البعض أن يصور صاحب البريد بجاسوس خاص بالخليفة أو عينه، وأذنه إلا أن ذلك يحتاج للتحقيق في ذلك.

كان الخلفاء لا يولون البريد إلا ثقتهم من أهل التعقل والدراية، لأن على نتائج اعمالهم كانت تتوقف العلاقات بين الخلفاء وعمالهم، ثم أصبح بتطوره عيناً للخليفة على سائر رجال دولته. فأصحاب البريد إذن هم رقباء أو مفتشون من قبل الدولة يرفعون التقارير عن أحوال الجند أو المال أو غير ذلك من أمور الدولة.

حتى وصل البريد لدور مهم بحيث إذا وصلت الخلافات بين السلطة في دمشق وغيرها، كان صاحب الخلاف يقطعه عن الخليفة كما فعل عبد الله بن الزبير في الحجاز والمختار في العراق عندما قطعوا البريد عن دمشق وغير ذلك.

ولزيادة الثقة بين الخليفة وبين صاحب البريد في سبيل الحصول على أوثق المعلومات، كان الخلفاء يضعون بينهم وبين صاحب بريدهم علامة يتفقون عليها سراً بحيث إذا فقدت هذه العلامة تفقد قيمة البريد.

ومصلحة البريد مصلحة مهمة وخطيرة، يحتاج صاحبها إلى عدة عمال وإلى نفقات واسعة علماً أن من واجبات صاحب البريد بالاضافة لما ورد، حفظ الطرق وصيانتها.

كان للبريد طرق تتشعب من مركز الخلافة في بلاد الشام إلى أطراف الدولة في كافة الاتجاهات، وتنقسم كل طريق إلى محطات بريدية يستبدل فيها عمال البريد وسائط نقلهم التماساً للسرعة. وسرعة البريد تختلف باختلاف الطرق ونوع وسائط النقل، علماً أن البريد يمكن أن يرسل على السفن في البحار والجو عن طريق الحمام الزاجل.

ولو تطلعنا في تاريخ استخدام العرب المسلمين للبريد لوجدنا استخدامه منذ بداية الإسلام حيث يعتبر الرسول صانع البريد ابتداءً من ارساله الرسل إلى ملوك العالم يطلب إليهم إظهار موقفهم من الإسلام.

---

(١) ابن طباطبا – ص:٧٩.

فالبعض كان ينكر، والبعض الآخر كان يرسل مع البريد هدايا كما فعل مقوقس مصر مع رسول المسلمين وكيف أرسل للقائد العربي الرسول ﷺ هدايا.

إلا يعتبر بريداً تلك الكتب الموجهة والمباشرة من القائد إلى القوات كتلك التي أرسلها أبو بكر الصديق إلى خالد بن الوليد عندما أمر بنقل قواته إلى الشام وكيفية قيادته للقوات.

وكذلك عمر بن الخطاب ألم تكن أيضاً قيادته من مركز القيادة لقواته في بلاد الشام والعراق عن طريق البريد وبالتالي مخاطبة القادة له فيما يتعلق بهم من أزمات كتلك التي حدثت بين خالد بن الوليد وأبو عبيدة في دمشق حول دخولها صلحاً أم بالسيف، وقرار التحكيم إلى عمر بن الخطاب وإرسال البريد بذلك الشأن.

ونسأل: ألا تعتبر الكتب التي وصلت إلى خالد بن الوليد بعزله، وإلى سعد بن أبي وقاص بتوجيهات وإرشادات وتعبئة وتنظيم.. ألا يعتبر كل ذلك بريد؟.

ثم ألا تعتبر رسالة عليّ بن أبي طالب إلى أتباعه عندما يأمرهم بجمع المقاتلين وتوجيههم له بالسرعة القصوى بريداً امتاز بالسرعة من الذهاب والإياب دليل الاهتمام بذلك.

الثغور والحصون:

كان لمعاوية اهتمامات عسكرية بالاضافة لنشاطه البحري، كتحصينه المدن الساحلية وهي اهتمامه بحماية أطراف دولته من هجمات اعدائه وعلى الأخص شمال بلاد الشام.

ومنذ أن دخلت المنطقة الشمالية لبلاد الشام في حظيرة العرب، وضع لها نظام حربي يتفق مع موقعها على الحدود مع بيزنطة حيث وقف كلا الخصمين حيال هذه المنطقة دون أن يعمل على اصلاحها وإنما بقيت في البداية خراباً موحشاً.

لكن اهتمام العرب بمعرفة أحوال أعدائهم وتلافي خطرهم إلى القيام باجراءات منها ترك حامية في الممرات الاجبارية التي يتقدمون منها لمهاجمة بيزنطة.

وازداد الاهتمام أيضاً بالمدن التي تتحكم بهذه الممرات، علماً أنه كان يوجد سلسلة من الحصون الخربة التي دمرها البيزنطيون أثناء تقهقرهم حيث امتدت من طرطوس إلى سميساط على نهر الفرات.

قرر معاوية العناية بهذه المعاقل بعد السيطرة عليها فاهتم أولاً بانطاكية، فنقل إليها جماعة من أهل بعلبك وحمص لعمرانها وأخذ أيضاً يقحم الجند في هذه الثغور لتأمين قواته وبلاده من مفاجأة العدو ويهتم بعمرانها.

كان من نتائج اهتمام معاوية تحصين مثل هذه الثغور أن انقسمت الحدود الإسلامية إلى قسمين أقليم العواصم والثغور الشامية للدفاع عن بلاد الشام، وللاغارة على بيزنطة، وهذا موضوع بحثناه، ثم أقليم العواصم والثغور بالجزيرة للدفاع عن شمال العراق.

الفصل الثاني

القوى البحرية

الفصل الثالث

البحرية

تكون البحرية:

يعتبر معاوية أول من رسم سياسة العرب المسلين إزاء البحر المتوسط، وعمل على حل المشكلة البحرية التي اعترضتها منذ فتوحاتهم الأولى في الحوض الشرقي من ذلك البحر.

أمام ذلك أدرك معاوية الضرورة اللازمة لبقاء المسلمين في هذا البحر لأنه المنطقة التي دارت عليها أحداث النزاع بين قوى العالم الكبرى من أجل السيطرة، ولأن المسيطر على هذا البحر ومركزه الاستراتيجي كان هو الرابح والمسيطر، لذلك تطلع معاوية إلى الاستيلاء على الجزر القريبة من الشواطىء الاقليمية. والتي كانت قواعد معادية.

وضع معاوية خطة سليمة لتحقيق أهدافه البحرية، وتعتبر فترة ولاية معاوية على الشام نقطة البداية في بناء البحرية العربية الإسلامية، ولقد عانى معاوية في بداية ذلك، عندما طلب من عمر بن الخطاب مستأذناً إياه بغزو جزيرة قبرص.

لكن الخليفة رفض طلب معاوية، إلا أنه أطلق يده بإصلاح مدن الساحل بما يضمن سلامتها وذلك بترميم حصونها[1] ووضع المقاتلين فيها.

وعلى ذلك أخذ معاوية يحصن مدن الساحل ويزودها بالقوات المحاربة بحيث تصبح قواعد تنقل منها الجنود بحراً إلى أي مكان آخر يفرض وجودها فيه.

---

(١) البلاذري – فتوح البلدان – ص:١٣٤.

واعتنى معاوية بهذا النظام نظام القواعد واكتفى بسياسة تقوية السواحل حتى ولي الخلافة عثمان بن عفان، حيث خطا معاوية الخطوة الثانية فى متابعة سياسة البحرية بالإضافة إلى تشجيع الناس على النزوح إلى المناطق الساحلية: وساعد معاوية على تحقيق خطته قرار الخليفة بمنح كل راغب في الإقامة بالمدن الساحلية اقطاعات من الأرض، يستغلها ويتمتع بخيراتها.

ترتب على ذلك حضارة عمرانية ناشئة على السواحل الشامية، حافظ على تطورها ما فعله معاوية بإعداده جيوشاً دائمة في المدن الساحلية للدفاع عنها. وتعتبر سياسة منح الاقطاعات في السواحل الخطوة الأخيرة في سلم السياسة البحرية الدفاعية.

وبعد ذلك تأتي المرحلة العملية بعد أن سمح الخليفة عثمان بن عفان بغزو البحر شريطة ألا يكره أحد على ركوب البحر.

ولم يلق معاوية صعوبة في اجتذاب الجند لأن المدن الساحلية كانت عامرة بالمغامرين الذين تطلعوا إلى خوض الميدان البحري.

في هذا المجال لا بد لنا من أن نذكر مدى الارتباط والتعاون بين الشام ومصر في ميدان العمليات البحرية، علماً أن مصر كانت ولاية تحت امرة عبد الله بن أبي سرح، حيث اشترك هذا الأخير مع معاوية في الاغارات البحرية على جزر بيزنطة في المتوسط.

وكان في مصر آنذاك دور لصناعة السفن تخرج منها الاساطيل الحربية إلى قواعد الشام البحرية، أي أن السفن تتجمع بموانىء الشام للهجوم على خصومهم.

شجع معاوية تحقيق تعاون بحري بين مصر والشام ووصلنا مرحلة لا يمكن لأي منهما الاستغناء عن الآخر لأن مصر تفتقر لاخشاب بلاد الشام التي تصلح لبناء السفن، بالإضافة لمحافظة معاوية حين تسلمه السلطة على استمرار التعاون بين بلاد الشام ومصر، ومحاولته بعد التحكيم السيطرة على مصر لتحقيق استمرار هذا التعاون.

فتح قبرص:

كانت محاولة معاوية الاستيلاء على جزيرة قبرص، أول أعماله البحرية، وكانت استعداداته البحرية لغزو هذه الجزيرة تتناسب مع الحملة واهميتها وضخامة أهدافها.

حيث كانت قبرص حجر الزاوية في قوة الدولة التي تحاول أن تصل إلى مركز الزعامة في بلاد الشرق الأدنى لأن هذه الجزيرة تستمد أهميتها من موقعها الجغرافي...

حينذاك أدرك معاوية أهمية هذه الجزيرة وكيف اتخذ منها البيزنطيون محطة تموين وملجأ يعتصمون به حين تدفعهم الاحداث للانسحاب والتراجع.

جمع معاوية قواته البحرية في ميناء عكا حيث كانت السفن كلها من مصر واشترك في هذه الحملة كبار القادة من رجالات بلاد الشام، كعبادة بن الصامت. واشتركت في هذه الحملة البحرية النساء أيضاً[1].

تحرك معاوية من ميناء عكا على رأس أسطوله في ربيع سنة (٢٨ هـ) (٦٤٩ م) ونزل في الساحل القبرصي.. فكان ذلك العبور أول عبور لمياه البحر المتوسط من قبل قوات عربية إسلامية صرفة.

أنزل العرب عدتهم وعتادهم، وأرسلوا إلى أهالي قبرص يعلمونهم أن قدوم العرب إلى هذه الجزيرة من أجل المفاوضات.

رفض أهل قبرص ذلك، ولهذا السبب لم يكن أمام العرب إلا مهاجمة عاصمتهم واحتلالها، فاضطر أهل قبرص لعقد صلح [2] مع المسلمين وعلى النحو الآتي:

مادة ١ -أن يدفع أهالي قبرص للعرب جزية سنوية مقدارها (٧٢٠٠) دينار كالذي كانوا يدفعونه كل عام للدولة البيزنطية.

مادة ٢ -أعطى أهل قبرص وعداً بألا يساعدوا البيزنطيين في هجماتهم على أرض بلاد الشام وأن يحافظوا على اسرارهم.

مادة ٣ -فرض الصلح على أهل قبرص أن يزودوا العرب بأنباء أية حملة يتوقع أن يقوم بها البيزنطيون ضد العرب.

مادة ٤ -على أهالي قبرص التزام الحياد التام في النزاع الدائر بين العرب من جهة، وخصومهم البيزنطيين من جهو ثانية.

عاد معاوية إلى دمشق بعد هذه المعاهدة مظفراً، إلا أنه لم يكن مطمئناً لهذا الصلح مع أهالي قبرص، فراح يرقب تحركاتهم وحدث ما توقعه من أهالي قبرص. حيث أخل أهل قبرص بالصلح سنة (٣٢ هـ) وذلك بامدادهم البيزنطيين ببعض السفن في اغارتهم على العرب المسلمين، لذلك صمم معاوية على احتلال هذه الجزيرة.

---

(١) البلاذري – فتوح البلدان – ص:١٥٩.

(٢) البلاذري – ص:١٦٠.

أخذ معاوية يعد العدة لاحتلالها، فجهز حملة بحرية في سنة (٣٢ هـ) (٦٥٤ م) وكانت هذه الحملة مكونة من خمسمائة سفينة وعدد كبير من الجند. توجه نحو قبرص..فدخلها بعد صراع عنيف واستولى[١] عليها وألزم أهلها بأداء المطالب المالية.

بعد ذلك.. أخذ معاوية يدعم نفوذ العرب فيها وذلك بإرساله إثني عشر ألفاً من رجال الجند النظاميين، ليكونوا فيها جيشاً ثابتاً يصد عنها أي عدوان مهما كان.. ولتثبيت ذلك شيد معاوية لهذه القوات مدينة جديدة في الجزيرة[٢] ومسجداً.. وبهذا الاجراء أضحى أقليم بلاد الشام الذي يقوده معاوية بن أبي سفيان في مأمن من الأخطار البيزنطية.

معركة ذات الصواري[٣]:

كانت المعركة التي انتهت بفتح قبرص بداية نشاط بحري على الجزر في الساحل الشرقي للمتوسط، وباستمرار.. صيفاً وشتاءً.

وأدركوا ضرورة الاستيلاء عليها، لما تتمتع به من أهمية استراتيجية، ومن هذه الجزر جزيرة (أرواد) التي كانت تتمتع بشهرة عالية في تنمية مواردهم الاقتصادية عن طريق القرصنة التي أسبغت عليهم صفة الغدر وأبعدت عنهم صفة الثقة بهم.

قرر معاوية الاستيلاء على هذه الجزيرة فأعد حملة لمهاجمتها سنة (٢٧ هـ) ونفذ ذلك وتوجه نحوها وتمكن أن ينزلها، غير أن سكانها اعتصموا بقلعة الجزيرة، لكن الحملة اضطرت إلى التراجع أمام مقاومة أهالي هذه الجزيرة.

غير أن معاوية وقواته البحرية أعادت الحملة بعدة واستعداد أفضل فدخل المدينة وأحرق القلعة وطرد منها سكانها... ولم يكتف معاوية بذلك، بل وجه حملة لجزيرة صقلية التي أصبحت قاعدة للقوات البيزنطية تهدد الشواطىء المصرية نظراً لموقعها، ولذلك اتحدت بحرية مصر مع بحرية الشام على تهديد هذه القاعدة البحرية، عندما توجهت حملة مشتركة فنزلت بالشاطىء ومعها المجانيق.. فاشتبكت مع القوات البيزنطية ثم عادت البحرية العربية إلى قواعدها.

---

(١) البلاذري – ص: ١٦٠.

(٢) المرجع نفسه – ص: ١٦٠.

(٣) عبد الرحمن بن عمرو بن عبد الله بن صفوان تاريخ أبي زرعة الدمشقي ص: ١٨٧ يذكر أن هذه المعركة وقعت سنة ٣٤ هـ.

بعد ذلك بعث معاوية حملة بحرية لفتح رودس سنة (٣٣ هـ) وكان قائد هذه الحملة جنادة بن أمية الأزدي، فاستولى على هذه الجزيرة.. أمر معاوية ببناء حصن فيها وأرسل إليها بعض المقاتلين يتولون الدفاع عنها، وكان - من حرصه عليها - يعمد إلى تبديل القوات من حين إلى آخر.

وتطبيقاً لاستراتيجية معاوية في السيطرة على البحر المتوسط ومنافذه، وجه حملة لاحتلال تكريت بقيادة جنادة بن أمية، غير أن هذا القائد لم يستطع الاستيلاء عليها بل اكتفى بهجمات تكتيكية ألحق أفدح الخسائر بالقوات البيزنطية فيها.

أمام هذا تشجع معاوية على توسيع خططه البحرية فكانت خطته الجديدة هي محاولة الاستيلاء على القسطنطينية، عاصمة بيزنطة.

لأن القسطنطينية هي الرأس المدبر للبحرية البيزنطية، علماً أن هذه البحرية كانت مقسمة إلى قسمين.. لكل منها اختصاصه:

١ - القسم الأول:

تابع للاقاليم والمقاطعات، وكانت موزعة بحيث تقاوم قدر طاقتها الهجمات الجديدة.

٢ - القسم الثاني:

خاص بالعاصمة القسطنطينية نفسها، علماً أن التعاون كان بين الاسطولين أو القوتين - غير وثيق.

ويعود ذلك لفساد الإدارة في الدولة البيزنطية.

عندما استلم السلطة في بيزنطية قنستانز الثاني، عمد إلى مقاومة نشاط معاوية البحري، فأخذ يبث النشاط والحركة في أسطول العاصمة لشد أزر أساطيل الولايات وشجعه على ذلك الأنباء الواردة عن استعدادات بحرية هائلة يقوم بها معاوية لكي يضرب القسطنطينية الضربة الاخيرة.

امبراطور بيزنطة قنسطانز الخروج للشواطىء الشامية لتدمير أسطولها في قواعدها لكن أثناء ذلك نشطت الجاسوسية البيزنطية لعرقلة استعدادات معاوية الذي أعد أسطولاً بمعداته الحربية في مدينة طرابلس كحملة بحرية.. وفي نفس الوقت عبأ القوات البرية في دمشق ليوجهها بمسير عبر آسية الصغرى.

أثناء ذلك عمل بعض الجواسيس البيزنطيين في طرابلس إلى إخراج الأسرى البيزنطيين من سجن المدينة، وتوجه هؤلاء الأسرى إلى دار الحاكم في المدينة فقتلوه وأتباعه، وأحرقوا العدة والعتاد وهربوا إلى القسطنطينية.

حينذاك أدرك معاوية أن من واجبه أن يعد من آلات الحرب ما فاق العتاد الذي دمره عملاء بيزنطة وأتم استعداداته بسرعة ثم توجه على رأس قواته البرية سنة (٦٥٥ م) إلى مدينة قيصرية.. وفي الوقت نفسه اتحد الاسطول المصري[١] مع الشامي وتوجه من سواحل بلاد الشام حتى وصل إلى الغرب من ساحل كيلكيا، وهنالك بلغهم نبأ اقتراب الاسطول البيزنطي، وعلى رأسه الامبراطور نفسه وكان يتألف من خسمائة سفينة مزودة بآلات الحرب.

التقى الطرفان في معركة بحرية حاسمة، وانقضى اليوم الأول من القتال، واشتبك الطرفان في اليوم الثاني بمختلف الأسلحة المستخدمة، وكانت الخطة أن ربطوا سفنهم بعضها ببعض[٢] وأصبحت بذلك مسرحاً حربياً وميدانياً للقتال يساعدهم على المناورة واستخدام الاسلحة بشكل أفضل... هذا يعني أن قتالهم هذا حول المعركة البحرية إلى معركة برية. والتحم الطرفان بأسلحة قتال خفيفة كالسيوف والخناجر وللعرب شهرة بمثل هذه الأسلحة وانتهت المعركة بانتصار العرب في معركة ذات الصواري بعد أن جهد كل من المتحاربين في أسر قائد حملة خصمه.

لكن قائد الحملة البيزنطية الإمبراطور البيزنطي كان قد هرب من الحرب، وسجل العرب أروع الانتصارات البحرية في تاريخهم من ذلك الوقت.

وبانتصار العرب في هذه المعركة أصبحوا سادة المتوسط وأبعدوا عن أنفسهم خطر البحرية البيزنطية.

أما الجيش الذي قاده معاوية نحو آسيا الصغرى، فلم تقدم لنا الوثائق التاريخية عن فعاليته وعن دوره في القتال.. ما يجب ذكره.

---

(١) كان يقودها والي مصر نفسه عبد الله بن أبي سرح.

(٢) أنور الرفاعي - تاريخ العرب والإسلام منذ العصور القديمة حتى العهد العثماني طبعة دمشق ١٩٧١ - ص:٢١١.

بعد هذه المعركة اتجه معاوية إلى حدود الشام الشمالية، وعمد إلى تحصينها ضد أخطار بيزنطة وذلك بإقامة حصون وثغور لصد هجمات العدو وسنذكرها فيما بعد.

حصار القسطنطينية الأول:

عندما آلت السلطة إلى الأمويين، ابتدأت بمعاوية.. وأضحت دمشق حاضرة الدولة العربية... وأصبحت مسألة السيادة على البحر الأبيض المتوسط مسألة ملحة بعد معركة ذات الصواري.. وعلى هذا الأساس نلاحظ ما يلي:

– صار همّ السلطة الأموية الجديدة التوجه ضد سياسة بيزنطة وقوتها، لأنها كانت في رأي السلطة العربية الجديدة عصب جزر البحر المتوسط الشرقي حتى تضرب القوات البيزنطية وتضع حداً لها.

– بعد اطمئنان معاوية لقواته وحسن تدريبها، بعد معركة ذات الصواري قام معاوية بإرسال حملة استطلاعية سنة (٤٩ هـ) بقيادة فضالة بن عبيد الأنصاري، إلى ضواحي القسطنطينية[١] فوصلها في فصل الشتاء.

وأخذ ينظم قواته ويعدها ويدربها انتظاراً للامداد الذي كان يعده معاوية في دمشق. وجعل معاوية على رأس الحملة ابنه وولي عهده لأسباب[٢].

ومن اهتمام معاوية بهذه الحملة، أكسبها طابع الجهاد المقدس وذلك عندما ضم إلى ابنه يزيد أحد أصحاب الرسول ﷺ أبا أيوب الأنصاري لكي يرفع من الروح المعنوية للمقاتلين العرب المسلمين وبث الثقة فيهم بالنصر.

وبعد أن جمع سائر الامدادات والعتاد للحملة، توجهت بقيادة يزيد إلى مدينة خلقدونيا، ذلك المقر الحربي الذي اتخذه فضاله كما ذكرنا مركزاً لإدارة دفة الهجوم على القسطنطينية، عندما اجتمع يزيد فضاله، عبر الجميع مياه مضيق البوسفور، إلى الشاطىء الأوروبي أمام أسوار القسطنطينية وبدأ حصار العرب للقسطنطينية بصبر المسلمين وجلدهم. وراحوا يضيقون الخناق على سكان العاصمة فاستشهد أبو أيوب على أبواب

---

(١) الطبري – تاريخ الرسل والملوك – الجزء السادس – ص:١٣٠.

(٢) ليرد على الذين أبدوا امتعاضهم من يزيد وذلك بحبه للمجون والخلاعة ثم الرد على الذين أبدوا امتعاضهم أيضاً من يزيد كمحاولة لأخذ البيعة له بالخلافة من بعده، ثم اعطاء يزيد فرصة يرفع فيها مركزه واسمه في الجهاد ضد البيزنطيين.

المدينة. ومن ثم عادت الحملة في صيف سنة ٤٩ هـ- ٦٦٩ م رفع العرب المسلمون الحصار عن القسطنطينية وعادت إلى دمشق استعداداً لحصار آخر.

حرب السنوات السبع:

جهدت الأمبراطورية البيزنطية على إعادة تنظيمها، وتدعيم نظام البنود[١] أو الاقاليم البحرية.. ولذلك صمم معاوية على إعداد حملة ثانية تستهدف الاستيلاء على عاصمة البيزنطيين مستغلاً حالة الفوضى والقلق التي تمر بها هذه العاصمة.. ولتحقيق ذلك وجه معاوية حملة سنة ٥٣ هـ - ٦٧٣ م بقيادة عبد الرحمن بن خالد يؤازرها أسطول بحري.

وعندما حل فصل الشتاء، ألقت هذه الحملة مراسيها على شاطىء قيليقية حتى يتحسن الجو لمتابعة تنفيذ مهمتها.

وفي الربيع عززت قوات البحرية، بأسطول آخر وتابعت الزحف نحو القسطنطينية مخترقين مضيق الدردنيل دون مقاومة، أما القوات البرية فكانت قد اجتازت آسيا الصغرى.. استولى العرب المسلمون على جزيرة أرواد في مياه القسطنطينية، واتخذوها مقراً لإدارة حملتهم على العاصمة حيث كان دور الاسطول البحري نقل القوات من هذه الجزيرة إلى البر لمحاصرة هذه العاصمة بينما يقوم الاسطول بمحاصرتها من جهة البحر.

بدأ الحصار البري والبحري للقسطنطينية من شهر نيسان إلى شهر أيلول تخلل هذه الفترة مناوشات بين الطرفين واستطاعت هذه المدينة الصمود أمام الحصار لأنها كانت قد أعدت نفسها لمثل هذا الحصار، ثم عادت القوات العربية الإسلامية إلى قاعدتها جزيرة أرواد الوارد ذكرها آنفاً.

عاودت الحصار مرة أخرى في مطلع الربيع حيث تكرر ذلك طيلة سبع السنوات تلك.. وصمدت هذه المدينة بمقاومتها العنيفة واستخدامها سلاحاً جديداً هو النار

---

(١) كان هناك ثلاث بنود كبرى لعبت دوراً هاماً في سير الحملات الحربية فسمي البند الأول منها البند الاناتولي وتمركز فيما بعد في شمال جبال طرطوس، أما البند الثاني فأخذ اسمه من الفرق التي كونت الحرس الامبراطوري لهرقل حيث عرفت باسم بندالابسكيونأي أقليم فرق الحرس الأمبراطوري، أما البند الثالث فهو بند أرمينية في آسية الصغرى.

اليونانية[1] ضد البحرية في دفاعها ضد الهجمات المتكررة والحاصرة العنيفة من القوات العربية.

وفي تلك الأثناء أحس معاوية بدنو أجله، وأن المصلحة العامة تتطلب سحب القوات الإسلامية المرابطة أمام أسوار انطاكية، وأدرك أيضاً أن مبايعة ابنه يزيد ستلقى مقاومة فعالة عندما سيستلم السلطة ولتحقيق ذلك أراد معاوية أن يضع أكبر قدر ممكن من القوات تحت تصرفه لمواجهة ما قد ينشأ من مخاطر... ولتحقيق ذلك دخل معاوية مع الدولة البيزنطية في مفاوضات تمهيداً لسحب قواته وإعادتها إلى قواعدها في الشام. كانت الدولة البيزنطية في حال لا تحسد عليها نتيجة هذا الحصار، وما آلت إليه هذه الدولة... ولتحقيق السلام أرسلت إلى دمشق سفيراً سياسياً يدعى يوحنا.. فعقد جلسات متعددة مع السلطة الحاكمة في دمشق، فنجحت المفاوضات في عقد صلح بين الطرفين لمدة ثلاثين سنة، وأخذت القوات العربية بعد ذلك بتجميع نفسها وإعداد العدة للعودة إلى الشام.

الحصار الثالث للقسطنطينية:

ورغم انتقال السلطة إلى المروانيين لم تتغير السياسة الحربية تجاه القسطنطينية فقد تابع الوليد بن عبد الملك الفتوحات وجعل هدفه السيطرة على الطريق الذي يصل بالقسطنطينية مع المعاقل التي تكمن على هذا الطريق.

استهل تنفيذ خطته بحصار مدينة طوانة حيث استمر هذا الحصار عامين متتاليين لشدة تحصينها وشدة الدفاع عنها.

لكن القوات العربية قضت على تحصينات هذه المدينة وعلى مقاومة حاميتها رغم الامدادات المتتالية وتمكن العرب من دخولها سنة (٧٠٧م).

لم يتوقف العرب عن استمرار الهجمات على مدن آسيا حتى وصلت هذه القوات إلى البوسفور.. علماً أن هذه الحملات كانت استطلاعية وتمهيداً للقيام بالهجوم المباشر على العاصمة البيزنطية.

لكن القوات البيزنطية تمكنت من أسر أمير البحر العربي خالد بن كيسان حيث أعاده

---

(١) إبراهيم أحمد العدوي - الأمويون والبيزنطيون - البحر المتوسط بحيرة اسلامية طبعة مصر ١٩٦٣ - ص:١٧٥.

الأمبراطور البيزنطي إلى الخليفة الوليد رغبة منه في استئناف العلاقات الودية مع العرب[1].

إلا أن الخليفة بدأ يعد العدة بإعداد حملة لمهاجمة القسطنطينية.. وفي ذلك الوقت أوكل الأمبراطور البيزنطي قيادة قواته إلى أحد قواده الذي لعب دوراً في سير هذه الحملة واسم هذا القائد ليو.

وفي نفس الوقت، عهد الوليد إلى أخيه مسلمة بن عبد الملك بقيادة حملته وأخذت الاستعدادات في إعداد هذه الحملة حتى وصلت أخبارها إلى الأمبراطور البيزنطي الذي أرسل سفارة إلى دمشق غايتها عقد هدنة بين الدولتين علماً أنه كان لهذه السفارة السياسية مهمة سرية هي التجسس على مدى استعداد المسلمين للقيام بهذه الحملة ضدهم.

عادت السفارة البيزنطية مؤكدة تنفيذ مهمتها السرية وذلك عندما تأكد لها عزيمة العرب على تنفيذ هذه الحملة.. لذلك اتخذت السلطة البيزنطية إجراءات وتدابير واحتياطات للدفاع عن العاصمة وأهم هذه التدابير كان إعلان أخبار الحملة العربية ضد القسطنطينية وإصدار تعليمات تقتضي على كل فرد أن يجمع مؤونة تكفيه لثلاث سنوات وأمر أيضاً بإخراج العاجزين عن القتال.

بالإضافة إلى ذلك كان هنالك تخزين كميات هائلة من التموين في خزائن الدولة وأمر بتجديد أسوار المدينة وتحصينها بالآلات الحربية لتتمكن من الدفاع بسهولة ويسر وأثناء تلك الاستعدادات لهذه الحملة توفي الخليفة الأموي الوليد إلا أن ذلك لم يمنع من تنفيذها.

تولى السلطة الأموية سليمان بن عبد الملك بحماسة قوية لتنفيذ إرسال الحملة ومهاجمة القسطنطينية، حيث تكونت هذه الحملة من مصر وبلاد الشام، وعمل على جمع الأخشاب من بلاد الشام وتزويد دور صناعة السفن في مصر بتلك الأخشاب. وضع سليمان بن عبد الملك مقر قيادته في دابق شمال حلب وذلك لإدارة العمليات الحربية وفي سنة (٩٨ هـ) (٧١٧م) تحركت الجيوش العربية الإسلامية نحو القسطنطينية تحت قيادة مسلمة بن عبد الملك وأمر سليمان بن عبد الملك أخاه مسلمة الإقامة في العاصمة البيزنطية حتى يفتحها أو يأتيه أمره.

---

(١) الطبري - الجزء الثامن - ص:٦٨.

أرسل مسلمة مقدمة على رأس قواته يقودها أحد قواده واسمه سليان تقدم هذا القائد أمام القوات حتى بلغ عمورية فحاصرها حيث علم بعد ذلك أن صاحبها ليو يناهض الأمبراطور البيزنطي ففكر سليان قائد هذه القوات في وضع خطة تهدف لزرع الفرقة بين صاحب عمورية والأمبراطور.

تنفيذاً لذلك - كتب إلى صاحب عمورية خطاباً يذكر فيه أن مستقبل بيزنطة مرتبط به، ونحن هنا نريد الاتفاق معك على شروط الصلح. في الوقت نفسه كان قد أمر قواته المتواجدة خارج سور المدينة أن تهتف بحياة الأمبراطور «ليو».

دخل «ليو» في مفاوضات مع العرب المسلمين ويضمر في نفسه الغدر وطلب منهم رفع الحصار عن عمورية ثم توجه مع الجيوش العربية الإسلامية نحو القسطنطينية.

وكان أول كسب له هو ولاء عمورية له، لأنه جنبهم ويلات الحصار فنادوا به امبراطوراً على الدولة البيزنطية.

وفي الطريق التي سلكها «ليو» مع القوات العربية جعلهم يثقون به لذلك سمحوا له أن يسبقهم إلى القسطنطينية ليمهد لهم سبل الاستيلاء عليها.. وتمكن «ليو» من الانتصار على قوات الأمبراطور التي يقودها ابنه، وتمكن من عبور البوسفور إلى القسطنطينية حيث تمكن منها ونصب امبراطوراً تحت اسم «ليو الثالث» فعمل على تحصين العاصمة وتقويتها لمواجهة الحصار القادم.

وكان الجيش الإسلامي الذي يقوده مسلمة بن عبد الملك وقوامه ثمانون ألف جندي يتابع زحفه حتى عسكر أمام أسوار القسطنطينية في ١٥ آب ٧١٧م ثم دخل الاسطول البحري مياه البوسفور أول أيلول، ويحتوي هذا الأسطول على ألف وثمانمائة سفينة، وهناك أمام أسوار المدينة المحاصرة، أخذ مسلمة ينظم التعاون بين القوات البرية، والبحرية، وتمكن الأسطول من احتلال مدخل البوسفور الجنوبي والشمالي لقطع الامدادات عن عدوه.

أرسل ليو سفنه إلى الأسطول العربي عندما رأى أن الاحوال الجوية محملة بالنار اليونانية حيث استخدمتها ضد السفن العربية ومنعتها من إكمال حلقة الحصار البحري للقسطنطينية.

استمر الحصار خلال فصول السنة كلها، حيث وصلت إلى مسلمة نجدات برية وبحرية.. كانت أسطولاً من مصر، وأسطولاً من شمال افريقيا، أما القوات البرية فتوجهت نحو مسلمة منطوية تحت قيادته.

استخدم العرب المسلمون النفط، واستخدموا كذلك أسلحة هجومية.. واشتد الحصار على القسطنطينية حيث توفي سليمان بن عبد الملك وتولى السلطة من بعده عمر بن عبد العزيز.

لقد اتجهت أنظار الخليفة إلى سحب القوات الإسلامية المحاصرة للقسطنطينية حيث أرسل في ١٥ آب سنة (٧١٨ م) (أي الحصار دام سنة كاملة) يطلب من قائد الحملة مسلمة العودة بجيوشه وأساطيله إلى الشام.

تعتبر هذه الحملة نهاية الحملات الأساسية الموجهة نحو القسطنطينية وغيرها من الهجمات رغم أن البحرية الأموية بقيت صاحبة الدور القائد والمسيطرة على الشواطىء الشرقية للمتوسط.

الفصل الثالث

الفتوحات

الفصل الثالث
الفتوحات
عمليات قتيبة بن مسلم في الجبهة الشرقية

عمليات قتيبة في الجبهة الشرقية:

في سنة ستة وثمانين[1] أصدر الحجاج بن يوسف عامل الخليفة[2] على العراق أوامر تقضي بتعيين قتيبة بن مسلم والياً على خراسان، فسار إلى مرو وفيها جهز الجند بالسلاح والعتاد وسار منها، بعد أن أمر عليها عبد الله بن عمرو حتى كان بالطاقان، ثم تلقاه ملك الصغانيان وملك كفنان بهدايا وطلبا منه الصلح فتم ذلك، ثم سلمت إليه البلاد فسار إلى أحرون وشومان فصالحها، ورجع إلى مرو بعد أن استخلف على الجند أخاه صالح بن مسلم ففتح باسارا ثم قدم على أخيه في مرو فأمر على الترمذ.

عندما صالح قتيبة ملك شومان كتب إلى نيزك طوخان يهدده ويطلب إليه أن يخلي الأسارى المسلمين الموجودين بين يديه وأرسل إليه أحد أتباعه بكتاب يدعوه للصلح وله الأمان، ويأمره بالقدوم إليه... عندما فض نيزك الكتاب وعلم بما يحتويه قدم على قتيبة فصالح أهل بادغيس على ألا يدخلها.

بعد أن صالح قتيبة نيزك، غزا بيكند وسار من مرو إلى الروز إلى أمل إلى زم

---

(١) حسن إبراهيم حسن - ج ٣ ص: ٣٣٠.

(٢) كان يومئذ الوليد بن عبد الملك.

متجاوزاً نهر جيحون إلى ضواحي بيكند[1] وهناك استنصروا الصغد ومن حولهم فأمدوهم وأخذوا الطريق عليهم فحجبوا الحجاج عن قتيبة وطوقوه في الوقت الذي كان لقتيبة عين له اسمه تندر من العجم حيث حاول أهل بخارى الأعلى بواسطته، بعد أن أعطوه مالاً على ألا يباغتهم قتيبة، فلما تحدث مع قتيبة حول ذلك ضرب عنقه لأنه لم يكن ناصحاً بل غاشاً.. ثم قال قتيبة لقواته محرضاً، القوا عدوكم غير ما كنتم تلقونه، تأهب الجند في الصباح للقتال، وقتيبة يحض الأمراء أصحاب الرايات وبدأت المعركة بينهما بالكر والفر وصبر المسلمون لعدوهم وظهروا عليهم فهزم أعداء المسلمين يريدون دخول المدينة فمنعهم المسلمون فتفرقوا وطاردهم قتيبة وحاصر المدينة إلى أن صالحه أهلها وأمر عليها رجلاً من بيته، ولما ارتحل قتيبة نقض أهل بيكند الصلح وقتل عامل قتيبة عليها وأصحابه، فعلم بذلك ورجع قتيبة إليهم في الوقت الذي تحصنوا بالمدينة فحاصرهم وقاتلهم شهراً، ثم أمر الفعلة بهدم أسوار المدينة وذلك بتعليق الجدران بالخشب وبعد ذلك يحرق الخشب فتسقط الجذاران وكان له ما أراد فطلبوا منه الصلح فرفض ذلك وقاتلهم حتى فتح المدينة عنوة وأصاب المسلمون ما لم يصيبوا مثله بخراسان حيث قوي تموينهم واشتروا السلع والسلاح والخيل وأحضرت لهم الدواب.

بعد شتاء ذلك العام[2] سار قتيبة فأتى أمل ثم زحف إلى زم ومنها إلى نومُشَكَت فصالحه أهلها واستخلف على مرو بشار بن مسلم ثم سار قتيبة إلى راميثنه فصالحه أهلها وهناك زحف إليه الترك ومعهم السغد وأهل فرغانة فاعترضوا عبد الرحمن بن مسلم وهو على الساق فأرسل إلى قتيبة يعلمه واشتبك مع الترك في قتال عنيف بينما عاد قتيبة بعد أن اتخذ ترتيب قتال باتجاه العدو وتقابل مع أعدائه في معركة انتهت بانتصاره عليهم ثم عاد قتيبة بترتيب المسير إلى مرو.

في عام تسعين خرج قتيبة إلى بخارى، فأرسل وردان خذاه إلى الترك والسغد ومن حولهم يستنصرهم على المسلمين إلا أن قتيبة سير النجدات إلى بخارى فحاصرها. وعندما

---

(١) أو في مدائن بخارى إلى الهند، يقال لها مدينة البخار، على رأس المفازة من بخارى - تاريخ الطبري - ج ٦ - ص:٤٣٠.

(٢) عام سبعة وثمانين.

(٣) تاريخ الطبري - ج ٦ - ص:٤٤٤.

وصلت الامدادات خرج المسلمون لقتالهم فقالت قبيلة الأزد إحدى قبائل المسلمين للقائد العام للجيش الإسلامي بأن يترك لهم اللقاء مع العدو في هذا اليوم فسمح لهم بذلك الشرف الذي ينشدونه وبقي في مركز القيادة يترصد المعركة وهاجم المسلمون أعداءهم وقاتلوهم بصبر وجلادة، إلا أن جيش السغد والترك صد الهجوم بهجوم معاكس فهزم بنو أزد فانسحبوا وطاردوهم حتى دخلوا جيش المسلمين. عند ذلك أمر قتيبة ميمنته وميسرته بالهجوم من الجوانب والاطراف[1]، وتطويق العدو.. إلا أنهم قاتلوا بشراسة وتراجعوا بشكل منظم إلى مواضعهم المنيعة في الجبال المحصنة. عند ذلك قال: قتيبة لأمراء جنده: من يقدر على إزالتهم عن هذه المرتفعات؟ فأخذ أحدهم واسمه وكيع اللواء وطلب من بني تميم أن يسلموه قتال الأعداء هذه الليلة. إلا أنهم رفضوا وسلموا قيادتهم إلى هريم المجاشعي فزحف هريم بهم بعد أن رتب جنده فكان وكيع على المشاة وهريم على الفرسان وتجاوزت بنو تميم النهر في الوقت الذي كان فيه وكيع يصنع جسراً من الخشب لعبور المشاة.

وعبرت مشاة المسلمين وعددهم ثمانمائة رجل[2] ولتغطية المؤخرة ترك وكيع مجموعتين من مشاته أحداها لحراسة المؤخرة والثانية لحماية الانسحاب وتنظيمه إذا فشل الهجوم. ثم إن هريم ووكيع قاما بعملية تكتيكية الغاية منها ضرب مؤخرة العدو وبعد أن استراح المسلمون واستعادوا قدرتهم قال وكيع لهريم الذي قسم فرسانه إلى مجموعتين قتاليتين: إني مطاعن القوم فأشغلهم عنا بالخيل[3].

وانطلق وكيع بالمشاة في الوقت الذي بدأ هريم الاشتباكات مع العدو فلم يشعر إلا بالمسلمين وقد حققوا أهداف الاغارة.. واستمر الاشتباك بين الطرفين بالرماح إلى أن استطاع المسلمون من إزغام عدوهم على الانسحاب وتخليتهم عن المواقع ذات الأهمية الاستراتيجية، عند ذلك أخذ قتيبة يشجع جنده ويعبىء نفوسهم ويشحنهم بالمعنويات العالية ويعدهم بدفع مكافأة مادية لكل منهم إذا أتى برأس جندي، يؤكد الخبر الطبري فيقول : أما ترون الأعداء منهزمين فما عبر أحد ذلك النهر حتى ولي العدو منهزمين، فأتبعهم الناس ونادى قتيبة: من أتى برأس فله مائة[4].

---

(١) تاريخ الطبري - ج ٦ - ص:٤٤٤.
(٢) تاريخ الطبري - ص:٤٤٤.
(٣) المرجع نفسه - ص:٤٤٤.
(٤) تاريخ الطبري - ج ٦ - ص:٤٤٤.

بدأ الجند يعبرون النهر مطاردين العدو المنهزم الذي أخلى مسرح القتال حيث انتصر المسلمون انتصاراً ساحقاً، إن ذلك الانتصار جعل أهل السغد والترك يهابون جيش المسلمين فتوجه ملكهم إلى أن أصبح بينه وبين قتيبة نهر بخارى وطلب منه الصلح ودفع الجزية فوافق قتيبة على ذلك وكتب معه معاهدة صلح تأكيداً لذلك.

غدر نيزك بقتيبة:

بعد فتح بخارى أخذ قتيبة ينظم أمورها في مختلف المجالات السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية ثم عاد إلى مقر قيادته الرئيسي؛ وفي الطريق تحدث نيزك مع بعض مستشاريه يخبرهم بأنه على خلاف مع قتيبة وما هو آمن ومن معه منه ثم أخبرهم أنه نوى الغدر به لأنه غير جدير[٢] بأن يستمر معه حيث لا فائدة من الاستمرار. إن نيزك عندما جال تفكيره في ذلك، كان الغدر يجول في نفسه أولاً، ولا شيء سوى الغدر، ثم ضعفه وحسده لقتيبة وما حققه من انتصارات، وضعف إسلامه حيث لم يشكل عنده عقيدة راسخة.

بعد أن امتلاءت نفس نيزك من قتيبة بالحقد طلب منه العودة إلى تخارستان فوافقه وهو على ثقة منه حيث سار مسرعاً في سيره، حتى دخل شعب خلم وهناك، وبعد تعبئة بسيطة لمن معه ولسكان تلك المنطقة أعلن تمرده، وبدأ يعد جيشاً يرد به على قتيبة فأرسل إلى اصبهبذ بلخ، باذام ملك مرووز - سهرب ملك الطالقان - ملك الفارياب. الجوزجاني ملك الجوزجان. يدعوهم في هذه الرسائل ويعرض عليهم خلع قتيبة، وإذا وافقوا على ذلك عليهم أن يعملوا على تنظيم جيوشهم وحشدها وتجميعها، وقرر سبق قتيبة بهجوم مفاجيء فى بداية الربيع لكن هذا الإستعداد لم يكن دقيقاً ولا منظماً وغير باعث على الثقة من نيزك.

فها هو يطلب إلى كابل شاه أن يقبله لاجئاً سياسياً إذا هو خسر الحرب مع المسلمين، وأرسل له أمواله وعتاده تأكيداً على ذلك، وأخذ ملك تخارستان جبغويه وكان ضعيفاً فقيده وعزله وفرض عليه إقامة جبرية مع حراسة مشددة، الغاية من تصرفه منع أهل تخارستان من الشغب ضده[٢]. وعمد إلى اخراج عامل قتيبة من البلاد.

---

(١) يقول نيزك: إن العربي بمنزلة الكلب، إذا ضربته نبح، وإذا اطعمته بصبروا تبعك، وإذا غزوته ثم اعطيته شيئاً رضي، ومتى صنعت به،

(٢) كان نيزك من فروسيين حبقويت.

بلغ قتيبة ذلك، والوقت شتاء، والجند موزعة، لم يكن معه منها إلا أهل مرو، فقرر أن يبعث أخاه عبد الرحمن بن مسلم إلى بلخ في جيش قوامه إثني عشر ألفاً[١]، وقال له: بألا يترك ذلك المكان حتى نهاية الشتاء، وفي بداية الربيع يزحف نحو تخارستان.

سار عبد الرحمن فوصل هدفه، أما قتيبة فكتب إلى ملوك (ابرشهر - بيورد - سرخس - أهل هراة) وأمرهم أن يعدوا جيوشهم ويقدموا بها قبل الوقت الذي كانوا يقدمون عليه دائماً.

وعندما استكمل قتيبة عدته، عبأ جنده، وسار بهم إلى مرو الروز، وعندما علم مرزبان مروروذ بقدومه هرب إلى بلاد الفرس فأخذ قتيبة ابنين له فقتلهما وصلبهما ثم زحف إلى الطالقان فصالحه أهلها ثم أعدم بها مجموعة من اللصوص، الغاية من ذلك ردع كل تمرد يظهر في المنطقة وسار إلى الفارياب فعقد معاهدة صلح مع ملكها.

واستمر المسلمون في تقدمهم فبلغ ذلك صاحب الجوزجان فهرب إلى الجبال، فصالحه أهلها، وزحف إلى بلخ، ومنها أخذ يزحف نحو أخيه عبد الرحمن إلى شعب حلم. أما نيزك فحشد جنده في بغلان ووزع بعضهم في القلعة وبعضهم الآخر عند مدخل القلعة وعلى المضائق المؤدية إلى داخلها لمنع التسرب منها، وحمايتها، وبقي مع بقية الجند داخل القلعة لحمايتها، أما قتيبة فوقف أمام مضيق القلعة يقاتل حاميتها أياماً ودون نتيجة، وبينما هو يدرس طبيعة الأرض والموقف المتشكل حول القلعة الحصنة، ويفكر بحيلة يستطيع بواسطتها إيجاد مسالك للوصول إلى داخلها، أثناء ذلك قدم عليه ملك الرؤب وسمنجان[٢] وطلب منه الأمان والصفح لتمرده سابقاً مقابل تقديمه لقتيبة الخطة التي توصله لداخل المدينة فوافق قتيبة وأرسل معه بعض المقاتلين لتنفيذ إغارة على من يحمون مدخل القلعة ليلاً فحققت الغارة هدفها وأبادوا الحامية، فتمكن بعد ذلك قتيبة من الهجوم المباشر ودخوله القلعة ومنها إلى سمنجان عبر ممر جبلي فأقام بها أياماً ثم وجه أخاه عبد الرحمن لفتح فنج جاه.

بلغ نيزك الخبر، فتحرك على محور وادي فرغانة، ثم تحول فنزل الكرز، فتحشد فيها ونظم دفاعه عنها، وهي لا تؤتى إلا من اتجاه واحد، وعلى محور واحد.

---

(١) تاريخ الطبري - ج ٦ - ص:٤٤٦.

(٢) المرجع نفسه ج ٦ ص ٤٥٥

كان هذا المحور لا يصلح لتقدم الفرسان.. تقدم عبد الرحمن بن مسلم حتى وصل إلى حافة قريبة، ووصل أيضاً قتيبة، وحوصر نيزك، مدة شهرين ففقد كل ما في يده من تموين، وأصاب جنده مرض الجدري نتيجة عدم العناية الصحية بأنفسهم والناجمة عن ضعف معنوياتهم وقلقهم الدائم والمستمر، لكن رغم ذلك لجأ قتيبة إلى الحيلة فطلب «سليم الناصح» وأمره بالتوجه إلى نيزك ومفاوضته، وأمره أن يحتال عليه ويأتيه به بغير أمان إن استطاع وإلا بالأمان.. وهدده بالصلب إذا لم ينفذ ما أمره به. طلب سليم الناصح من قتيبة أن يأذن لاخيه عبد الرحمن بالموافقة على كل ما يطلبه منه، فكتب إلى عبد الرحمن بذلك، وذهب سليم الناصح إليه. فأخذ مجموعة مقاتلين وأمرهم أن يكمنوا على فم الشعب وأعطاهم تعليمات بوضع كمين على باب القلعة[1]. ثم خرج سليم الناصح إلى نيزك ومعه من الاطعمة ما يكفيه أياماً وتقابل معه فقال له: خذلتني يا سليم، قال ما خذلتك، ولكنك عصيتني وأسأت بنفسك، خلعت وغدرت، قال: فما الرأي؟ قال: الرأي أن تأتيه، فقد أمحكته[2] وليس ببارح موضعه هذا، قد اعتزم أن يستمر بمكانه، هلك أو سلم[3].

ثم إن سليماً دعا بالغداء الذي أحضره معه، فأكله الاتراك حيث لا يملكون طعاماً فأحزن ذلك نيزك وقال له سليم: «أرى أصحابك قد جهدوا وإن طال بهم الحصار، وأقمت على حالك، لم آمنهم أن يستأمنوا بك، فانطلق وآت قتيبة[4].

واستطاع سليم بدهائه أن يغرر بنيزك وبعض أتباعه، ويقدمهم إلى قتيبة عن طريق عبد الرحمن بن مسلم، بعد أن احتجز الكمين ما بينهم وبين أهل الشعب ثم أبلغ قتيبة الحجاج برسالة نيزك فأمره بقتله ومن معه.

ثم بلغ قتيبة أن ملك شومان طرد عامله، وألغى الصلح المتفق عليه، فسار إليه قتيبة بنفسه على محور طريق بلخ، ثم عبر شومان، عبر نهر بينهما.. أما شومان فقد تحصن بمدينته ووضع على أسوارها المجانيق، ثم جمع ما كان له من مال وجوهر ورماه في عين موجودة في وسط حصنه لا يدرك قعرها.

---

(١) تاريخ الطبري - ج ٦ - ص:٤٥٦.
(٢) المرجع نفسه - ص:٤٥٦.
(٣) اغضبته.
(٤) تاريخ الطبري - ج ٦ - ص:٤٥٦.

عندما بدأ الحصار ، خرج ملك شومان بعد تلك التعبئة وفتح أبواب المدينة فقاتل حتى قتل ، ثم فتح قتيبة مع أخيه كس ونسف فرياب[1] ثم عاد عبد الرحمن إلى قتيبة ببخارى ومنها إلى مرو .

(١) شمس المحترقة (الفريات).

فتح قتيبة لسمرقند

فتح قتيبة لسمرقند:

استدعى قتيبة أخاه عبد الرحمن وأمره بالتوجه نحو مرو قائلاً له: سر في الفرسان والرامية، وقدم الأثقال إلى مرو[1].

مضى عبد الرحمن بن مسلم بتنفيذ الأمر إلى أن جاءه كتاب قتيبة مساء يأمره بكتاب وجهه إليه يقول له فيه: «إذا أصبحت فوجه الأثقال إلى مرو، وسر في الفرسان والرامية نحو السغد واكتم الأخبار فإني بالأثر»[2].

بعد أن اطلع عبد الرحمن على أمر قتيبة، سار حيث أمره مستغلاً الوقت الذي لا يناسبه التحرك فيه إليهم، أما قتيبة، فجمع الناس، ووقف يحدد لهم سبب التحرك إلى السغد.

- بأن الوقت والفصل ما زال يساعدنا على التحرك إليها وهي شاغرة من المقاتلين.

- وملكها نقض العهد، الذي بيننا، فوالله ما صالح عليه وغدر، فمن نكث فإنما ينكث على نفسه[3]. وأمرهم بالاستعداد والمسير إليها.

وقدم قتيبة السغد، ومعه أهل خوارزم وبخارى في الوقت الذي سبقه عبد الرحمن بأربعة أيام ومعه عشرون ألف مقاتل، وبدأ الحصار في وصول قتيبة، فساء حال المحاصرين

---

(١) تاريخ الطبري - ج ٦ - ص:٤٧٢.

(٢) المرجع نفسه ص:٤٧٢.

(٣) سورة الفتح - الآية (١٠).

وكتبوا إلى ملك الشاش واخشاذ فرغانه يستمدونهم ويحذرونهم إن ظفر العرب بهم قدورهم قادم لا محالة، وطلبوا منهم المساعدة.

عندما وصلهم الخبر، انتخبوا من بينهم أبناء الملوك والعظماء - أقواهم وأشجعهم - ووجهوهم لفك الحصار عن السغد.

وجه قتيبة بن مسلم استطلاعه في كافة الاتجاهات عندما حاصر أهل السغد، لينذروه عن أي خطر يحدق به. فأخبره بعض قادة دورياته الاستطلاعية، عن بعض النجدات لأهل السغد.. رداً منه استدعى صالح بن مسلم فاختار له ستمائة مقاتل ووجههم على الاتجاه الخطر.

تحرك صالح بن مسلم بمن معه وأرسل دوريات استطلاعية على ذلك المحور، ولم يمض إلا وقت قليل حتى عادت الدورية وأخبرته أن عدوه سيصل إليه ليلاً فلما علم بذلك وزع جنده إلى ثلاث مجموعات.

مجموعتان تكمنان على جانبي المحور الذي تسير عليه قوة العدو، ووقف صالح على الطريق يحميه فلم يدركوا وجود صالح إلا وقد فاجأهم فهاجموه واستغلوا قلة ما معه من الجند، وبينما هم في قتال، خرج الكمينان من الجانبين فحاصروا العدو واشتد حصارهم فهزموهم وطردوهم وقتل أكثرهم.

إن ذلك الانتصار التكتيكي زاد من قدرة المسلمين على قتال عدوهم، وأعطاهم دفعاً جديداً، ثم إن قتيبة عبأ جنده، ونظمه لسمرقند، وبدأ برمي المنجنيق وهجوم المقاتلين حتى تم فتح المدينة عنوة.. وتم الصلح على ما يلي حيث يقول الطبري: « فصالحهم من الغد على ألفي ألف ومائتي ألف في كل عام، على أن يعطوه تلك السنة ثلاثين ألف رأس. ليس فيهم صبي، ولا شيخ، ولا عيب » من هنا يتضح لنا، كيف كان المسلمون يعيدون بناء قواتهم المسلحة ويعبؤونها. في معسكرات، وكيف تكمن قدرتهم وباستمرار، على الجابهة.

واتخذ قتيبة المدينة، مكاناً يقيم الجند فيها، ثم توجه إلى كاشغر وغزا الصين.. في تلك الأثناء توفي الوليد بن عبد الملك(١)، واستخلف سليان فكتب إليه يهنئه بالخلافة ويعزيه بوفاة الوليد، ويخبره فيه ويذكره بطاعته لأبيه وأخيه من قبله. ثم يحذره بألا يعزله عن خراسان، وله عليه حق الطاعة.

---

(١) سنة ٩٦ هـ.

ثم كتب كتاباً ثانياً يذكر له فيه ما فتح الله على يديه ويذم في كتابه هذا المهلب ويهدده بخلعه إذا هو استعمله، وفيه يذكر كيف أن ملوك العجم تهاب سطوته وتخشاه.

ثم كتب كتاباً ثالثاً يحدد فيه خلعه سليمان بن عبد الملك.

أرسل قتيبة بمجموع هذه الكتب إلى الخليفة، حيث يذكر الطبري أن قتيبة قال لرسوله: «ادفع هذا الكتاب، فإن كان يزيد بن المهلب حاضراً، فقرأه ثم ألقاه إليه، فادفع إليه هذا الكتاب، فإن قرأه وألقاه إلى يزيد فادفع إليه هذا الكتاب فإن قرأ الأول ولم يدفعه إلى يزيد فاحتبس الكتابين الآخرين»[1]. إن سعي قتيبة مع الحجاج ببيعة عبد العزيز بن الوليد هو الدافع لكتابة هذه الرسائل إلى سليمان بن عبد الملك، وخوفه من أن يعزله عن خراسان ويولي بدلاً عنه يزيد بن المهلب وهو من المقربين إلى سليمان بن عبد الملك.

أخذ الرسول الكتب إلى الخليفة، فقرأ الكتاب الأول وسلمه ليزيد، ثم قرأ الثاني وسلمه ليزيد، أما الكتاب الثالث، فيذكر الطبري «إنه دعا بطبق ففتحه ثم أمسكه بيده...»

ثم إن الخليفة دعا برسول قتيبة في المساء وأعطاه مالاً كجائزة وأرسل من عنده يحمل إليه عهداً له على خراسان، سار الإثنان حتى حلوان وهناك جاءهم الخبر بخلع قتيبة سليمان ابن عبد الملك، فرجع رسول الخليفة وسلم رسول قتيبة بالعهد من الخليفة إليه.

عند ذلك استشار إخوته، فقال له عبد الرحمن:

«إقطع بعثاً، ووجه فيه كل من تخافه، ووجه قوماً إلى مرو، وسر حتى تنزل سمرقند، ثم قل لمن معك، من أحب المقام فله المواساة، ومن أراد الانصراف فغير مستكره ولا متبوع بسوء، فلا يقيم معك إلا مناصح، وقال له عبد الله: اخلعه مكانك، وادع الناس إلى خلعه، فليس يختلف عليه رجلان...»[2].

بعد هذه الإستشارة والتفكير فيها، وتقدير موقفه، أخذ رأي عبد الله فخلع سليمان ودعا الناس لخلعه فقال في ذلك: إني قد جمعتكم من عين التمر، وفيض البحر، فضممت

---

(١) تاريخ الطبري – ج ٦ – ص:٥٠٨.

(٢) تاريخ الطبري – ج ٦ – ص:٥٠٦.

الأخ إلى أخيه، والولد إلى أبيه، وقسمت بينكم فيئكم، وأجريت عليكم أعطياتكم غير مكدرة، ولا مؤخرة، وقد جربتم الولاة قبلي، أتاكم أمية[1]، فكتب إلى أمير المؤمنين أن خراج خراسان لا يقوم بمطبخي، ثم جاءكم أبو سعيد[2] فدوم بكم ثلاث سنين لا تدرون أفي طاعة أنتم، أم في معصية، لم يجب فيئاً، ولم ينكأ عدو، ثم جاءكم بنوه بعده يزيد، فحل تبارى إليه النساء، وإنما خليفتكم يزيد بن ثروان هبنقة القيسي[3] أراد قتيبة من ذلك تعبئة نفوسهم بالحقد والكراهية، على فترة زمنية مرت عليهم كما يصورها كانت غير صالحة لهم، يحثهم على الاستجابة له ويذكرهم بالولاة السابقين له معدداً لهم ذاكراً مساوئهم وفعلته فيهم، غايته الاستجابة له وخلع الخليفة إلا أن تصوره كان عكسياً فلم يستجب له أحد وأجمع بعضهم على خلافه وخلعه، وقررت بعض القبائل على تولية وكيع أمر قيادتهم في الرد على قتيبة وقد قبل ذلك وبايعه الناس سراً وبلغ هذا الخبر قتيبة، فدعا إليه وكيع فتمارض وكيع ولم يذهب، وكانت نهاية قتيبة في خراسان، على يد وكيع سنة ستة وتسعين، وولي يزيد بن المهلب على خراسان فيما بعد سنة سبع وتسعين.

---

(١) هو ابن عبد الله بن خالد بن اسيد بن أبي العاص بن أمية عامل عبد الملك على خراسان قبل قتيبة.

(٢) المهلب بن أبي صفرة (كنيته).

(٣) تاريخ الطبري - ج ٦ - ص:٥٠٩.

فتح بلاد السند

فتح بلاد السند:

استهل الحجاج النشاط الحربي في المشرق بتعيين قتيبة بن مسلم والياً على خراسان، وقد ذكرنا ذلك.

وفي الوقت نفسه بعث الحجاج بجيش آخر يقوده صهره وابن عمه محمد بن القاسم الثقفي لفتح بلاد السند كذلك، أي أن الفتوحات العربية الإسلامية في العهد الأموي تجاوزت بلاد الهند وآسيا[1].

يذكر البلاذري[2] أن السند سكنتها قبائل مجهولة الأصل تمثل الزط، والسيابجة والطفوق، حيث كانت هذه القبائل تعمل كجند مرتزقة في الجيش الفارسي.

كان لسكان هذه البلاد ديانة قديمة عرفت بالبرهمية[3] كما عرفت عندهم الديانة البوذية. عندما جاء العرب المسلمون كان عامل البحرين وعمان متلهفاً على الغارة نحو الهند، فأرسل حملة في سنة ١٥ هـ - ٦٣٦م مما أغضب الخليفة[4].

ثم ازداد اهتمام العرب ببلاد السند منذ أن سيطروا على مكران في شرقيها وكانوا يغزون السند أحياناً من ناحية مغارة سجستان الواقعة شمال مكران.

---

(١) تقع شرق إيران على ساحل بحر الهند وهي عبارة عن مدخل لقارة الهند.
(٢) البلاذري - فتوح البلدان - ص:٣٧٢.
(٣) اليعقوبي - ج ١ - ص:١٠٠.
(٤) البلاذري - فتوح البلدان - ص:٤٣١-٤٣٢.

كانت أغلب غارات العرب على بلاد القيقان من أرض السند[1] وأشهر من غزا نواحي السنـد في أيام معاوية المهلب بن أبي صفرة، لكن حد من نشاط العرب عن هذه الفتوحات في هذا الاتجاه موت معاوية وانشغال العرب بالفتن والثورات.

ومهما تعددت الأسباب لغزو بلاد السند، فإن خطة غزوها كانت مدبرة لاستكمال الفتوحات في الشرق. حيث أرسلت الحملة البرية تدعمها القوى البحرية وكانت هذه الحملة مجهزة بكل ما يحتاج إليه الجند[2] من الأبر والخيوط والخل، كما حملت القوى البحرية معها آلات حربية كبيرة مثل المنجنيق الذي كان يديره ساعة الرمي خمسمائة مقاتل.

كان قائد هذه الحملة كما ذكرنا محمد بن القاسم الثقفي، حيث سار من مكران فتجاوزها شرقاً حيث توجه إلى الديبل، وهو ميناء ساحل بحر الهند[3] حيث وافته القوة البحرية فتمكن من فتح الميناء، وذلك بعد أن جاءته خطة مكنته من ذلك أرسلها الحجاج إليه، لأن محمد بن القاسم كان على اتصال مستمر مع الحجاج، أي أنه كان يقدم له تقريراً كل ثلاثة أيام[4].

توجه محمد بن القاسم إلى شمال الهند حيث انضم إليه عدد من قبائل الزط[5] وعندما بلغ ملك السند واسمه داهر زحف محمد نحوه، أخذ يستعد، فجمع جيشاً قوياً مزوداً بالفيلة، حيث تقابل الطرفان[6] وانتصر محمد بن القاسم على ملك السند، بعد أن استخدم النفط في القضاء على الفيلة وقتل ملكهم داهر، ودخل محمد بن القاسم عاصمتهم ثم أخذ يتوغل في شمال السند إلى مدينتين بيلمان[7] وقندهار واستمر حتى وصلت فتوحاته إلى كشمير. كانت فتوحات محمد بن القاسم لبلاد السند ذات أهمية تاريخية حيث وصل إلى ماعجز عنه. ولم يتجاوزه في العصر الأموي أحد بالإضافة لأهمية هذه الفتوح من الناحية

---

(١) ابن الأثير – الكامل في التاريخ – ج ٣ – ص:٢١٨.
(٢) البلاذري – ص:٤٣٦ – الكامل في التاريخ – ابن الأثير – ج ٤ – ص:١١١.
(٣) معجم البلدان – ج ١ – ص:٢٠٢ – ج ٤ – ١٨٨.
(٤) فتوح البلدان – ص:٤٣٧.
(٥) المرجع نفسه – ص:٤٣٨.
(٦) فتوح البلدان – ص:٤٣٨ – الطبري – ج ٦ – ص: – معجم البلدان – ج ٤ – ص:٢١٤.
(٧) ابن الأثير – ج ٤ – ص:١٣٣.

الإقتصادية نظراً لما حصلوا عليه من الذهب من المناطق التي فتحوها.. حيث قدر أن ما حصلوا عليه من هذه البلاد تجاوز النفقة[1] التي صرفت على سير هذه الحملة من بدايتها حتى نهايتها، كما استفادوا من جوانب[2] أخرى أيضاً.

وكان لهذه الفتوحات أهمية عسكرية إذ انضم كثير من الزط وتم استخدامهم في عدة مجالات كانت العسكرية أحدها.

---

(١) ابن الأثير - ج ٤ - ص:١١٢.

(٢) فتوح البلدان ص:٣٧٥.

فتح الأندلس

فتح الأندلس:

كان عقبة بن نافع قد اختط قيروان أفريقيا وبنى حصنها عندما كان عاملا لعبد الله ابن سعد في فترة خلافة عثمان بن عفان ثم تابع فتوحاته ففتح ما خلفها حتى بلغ تونس ثم خرجت فتنة عثمان، فانقطعت الصوائق عن أفريقية واشتد أمر البربر.

عندما انتهت الفتنة عادت الصوائق حيث استقامت أفريقية حتى غزا عقبة بن نافع سنة (٦٣ هـ) طنجه فلقيته قبيلة للبربر يقال لها(١) أوزبة فهزموا أصحابه واستشهد ثم حدثت ثورة ابن الزبير وغيرها فتفرغ عبد الملك بن مروان لها حتى كانت خلافة الوليد.

دعا الوليد موسى بن نصير وولاه أفريقية فدخلها(٢) فلما قدمها وكان أحد الولاة واسمه صالح من قبل حسان(٣) في أفريقية. أخرج أهل القوة والجلد ووجه على مقدمته طارق بن زياد وأخذ يقاتل البربر ويفتح(٣) مدنهم حتى بلغ طنجه وهي عاصمتهم فافتتحها وأسلم أهلها ثم اختطها قيروان للمسلمين(٤) وأسكنهم إياها ثم كتب بذلك للوليد سنة (٩٩ هـ).

توجه موسى بن نصير على شاطىء المتوسط يفتح مدنه علماً أن ملك الأندلس كان قد

---

(١) مؤلف مجهول - أخبار مجموعة في فتح الأندلس.

(٢) لم يخرج له جند من أهل الشام وإنما اكتفى بجنود مصر وأفريقيا (مؤلف مجهول ص:٤).

(٣) ابن الأثير - ج ٤ - ص:٥٣٩.

(٤) مؤلف مجهول ص:٤.

(*) أبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم - فتوح مصر وأخبارها تصوير بغداد - ١٩٣٠ - ص:٢٠٤.

غلب عليها وعلى ما حولها وأهم هذه المدن كانت سبته[1] وعليها آنذاك يليان فتقاتل مع موسى بن نصير فتراجع يليان إلى طنجه حيث لم يستطع المقاومة علماً أن الامدادات والمؤن كانت تأتيه من الأندلس بالإضافة لجباية البلاد.

أثناء ذلك هلك ملك الأندلس واسمه غيطشة وكان له ولدان هما: ششبرت وأبه[2] فاضطرب أمر البلاد حول من يملكوه عليهم حتى تراضوا على أحد قوادهم واسمه رذريق إلا أنه لم يكن من بيت الملك.

كان من عادة ملوك الأندلس أنهم يبعثون أولادهم الذكور والإناث إلى مدينة طليطلة ليكونوا في خدمة الملك[3]، فإذا بلغوا الحلم أنكح بعضهم بعضاً وتولى تجهيزهم.

كان ليليان ابنة عند رذريق فأعجبته وتزوجها فعندما علم والدها بذلك غضب وكتب إلى موسى بن نصير بالطاعة واستدعاه إليه فدخل جزيرته وكانت تسمى الجزيرة الخضراء بعد أن أخذ منه عهداً له ولأصحابه.

ثم وصف لموسى بن نصير الأندلس ودعاه لفتحها سنة (٩٠ هـ) فكتب موسى للوليد بذلك فرد عليه «خضها بالسرايا حتى تختبر ولا تغرر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال»[4].

أكد الوليد لموسى كيف يجب أن ينفذ هدفاً تكتيكياً يستنتج منه صدق يليان، هذا من ناحية ومن ناحية ثانية عدم التغرير بقواته في بحر شاسع واسع فهو بذلك يصنع مخططا تكتيكياً أولى.

تنفيذاً لما أمر الوليد بعث موسى بن نصير سرية يقودها أحد مواليه يقال له طريف في أربعمائة رجل معهم مئة فرس وأربعة مراكب فنزل على الجزيرة الخضراء (جزيرة الأندلس) فأصاب منها غنيمة ورجع سالماً.

ثم دعا طارق بن زياد وكان على مقدمات جيوشه فبعثه في سبعة آلاف من المسلمين

---

(١) عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد تالحكم - فتوح مصر أخبارها - تصوير بغداد عن طبعة ١٩٢٠ ص:٢٠٥.

(٢) مؤلف مجهول ص:٥.

(٣) ابن الأثير - ج ٤ - ص:٥٦٢.

(٤) مؤلف مجهول - أخبار مجموعة في فتح الأندلس - ص:٦.

أكثرهم من البربر والموالي، وأقلهم من العرب فساروا في البحر في أربعة سفن لا يملكون غيرها[1]. حتى نزلوا جبلاً في البر فسمي هذا الجبل باسم طارق إلى الآن واستمر في الصحراء ففتح الجزيرة الخضراء حيث يذكر أنه رأى رؤيا أنه يفتح الأندلس كما أن عجوز حدثته عن أوصافه وأنه سيفتح البلاد[2].

قد يكون اندفاع طارق بعد مفارقته الحصن الذي بالجبل في بلاد الأندلس ناتجاً عن هذه الأحداث وفي قمتها رؤية النبي وحديث العجوز[3] مما جعله يثق بنفسه وبقيادة جنده وهذا هدف آخر أضيف إلى وجود يليان في جواره حيث يعرف وعورة البلاد ويتجسس لصالحه ضد ملوك الأندلس.

لقد كانت استراتيجية طارق تمتاز بالحركية لكنها كانت تحتاج للدقة والمهارة حيث كان هدف الاستراتيجية آنذاك بسيطاً ومباشراً ويتضمن البحث عن حركة سريعة.

عندما بلغ ملك الأندلس الجديد رذريق غزو طارق بلاده جمع جيشاً بلغ عدده كما تروي المصادر مائة ألف[4] وسار بهم نحو طارق، فلما علم طارق بهذا الخصم عن طريق جواسيسه كتب إلى موسى بن نصير يخبره بما فتح، ويطلب منه أن يمده حيث لا طاقة له بعدوه وهو على هذه الحالة وفي هذا العدد.

كان موسى بن نصير قد أخذ يصنع السفن حتى أصبح يملك أسطولاً لكن طارق بن زياد كقائد لجيشه قدر موقفه وموقف عدوه فأخبره بعجزه عن مقاومة عدوه لذلك كتب إلى

---

(١) مؤلف مجهول - أخبار مجموعة في فتح الأندلس - ص:٦.

(٢) يذكر ابن الأثير أن طارق رأى في منامه أن النبي ﷺ ومعه المهاجرين والأنصار فقال له النبي ﷺ تقدم يا طارق وأمر بالرفق والوفاء بالعهد ثم رآه يدخل الأندلس، فاستيقظ طارق مبشراً أصحابه برؤياه فقويت نفوسهم وارتفعت معنوياتهم في الحصول على النصر والظفر ويذكر أيضاً أنه أصاب عجوزاً في الجزيرة وحدثته عن زوجها أنه كان عالم بالأحداث فإنه أخبر أن أمير يدخل البلاد ضخم الهامة في كتفه اليسرى شامة عليها شعر وكان بطارق ما ذكرته العجوز (ابن الأثير - ج ٤ - ص:٥٦٢.

(٣) قد يكون طارق ابن زياد اخترع مثل هذه الأحداث حتى يقوي نفوس أتباعه ويجعل جهادهم وقتالهم ضد أعدائهم بشكل أفضل وذلك لمعرفته بهم.

(٤) ابن الأثير - ج ٦ - ص:.

مؤلف مجهول - أخبار مجموعة في فتح الأندلس - ص:٧ .

قائده يطلب المساندة فلقي طلبه القبول، حيث لا يؤثر على مجرى الامور العسكرية عند موسى ولا على القائد العام الوليد بن عبد الملك في مركز قيادته دمشق.

لذلك نرى موسى يرسل له خمسة آلاف في أسطوله الجديد ليصبح عدد المقاتلين معه إثني عشر ألف ومعهم يليان، فالتقوا على نهر لكه[1] ودارت الحرب مستمرة ثمانية أيام بترتيب قتال لكلا الطرفين.

إلا أن جيش الأندلس اعتباراً من قيادته لم يكن صفاً واحد، ولم يكونوا متعاونين مع القلب لأنه كان على ميمنته وميسرته ولدا الملك الذي كان قلبه وهم شتبرت وأبه أبناء غيطشة[2] حيث اتفقا معاً على الهزيمة بغضاً لرذريق منطلقين من مبدأ أن العرب متى امتلأت أيديهم من الغنيمة عادوا إلى بلادهم وعاد الملك لهم.

في المخطط كسب استراتيجي لطارق ومن معه من نواحي متعددة، فطارق في قوة متماسكة قوية تدافع عن عقيدة، ومعنوياته مرتفعة وقيادة صحيحة سليمة ثقتها بالنصر والظفر شبه أكيد، الحقد من أبناء الملوك على الحاكم الحالي لأنه في رأيهم اغتصب الملك، وطمعهم بعودة الملك لهم.

وأخيراً قناعتهم بأن العرب إذا امتلأت أيديهم من الغنيمة عادوا إلى بلادهم.

هنا بدأت استراتيجية أكثر حيوية، إلا أن تصورهم كان عكسياً لفروق واضحة في التعبئة والاعداد لكلا القوتين المتصارعتين رغم فارق العدد وعندما وقعت الحرب انهزمت الميمنة والميسرة فهزم ملك الأندلس وغرق[3].

استمر طارق في فتح الأندلس مطارداً لهم إلا أنهم أعادوا تجميع قواتهم مرة أخرى في مدينة استجه، وبعد قتال عنيد انهزم جيش الأندلس نتيجة معنوياتهم المتحطمة من المعركة الأولى ولم يلق طارق مع قواته بعدها حرباً طويلة.

واعتبرت المعارك التي انتهت حاسمة، فلما فرغ طارق أشار عليه حليفه يليان بقوله له: «إذا فرغت من الأندلس ففرق جيوشك وسر أنت إلى طليطلة»[4].

---

(١) ابن الأثير – ج ٤ – ص:٥٥٦.
(٢) مؤلف مجهول – أخبار مجموعة في فتح الأندلس – ص:٨.
(٣) مؤلف مجهول – ص:٨.
(٤) مؤلف مجهول – ص:١٠.

وافق طارق بن زياد يليان في رأيه وفرق جيوشه، فبعث جيشاً إلى قرطبة بقيادة مغيث الرومي في بضع مئة فارس، وجيشاً إلى غرناطة وآخر إلى ملطية، وجيشاً إلى تدمير، وسار هو يريد طليطلة فدخلها فوجدها خالية لأن أهلها كانوا قد لحقوا بمدينة خلف الجبل يقال لها مائده، فالجيش الذي سار إلى قرطبة، دلهم راعي على ثغرة فوق باب السور وهو باب القنطرة، وقال لهم لقد رحل عنها عظماء أهلها إلى طليطلة ولم يبق فيها إلا ملكها في أربع مئة من حماتهم مع ضعفاء أهلها ثم دخلوها فملكوها. حيث هزم الملك مع من معه من بابها الغربي المسمى باب اشبيليه وملكوا الراعي[1]. أما الجيش الذي قصد تدمير فحقق غايته بعد قتال شديد اشتركت فيه النساء علماً أن سائر الجيوش الأخرى التي وجهها طارق كانت قد حققت غايتها أيضاً ووافت طارق إلى طليطلة.

أما طارق عندما توجه إلى طليطلة فقد مر بوادي الحجارة عبر فج فيه سمي باسمه فوصل إلى مدينة المائدة[2] الكائنة خلف الجبل فوجد فيها مائدة يذكر أنها لسليمان بن داوود فغنمها مع غنائم أخرى وزحف منها إلى طليطلة.

إن الانتصارات التي حققها طارق والميزات التي حصل عليها كانت نتيجة حركة استراتيجية قام بها بهدف القضاء على خصمه وسحق قواته والقضاء على جذور هذه القوات داخل البلاد كلها.

أما موسى بن نصير فقد اشترك في هذه الفتوحات فنزل[3] الجزيرة الخضراء سالكاً محوراً غير الذي سلكه طارق ومعه أدلاء يعرفون وعورة البلاد وأسرارها. غايته توسيع رقعة الفتوحات فسار إلى مدينة ابن السليم ففتحها ثم افتتح مدينة قرمونة واشبيلية وهي من أعظم مدن الأندلس وأعزها، ثم توجه إلى مدينة ماردة[4] فحاصرها ثم استولى عليها بعد أن كمن لهم وأخيراً عاد إلى الشام محملاً بالأموال والغنائم.

إن تحركات موسى جاءت بعد أن حقق طارق الانتصارات وامتص الصدمة الأولى

---

(١) ابن الأثير - ج ٤ - ص:٥٦٣.

(٢) سميت مدينة المائدة لأنه وجد فيها مائدة سليمان بن داوود من زبرجد خضراء لها ثلثمائة وخمس وسبعين رجلاً.

(٣) مؤلف مجهول - ص:١٥.

(٤) ابن الأثير - ج ٤ - ص:٥٦٤.

حيث قلت عزيمة أهل البلاد ومعنوياتهم وقدرتهم على القتال وعلى تحقيق أقل قدر ممكن مما يطلبون.

أما الجيش الذي يقوده طارق فقد حقق أكثر الأهداف التي تخدم الاستراتيجية من الفتح الواسع الناتج عن تحقيق الانتصارات الحاسمة في كل المعارك التي خاضها، ثم حصوله على غنائم ذات أثر في الحرب وخاصة في الجانب الاقتصادي لأن السلطة في دمشق كانت بحاجة إليها لخدمة السياسة ولتطور المجتمع وخدمته في مختلف النواحي.

إن نجاحا عسكرياً وسياسياً واقتصادياً ومعنوياً كهذا كان قادراً على قلب ميزان القوى في الصراع لصالح الأمويين.

أخيراً توجهت الاستراتيجية الأموية بالانتصار الساحق للجيوش التي وجهها الأمويون في مختلف الاتجاهات، فالانتصارات التي حققها طارق بن زياد وقتيبة بن مسلم، ونصر بن سيار، رغم أن الكفة كانت في بداية القتال راجحة لصالح العدو كما لاحظنا وعلى الأخص عند لقاء طارق خصمه حيث قابله في إثني عشر ألف بينما كان عدوه رذريق في مائة ألف.

باب أخير

- أسباب انهيار الدولة الأموية

- الخاتمة

الخلافات الأولى قبل الإسلام: أسباب انهيار الأمويين:

لقد سبق الإسلام وفي الجزيرة خلافات يمكن أن نطلق عليها خلافات سياسية، أهم هذه الخلافات ما جرى في قريش وفي عهد قصي عندما قاتل صونه[1] وانتصر عليها ثم محاربته لبني خزاعة وبني بكر ثم التحكيم على أمر البيت ومكة، فكانت لصالح قصي، وهكذا استمر الخلاف على السلطة حتى انتهى الأمر لقصي، الذي قال لابنه البكر عبد الدار، «أما والله يا بني لألحقنك بالقوم، وإن كانوا قد شرفوا عليك، لا يدخل رجل منهم الكعبة حتى تكون أنت تفتحها له ولا يعقد لقريش لواء لحربها إلا أنت بيدك، ولا يشرب أحد بمكة إلا من سقايتك، ولا يأكل أحد من أهل الموسم طعاماً إلا من طعامك ولا تقطع قريشاً أمراً من أمورها إلا في دارك، فأعطاه داره دار الندوة[2] التي لا تقضي قريش أمراً من أمورها إلا فيها، وأعطاه الحجابة واللواء والرفاده والسقاية»[3].

إلا أن أبناء قصي اختلفوا من بعده فبني عبد مناف بن قصي (عبد شمس - هاشم - المطلب - موئلا ...) قرروا على أن يأخذوا من بني عبد الدار كل ما أعطاهم اياه قصي وحجتهم في ذلك أنهم أولى به لترفهم ومكانتهم في قريش.

---

(١) تاريخ الطبري - ج ٢ - ص: ٢٥٧.

(٢) الندوة: مأخوذة من النادي والمنتدى - هو مجلس القوم.

(٣) سيرة النبي ﷺ لابن هشام - ج ١ - ص: ١٤١.

نتيجة ذلك تفرقت قريش، وغاية ذلك التفرق البحث عن السلطة فكانت طائفة من قريش مع عبد مناف، وصاحب أمرهم آنذاك ابنه عبد شمس ومعهم من قريش:

- بنو أسد بن عبد العزي بن قصي، بنو الحرث بن فهر بن مالك بن النضر، بنو زهرة ابن كلاب بنو تيم بن مرة بن كعب.

وطائفة أخرى مع بني عبد الدار وصاحب أمرهم آنذاك عامر بن هاشم بن عبد مناف ابن عبد الدار، ومعهم من قريش بنو سهم بن عمرو بن هيص بن كعب بنو مخزوم بن يقظة ابن مرة، بنو جمع بن عمر بن هيص بن كعب بنو عدي بن كعب.

استمر الخلاف وعقد كل من عبد الدار وعبد مناف مع قوم كل منهم حلفاً فسمي بنو عبد مناف، حلف المطيبين[1] وسموا بذلك لأنهم أخذوا جفنة مملوءة طيباً ووضعوها في المسجد عند الكعبة، حيث وضع المتحالفون من بني عبد مناف أيديهم في الجفنة وتعاضدوا وتعاهدوا، ثم مسحوا الكعبة بأيديهم تأكيداً على التزامهم بما تعاهدوا عليه وتعاقدوا.

سمي حلف بنو عبد الدار الأحلاف وكان أيضاً بجانب الكعبة، ثم أن بنو عبد مناف عبئت حلفها ضد خصومهم الى أن تم الصلح بينهما بتوزيع السلطة، بحيث أصبحت لبني عبد مناف، متمثلة بهاشم السقاية والرفادة، ولبني عبد الدار الحجابة واللواء والندوة.

بذلك إنتهى الصراع في تلك المرحلة، إلا أن عمل هاشم في إطعام قومه الذي أثار حقد وحسد أمية بن عبد الشمس بن عبد مناف الذي عجز أن يصنع ما صنع عمه هاشم، فولد ذلك الحسد ودعوته الى المنافرة[2] فقبل ذلك بشروط.

ينافره على خمسين ناقة سود الحدق، تنحر بمكة، يأكل منها القاصي والداني، الجلاء عن مكة عشر سنين.

فربح هاشم وحصل على الشرط من النوق فذبحها بمكة وأكلها من حضر ذبحها وخرج أمية الى الشام وكانت أول عداوة وقعت بين هاشم وأمية كما أنه حدثت نفس الخلاف بين عبد المطلب بن هاشم وبن حرب بني أمية[3] وهكذا استمرت المنافسة عن السلطة الى ما بعد الرسول (ص).

---

(١) سيرة النبي ﷺ لابن هشام ج ١ - ص: ١٤٣.

(٢) تاريخ الطبري - ج ٢ - ص: ٢٥٣.

(٣) المرجع نفسه ص: ٢٥٣.

بعد الإسلام:

استطاع الرسول ﷺ بقدرته وبحكمته وبتطبيقه دستور الإسلام المتمثل بالقرآن الكريم أن يضع حداً لكل الصراعات السياسية في عصره أما بعد وفاته فعادت الصراعات السياسية الى حيز الوجود وعادت الخلافات القبلية أشد مما كانت عليه، وفي عصر الرسول ﷺ إنتهى الصراع الديني بانتهاء عبادة الأوثان، وكان إنتشار الإسلام وإعتناقه مبدأ وفكراً وعقيدة، فأولى الخلافات كانت سياسية هي:

الذي حدث في سقيفة بني ساعده[1] وكان ذو أثر عميق في نفوس المسلمين ويعتبره بعض المؤرخين إنعطافاً سياسياً في تاريخ الأمة الإسلامية فقراءة موضوعية لهذه الحادثة تؤكد ذلك وكان خلافاً على السلطة وأول خلاف وأهم خلاف ثم خلاف سياسي آخر بين أنصار الخليفة وبين أنصار بني هاشم ثم ارتداد بعض القبائل العربية في شبه الجزيرة العربية وتوجيه الخليفة الأول الجيوش إليها والتي تسمى في التاريخ الإسلامي حروب الردة وهذه أيضاً خلافات سياسية واضحة وكانت تدور حول سلطة الخليفة.

عندما بويع الخليفة أبو بكر في سقيفة بني ساعدة بعد صراع مرير اجتمع بنو أمية الى شيخهم عثمان بن عفان كما اجتمعت بنو زهرة الى سعد وعبد الرحمن، كما اجتمعت بنو هاشم الى علي بن أبي طالب إلا أن عمر وأبا عبيدة طافوا على هؤلاء الزعماء بدعوتهم الى بيعة الخليفة فوافقوا جميعاً وتأخرت بيعة علي بن أبي طالب ومن التزم معه على – أحقيته بتلك السلطة، حيث يرى فيه أصحابه أهلاً لذلك فهم يرونه أنه الأحق لأنه الأكثر علماً يؤكد لنا قوله في نهج البلاغة وعلمه وبلاغته واستشارة الخلفاء له فيما بعد، يؤكد ذلك المقولة المشهورة للخليفة الثاني عمر بن الخطاب لولا علي لهلك عمر.

إنه الأحق لأنه أبلى بلاء حسناً في مد وإنتشار الإسلام.

وله الأهمية الكبرى في السرايا والغزوات والفتوح التي قادها الرسول ﷺ إلا أن ذلك كان كما يرى معارضوه ما زال سيفه يقطر من دمائهم.

إنه الأحق لأنه الأسبق الى الإسلام والإيمان بقائد وزعيم الإسلام السياسي والروحي

---

(١) الطبري: ج ٣ – ص: ٢٠٣ وما بعدها – ابن الأثير – الكامل في التاريخ لابن الأثير – ج ٢ – ص: ٣٢٥.

محمد بن عبد الله ﷺ يقول أبو عبيدة بن الجراح تأكيداً على ذلك (فأنت لهذا الأمر خليف وحقيق في فضلك ودينك وعلمك وفهمك وسابقتك ونسبك وصهرك)[1].

إنه من قريش ولهم سابقة في الزعامة السياسية لقريش .

يضاف الى ما ورد ، ما يؤكده هو علي بن أبي طالب حين رأى أتباعه وهذه العوامل المساعدة تؤكد أحقيته في ذلك:

إنه ابن عم النبي ﷺ. زوج إبنته – والد النسل الباقي..

– إنه زعيم بني هاشم وأقدرهم رغم وجود بعض المشايخ مثل العباس وغيره.

وغيره وإذا كانت غاية الخلافة دينية فهي في رأيهم من حق علي وإذا كان من أهل بيته وخاصة أنه لم ينحرف قطعاً عما جاء به الرسول ﷺ وإنما كان ملتزماً إلتزاماً مطلقاً.

وهم يرون أيضاً كيف تكون عند الأمويين في الابن ولا تكون في ابن العم بعد الرسول ﷺ.

إنه أول من آمن بالرسول ﷺ وشد أزره.

كثرت أسباب عدم قدرة علي بن أبي طالب للسلطة في تلك المرحلة وكلها سياسية لا دينية وصفها المؤرخون فيما بعد إنكاراً للحقيقة. إلا أنه وافق ظاهراً كما حدث وانتهى مبدئياً تلك الخلاف ليظهر على المسرح السياسي مرة أخرى في عهده كما ورد.

هذا من جانب ومن جانب آخر الجدل الذي حدث في عهد عمر بن الخطاب حول السلطة وعلى رأس الذين أثاروا هذا الجدل طلحة بن عبيد الله، حيث كان يتطلع الى السلطة عقب وفاة الخليفة الأول وجادل الخليفة الأول قبل وفاته عندما استشار هيئة المهاجرين، وهو منهم في العهد لعمر بقوله له:

ماذا تقول لربك، إذا لقيته، وقد وليت علينا فظاً غليظاً[2]

ثم بعض الممارسات التي حدثت في عهد عثمان بن عفان، وما أحدثته من أحداث

---

(١) محمد عمارة الخلافة ونشأة الأحزاب الإسلامية – ط المؤسسة العربية للدراسات والنشر – ص:٨٢.

(٢) محمد عمارة – ص: ٩٣.

سياسية يذكر بعض المؤرخين ذلك على أنها إنحراف سياسي واضح، حيث طلب زعماء الأمة الإسلامية خلعه، كما هو إنحراف ديني[1].

ثم ما حدث في خلافه علي بن أبي طالب من خلافات كانت سياسية أكثر منها دينية وأدت الى حروب أهلية قاتل فيها المسلم أخيه المسلم ليس غاية هذه الحروب إعلاء كلمة الله أبداً، وإنما كانت سياسية تهدف السلطة. فقد خرجت عائشة وطلحة والزبير على علي بن أبي طالب في موقعه الجمل رغم مبايعتهم له وكانت بداية عملية الانهيار للدولة الإسلامية. ثم خرج معاوية على علي في بلاد الشام.

وكان الخروج سياسياً غايته السلطة أيضاً وانتهت بحروب أهلية آخرها موقعة صفين. والمقريزي يتحدث مطولاً عن هذا الموضوع حيث يجزم أن لا حق لبني أمية في الخلافة مطلقا كما يتحدث بنفس الموضوع يوليوس ولهارزن في كتابه الخوارج والشيعة ويؤكد ما ذكره المقريزي.

عندما لم يتمكن معاوية من الوصول الى السلطة السياسية بالقوة لجأ الى تعبئة النفوس نظرياً بالمظاهر الدينية وفي مضمونها سياسية، وإنتهى الصراع لصالح معاوية بن أبي سفيان الذي غير طبيعة الحكم في عهده واستمر من بعده.

ثم الخلافات التي صارت على عهد معاوية وبعض الثورات الداخلية ضده وهكذا تلاحقت الفتن وبدأ الإنقسام السياسي وأصبح منذ ذلك الحين الانقسام الذي حدث نتيجة إستلام المروانيين الحكم وإستلام عبد الله بن الزبير السلطة وخلافه على المروانيين في الحجاز[2] ثم القضاء عليه.

هكذا تستمر الخلافات السياسية التي قادها الخوارج فكانت جميعها ذات مضمون سياسي واضح ثم ظهور الدعوة العباسية بمظهر الدين وبمضمونها السياسي، غايتها الوصول الى السلطة، فكان لها ذلك وما إن تصل الى السلطة حتى تظهر غايتها ومضمون هدفها فتخرج على عقيدتها وتظهر أهدافها السياسية ولم تدم طويلا حتى تكثر الثورات .

---

(١) سيد قطب العدالة الاجتماعية - ص: ٢٦٩.

(٢) الكامل في التاريخ - ج٤ - ص: ٣٤٨.

يضاف الى ما ورد عملية الاغتيالات السياسية[1] إبتداء من العصر الراشدي وحتى نهاية الدولة الإسلامية، إن تلك الاغتيالات سببت إثارة النزعات والخلافات السياسية وأحياناً أخرى الى التمرد وفي النتيجة لم تخدم هذه الاغتيالات الدولة الإسلامية، أخيراً أن هناك عوامل متعددة سببت هذا الصراع الذي قلل من أهمية الدولة وأدى إلى إنقراضها.

الأسباب الرئيسية لانهيار الدولة:

لقد حاول البعض إظهار أثر العامل القومي في طلب معاوية بن أبي سفيان الإستقلال ببلاد الشام عن العاصمة المركزية في الكوفة من علي بعد أن نقلها من المدينة الى العراق ورفضه على ذلك الطلب كون بلاد الشام ولاية تابعة للحكومة المركزية وفي ذلك يظهر العامل القومي، فعلي يريد بقاء بلاد الشام والعراق ومصر وحدة قومية ذات قوة ومنعة وإستعداد دائم لرد كل هجمات من جانب الدولة القوية المتاخمة لتلك الدولة).

إلا أن معاوية لم يرض إلا باستقلال بلاد الشام وعاصمتها دمشق دون العراق، لكن هذه النظرة جزئية إلا إذا اعتبر العراق بلداً غير مسلم وغير عربي، لم يكن طلب معاوية من علي بن أبي طالب إلا كسب للسلطة، لم يكن إلا هدفاً سياسياً اتضح فيما بعد.

لقد تمزقت الدولة الإسلامية لفترة طويلة، وجهت فيها تعبئتها الى حروب أهلية قتل فيه المسلم بدلاً من توجيهها تجاه خطر يكمن على حدود هذه الدولة الموحدة.

ويظهر هذا الصراع مرة أخرى وبنفس الأسلوب حين ظهرت الدعوة العباسية في السنوات الأخيرة للدولة الأموية بعد حروب أنهكتها وشققتها وأضعفتها، ثم تتالت الانتكاسات حتى كان سقوطها .

إن المصالح الاقتصادية والمطامح الاجتماعية في مراحل من تاريخ الاسلام لعبت دوراً في التقليل من أهمية التعبئة. ففي عهد عثمان كتعيين الولاة مثل:

---

(١) أهم الذين تم اغتيالهم: الخليفة الراشدي الثاني - الخليفة الراشدي الثالث - الخليفة الراشدي الرابع - حتى ويذكر أن الخليفة الراشدي الأول مات مسموماً - ثم اغتيال مالك بن الأشتر - ومحمد - ومحمد بن أبي بكر - والحسن بن علي. وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد وغيرهم كثيرون.

معاوية بن أبي سفيان على دمشق – حمص – الأردن ثم كل بلاد الشام.

الوليد بن عتيبة على الكوفة (أموي).

عبد الله بن عامر على البصرة (أموي).

عبد الله بن أبي سرح على مصر (أموي).

مروان بن الحكم كاتباً لعثان ووزيره الأول.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى توزيع مال بيت الله في غير أهله أي أن عثمان لم يوزع أموال بيت الله على أهله ولا حق لهم فيه سوى غيرهم يؤكد ذلك ما جرى بين عثمان بن عفان وبين عبد الله بن الأرقم خازن بيت المسلمين. حينا قدم على عثمان عبد الله بن خالد ابن أسيد بن أبي العيص بن أمية ومعه ناس فأمر له عثمان بثلاثمائة ألف ولكل واحد منهم مائة ألف فاعترض الخازن على ذلك وسلم مفاتيح بيت مال المسلمين.

ثم إن عثمان بن عفان هو أول من أحدث الاقطاعات في الإسلام وكانت لبيت المال حيث فاز بنو أمية بأعظم هذه الاقطاعات كل ذلك دفع المستفيدين الى الصراع ضد علي ابن أبي طالب عندما أعلن عند إستلامه الخلافة إلغاء كل ما أحدثه عثمان والمطلع على كتب التاريخ بموضوعية يجد أن العامل الاقتصادي والاجتماعي في مقدمة العوامل التي سببت الصراع على السلطة وأدت الى إنهيار الدولة العربية الإسلامية.

ندركها في سقيفة بني ساعدة بين المهاجرين والأنصار وتزداد العصبية شراسة زمن عثمان بن عفان، وتتوضح في عهد علي في الصراع القائم على السلطة بين بني أمية ومن حالفهم وبين بني هاشم ومن حالفهم، وتستمر هذه العصبية في صراعات دامية طوال العصر الأموي كما حدث لعبد الملك وعبد الله بن الزبير. ثم الصراع بين القبائل العربية كقبيلة اليمانية والقيسية. ثم إحتقار الأمويين للموالي وظهورهم على مسرح السياسة أعداء للدولة الأموية.

أخيراً إن الحروب الأموية الخارجية لم تكن الغاية منها الفتح والتوسع بقدر ما كانت إشغال العصيان المسلح في الشرق والغرب بفتوحات بدلاً من أن يكون ضد السلطة المركزية في دمشق، يؤكد هذا ما فعله الحجاج بشعب العراق عندما جندهم ووجههم للقتال.

والحكم بعد عصر الرسول ﷺ والراشدين وأصوله كانت تفرض أحياناً القتال

كالوراثة في الحكم والاستبداد المطلق حيث يؤكد الطبري ذلك عندما يروي حين أخذ معاوية البيعة لابنه يزيد رغم معارضة زعامة قريش له يقول:

عندما أراد معاوية أن يبايع ليزيد كتب الى زياد يستشيره، فبعث زياد الى عبيد بن كعب النميري فقال: « إن لكل مستشير ثقة ولكل سر مستودع، وإن الناس قد أبدت[1] بهم خصلتان: إذاعة السر، وإخراج النصيحة الى غير أهلها[2] » وقد دعوتك لأمر اتهمت عليه بطون الصحف، أن أمير المؤمنين كتب الي يزعم أنه قد عزم على بيعة يزيد، وهو يتخوف نفرة الناس، ويرجو مطابقتهم، ويستشيرني وعلاقة أمر الإسلام وضمانة عظيم ويزيد صاحب رسله وتهاون: مع ما قد أولع به من الصيد[3].

إن معاوية عندما قرر أن يبايع لابنه بالخلافة خرج على أصول الحكم التي كانت سائدة في عملية إنتخاب الخليفة التي كانت تتم بدون إكراه ولا قسر، فيها وهو كما رأينا يستشير زياد في هذه البيعة وهو يعلم أن يزيد صاحب رسله وتهاون وولع بالصيد، إن هذه المواصفات كافية لفشل الحكم إذا استمرت، ثم يقول الطبري: « بايع الناس ليزيد بن معاوية غير الحسين بن علي وابن عمر وابن الزبير وعبد الرحمن بن أبي بكر وابن عباس »[4].

ورغم تلك المواصفات وهذه المعارضة من زعامة قريش فقد بويع بالخلافة قسراً وقهراً، أما سعيد بن العاص فقد قال لمعاوية عندما بايع لابنه وهو غير راضٍ مؤكداً بذلك قوله: « أما لقد اصطنعك أبي ورقاك حتى بلغت باصطناعه المدى الذي لا يجاري اليه ولا يسامي، فما شكرت بلاؤه، ولا جازيته بآلائه. وقمت على هذا يعني يزيد بن معاوية وبايعت له، والله لأنا خير منه أباً وأماً ونفساً »[5].

إن هذه المعارضة ناتجة عن تغيير في أصل الحكم الذي كان قائماً على أسس ديمقراطية قائمة على الانتخاب لمن يصلح ويصلح أمر الأمة الى عملية توريث سببت الحروب الأهلية في العراق والحجاز ومصر ومناطق أخرى من الدولة الإسلامية التي شتت شملهم وأثرت

---

(١) أخذ بهم.

(٢) تاريخ الطبري ج ٥ – ص: ٣٠٢.

(٣) المرجع نفسه ج ٥ – ص: ٣٠٢.

(٤) المرجع نفسه ج ٥ – ص: ٣٠٣.

(٥) تاريخ الطبري ج ٥ – ص: ٢٠٥.

على حكمهم حيث كان ضحيته مئات الألوف من القتلى «إن عدد الذين قتلهم الحجاج بلغ (١٢٠) ألف»[1] في حروب لا فائدة منها والتي كانت حرية العقيدة وعدم السماح بها سبب في جزء منها.

وفي أسباب إنحلال الدولة، الترف الجسماني: ويعني ضعف الجسم عن العمل والإنتاج، والأمم التي ينزع أبنائها الى الترف الجسمي وميلها الى الضعف والانحلال والفناء التدريجي، ومن ثم ضعف الأعداد والتعبئة لديها ومن ثم التسلط، وهذا مصير الدولة الأموية.

فمن البداية يجب أن يكون الحب والحرية والقوة والنظام الواجب تطبيقها، لأن الإسلام كما ذكرنا دين حق ولا بد لهذا الحق من قوة تحميه، قال تعالى: ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض﴾[2] ولا حياة للدين إلا في كنف الدولة.

ومن الأسباب الأخرى أيضاً الترف النفسي والعقلي: فالترف النفسي يسوق النفس وراء شهواتها ونزعاتها فلا تشعر بالمسؤولية، لذلك فالأمم التي يغلب الترف على نفوس أبنائها لا تلبث أن تنهار وتفقد إستقلالها وهذا ما حدث للأمويين لركونهم الى الدنيا وجهادهم في سبيلها، أما الترف العقلي فيعني الاتجاه بالعلم والانتاج الى الكماليات والانصراف عن المنفعة العامة والتقدم الانساني. فلا طموح إلا في سبيل الاعتداء والدمار والتسلط على الغير بغير حق والحرب التي تأتي على الحضارة كما حدث في حروب الإسلام الداخلية وبعض حروبهم الخارجية في المراحل الأخيرة.

فإذا طال الأمد على أمة هذه آفاتها دون أن يستيقظ أبناؤها لأدوائها وعلاجها قبل مواتها انهارت وضاع كيانها، كقوله تعالى: ﴿ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلهم الأمل فسوف يعلمون﴾[3] وكثيراً ما تكون الحوادث التي تصيب الأمم سبباً في بدء حياة جديدة تسبقها القوة والمنعة ولنا في قصص الغابرين أمثلة.

---

(١) فيليب حتي تاريخ العرب المطلوب - ج١ - ص:٢٧٢. . والجار.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٥١.

(٣) سورة الحجر: الآية ٣.

· ولو أن الأمويين عملوا على بعث الأمل وإحياء الأمجاد في نفوس أبنائهم وتحديد المثل العليا لحياة جديدة كريمة ثم تحديد وضعيتي القيادة والجندية في الأمة والالتفاف حول زعيم كفء ابان للناس دستوره الخلقي والعلمي، ومن ثم تكوين جيل جديد وإعداده للمستقبل إعداداً صحيحاً والسير به في طريق المحبة والأمل لكانوا تجنبوا الأسباب المؤدية الى العواقب التي وصلوا إليها.

فهرس المصادر والمراجع

أ - المصادر

١ - ابن الأثير - عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير - الكامل في التاريخ - طبعة بيروت - دار صادر - دار بيروت ١٩٦٥.

٢ - ابن الجوزي - أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي بن الجوزي المنتظم في تاريخ الملوك والأمم - نسخة مصورة عن طبعة دائرة المعارف العثمانية بعاصمة حيدرأباد الدكن.

٣ -ابن الطقطقا - محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقا - الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية - طبعة بيروت دار صادر ١٩٦٦.

٤ - ابن العبري - غريغور بوس الملطي - المعروف بابن العبري - تاريخ مختصر الدول - طبعة بيروت (دار المسيرة). بدون تاريخ.

٥ - ابن العديم - كمال الدين أبي القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله بن العديم زبدة الحلب في تاريخ - تحقيق الدكتور سامي الدهان - طبعة دمشق ١٩٥١.

٦ - ابن القفطي - جمال الدين أبي الحسن علي بن القاضي يوسف القفطي - أخبار العلماء بأخبار الحكماء - طبعة بيروت. بدون تاريخ.

٧ - ابن القلانسي - أبي يعلي حمزة بن القلانسي - ذيل تاريخ دمشق - طبعة بيروت ١٩٠٨.

٨ - ابن الوردي - زين الدين عمر بن الوردي - تتمة المختصر في أخبار البشر تحقيق أحمد رفعت البدراوي - طبعة بيروت. (دار المعرفة) ١٩٧٠.

٩ - أبي الفداء - عماد الدين اسماعيل أبي الفداء - المختصر في أخبار البشر - طبعة بيروت (دار المعرفة). بدون تاريخ.

١٠ - ابن بطوطة - عبد الله محمد بن إبراهيم اللواتي المعروف بابن بطوطة - رحلة ابن بطوطة - طبعة بيروت - دار صادر).

١١ - ابن تغري - بردى - جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردى الأتابكي - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب.

١٢ - ابن جبير - أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي الشاطبي البلنسي - رحلة بن جبير - طبعة بيروت ١٩٨٠.

١٣ - ابن حوقل - أبي القاسم بن حوقل النصيبي - كتاب صورة الأرض - (طبعة بيروت - دار مكتبة الحياة). بدون تاريخ.

١٤ - ابن خرداذبة - أبي القاسم عبيد الله بن عبد الله المعروف بابن خرداذبة - المسالك والممالك - تصوير بغداد. بدون تاريخ.

١٥ - ابن خلدون - عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي المغربي:

١ - تاريخ ابن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر طبعة ١٩٧١.

١٦ - مقدمة ابن خلدون. بدون تاريخ.

١٧ - ابن خلكان - أبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان - تحقيق الدكتور إحسان عباس - طبعة بيروت (دار الصادر) ١٩٧٨.

١٨ - ابن سيدة - أبي الحسن على بن إسماعيل النحوي اللغوي الأندلسي المعروف بابن سيده - المخصص - بطلب من (المكتب التجاري) بيروت.

١٩ - ابن شداد - عز الدين أبي عبد الله محمد بن علي بن إبراهيم بن شداد. الأعلاق الخطيرة في ذكر ملوك الشام والجزيرة - طبعة دمشق - ١٩٥٣.

٢٠ - ابن عساكر - أبو القاسم علي بن الحسن بن عبد الله الشافعي المعروف بابن عساكر تهذيب تاريخ دمشق الكبير - هذبه ورتبه عبد القادر بدران طبعة بيروت (دار المسيرة) ١٩٧٩.

٢١ - ابن عساكر - أبي القاسم علي بن الحسين بن هبة الله بن عبد الله الشافعي تاريخ مدينة دمشق - طبعة دمشق أربعة أجزاء تحقيق محمد أحمد دهمان ج - ١٠/ ١٩٦٣. - تحقيق شكري فيصل طبعة دمشق ١٩٧٧ - تحقيق سكينة الشهابي - مطابع الطرابيشي طبعة دمشق ١٩٧١ - تحقيق شكري فيصل روحيه النحاس - رياض مراد طبعة دمشق / ١٩٨٢.

٢٢ - ابن كثير - الحافظ بن كثير - البداية والنهاية - طبعة بيروت - مكتبة المعارف ١٩٧٧.

٢٣ - ابن منظور - محمد بن مكرم بن علي بن أحمد بن أبي القاسم بن حبقة بن منظور - لسان العرب المحيط - طبعة بيروت (دار لسان العرب).

٢٤ - ابن هشام - أبي محمد عبد الملك بن هشام - سيرة النبي ﷺ تصوير عن طبعة ١٩٣٧.

٢٥ - أبي الحكم أبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الحكم - فتوح مصر وأخبارها - تصوير بغداد عن طبعة لندن ١٩٢٠.

٢٦ - أبي زرعة - عبد الرحمن بن عمرو بن عبد الله بن صفوان المندي تاريخ أبي زرعة الدمشقي طبعة بيروت.

٢٧ - أبي هلال العسكري - الأوائل - طبعة دمشق ١٩٧٥.

٢٨ - الأربيلي - عبد الرحمن سنبط قنيتو الأربيلي - خلاصة الذهب المسبول مختصر من سير الملوك - يطلب من مكتبة المثنى ببغداد.

٢٩ - البلاذري - أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري - أنساب الأشراف - طبعة دمشق جزءان تصوير بغداد جزءان ح طبعة مصر

٣٠ - البلاذري - فتوح البلدان - طبعة بيروت.

٣١ - الأسنوي - جمال الدين عبد الرحيم الأسنوي - طبقات الشافعيين - تحقيق عبد الله الجبور - طبعة بغداد ١٩٧٠.

٣٢ - الأصفهاني - الكاتب - جريدة القصر وخريدة العصر - تحقيق شكري فيصل طبعة دمشق ١٩٦٨.

٣٣ - التلمساني - أحمد بن محمد المغربي التلساني - نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب تحقيق إحسان عباس طبعة بيروت ١٩٦٨.

٣٤ - البغدادي - الفرق بين الفرق - طبعة بيروت ١٩٧١.

٣٥ - الجاحظ - أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ - البيان والتبيين - تحقيق عبد السلام هارون - طبعة مصر ١٩٧٥.

٣٦ - الجندي - محمد سليم الجندي - تاريخ معرة النعمان - حققه عمر رضا كحالة - طبعة دمشق - مطبعة الترقي ١٩٦٣.

٣٧ - الحنبلي - أبي الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي - شذرات الذهب في أخبار من ذهب نسخة مصورة.

٣٨ - الحنفي - عبد الله محمود بن مودود الوصلي الوصلي الحنفي - الاختيار لتعليل المختار - طبعة مصر ١٩٥١.

٣٩ - الحميري - محمد بن عبد المنعم الحيري - الروضة المعطار في خبر الأقطار تحقيق إحسان عباس - طبعة مصر (مؤسسة ناصر) ١٩٨٠.

٤٠ - الدمشقي - أبي البغاء عبد الله بن محمد البدوي الدمشقي - نزهة الأنام في محاسن الشام - طبعة مصر ١٩٢٢.

٤١ - الدياربكرلي - حسين بن محمد بن الحسن الدياربكرلي - تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس - طبعة بيروت (مؤسسة شعبان).

٤٢ - الدينوري - أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري - عيون الأخبار طبعة مصر ١٩٧٣.

٤٣ - الدينوري - الإمامة والسياسة - تحقيق محمد طه الزين طبعة بيروت بدون تاريخ.

٤٤ - الدينوري - الأخبار الطوال - تحقيق عبد المنعم عامر تصوير بيروت عن طبعة ١٩٥٩.

٤٥ - الذهبي - أبو عبد الله شمس الدين الذهبي - كتاب تذكرة الحفاظ - طبعة بيروت.

٤٦ - السبكي - أبي نصر عبد الوهاب ابن تقي الدين السبكي - طبقات الشافعين الكبرى - طبعة بالأوفست - بيروت - دار المعرفة).

٤٧ - السمعاني - أبي سعيد عبد الكريم بن محمد بن منصور اليمني السمعاني الأنساب - تحقيق عبد الرحمن بن يحيى المعلمي - طبعة بيروت ١٩٨٠.

٤٨ - - السيوطي - الحافظ جلال الدين السيوطي - تاريخ الخلفاء - دار الفكر ١٩٧٤.

٤٩ - الشهرستاني - محمد بن عبد الكريم الشهرستاني -الملل والنحل - طبعة بيروت ١٩٧٥.

٥٠ - الطبري - ابن جرير الطبري - تاريخ الرسل والملوك - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - طبعة مصر ١٩٦٨.

٥١ - العمري - ابن فضل الله العمري - مسالك الأبصار في ممالك الأمصار - تحقيق أحمد زكي باشا - طبعة مصر - دار الكتب المصرية ١٩٢٤.

٥٢ - القرماني - أبي العباس أحمد بن يوسف الدمشقي الشهير بالقرماني أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ - طبعة بيروت عالم الكتب بدون تاريخ.

٥٣ - القزويني - زكريا بن محمد بن محمود القزويني - آثار البلاد وأخبار العباد طبعة بيروت (دار صادر).

٥٤ - القلقشندي - أبي العباس أحمد بن علي القلقشندي:
صبح الأعشى في صناعة الإنشاء - نسخة مصورة ١٩٣٠.

٥٥ - القلقشندي مآثر الأناقة في معالم الخلافة - تحقيق عبد الستار أحمد - بيروت طبعة بالأوفست ١٩٨٠.

٥٦ - الكتبي - محمد بن شاكر الكتبي - فوات الوفيات والذيل عليها - تحقيق الدكتور إحسان عباس - طبعة بيروت (دار صادر) ١٩٧٣.

٥٧ - الكندي - أبي عمر محمد بن يوسف الكندي - كتاب الولاه وكتاب القضاة - طبعة بيروت ١٩٠٨.

٥٨ - الماوردي - علي بن محمد بن حبيب البصري الماوردي - الأحكام السلطانية والولايات الدينية - طبعة مصر ١٩٧٨

٥٩ - المقدسي - أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي المعروف بالبشاري - أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم - تصوير عن طبعة ليدن!

٦٠ - المسعودي مروج الذهب - تحقيق شارل بلا - طبعة بيروت ١٩٧٤.

٦١ - المقريزي - تقي الدين أحمد بن علي المقريزي - الخطط المقريزية - المواعظ والأخبار بذكر الخطط والآثار - طبعت بالأوفست بيروت بدون تاريخ.

٦٢ - المقريزي - النزاع والتخاصم فيا بين بني أمية وبين هاشم - طبعة مصر ١٩٣٧.

٦٣ - النيسابوري - أبي منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري - يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر - تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد - طبعة بيروت - (دار الفكر). ١٩٧٣.

٦٤ - الهرثمي - مختصر سياسة الحروب - تحقيق عبد الرؤوي عوض - محمد مصطفى زيادة - طبعة مصر.

٦٥ - الواقدي - الواقدي فتوح الشام - طبعة بيروت المكتبة الشعبية. بدون تاريخ.

٦٦ - اليعقوبي - أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب ابن واضح الكاتب العباسي - تاريخ اليعقوبي - طبعة بيروت بدون تاريخ.

٦٧ - حمزة الأصفهاني - تاريخ سني ملوك الأرض - طبعة بيروت ١٩٦١.

٦٨ - سبط بن الجوزي - شمس الدين أبي المظفر يوسف بن قزاوغلي: مرآة الزمان في تاريخ الأعيان - مخطوط.

٦٩ - مؤلف مجهول - أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها - تصوير بغداد.

٧٠ - مؤلف مجهول أخبار الدولة العباسية وفيه أخبار العباس وولده - طبعة بيروت ١٩٧١.

ب - المراجع

٧١ - أسامة زكي زيد - صيدا ودورها في الصراع الصليبي الإسلامي - طبعة مصر ١٩٨١.

٧٢ - اسكندر معلوف - وادي القطوف - طبعة بيروت ١٩٠٨.

٧٣ - الحصني - محمد أديب آل تقي الدين الحصني - منتخبات التاريخ لدمشق - طبعة بيروت ١٩٧٩.

٧٤ - الحضرمي - محمد الحضرمي - محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية - الدولة الأموية - طبعة مصر ١٩٦٩.

٧٥ - الدباغ - مصطفى مراد الدباغ - الموجز في تاريخ الدول العربية وعهودها في بلاد فلسطين - طبعة بيروت ١٩٨١.

٧٦ - الدبس - يوسف الدبس - تاريخ سورية الدنيوي والديني - طبعة بيروت ١٨٩٣.

٧٧ - الزين - سميح وجيه الزين - تاريخ طرابلس - طبعة بيروت ١٩٦٩.

٧٨ - الشريقي - دكتور إبراهيم الشريقي - تاريخ العرب والإسلام منذ العصور القديمة - حتى العهد العثماني - طبعة دمشق.

٧٩ - الصيرفي - العطار - فيصل الصيرفي - نادر العطار - قلعة حلب - طبعة ١٩٥٤.

٨٠ - الغزي - كامل بن حسين بن مصطفى الحلبي الشهير بالغزي - نهر الذهب في تاريخ حلب - طبعة حلب ١٩٢٦.

٨١ - ظافر القاسمي - الحياة الاجتماعية عند العرب - طبعة بيروت ١٩٧٨.

٨٢ -ظافر القاسيمي - في الشريعة والتاريخ - طبعة بيروت ١٩٨٠.

٨٣ - المقداد - سليمان عبد الله المقداد - قلعة بصرى - دليل أثرى سياحي طبعة دمشق ١٩٧٦.

٨٤ - أمين - أحمد أمين:

٨٥ - أحمد أمين فجر الإسلام - طبعة القاهرة.

٨٦ - أحمد أمين - ضحى الإسلام.

٨٧ - أحمد أمين - ظهر الإسلام.

٨٨ - انستاس ماري الكرملي البغدادي - النقود العربية وعلم النميات - تصوير بيروت عن طبعة القاهرة ١٩٣٩.

٨٩ - أنور الرفاعي - النظم الإسلامية - طبعة دمشق ١٩٧٣.

٩ - باشا - الدكتور حسين باشا - الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار طبعة مصر (مكتبة النهضة المصرية) ١٩٥٧.

٩١ - باشا - محمد مختار باشا - التوفيقات الإلهامية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الإفرنجية والقبطية - طبعة القاهرة ١٩٧٩.
٩٢ - تدمري - محمد عبد السلام تدمري - تاريخ طرابلس - طبعة بيروت ١٩٧٨.
٩٣ - تاريخ طرابلس - طبعة بيروت ١٩٧٨.
٩٤ - تدمري - الحياة الثقافية في طرابلس - طبعة بيروت.
٩٥ - جواد علي - المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام - طبعة بيروت ١٩٧٦.
٩٦ - حسان علي حلاق - تعريب النقود في العصر الأموي - طبعة بيروت - القاهرة ١٩٧٦.
٩٧ - حسن - حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والإجتماعي طبعة مصر ١٩٧٢.
٩٨ - حسن - علي إبراهيم حسن - التاريخ الإسلامي العام - طبعة مصر مكتبة النهضة ١٩٧٢.
٩٩ - حسين محمود الشافعي - العملة وتاريخها - طبعة مصر ١٩٨٠.
١٠٠ - حمادة - محمد ماهر حمادة - الوثائق السياسية والإدارة العائدة للعصر الأموي - طبعة بيروت ١٩٨١.
١٠١ - خليل داؤود الزور - الحياة العلمية في الشام في القرنين الأول والثاني للهجرة - طبعة بيروت ١٩٧١.
١٠٢ - خير - صفوح خير - مدينة دمشق دراسة في جغرافية المدن - طبعة دمشق ١٩٦٩.
١٠٣ - داغر - أسعد داغر - حضارة العرب - طبعة مصر ١٩١٩.
١٠٤ - ريحاوي - عبد القادر ريحاوي - العمارة العربية الإسلامية وآثارها في سورية طبعة دمشق ١٩٧٩.
١٠٦ - عبد القادر ريحاوي - قلعة دمشق - طبعة دمشق ١٩٧٨.
١٠٧ - عبد القادر ريحاوي - مدينة دمشق - طبعة دمشق.
١٠٨ - زكار - سهيل زكار: تاريخ العرب والإسلام منذ ما قبل البعثة حتى سقوط بغداد - طبعة بيروت ١٩٧٥.

١٠٩ - زكار سهيل زكار - مائة أوائل - طبعة دمشق ١٩٨٠.
١١٠ - زكريا - أحمد وصفي زكريا: الريف السوري - محافظة دمشق - طبعة دمشق ١٩٥٥.
١١١ - أحمد وصفي زكريا - جولة أثرية في بعض البلاد الشامية - طبعة دمشق ١٩٣٤
١١٢ - زيدان - جرجي زيدان - تاريخ التمدن الإسلامي - طبعة بيروت.
١١٣ - زيدان جرجي زيدان - تاريخ العرب قبل الإسلام طبعة بيروت.
١١٤ - سليمان - أحمد السعيد سليمان - تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة - طبعة مصر -(دار المعارف) ١٩٦٩.
١١٥ - سمير شما - النقود الإسلامية التي ضربت في فلسطين - طبعة السعودية ١٩٨٠.
١١٦ - شلبي - أحمد شلبي - التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية - طبعة مصر ١٩٦٩.
١١٧ - صواف: صبحي صواف: قلعة حلب دليل سياحي - طبعة دمشق ١٩٦٧.
١١٨ - صواف - اقدام ما عرف عن تاريخ حلب من الألف الثالث حتى العهد السلجوقي طبعة دمشق ١٩٥٢.
١١٩ - شوقي - حريتاني - قلعة حلب دليل سياحي مختصر - طبعة دمشق.
١٢٠ - طلس - محمد أسعد طلس: تاريخ العرب - طبعة الأندلس - بيروت ١٩٧٩.
١٢١ - طلس - الآثار الإسلامية والتاريخية في حلب - طبعة دمشق ١٩٥٦.
١٢٢ - عبد المنعم ماجد - التاريخ السياسي - طبعة مصر ١٩٦٣.
١٢٣ - عبد العزيز سالم - تاريخ الدولة العربية - تاريخ العرب منذ عصر الجاهلية حتى سقوط الدولة الأموية - طبعة بيروت ١٩٧١.
١٢٤ - عدنان البني - خالد الأسعد - تدمرائريا - تاريخياً - وسياسياً طبعة دمشق ١٩٧٩.
١٢٥ - كامل محمود كامل - الدولة العربية الكبرى - طبعة مصر ١٩٦٦.
١٢٦ - كرد علي - محمد كرد علي - الخطط الشامية - طبعة دمشق ١٩٦٩

١٢٧ - كيالي - منير كيالي - الحمامات الدمشقية وتقاليدها - طبعة دمشق ١٩٦٤ .
١٢٨ - محمد أحمد باشميل - العرب في الشام قبل الإسلام - طبعة الفكر بيروت ١٩٧٣ .
١٢٩ - محمد عمارة - الخلافة ونشأة الأحزاب الإسلامية - طبعة بيروت ١٩٧٧ .
١٣٠ - نجده الخماش الإدارة في العصر الأموي - طبعة دمشق ١٩٨٠ .
١٣١ - أرتون - سيرتوماس - تراث الإسلام - تعريب جرجيس فتح الله طبعة بيروت - دار الطلبة ١٩٧٨ .
١٣٢ - بروكلمان - كارل بروكلمان - تاريخ الشعوب الإسلامية - ترجمة نبيه أمين فارس - منير بعلبكي - طبعة ١٩٧٤ .
١٣٣ - بدوي - أدوار بدوي: تاريخ الحضارات العام - عمر بن يوسف أسعد داغر فريد داغر - طبعة بيروت ١٩٦٥ .
١٣٤ - الفريد كومين - رأس الشمرة - آثار أوغاريت - ترجمة جبرائيل سعادة طبعة دمشق ١٩٥٤ .
١٣٥ - بعثة فرنسية منقبة - رأس الشمرة - ترجمة فهمي الدالاتي طبعة دمشق ١٩٨٠ .
١٣٦ - جورج الوفران - تاريخ التجارة منذ فجر التاريخ حتى العصر الحديث ترجمة هاشم الحسيني - طبعة بيروت بدون تاريخ .
١٣٧ - تيودر + تولدكه - أمراء غسان - طبعة بيروت ١٩٣٣ .
١٣٨ - حتي - فيليب حتي: تاريخ العرب الطوال - طبعة بيروت ١٩٦٥ .
١٣٩ - حتي - تاريخ لبنان منذ أقدم العصور التاريخة الى عصرنا الحاضر أنيس فريحة - طبعة بيروت ١٩٧٦ .
١٤٠ - حتي - خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى - طبعة بيروت ١٩٧٥ .
١٤١ - حتي - تاريخ سورية ولبنان وفلسطين - طبعة بيروت -
١٤٢ - ديورانت - ويل ديورانت - قصة الحضارة - ترجمة الدكتور زكي نجيب محمود وغيره - طبعة القاهرة - ١٩٧٣ .
١٤٣ - رشيد بقدونس ترجمة التاريخ العام - طبعة دمشق ١٩٠٤ .

١٤٤ - رينيه ديسو - العرب في سورية قبل الإسلام - ترجمة عبد الحميد الدواخلي طبعة مصر ١٩٥٩.

١٤٥ - رايس - دافيد تاليوت رايس - الفن الإسلامي - ترجمة الدكتور منير صلاحي - طبعة دمشق ١٩٧٧.

١٤٦ - زامباور - معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي - ترجمة طبعة مصر ١٩٥١.

١٤٧ - سوفاجيه - جان سوفاجيه - دمشق الشام لمحة تاريخية منذ العصور القديمة حتى العصر الحاضر - طبعة بيروت ١٩٣٦.

١٤٨كوتل - أرتس كوتل - الفن الإسلامي - ترجمة أحمد موسى - طبعة بيروت دار صادر ١٩٦٦.

١٤٩ - لوبون - غرستاف لوبون - حضارة العرب - ترجمة عادل زعيتر - طبعة مصر ١٩٦٩.

١٥٠ - لين بول -ستانلي لين بول - الدول الإسلامية - ترجمة محمد صبحي فرزات - طبعة دمشق ١٩٧٤.

١٥١ - فورمان بينز - الأمبراطورية البيزنطية - ترجمة حسين مونس - محمود يوسف - طبعة مصر ١٩٥٧.

١٥٢ -ولهاوزن - يوليوس ولهاوزن - الدولة العربية وسقوطها - ترجمة الدكتور يوسف العش - طبعة دمشق ١٩٥٦.

١٥٣ - ولهاوزن - يوليوس ولهاوزن - الخوارج والشيعة - ترجمة عبد الرحمن بدوي - طبعة مصر ١٩٥٨.

١٥٤ - هارولدبيك - جون فلير - الأزمنة والأمكنة ترجمة محمد السيد غلاب طبعة مصر ١٩٦٢.

١٥٥ - دائرة المعارف الإسلامية.

١٥٦ -مجلة الحوليات السورية.

فهرس الأماكن

ا

ب

ت

ن

هـ

و

ي

* * *

فهرس الاعلام

خ

د

ش

ص

ض

ط

ع

ن

هـ

و

ي

* * *

الموضوعات

الباب الأول

بلاد الشام قبل الميلاد

الفصل الأول

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الباب الثاني

التحرير العربي لبلاد الشام

الباب الثالث

الخلفاء الأمويون في دمشق

الباب الرابع

الثورات في العصر الأموي

الفصل الأول

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الباب الخامس

الحالة السياسية والاجتماعية والاقتصادية

الفصل الأول

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الباب السادس

الجيش الأموي

الفصل الأول

الفصل الثاني

الفصل الثالث

باب اخير

اسباب انهيار الدولة الأموية

الفهارس

* * *

إن بلاد الشام قبلة العالم ، ومحط أنظارهم وهي أيضاً قلبه النابض منذ القديم (بحكم موقعه الممتاز المتوسط) وهي ملتقى قارات العالم القديم ومركزاً حيوياً من مراكزه المشعة بالحضارة والمعرفة .

وإلى بلاد الشام يعود الفضل الأول بوجود الأبجدية وابتكارها ، والتي بواسطتها دونت أعظم الآداب العالمية ، هذا قبل الإسلام ، وفيما بعد أصبح ممثلاً بعاصمتها دمشق قاعدة للامبراطورية العربية الشهيرة التي امتدت بفتوحاتها إلى إسبانيا وفرنسا غرباً ، وإلى حدود الصين والهند شرقاً ، حيث كانت من حيث الاتساع والعطاء أفضل مما سبقها من امبراطوريات وبلاد الشام أيضاً ساحة حرب في زمن الحرب ، وطريقاً إلى السلام والأمن والاستقرار الاقتصادي في زمن السلم .

إذن إن مركز بلاد الشام كان وما زال مبعثاً للنور ، وعليه تتكالب القوى المتصارعة في العالم جاهدة أن تطفىء هذا النور وتحيله إلى نار تحرق مخلوق موجود على تراب هذا الوطن العظيم الكريم العطاء .

لذلك فالعرب في بلاد الشام وخارجه أمة وقومية مطالبون بالعلم والعمل لإنقاذ أنفسهم من المحنة الظالمة ، ويبعث هذه الأمة عربية واحدة ، ذات أمن واستقرار ذات رسالة إنسانية أخلاقية مبدعة مدى الحياة .

دار دمشق
للنشر
والتوزيع
والطباعة